المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى الجزيرة العربية

يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين



تأليف: جون لويس بوركهارت

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن

مراجعة: محمد صابر عرب

1210

ترحال فى الجزيرة العربية

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢١٠
- ترحال في الجزيرة العربية ج ١
- جون لويس بوركهارت
- صبري محمد حسن
- محمد صابر عرب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Travels in Arabia

Comprehending an account of those

territories in Hedaz

Which the Mohammedans regard as sacred

Vol . I

by : John Lewis Burckhardt

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

ترحال فى الجزيرة العربية

يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين

(الجزء الأول)

تـأليـــــف : جون لويـس بوركهارت

ترجمة وتقديم : صبـرى محمـد حسـن

مراجعـــة : محمـد صـابر عـرب



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس
- ترحال فى الجزيرة العربية ، يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين ، تأليف : جون لويس بوركهارت ، ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن ، مراجعة : محمد صابر عرب
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٣٠٨ ص ، ج ١ ، ٢٤ سم
١ - شبه الجزيرة العربية - تاريخ
(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)
(ب) عرب ، محمد صابر (مراجع)
(جـ) العنوان

٩٥٣,٠٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٤٣٦٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-387-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

إذا كان بالجريف قام برحلته فى عام كامل وأسفرت عن كتابه المعنون : "وسط الجزيرة العربية وشرقها" الذى يقع فى جزأين ، ومن بعده دوتى الذى أمضى عامين فى الجزيرة العربية، وأسفرا عن كتابه المعنون : "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية"، الذى يقع فى جزأين كذلك، ومن بعد بالجريف ودوتى يجىء فيلبى الذى أصدر كتاباً بعنوان : " قلب الجزيرة العربية"(*) فى جزأين أيضاً، فإن بوركهارت قد سبق كل هؤلاء فى العام ١٨١٠م ، وزار الجزيرة العربية ليؤلف كتابى: " تجوال فى الجزيرة العربية" فى جزأين ، و"ملاحظات عن البدو والوهابيين" فى جزأين أيضًا ، والذى لم ينشر إلا فى العام ١٩٢٨م .

ترحال فى الجزيرة العربية

أحد الكتب القيمة التى ألفها واحد من أدق الرحالة ، وأكثرهم علمًا ، فضلاً عن أنه أيضًا من الرحالة المحدثين الذين يشيعون الأنس والود فيما يكتبون .

الكتاب عبارة عن تاريخ للحجاز خلال عام ١٨١٠م ، أو إن شئت فقل إنه تاريخ للأرض المقدسة والمسلمين ، وهذه المنطقة لم تكن معروفة فى أوروبا فى زمن بوركهارت . كما يشمل الكتاب أيضًا وصفًا لمدينة مكة [المكرمة] ، والمدينة [المنورة]،

(*) هذه الكتب الثلاثة من منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة، وكلها ترجمة صبرى محمد حسن .

وينبع . والكتاب يستثير فضول قارئه إلى أبعد حد ممكن ، وبخاصة إذا ما عرفنا أن بوركهارت أقام فى تلك المدن على أنه مسلم بين أناس كان يعلم أن أحدًا من الرحالة لم يستطع أن يكتب أى شىء عنهم ، وبخاصة غير المسلمين الذين لم يكن مسموحًا ببقائهم في البلاد . هذا الكتاب كنت أبحث عنه منذ زمن طويل ، ولم أوفق إلا فى العثور على الجزء الثانى منه لدى كُتُبى عتيق يعيش خارج مصر .

يقسم بوركهارت الجزء الأول إلى اثنى عشر فصلاً ، أولها : الوصول إلى جدة. وثانيها : الطريق إلى الطائف . وثالثها : الإقامة فى الطائف . أما الفصل الرابع فقد اختار بوركهارت له عنوان : الرحلة إلى مكة . وأعطى الفصل الخامس عنوان : الوصول إلى مكة . وأطلق على الفصل السادس عنوان : وصف مكة . أما الفصل السابع فقد تناول الرجل فيه وصف أحياء مكة . وخصص الفصل الثامن لوصف بيت الله . أما الفصل التاسع فهو عبارة عن : بعض الملاحظات التاريخية عن الكعبة والمسجد المكى . والفصل العاشر : ملاحظات عن سكان مكة وسكان جدة . والفصل الحادى عشر خصصه المؤلف لحكومة مكة . وفى الفصل الأخير يتناول المؤلف مناخ وأمراض كل من مكة وجدة .

يقسم بوركهارت الجزء الثانى إلى عشرة فصول ، أولها بعنوان : الرحلة من مكة إلى المدينة المنورة . وثانيها بعنوان : المدينة المنورة . أما الفصل الثالث فعنوانه : وصف المدينة المنورة . اختار بوركهارت للفصل الرابع عنوان : مزارات المدينة المنورة. وأعطى الرجل الفصل الخامس عنوان : سكان المدينة المنورة . والفصل السادس يتناول : حكومة المدينة المنورة . والفصل السابع يقع تحت عنوان : سكان ومناخ وأمراض المدينة المنورة . والفصل الثامن عنوانه : رحلة من المدينة المنورة إلى ينبع . أما الفصل التاسع فقد اختار المؤلف له عنوان : ينبع ، أما الفصل العاشر فعنوانه : من ينبع إلى القاهرة .

يضاف إلى ذلك مجموعة الملاحق القيمة . التى ذيل بها المؤلف الكتاب .

مكانة بوركهارت بين الباحثين

فى عالم البحث والباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بمن جاءوا بعد بوركهارت ، لا نجد اسمًا من بين أسماء أولئك الذين استكشفوا الجزيرة العربية ، يستحق الثناء والتقدير أكثر من اسم بوركهارت ، وهو لا يستحق كل هذا الثناء والتقدير على كبر اكتشافاته وزخمها (على الرغم من ادعائه الأولوية فى كثير من الأمور) ، وإنما لأن ترحُّل هذا الرجل غطى مساحة أقل من المساحة التى غطاها نيبور . لم يواجه بوركهارت أخطارا كبيرة ، ولم يواجه صعوبات غير مسبوقة ، ولم يدخل فى مغامرات تثير الدهشة والعجب. كان إبراهيم بن عبد الله (بوركهارت) واحداً من تلك الجماعة الصغيرة صاحبة الحكمة الحكيمة، وواحداً من أولئك الرحالة المستبصرين الذين يمضون فيما يفعلون بسهولة ويسر ، فى الوقت الذى يكابد فيه رحالة آخرون المتاعب والمشاق ، ولا يعلمون شيئًا عن اللحظات المثيرة فى أرض يمكن أن تعمر بالمخاطر فى أى وقت من الأوقات . وإبراهيم بن عبد الله هذا يشهد ويقر أنه لم ينعم بالسلام والطمأنينة إلا عندما كان فى مكة ، كما يشهد ويقر أيضًا أنه لم يلاق فى الجزيرة العربية أحداثًا أسوأ من الأحداث التى يمكن أن تقع لعابرى السبيل أو الحجاج العاديين فى الحجاز ، ولولا الأمراض الكثيرة التى أصابت جسمه لسجل لنا ذلك الرجل رواية مثيرة . كان إبراهيم بن عبد الله (بوركهارت) ضليعًا فى الشريعة والأعراف الإسلامية ، ولم يكن ينكر أنه أوروبى ، ولكنه كان يدعى ادعاءً منطقيًا بأنه مرتد عن دينه ودخل فى دين الإسلام منذ بضع سنين ، وأن الرجل لم يفعل فى حياته اليومية أى شىء غير ذلك الذى يفعله أى رجل من الرجال المتعلمين المستنيرين أصحاب الدين ، كما كان الرجل يتكلم العربية بطلاقة ، وكانت لغته العربية سليمة ، يزاد على ذلك أن بوركهارت لم يهيئ الفرصة التى يمكن أن تمكن منه أيًا من الباشا المصرى الذكى ، أو أهل المدينتين المقدستين الواعين المتنبهين ، أو أولئك المتشددين الذين يتجمعون فى موسم الحج ، أو البدو الأجلاف الذين صادفهم على الطريق .

بقى أن نقول أن بوركهارت كان يحكم على الأمور من وجة نظره الميثولوجية المحدودة وهذا ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار.

فضل بوركهارت

الفضل المنسوب إلى بوركهارت لا يرجع إلى رؤية هذا الرجل لأشياء كثيرة فى الجزيرة العربية ، وإنما للأشياء الكثيرة التى وقف عليها فى هذا العدد القليل من الأشياء التى رآها ، وهذا راجع إلى رؤية الرجل الواضحة واستعداده الذهنى نتيجة دراسته للسلطات المحلية . عظمة بوركهارت لاتتجلى فيما هو جديد على العلم الغربى ، وإنما فى أنه صادق ولا يزال صادقا وحقيقيًا إلى الآن . كان بوركهارت الأول من بين رحالة الجزيرة العربية ، الذى فهم مسألة التزام المستكشف باستخدام التقصى بكل أنواعه وصنوفه ، كما أن قلة قليلة من المستكشفين هم الذين تركوا وراءهم شيئًا قليلاً لذلك الرجل الذى جاء بعدهم . يضاف إلى ذلك أن وصف بوركهارت لكل من جدة ومكة [المكرمة] إنما هو وصف موسوعى ، الثمرة الطيبة لعين متأنية وفاحصة لم تغمض مطلقًا عن الاهتمام بكل ما يتعلق بالبشر . وبيرتون عندما تحتم عليه تقديم روايته الخاصة لزيارته التى قام بها إلى العاصمة الدينية بعد ذلك بأربعين عامًا لم يكن أمامه أفضل من الاقتباس عن بوركهارت ، وعندما يجد بيرتون Burton ما يضيفه إلى الوصف الذى قدمه سلفه للمدينة [المنورة] ، فإن السبب فى ذلك يكون راجعًا إلى المرض الذى أصاب بوركهارت وأودى بحياته خلال عامين .

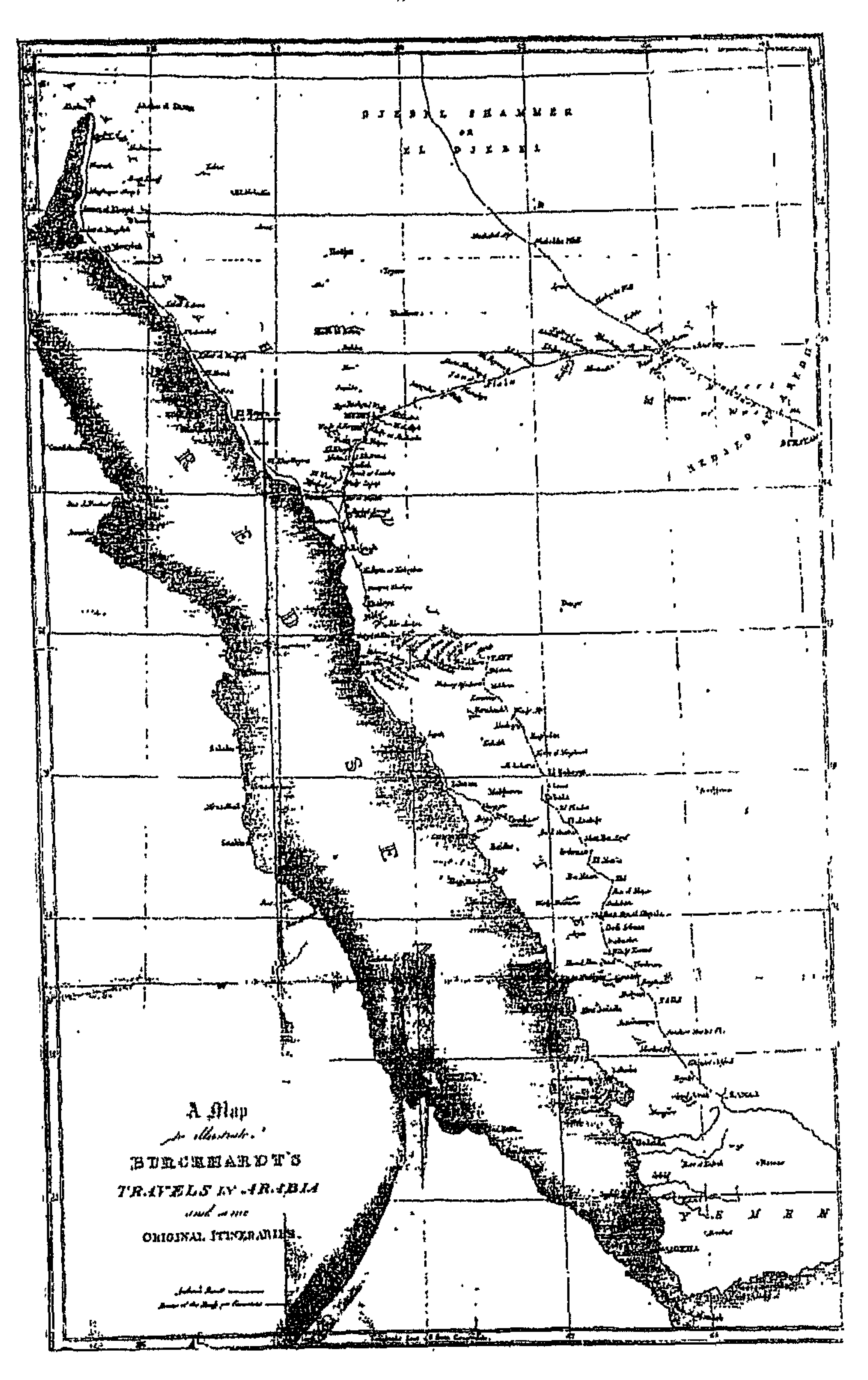
ليس لدينا ما يزيد على ما قلناه عن الرحلات الحقيقية التى قام بها بوركهارت فى الجزيرة العربية . كل ما فى الأمر أن الرجل ذهب مباشرة من جدة إلى الطائف ، مارًا بذلك على ركن من أركان مكة [المكرمة] ، كما مر أيضًا من فوق جبل قورة . وبعد أن تحسنت علاقته بمحمد على عاد فى ثوب التقوى والدين إلى المدينة المقدسة ليكون فى انتظار مجىء قوافل الحج . وبصحبة المؤمنين أدى الرجل فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولكن ضاعت منه فرصة العودة ، وغادر مكة [المكرمة] مع بعثة الحج السورية ، وكان السبب فى ذلك هو هروب الجمَّالة المرافقين له ومع ذلك ، عندما عثر الرجل على جماعة صغيرة متجهة إلى المدينة [المنورة] فى شهر يناير

من العام ١٨١٥ الميلادى ، رافق تلك الجماعة على الطريق الساحلى وزار قبر النبىﷺ قبل أن يلازم الفراش إلى شهر إبريل . وبعد أن تعافى الرجل تراجع عن الرحلة البرية إلى مصر ، لأنه كان يود زيارة الآثار الحجرية فى الحجر (مدائن صالح) ، ووصل الرجل إلى ينبع ، ومنها استقل سفينة من السفن ليصل إلى القاهرة التى وافته المنية فيها .

بقى أن أقول إن الجزء الثانى مذيَّل بملحق قيم يحتوى على الرسالة التى أرسلها محمد على باشا إلى المدينة [المنورة] يعلمهم فيها بانتصاره على الوهابيين ، ورسالة أخرى أرسلها عبد الله بن سعود إلى طوسون باشا ولد محمد على بعد أن قرر مغادرة القصيم عائداً إلى المدينة [المنورة] . والغريب فى الأمر أن رعاة بوركهارت يقولون إنه لديه الأصل العربى لهاتين الرسالتين . وهذا يعنى أن بوركهارت كان من المقربين إلى محمد على باشا ، وهذه نقطة غاية فى الأهمية . كما تحتوى الملاحق على خطبة من خطب عبد الله بن سعود الدينية الموجهة إلى أهل مكة وهى تستحق الدراسة بعناية فائقة .

صبرى محمد حسن

الخريطة



تصـــــدير المعد

مضت الآن بضع سنوات على تقديم قسمين من مؤلفات بوركهارت (هما : أسفار فى النوبة وسوريا) للجمهور ، واستقبال الجمهور لهذين القسمين استقبالا لائقا . كان نجاح هذين الكتابين مؤكداً لا بحكم فائدتهما ، وإنما بحكم شهرة من قام بإعدادهما للنشر ؛ حيث إنه كان باحثا وأثريا ، ورحالا وجغرافيا أيضا . وهنا يجب ألا ينظر إلى التأخر فى نشر هذين الجزأين على أن محتوياتهما أقل أو أدنى أهمية من تلك الأجزاء التى ثبتت أهميتها وغزارة مادتها عند جمهور كبير من القراء . كان قد تقرر لهذه اليوميات ، والمؤلفات الأخرى لذلك المؤلف الذى لقى ربه، أن تصدر متتالية من المطبعة على حد قول العقيد ليك فى التصدير الذى كتبه لكتاب ترحال فى سوريا : " كانت المخطوطات كافية لإصدار جزأين : جزء منهما خاص بأسفار الرجل فى الجزيرة العربية ، التى كانت مقصورة على الحجاز أو أرض المسلمين المقدسة ، ذلك الجزء الذى يصعب وصول المسيحيين إليه .

وفيما يتصل بذلك الجزء المعروض حاليا على القارئ ، نجد العقيد ليك ، يعبر فى موضع آخر عن رأى ينطوى على كثير من التملق. يقول العقيد ليك : " نقل بوركهارت إلى الجمعية أكمل رواية وأدقها عن الحجاز، بما فى ذلك مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] ، وقد تمكن بوركهارت بفضل معرفته للغة العربية والعادات الإسلامية من انتحال شخصية المسلم انتحالا دقيقا، إلى حد أنه أقام فى مكة طوال فترة الحج ، وأدى المناسك، دون أن يتطرق الشك إلى شخصيته " . (راجع سيرة بوركهارت الملحقة بكتابه أسفار فى النوبة ، طبعة عام ١٨١٩ م .

في ضوء الاحتياج الشديد إلى هذه النوعية من الكتب ، قام المعد القدير الذى سبق أن أشرف على مؤلفات بوركهارت السابقة ، بتصحيح هذه المخطوطة فى بعض أجزائها، بحيث تصبح صالحة للنشر، لكن بعض المشكلات الأدبية المهمة التى حالت بين العقيد ليك وبين الإشراف على نشر هذا الجزء من الخطة التى سار عليها العقيد ليك ، وبخاصة ما يتعلق بتعبير المؤلف عن مشاعره فى المناسبات كلها ، والمحافظة على رشاقة الأسلوب ، واختيار المصطلحات ، وعلى لغة المؤلف الأصلية فى المناسبات التى يتعذر فيها تماما الاتفاق مع عباراتنا وأساليبنا التعبيرية ، وكذلك التراكيب النحوية الخاصة ببعض المصطلحات المسكوكة الأجنبية ، التى تسللت إلى مؤلفاتنا الإنجليزية(*) .

قد تبدو الخريطة الملحقة ببداية الكتاب غير ذات بال ، من منطلق أن مواقع كل من جدة ومكة والمدينة، وكذلك ينبع ، وهى المدن الرئيسية التى زارها بوركهارت فى الحجاز ، سبق التعرف عليها من خلال خرائط سبق نشرها توضح ترحال الرجل فى كل من النوبة وسوريا . ولكن نظرا لأن قارئ هذا الكتاب سيكون بحاجة دوما إلى مرجع يعاود الرجوع إليه ،فقد رأينا إيراد هذه الخريطة عوضا عن المؤلفين السابقين من مؤلفات بوركهارت هذه الخريطة جرى إعدادها بواسطة السيد سيدنى هول Hall،الذى التزم فى تنفيذ الخارطة بكل ما أوصى به معد الكتاب : الذى جرى – بناء على توصية منه – تدوين أسماء الأماكن من الناحية الهجائية بطريقة بوركهارت بغض النظر عن اختلاف هذه الطريقة عن الطريقة المعتادة (**) .

(*) رأينا من باب الإسراع والتعجيل بإصدار الكتاب أن نورد الكلمات العربية الواردة فى النص الأصلى عقب الكلمة الإنجليزية مباشرة ، ولكن ارتأينا فى النهاية وضعها فى نهاية الكتاب فى شكل فهرس ، مع الإشارة إلى الصفحة التى وردت فيها الكلمة .

(**) من هنا نجد أن بعض الأسماء مثل Mekka كان يمكن أن تكون Mecca، والحجاز Hejaz، وجدة Jedda، ونجد Najed يمكن أن تكون معبرة عن الأصوات الصحيحة فى هذه الكلمات : Hedjaz، Djidda، ونجد Nadjed ، يضاف إلى ذلك أن هذا الهجاء أقرب ما يكون إلى الحروف العربية ،التى يجرى فيها استعمال حرف j الإنجليزى (كما هو فى كلمة Jar، وجيمس James، إلخ) بدون إضافة حرف d؛ وذلك على الرغم من أن وضع حرف d قبل حرف j يمنع المواطن الفرنسى من نطقها على النحو الذى ترد عليه فى الكلمة Jour (يوم) ، jamais (مطلقا) ، إلخ .

وعملا بنصيحة معد الكتاب ، جرى فى الخريطة إدراج كثير من الأماكن الواقعة على الحدود الشرقية للحجاز ، وذلك من منظور بعض المواضع التى وردت فيها هذه الأماكن، وتطرق بوركهارت إلى ذكرها ، على الرغم من عدم زيارته لها .

يزاد على ذلك أن مسألة عدم دخول هذه الأماكن ضمن منطقة الحجاز تعد أمراً شديد الوضوح ، لكن إلى أى مدى يمتد إقليم الحجاز ، تلك قضية لا يسهل تحديدها . أضف إلى ذلك أن الصعوبة نفسها تتكرر فى مواضع مختلفة ، وقد رجع معد الكتاب – من باب تأكيد تسليمنا بانفصال الحجاز عن مناطق الجزيرة العربية الأخرى – إلى عدد كبير من المؤلفين الأوروبيين والشرقيين . ومع ذلك ، لم يكن التحرى والاستقصاء الذى قام به معد الكتاب أمرا طيبا أو مرضيا ؛ وسبب ذلك أن بعض هؤلاء المؤلفين نسبوا إلى البلدان المحيطة مدنا بعينها ومحطات بعينها ، بل وأحياء بعينها ، وأن هذه المدن والمحطات والأحياء نسبها إلى الحجاز مؤلفون ثقات آخرون .

هذا الخلط يرجع فى بعض أجزائه إلى التصريحات المختلفة عن عدد ومدى وأسماء الأقسام الداخلة ضمن الاسم نفسه ، فى الوقت الذى قد يكون الخطأ فيه من منظور المؤلفين الأوروبيين ، واقعا ضمن الأقاليم الثلاثة الكبيرة : الحجرى ، والصحراء ، أو اليمن السعيد، وإذا كان المؤرخون الشرقيون يقسمون المكان إلى قسمين ، أو خمسة أقسام أو ستة أو سبعة أو أكثر من ذلك تحت مسميات لا علاقة لها بالكنى والنعوت التى أوردناها ، والتى اقترضناها بدورنا من الإغريق والرومان .

مسألة صعوبة ، أو بالأحرى استحالة، تحديد كل منطقة من المناطق العربية تحديدا دقيقا ، أمر يقره ويعترف به دانفيل ذلك الجغرافى الشهير ، بسبب الخلط بين الإقليم الذى يشمل كلا من مكة وجدة وينبع (وكلها على حد علمنا من مناطق الحجاز) وبين اليمن السعيد.(*) وهذا أيضا هو هربيلوت ، فى أحد المواضع يقول إن

(*) دانفيل ،الجغرافيا القديمة .

الحجاز هو الجزيرة العربية ،(*)ونراه فى موضع آخر يشير إلى الحجاز باعتباره صحراء الجزيرة العربية (**) .

بعض المؤلفين الشرقيين يقسمون الجزيرة العربية إلى قسمين : اليمن والحجاز ، وبعض آخر يقسمونها إلى خمسة أقسام كبيرة : اليمن والحجاز ونجد وتهامة واليمامة . وقد أدرجت البحرين أيضا ضمن هذا التقسيم ؛ كما جرى أيضا تسمية العارض على أنها منطقة من مناطق الجزيرة العربية، لكن يبدو أن العارض هذه مثل اليمامة تماما . يرى بعض المؤلفين أن حضرموت ، والمهرة ، وشيجر ، وعمان ، والتقسيمات الأخرى مناطق مستقلة ، كما يخلط بعض المؤلفين الآخرين بين هذا، والمناطق والأقاليم الأكبر منها مثل اليمن ، الحجاز . بل تجرى إضافة نجد نفسها ، فى كثير من الأحيان ، إلى الحجاز .

فيما يتصل بحدود هذه المناطق ، نجد أن الأقوال المتعارضة الصادرة عن كثير من الجغرافيين الشرقيين ، أسفرت عن كثير من الخلط والتعارض ؛ عند كل من الإدريسى ، وأبى الفداء ، والميدانى ، وابن حوقل ، وابن الفارض ، وآخرين . يقول السيد روميل، أحد المعلقين النجباء على أبى الفداء : تضطر " الجزيرة العربية " فى أحيان كثيرة إلى الاعتراف بصعوبة الوقوف على بداية التقسيم وعلى نهايته أيضا . وفيما يتعلق بحدود الحجاز بصفة خاصة ، نجد أبا الفداء يلزم الصمت ، لكن يبدو أن رأى أبى الفداء ، فى ضوء ما استطاع السيد / روميل جمعه من الروايات المتفرقة عن

(*) راجع المكتبة الشرقية حيث ورد الآتى : الحجاز Hegiaz أو - Higiaz اسم إقليم من أقاليم الجزيرة العربية ، ونحن نطلق على هذه المنطقة اسم Pierreuse . وهذا ريتشاردسون فى معجمه العربى الفارسى يشرح الحجاز قائلا : " مكة والبلاد المجاورة لها ". وهذا أيضا ديمترياس السكندرى الذى ترجم بعض أجزاء من جغرافية أبى الفداء إلى اللغة اليونانية ، (طبع فيينا ، فى العام ١٨٠٧ الميلادى، ٨ أجزاء) يقول أيضا إن الحجاز هو الجزيرة العربية .petraea

(**) منطقة تهامة ومنطقة اليمامة ... نحن نسميها "الصحراء العربية " . المكتبة الشرقية ، مادة " عرب " .

الأماكن التى فى هذه المنطقة والمناطق المجاورة ، لم ينطبق فى كل الأحيان على ما قاله كبار الجغرافيين الآخرين (*).

قد نتساءل عن السبب الذى جعل رحالنا البحاثة فى كل الأحيان لا يتعلم من أحد المواطنين النابهين الامتداد الدقيق للحجاز والحدود الدقيقة له ، والرد على هذا السؤال نجده فى المقطوعة التى كتبها بوركهارت فى نهاية الكتاب ، والتى هى موجهة للملاحق) ، كما توضح هذه المقطوعة أيضا أن السكان أنفسهم لا يتفقون على مدلول اسم الحجاز ومداه . يقول بوركهارت : " الاسم حجاز لا يستخدمه بدو الجزيرة العربية بالمدلول المعتاد لهذا الاسم ؛ البدو يقصرون دلالة الحجاز على المنطقة الجبلية التى تضم كثيرا من الوديان الخصبة الواقعة جنوبى الطائف ، والممتدة إلى مضارب سكن عرب عسير ، التى تبدأ عندها زراعة أشجار البن على نطاق واسع . هذا هو التطبيق العام ، أو إن شئت فقل : الدلالة العامة لذلك المصطلح بين بدو هذه البلاد، وحضر مكة وجدة يستعملون هذا المصطلح فيما بينهم بهذه الدلالة نفسها . لكنهم عندما يتحدثون مع الآخرين ، الذين يحترمون أفكارهم ، يسحبون دلالة هذا المصطلح على كل من الطائف ، ومكة والمدينة المنورة ، وينبع ، وجدة . والبدو يطلقون اسم الغور أو إن شئت فقل : الأرض الخفيضة ، على المنطقة كلها الواقعة غربى الجبال من مكة إلى بدر وينبع ، فى حين نجد أن الجبال الواقعة شمالى الطائف يسميها البدو باسم حجاز الشام ، أو بالأحرى حجاز الشمال(**)".

(*) راجع كتاب كريستوفورى روميل عن أبى الفداء طبع جوتنجاى فى العام ١٨٠٢ الميلادى ، أربعة أجزاء .

(**) هذا يؤكد اشتقاق الحجاز (التى وردت عند جوليوس Golius) من كلمة (ahhtedjezet) التى معناها Hhegiaz) ، لكن آخرين يشتقون كلمة حجاز من الكلمة العربية " يحجز " ، وسبب ذلك أن الحجاز يفصل نجد عن تهامة ، أو لأن الحجاز يصل اليمن بسوريا ، وهو (الحجاز) يقع فيما بينهما . ويجب أيضا النظر إلى الملاحظة بالغة القصر التى كتبها بوركهارت على أن لها قيمتها ، وبخاصة أنها تجىء على النحو التالى : " أنا أقدر سكان المنطقة التى يطلق عليها بصورة عامة اسم الحجاز ، والتى تشمل أرض شريف مكة كلها ، وأرض المدينة المنورة ، والبلدان الواقعة فى هذه الأراضى ، وكل القبائل البدوية ، بما يصل إلى حوالى مائتين وخمسين ألف نسمة ، وأنا على يقين أن هذا الرقم أزيد وليس أقل من الرقم الصحيح ، والقسم الأكبر من هؤلاء السكان من البدو الذين يعيشون فى الجبال ، وبخاصة القبائل الكبيرة من بنى حرب ".

ونحن إذا ما عدنا إلى الجزء الثانى من الكتاب ، وبالتحديد فى صفحتى ٢٨٧ و ٢٨٨ نجد أن هناك ملاحظة خاصة بالاستعمالات المختلفة للاسم " حجاز " بين هؤلاء الذين يسكنون ساحل البحر ، وأولئك البدو الذين يعيشون فى الداخل ، ويتبدى لنا أن هناك شكوكا حول عدم دخول المدينة [المنورة] ضمن نجد باعتبارها أقرب إلى الحجاز .

محاولة تتبع حدود أى بلد من البلدان تتبعا دقيقا باستخدام العبارات القديمة التى من هذا القبيل لا تفضى إلى شىء وتبوء بالفشل ، ذلك الإقليم الذى يقع على حدود البحر الأحمر ، والذى نعرف أن المواطنين يطلقون عليه بشكل بيِّن اسم " الحجاز "، موقَّع على خرائطنا ، وفى الخرائط المنشورة بهذا الاسم وحده ، وأول حرف من هذا الاسم يوضع فى المكان الذى يقصد به المعد منطقة الحجاز ، أما الحرف الأخير فهو يضعه فى المكان الذى يفصل الحجاز عن تهامة (*).

وأنا هنا أزكى لمن يبحثون عن أدق المعلومات الخاصة بالأماكن التى لا يعرف الناس عنها سوى النزر اليسير ، ذلك السفر الذى وضعه بوركهارت ، هو والبلاد التى أتى الرجل على وصفها فى هذا الكتاب ، يقول السير وليام جونز : "منذ زمن [سيدنا] سليمان ، وإلى يومنا هذا ، لا تزال سلوكيات عرب الحجاز مستمرة ومتواصلة ، مع ذلك يتعين على من يقرأ هذا التصدير ألا يتراجع عن تتبع رواية بوركهارت الأصلية والمهمة عن الأماكن التى زارها، وروايته عن الطقوس غير العامية التى شهدها ، وروايته أيضا عن البشر الذين عاش بينهم منتحلا شخصية المسلم" (**) .

(*) فى كتابه المعنون " أسفار سورية " ، وفى الصفحة رقم ٥١١ يقتبس بوركهارت عن المقريزى ، المؤرخ المصرى قوله فى الفصل الذى أورده عن عيلة Aila (أى العقبة) : " من هذه المنطقة يبدأ الحجاز ، فى الزمن السابق كان ذلك أحد الحدود الخاصة بالإغريق ،إلخ ".

(**) الإمبراطورية الرومانية ،الفصل رقم ٥٠ ، ملاحظة رقم ١٨ .

فى الصفحة التالية نورد بعض الملاحظات المقتضبة التى دونها المؤلف على ورقة مستقلة ، لكن من الواضح أنه كتب هذه الملاحظات لتكون مقدمة . من هنا يمكن القول إن كتاب أسفار فى الجزيرة العربية سيظهر بالشكل الذى أراده بوركهارت ، وهذا هو ما وضعه المعد نصب عينيه طول الوقت .

وليام كيسلى

مقدمة المؤلف

اقتبست الكثير من صفحات هذه اليوميات عن بعض مؤلفات المؤرخين العرب، وهذه الكتب التى اقتبست عنها موجودة فى حوزتى، ويؤسفنى أنى لم تكن معى تلك المخطوطات فى الحجاز. أول مؤلَّفين من تلك المخطوطات اشتريتهما من القاهرة، فور عودتى من الجزيرة العربية.

هذه المؤلفات، أو إن شئت فقل «المخطوطات» هى:

١- تاريخ مكة، الذى يعنونه مؤلفه أخبار مكة ، وهو كتاب مكون من أربعة مجلدات، لمؤلفه أبى الوليد الأزرقى الذى اشتهر فى العام ٢٢٣ الهجرى، وتتبع حوليات موطنه التاريخية إلى تلك الفترة. هذا الكتاب مهم جدا فى ضوء ملاحظاته الطبوغرافية ومعرفة المؤلف الوثيقة بأحوال الجزيرة العربية قبل الإسلام. والمخطوط يبدو من الخط المستعمل فى تدوينه كأن عمره حوالى سبعمائة عام.

٢ - تاريخ مكة، المعنون العقد الثمين وهو يقع فى ثلاثة مجلدات، وهو من تأليف تقى الدين الفاسى ، الذى كان هو نفسه قاضيا لمكة. هذا الكتاب التاريخى يصل إلى العام ٨٢٩ الهجرى، وهو متضمن فى المجلد الأول، المجلدان الآخران يحتويان على نتف طريفة من سير مواطنى مكة البارزين.

٣ - تاريخ المسجد المكى، الذى يشتمل أيضا على تاريخ المدينة نفسها، وعنوان الكتاب هو: الإعلام هى أعلام بلد الله ويقع فى مجلد واحد. ومؤلف هذا الكتاب هو قطب الدين المكى، ويغطى الكتاب الفترة الممتدة إلى العام ٩٩٠ الهجرى.

٤ – تاريخ الحجاز أو بالأحرى تاريخ مكة لمؤلفه العصمى . وليس لدىَّ من هذا الكتاب سوى المجلد الثانى ، الذى هو مخطوط كبير، يشتمل على تسجيلات تاريخية من أيام بنى أمية إلى العام ١٠٩٧ الهجرى. ولم أتمكن من تأكيد عنوان هذا الكتاب الزاخر بالكثير من المعلومات الثمينة. كان العصمى مؤلف الكتاب مواطنا من أهل مكة.

٥ – تاريخ المدينة المنورة ومسجدها. عنوان هذا الكتاب هو خلاصة الوفا، لمؤلفه نور الدين على بن أحمد السمهودى(*)، وهو عبارة عن مجلد واحد، ويصل بتاريخ المدينة المنورة ومسجدها إلى العام ٩١١ الهجرى.

(*) بوركهارت يرجع إلى هذا المؤلف ويشير إليه فى صفحة ٣٢٣ بالأحرف التى تفيد "الرجوع إلى السمهودى".

الوصول إلى جدة

كان وصولى إلى الحجاز محفوفا ببعض الظروف غير المواتية . وعندما دخلت مدينة جدة ، فى صباح اليوم الخامس عشر من شهر يوليو من العام ١٨١٤ الميلادى ، قصدت منزل شخص سبق أن حملت إليه خطاب توصية جرى تسليمه إلىَّ ، عندما رحلت عن القاهرة ، فى شهر يناير من العام ١٨١٨ الميلادى ، فى الوقت الذى لم أكن قد قررت تجديد ترحالى ليشمل الجزيرة العربية . وقد لقيت من ذلك الشخص استقبالا باردًا ؛ يبدو أن الخطاب كان بتاريخ قديم، مما جعله غير جدير بالاهتمام ، ويبدو أن مظهرى المهلهل ربما يكون قد أثار الحذر فى نفس هذا الشخص حول مسألة التزامه أمام مراسليه ، بأن يدفع لى مبلغا كبيرا من المال لحساب هؤلاء المراسلين. يزاد على ذلك أن الكمبيالات وخطابات الائتمان يجرى العبث بها فى المعاملات المتبادلة بين التجار الشرقيين . من هنا فقد تلقيت من ذلك الرجل رفضا قاطعا ، مصحوبا بعرض السكن عنده . وقد قبلت ذلك العرض لليومين الأولين فقط ، ظنا منى أن المعرفة الحميمة قد تقنع الرجل أننى لم أكن أفَّاقا أو محتالا ، لكنى عندما وجدت ذلك الرجل متشددا وغير مرن انتقلت إلى خان من الخانات العامة المنتشرة فى المدينة ، وكان كل ما لدىَّ من مال عبارة عن دولارين وبضع سكوينات كنت أحفظها فى محفظة كنت أحملها على ذراعى، لم يكن أمامى متسع من الوقت لكى أندب الحال الذى كنت عليه ، وسبب ذلك أنى فى اليوم الرابع لوصولى إلى جدة أصابتنى حمى عنيفة ، وقد تصادف ذلك مع انغماسى التام فى أكل الفاكهة الطازجة التى كانت تملأ أسواق جدة فى ذلك الوقت، هذه الحماقة التى أعتبرها ذنبا لا يغتفر ، نظرا لنظام غذائى المعتدل طوال اثنى عشر شهرا، كما ترتبت على تلك الحماقة أيضا نتائج أكثر

سوءا عندما أصابني الهذيان أياما عدة ، وكان يمكن لصحتى أن تتدهور تماما ، لولا عون القبطان اليونانى الذى كان زميل سفر لى ، اعتبارا من بلدة سواكن فى السودان . لقد شملنى ذلك القبطان برعايته فى فترة من أشد فترات مرضى ، وقام الرجل بناء على طلبى ، بإحضار حلاق ، أو بالأحرى طبيب الأرياف ، الذى شلَّح مواضع جسمى لاستنزاف كمية كبيرة من الدم ، على الرغم من تردده ورفضه ، لأنه كان يرى أن علاجى الوحيد البديل عن استنزاف الدم ، هو محلول من الخل وجوزة الطيب والقرفة . وخلال أسبوعين أصبحت قادرا على الحركة ، ولكن الضعف الذى اعترانى والوهن الذى رافق الحمى لم يستسلما للجو الحار الرطب فى جدة ، وأنا أعرف أن شفائى التام كان بفضل مناخ الطائف المعتدل ؛ والطائف تقع فى الجبال الواقعة خلف مكة ، وقد أنتقلت بعد ذلك إليها.

سوق جدة يشبه إلى حد ما الأسواق الزنجية ،التى يمكن فيها شراء مؤن وتموينات تكفى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بدولار واحد فقط ، وهذه المؤن تقتصر على الذرة والزبد . أسعار السلع هنا ارتفعت ارتفاعا كبيرا إلى مستويات غير عادية ؛ نظرا لتوقف الواردات التى تأتى من داخل الجزيرة العربية توقفا تاما هنا، فى الوقت الذى يكسب السكان كلهم بما فيهم أرباب الأسر المحترمة ، طوال مقامهم فى الحجاز ، عن طريق العمل اليدوى ، لكنى قبل اللجوء إلى هذا الملاذ الأخير كنت قد فكرت فى تجربة الانتقال إلى مكان آخر. واقع الأمر أنى كنت قد أحضرت معى رسالة تقديم وتزكية من محمد المحروقى(*) ، التاجر الأول فى القاهرة ، إلى عربى الجيلانى ، أغنى تجار جدة، لكنى كنت أعلم أن تلك الرسالة كانت عديمة الجدوى ، نظرا لأنها لم تكن خطاب ائتمان ؛ ولذلك آثرت عدم تقديم الرسالة لذلك الجيلانى(*) . قررت مؤخرا التحدث إلى الباشا ، محمد على نفسه . كان محمد على باشا قد وصل إلى الحجاز فى أواخر

(*) الشيخ المحروقى هو شيخ مشايخ التجار فى القاهرة . (المراجع)

فصل الربيع من العام ١٨١٣ الميلادى ، وكان مقيما فى الطائف فى ذلك الوقت ، والطائف هو المكان الذى أنشأ فيه محمد على مركز رئاسته الخاص بالجيش ، الذى كان ينتوى استخدامه فى الهجوم على معاقل الوهابيين . كان قد سبق لى مقابلة الباشا مرات عدة فى القاهرة قبل سفرى إلى الوجه القبلى ، وكنت قد أبلغته بهوسى وولعى الشديد بالسفر (وهذا هو منطلق الوصف الذى وصفنى به فى الطائف بعد ذلك) . وهنا ينبغى أن أسوق ملاحظة مفادها ، أنه نظرا لفقر تجار الوجه القبلى بشكل عام ، فلا يرحب أحد منهم بكمبيالة أو صك يفيد السداد الفورى ، فقد تحتم علىَّ أثناء مقامى هنا ، ومن باب تسهيل حصولى على المال ، أن طلبت إلى مراسلى فى القاهرة أن يدفع المبلغ الذى طلبته إلى خزانة الباشا ، وأن آخذ منه إذنا مسحوبا على ولده إبراهيم باشا ، الذى كان حاكما على الوجه القبلى فى ذلك الوقت ، بأن يعيد دفع المبلغ إلىَّ أنا شخصيا . ونظرا لأنه كانت لى بعض المعاملات المالية مع الباشا فقد خطر ببالى تجديد تلك التعاملات فى الحجاز دون أن أسبب للرجل ضيقا أو حرجا ، وليتنى أفعل ذلك ، خاصة أن محمد على سبق أن أعرب عن رضاه عنى شخصيا وعن اهتماماتى . وبعد أن انتهت الحمى الشديدة وانحسرت ، كتبت رسالة لطبيب الباشا ، وهو أرمينى اسمه بوسارى Bosari ، كان وقتئذ مرافقا لسيده فى الطائف . رجوت ذلك البوسارى أن يضع حالى التعيس أمام الباشا ، وأن يبلغه أن خطابى الائتمانى المسحوب على جدة لم يحظ بالقبول ، وأن يسأل الباشا عما إذا كان مستعدا لقبول كمبيالة له مسحوبة على مراسلى فى القاهرة ، وأن يأمر مسئول خزانته فى جدة بدفع الكمبيالة له إلىَّ .

وعلى الرغم من أن الطائف لا تبعد مسير خمسة أيام عن جدة ، فإن حال البلاد لم يكن يسمح إلا نادرا للمسافرين الخصوصيين بعبور الجبال فيما بين مكة

(*) تعرفت بعد ذلك على ذلك الجيلانى فى مكة ، وما بدر منه أقنعنى بأنى لم أكن مخطئا فى تقييمى له فى مسألة مساعدتى باعتبارى غريبا فى بلده .

والطائف ، يضاف إلى ذلك أن القوافل التى كانت تنقل رسائل الناس كانت تتحرك على فترات تتردد ما بين ثمانية أيام وعشرة أيام ، من هنا لم أكن أتوقع وصول رد على رسالتى قبل عشرين يوما . طوال هذه الفترة كنت أشغل وقت فراغى فى جدة فى تدوين محتويات أسفارى عن بلاد النوبة لكنى أحسست بشدة الحرارة فى ذلك الفصل من العام ، وبخاصة فى ظل حال الضعف الذى كنت عليه ، الأمر الذى جعلنى ألوذ بعد الساعات القلائل الصباحية بالظل الوارف الناتج عن بوابة الخان الكبيرة ، ذلك الخان الذى كنت مقيما فيه ، فى ظلال تلك البوابة كنت أمضى القسم الأكبر من النهار ، مسترخيا على مقعد من الحجر . كان مراسل بوسارى فى جدة ، الذى أرسلت من خلاله رسالتى إلى الطائف ، قد أتى على ذكر اسمى أمام يحيى أفندى طبيب طوسون باشا ولد محمد على باشا ، الذى كان فى ذلك الوقت حاكما لجدة ، وقبل ذلك كان طوسون حاكما للوجه القبلى ، يوم أن كنت أنا فى الوجه القبلى ، لكنى لم ألق طوسون باشا عندما كنت فى الوجه القبلى . هذا الطبيب سمع اسمى يتردد عندما كان فى القاهرة ، صار يتطلع شغفا للقائى ، وطلب إلى صديقى بوسارى أن يقدمنى إليه . استقبلنى الرجل بأدب جم ، ودعانى مرات كثيرة إلى منزله ، ومن خلال المزيد من الشروح والتفسيرات أصبح الرجل على علم باحتياجاتى ، وبالخطوات التى أتخذها لعلاج مسألة الاحتياجات هذه . تصادف أن كان ذلك الرجل يستعد فى ذلك الوقت للقيام برحلة إلى المدينة المنورة بصحبة طوسون باشا ، وكان الرجل يعيد كل أمتعته غير الضرورية إلى القاهرة ، ومع هذه الأمتعة المعادة إلى القاهرة كان الرجل يود أن يحول لأسرته مدخرات العام الماضى التى تقدر بحوالى ثلاثة آلاف قرش (حوالى ١٠٠ جنيه إنجليزى) ، كما كان الرجل عطوفا جدا عندما عرض علىَّ إعطائى المبلغ بناء على إذن مالى مسحوب على القاهرة ، يدفع فورا عند الاطلاع ، وتلك ميزة كان هو يعرفها جيدا ؛ نظرا لأن تجار جدة لا يأمنون مطلقا لأولئك الذين يأخذون منهم أوامر الدفع أو الكمبيالات ، العرض الذى من هذا القبيل لا يترتب عليه أى التزام فى البلدان التجارية الأوروبية، لكن فى الشرق وفى ظل الظروف التى كانت تحيط بى ، كان ذلك العرض يعد أمرا غير عادى . وأضاف يحيى أفندى ، أن بعضا من أصدقائه

كانوا قد رسموا لى شخصية جذابة عندما كنت فى القاهرة ، ومن ثم فإنه لن يخامره الشك فى قدرتى على الوفاء بالدين ، أو احترامى الذى تأكد منه بعد أن قرأ خطاب الائتمان الذى أحضرته معى . ولما كانت مسألة تقدمى للباشا فى الطائف أمرا غير مؤكد، فقد حدا ذلك بى على قبول عرض يحيى أفندى ، وعلى الفور جرى دفع المبلغ لى مباشرة وجرى سحب الإذن ، بعد ذلك بأيام قلائل رحل صديقى العزيز بصحبة طوسون باشا إلى المدينة المنورة ، حيث سعدت بلقائه هناك للمرة الثانية فى مطلع العام التالى .

أصبح بحوزتى عندئذ مبلغ من المال لدرء كل مخاوفى من الفقر قبل أن تصل إلىَّ إمدادات مالية جديدة من القاهرة (مصر) ، بغض النظر عن مطالبى من الباشا ، لكن المؤسف أن يحيى أفندى كان موجوداً، ومع ذلك وصلنى رد على الرسالة التى سبق أن أرسلتها إلى الطائف . يبدو أن بوسارى ، لم يكن يرغب فى إعلام الباشا بمطلبى ، وربما كان بوسارى خائفا مما يمكن أن يلحق بى لو أنى لم أوف بما وعدت به . كان الباشا قد علم قبل ذلك بوجودى فى جدة ، وقد جاء ذلك العلم عن طريق شخص ثالث كان ضمن حاشية الباشا ، وكنت قد التقيت به فى جدة ، ثم حضر بعد ذلك إلى الطائف ، وعندما علم الرجل أنى أتجول فى أسمال مهلهلة ، قام على الفور بإيفاد مراسل ومعه جملين إلى محصل الجمارك فى جدة ، المدعو سيد على أو جقلى ، والذى كان يتولى إدارة شئون المدينة كلها ، وطلب إليه تزويدى بطاقم من الملابس وكيس نقود يحتوى على خمسمائة قرش على سبيل بدل سفر، وطلب منه ضرورة عودتى على الفور إلى الطائف بصحبة المراسل نفسه الذى حمل إليه الرسالة.

الدعوة الموجهة من باشا تركى تعد أمرا مهذبا . وعليه ، ومهما كان ترددى فى الذهاب إلى الطائف فى ذلك الوقت ، لم يكن أمامى خيار سوى الالتزام بما يريده الباشا بدلا من القرض ، ولم يكن بوسعى رفض الملابس والنقود دون الإساءة إلى كبرياء الرئيس واستثارة غضبه ، وبخاصة أنى كنت فى ذلك الوقت فى مسيس الحاجة

إلى الحصول على نعمه ورضاه (*). وأنا أفهم معنى *الحاشية* ، على الرغم من أن سيد على لم يكن على علم بفحوى تلك الحاشية، ولكنى فى هذا المسألة قررت أن أكون ندا للباشا ورجاله .

نظرا لأن الدعوة كانت أمرا ملحًا وعاجلا ، فقد اضطررت إلى مغادرة جدة فى مساء اليوم الذى وصل فيه المراسل إليها ، وذلك بعد تناول العشاء مع سيد على ، بصحبة عدد كبير من الحجاج الذين جاءوا من سائر أنحاء العالم ؛ وكان شهر رمضان قد دخل بالفعل والناس هنا يكشفون فى شهر رمضان عن أقصى ما لديهم من كرم ضيافة ، وبخاصة فى مائدة الإفطار بعد غروب الشمس . ولما كنت أتشكك فى بعض نوايا الباشا ، فقد ارتأيت أن أحمل معى إلى الطائف كيسا مليئا بالنقود. من هنا ، كنت قد غيرت ثلاثة الآلاف قرش التى أخذتها من يحيى أفندى إلى ذهب، ووضعت قطع الذهب فى حافظة حزامى . الشخص عندما يكون لديه المال لا يخشى من وجوده بين العثمانيين ،اللهم باستثناء خسارة مثل هذه النقود أو ضياعها ، لكن خطر ببالى أنى قد أكون بحاجة إلى ما معى من مال ، لدفعه على سبيل الرشوة أو لتسهيل رحيلى عن الطائف . ومع ذلك كنت مخطئا فى هذين الزعمين .

(*) يرى بعض الناس أن قبول الهدايا من الباشوات إنما هو نوع من التشريف ، ولكنى أنظر إلى هذا الأمر نظرة مختلفة ، أنا أعرف أن الهدف الحقيقى لأى تركى من الأتراك من وراء تقديم الهدايا هو إما الحصول على ضعف هذه الهدية (وهذا لم يكن حالى) أو إشباع فخره وتباهيه أمام حاشيته بالكرم والسخاء مع شخص ينظر هو إليه باعتباره أدنى منه كثيرا من حيث المكانة أو القيمة . وأنا بنفسى شاهدت بعينىّ نظرات ذلك المعطى ونظرات أفراد شعبه فى مثل هذه الظروف، بل إنهم يعبرون عن مشاعرهم فى مثل هذه المناسبات بقولهم " انظر لقد رمى بكسرة خبز إلى ذلك الكلب !" قد لا يتفق معى فى ذلك سوى قلة قليلة من الأوروبيين ، لكن معرفتى تسمح لى بتقديم هذا الرأى ، والنصيحة الوحيدة التى يمكن تقديمها هنا للرحالة الذين لا يريدون الحط من قدرهم أمام أعين الأتراك ، هى أن يكونوا دائما مستعدين و فى المناسبات التى من هذا القبيل لإعادة الجميل المقدم مضاعفا. وفيما يتعلق بى شخصيا ، لم تتح لى فرصة تقديم الهدايا إلا نادرا خلال أسفارى، وكانت تلك الهدية الوحيدة التى أجبرت على قبولها .

سأورد هنا بعض الملاحظات عن كل من جدة وسكانها. جدة مقامة على أرض مرتفعة ارتفاعًا طفيفا، وأكثر جوانب جدة انخفاضا هو ذلك الجانب الذى يلامسه البحر، ومن ناحية شاطئ البحر نجد أن طول ذلك الجانب يصل إلى حوالى ألف وخمسمائة خطوة ، فى حين أن العرض لا يزيد فى أى جانب من جوانب جدة على نصف هذه المسافة ، أى ما يقرب من حوالى سبعمائة وخمسين خطوة . وجدة محاطة من ناحية البر بسور تجرى صيانته بشكل أو بآخر لكنه ليس قويا . هذا السور جرى بناؤه منذ سنوات قلائل فقط، عن طريق الجهد المشترك بين السكان أنفسهم الذين كانوا يعون أنهم ليسوا فى مأمن من الوهابيين فى وجود ذلك السور القديم شبه المهدم، والذى بنى فى العام ٩١٧ الهجرى بواسطة قنصوه الغورى سلطان مصر(*) . السور الحالى يعد حاجزا أمام العرب الذين ليست لديهم مدفعية، وعلى مسافة حوالى أربعين خطوة أو خمسين ، تجرى تقوية السور بأبراج للمراقبة وبداخل الأبراج توجد بعض البنادق التى علاها الصدأ . وجرى حول ذلك السور حفر خندق ضيق ، من باب تقوية دفاعات المدينة . من هنا نجد أن جدة تتمتع فى الجزيرة العربية بذيوع صيتها على أنها قلعة يصعب اختراقها أو اقتحامها . على شاطئ البحر ومن أمام المدينة نجد أن السور القديم لا يزال باقيا على ما كان عليه من قبل ، لكنه اعتراه التحلل والقدم . فى الطرف الشمالى وبالقرب من المنطقة التى يلامس البحر عندها السور الجديد نشاهد مبنى أو منزل حاكم المدينة ، وفى الناحية الجنوبية توجد قلعة صغيرة ، مركب فيها ثمانى بنادق أو عشر . وإلى جانب ذلك ، هناك بطارية لحراسة مدخل البلدة من ناحية البحر ، وللسيطرة على الميناء كله . هنا فى هذا المكان نجد قطعة من المدفعية القديمة كبيرة الحجم ، مركبا عليها دانة على شكل كرة تزن حوالى ٥٠٠ رطل ، ويذيع صيت هذه القطعة فى سائر مناطق البحر الأحمر إلى الحد الذى يجعل من هذه الشهرة الذائعة حماية لبلدة جدة نفسها .

(*) راجع قطب الدين فى كتابه المعنون : تاريخ مكة .

يجرى الوصول إلى جدة من ناحية البحر عن طريق رصيفين ، تقوم القوارب الصغيرة بنقل شحنات السفن الكبيرة إليهما ؛ نظرا لاضطرار تلك السفن الكبيرة إلى الرسو فى المياه العميقة التى تبعد قرابة ميلين عن الشاطئ ، والقوارب صغيرة الحجم التى يطلقون عليها اسم السَّاى (وهى أصغر القوارب التى تبحر فى البحر الأحمر) هى الوحيدة التى تقترب من الشاطئ ، هذان الرصيفان يغلقان يوميا عند غروب الشمس . هذا يعنى أن الاتصال يتوقف أثناء الليل بين البلدة وحركة الملاحة .

جدة من ناحية البر لها بوابتان : البوابة التى يقال لها باب مكة وتوجد فى الجانب الشرقى ، والبوابة التى يطلقون عليها اسم بوابة المدينة وهى فى الجانب الشمالى، وقد جرى مؤخرا إحداث بوابة صغيرة فى السور الجنوبى . المساحة التى يطوقها السور الجديد (والتى يقدر محيطها بحوالى ثلاثمائة خطوة) هو والبحر ليست كلها مغطاة بالمبانى ، هناك قطعة عريضة من الأرض المفتوحة تمتد بطول السور الداخلى ، كما أن هناك إلى جانب ذلك مساحة كبيرة من الأرض الخراب بالقرب من باب المدينة ، وفى الطرف الجنوبى من جدة . ولما كنت قد عبرت تلك الأرض الفضاء أثناء قدومى من البوابة ، فقد دخلت الضواحى التى ليس فيها سوى أكواخ بناها أصحابها من البوص والغاب والأخشاب وأغصان أشجار الأراك ، وهذه الأكواخ التى تطوق المدينة من الداخل عبارة عن بنايات من الحجر . هذه الأكواخ لا يسكنها سوى البدو أو الفلاحين والعمال الفقراء الذين يعيشون هنا حياة البدو ، هناك أحياء أو ضواحٍ شبيهة بهذه الضاحية يعيش فيها أناس بالمواصفات نفسها فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

جدة من الداخل مقسمة إلى أحياء مختلفة ، أهل سواكن الذين يترددون على هذا المكان يسكنون بالقرب من باب المدينة ، ويسميها الناس حارة السواكنى . الناس هنا يعيشون فى منازل قليلة متواضعة ، لكنهم يعيشون فى أكواخ بصفة أساسية ، والطبقة الدنيا من البشر هم الذين يلجأون إلى مثل هذه الأكواخ ، كما تسكن فى تلك

الأكواخ أيضا نساء شعبيات كثيرات ، كما يسكن الأكواخ أيضا تلكم النساء اللاتى يبعن ذلك المشروب المُسْكِر الذى يسمونه البوظة . أما السكان المحترمون أصحاب الجاه فيسكنون بالقرب من البحر ، حيث يوجد شارع طويل يمتد موازيا للشاطئ ، وفيه صفوف من الدكاكين ، وفيه أيضا حانات كثيرة لا يتردد عليها بصورة دائمة سوى التجار، بل وتكاد تكون مقصورة عليهم .

جدة مبنية بطريقة جيدة ، وهى أفضل من أى مدينة تركية أخرى مساوية لها فى الحجم من بين المدن التى سبق أن شاهدتها . شوارع جدة غير ممهدة ، لكنها واسعة ومتجددة الهواء ، والمنازل عالية وكلها مبنية بالحجر الذى يحضرون القسم الأكبر منه من شاطئ البحر ، والمكوَّن من المرجان المتشعِّب والحفريات البحرية الأخرى . كل منزل من منازل جدة مكون من طابقين وبه نوافذ كثيرة صغيرة ، ولكل نافذة شيش من الخشب يشكل استعراضا جميلا لصناعة خشبية يدوية . عند مدخل كل منزل من المنازل توجد صالة أو ردهة فسيحة ، يجرى فيها استقبال الغرباء ، هذه الردهة تكون رطبة بصورة مستمرة . توزع الغرف فى منازل جدة يكاد يكون هو التوزع نفسه فى المنازل المصرية والسورية ، ولكن بفارق واحد هو أن جدة ليس فيها شقق كثيرة فارهة كما هو الحال فى كل من مصر وسوريا ، اللتين ليس فيهما سوى منازل قليلة جدا مكونة من طابقين ، فى حين تكون الغرف الموجودة فى الطابق الأرضى مرتفعة تماما عن مستوى الأرض ، وبذلك يحدث فى كثير من الأحيان أن غالبية منازل الحجاز تكون حارة ، اللهم إلا باستثناء ردهة المدخل . فى هذه الردهة ، وفى وقت الظهيرة ، يجلس رب البيت ومعه مساعدوه وخدمه أو عبيده لقضاء فترة القيلولة(*) . ونظرا لارتفاع تكلفة البناء فى جدة ، فإن الاهتمام بالشكل الخارجى للمبنى لا يعول عليه كثيرا، إذ يعتمد على الأعمال الشبكية والنوافذ المنخفضة ، هذه المنازل والنوافذ يجرى دهانها بألوان مبهرجة

(*) على الرغم من أن النسيم العليل لا يهب إلا من ناحية الشمال لا يحاول أهل الجزيرة العربية الاستفادة من ذلك فى منازلهم كما هو الحال عند المصريين الذين يخططون لأن تفتح الغرف الرئيسية على الشمال . يزاد على ذلك أن فتحات التهوية التى يحدثها المصريون فى شُرَف منازلهم كى توزع الهواء على المنزل بكامله ، هذه الفتحات غير معروفة فى الحجاز.

من الداخل والخارج . فى كثير من المنازل نجد أن الزوجة الأصلية تعيش فى جزء من المنزل ، أما إماء الزوج الحبشيات فيسكنّ فى مساكنهن الخاصة بهن ، هذا يعنى أن صلاحية المسكن هى التى يركز عليها أصحاب المنازل بدلا من الحجم أو الجمال، ومع ذلك ، نجد فى مصر كثيرا من المنازل العادية فيها غرف متسعة وأنيقة.

التنسيق المعمارى أمر غير وارد فى جدة . بعض المنازل يبنيها أصحابها من الأحجار الصغيرة ، والبعض الآخر يبنى باستعمال الأحجار الكبيرة مربعة الشكل، بحيث يكون السطح الأملس ناحية الخارج أما الداخل فيجرى حشوه بالطين . وفى بعض الأحيان قد تبنى الجدران كلها من الحجر ، وكثير من المنازل يضع الناس فيها، على ارتفاعات تقدر بحوالى ثلاثة أقدام ، طبقات من الألواح فى الجدار ظنا منهم أن هذه الألواح تزيد من قوة المبنى عند ملْط الجدران بالجبس ، يترك الملط الخشب بلونه الطبيعى ، الذى يضفى على المبنى مظهرا بهيجا يسر الخاطر ، كما لو كان المبنى بعدد كبير من الأحزمة . ولكن لون الحوائط الأبيض البراق يؤذى العين أثناء سطوع الشمس . السواد الأعظم من البوابات لها عقود مدببة ، قلة قليلة من هذه العقود هى التى لها الشكل المستدير ، وهذه العقود المستديرة لا ترى إلا فى بوابات المنازل الخاصة فى كل جزء من أجزاء مصر . جدة لا تراعى فيها طرز المبانى القديمة ، والمعروف أن طبيعة المشبكات سرعان ما تتحلل إذا ما تعرضت للمطر والجو الرطب السائد هنا فى جدة(*) . يضاف إلى ذلك أن كثيرا من المساجد الصغيرة موجود فى جدة ، ومن بين هذه المساجد مسجدان كبيرا الحجم ، وقد بنى الشريف سرور واحداً منهما. منزل الحاكم الذى ينزل فيه الشريف فى معظم الأحيان ، عبارة عن بيت

(*) يمكن القول بشكل عام إن جدة بلدة حديثة ، وسبب ذلك أن أهمية جدة بوصفها سوقًا للبضائع الهندية يرجع إلى بداية القرن الخامس عشر ، على الرغم من أن جدة كانت تعرف منذ قديم الأزل فى التاريخ العربى على أنها ميناء لمكة المكرمة.

حقير ، وبيت جابى الجمارك نفسه من هذا القبيل أيضا . فى جدة أيضا بعض الخانات العامة جيدة البناء ، وهذه الخانات تقدم إعاشات جيدة ، والتجار الأجانب يقيمون فى تلك الخانات أثناء مقامهم القصير فى جدة ، بعض الميادين الكبيرة المفتوحة التى فيها ممرات ذات عقود ، توفر ظلا باردًا للتجار طوال الجزء الأكبر من النهار . وإذا ما استثنينا فترة الرياح الموسمية ، نجد أن زائر جدة يستطيع الحصول على سكن خاص فى الأحياء النائية من المدينة ، وسبب ذلك أن جدة تزدحم بالسكان فى فترة الرياح الموسمية . أفضل المساكن الخاصة فى جدة تملكها مؤسسة الجيلانى التجارية ، هذا الجيلانى يعيش هو وأسرته فى ميدان صغير خلف الشارع الرئيسى . هذا الميدان ، أو المربع السكنى مكون من ثلاث بنايات كبيرة ، وهى تشكل أعلى المساكن الخاصة وأكثرها راحة فى الحجاز كله . كل منزل من هذه المنازل له خزانه المائى الخاص به ، ولكن نظرا لعدم انتظام المطر أو وفرته على النحو الذى يكفى لملء هذه الخزانات من أعالى سطوح المنازل (كما هو الحال فى سائر أنحاء سوريا) فإن تلك الخزانات يجرى تزويدها بالماء من الآبار التى تتكون مياهها من الأمطار خارج المدينة .

ماء هذه الخزانات لا يكفى استهلاك جدة مطلقا ، ومن ثم يعد الماء شيئا عزيزا فى جدة . القسم الأكبر من ماء الشرب فى جدة يجرى جلبه من بعض الآبار التى تبعد عن المدينة ميلا ونصف الميل فى الناحية الجنوبية من المدينة . واقع الأمر أن الماء يمكن العثور عليه على عمق خمسة عشر قدما ، لكنه ليس طيب المذاق ، بل غير صالح للشرب فى بعض الأماكن . بئران فقط هما اللتان توفران ماء يمكن أن يقال عنه إنه عذب ، لكن هذا الماء يعد ماء ثقيلا ، وإذا ما قدر له أن يبقى أربعًا وعشرين ساعة فى إناء ، فإنه يصبح عامرا بالحشرات . ونظرا لأن بئرا من هاتين البئرين عزيز ونادر ، فهو يصعب الحصول عليه دون مساعدة صديق قوى ، وواقع الأمر أن عدد الأفراد اللازمين لجلب الماء من هاتين البئرين يتردد بين مائتى شخص وثلاثمائة شخص ، أما بقية سكان المدينة فيرضون لأنفسهم بالماء الذى يجرى جلبه من آبار أخرى، وسبب

اعتلال صحة الناس فى جدة ربما يكون راجعا إلى الماء . ونظرا لأن جدة تحمل اسم إحدى القلاع التركية ، فنحن يحق لنا القول إن الآبار كانت تجرى حمايتها بقلعة من القلاع ، لكن الأتراك أهملوا هذا التحوط ، وعندما خشى الناس فى شهر ديسمبر عام ١٨١٤م . تقدم الوهابيين على جانب بلدة القنفذة ، سارع حاكم جدة بملء خزانات المياه التابعة للمنازل الحكومية بمياه الآبار ، ومنع استعمال السكان لتلك الضرورة من ضروريات الحياة أياما عدة ؛ نظرا لأن الرجل كان يستخدم إبل جلب الماء كلها لمصلحته هو . عدد كبير من تلك الآبار يدخل فى إطار الملكية الخاصة وتعود على أصحابها بدخول كبيرة .

جدة بلد بلا حدائق أو حياة نباتية من أى نوع كان، اللهم إلا باستثناء بعض النخيل الذى يجاور مسجداً من المساجد . وحتى خارج المدينة ترى الأرض كلها جرداء تغطيها قشرة ملحية من ناحية شاطئ البحر، وعلى المستوى الأعلى من ذلك تجد رمالا، هنا فى هذه الرمال توجد بعض الشجيرات وبعض أشجار السنط المنخفضة . تتزايد أعداد الآبار حول المدينة ، والماء الذى يجلب منها يستخدم فى أغراض الرى ، لكن سكان جدة يعدون إقامتهم فى البلد مسألة مؤقتة ، وهم مثل سائر سكان الحجاز ، يكرسون كل اهتماماتهم للتجارة وجمع الثروات . وهم من هذا المنطلق لا يميلون إلى الترويح أو العمل بالمهن الريفية أكثر من أية سلالة أخرى من سلالات المسلمين الذين سبق أن عرفتهم .

فيما وراء باب مكة وبالقرب من المدينة ، توجد أكواخ عدة يمر فى وسطها الطريق المؤدى إلى مكة . هذه الأكواخ يسكنها الجمالة الذين يتنقلون فى عملهم ما بين مكة وجدة ، ويسكن هذه الأكواخ أيضا البدو الفقراء الذين يتعيشون من جمع الحطب من مسافات بعيدة فى الجبال ، كما يسكنها أيضا الحجاج الزنوج الذين يتعيشون من هذه المهنة نفسها أثناء مقامهم فى جدة . فى هذا المكان ينعقد سوق الماشية الحية والخشب والفحم النباتى والفواكه والخضراوات، وكل ذلك يباع بالجملة لا بالقطعة . البن أيضا يباع هنا فى دكاكين صغيرة ، لا يتردد الناس عليها إلا لفترة

قصيرة فى ساعة مبكرة من النهار ، والذين يترددون على هذه الدكاكين التى تبيع البن هم الطبقة المتدنية من التجار ، الذين يجيئون إلى هنا لتصيد الأخبار القادمة من مكة ، التى يحملها البريد كل صباح بعد شروق الشمس مباشرة . بعد هذه الأكواخ بميل واحد ، وفى الناحية الشرقية من المدينة ، يوجد مدفن جدة الرئيسى الذى يضم مقابر شيوخ متعددين ، لكن هناك جبانات صغيرة محاطة بأسوار . وعلى بعد مسافة ميلين شمالى جدة يوجد قبر جدتنا حواء أم البشر ، القبر على حد ما قيل لى عبارة عن حفرة فى الحجر طولها حوالى أربعة أقدام ، وارتفاعها حوالى قدمين أو ثلاثة أقدام ، وعرضها حوالى قدمين أو ثلاثة أقدام أيضا ، وبذلك يكون قبر حواء شبيها بقبر نوح الذى شاهدته فى سهل البقاع فى سوريا .

أثناء سيطرة الوهابيين على جدة كانت المدينة تمر بمرحلة تدهور ؛ فقد تحولت بنايات كثيرة فيها إلى خرائب ، ولم يبن أحد منزلا جديدا واحداً ، وكسدت التجارة فى ضوء توقف مجىء الحجاج من تركيا ، وعزوف التجار عن إحضار بضاعتهم لبيعها فى جدة . وبعد تعافى المدينتين المقدستين ، وبعد استعادة مواكب الحج ووصول الجنود يوميا إلى المدينة ، وبعد عودة بعض التجار وأفراد الجيش، أدى ذلك إلى الإسراع فى استعادة مدينة جدة لحالها الذى كانت عليه من قبل . ويقدر عدد سكان جدة بحوالى اثنى عشر ألفا أو خمسة عشر ألفا فى الأشهر السابقة للحج ، ثم بعد ذلك فى شهور الصيف التى تصادف موسم الرياح الموسمية ، يحدث تدفق وتدافع من الأغراب على المدينة ، الأمر الذى يجعل العدد يزداد ليبلغ ما بين ثمانية عشر ألفا ، واثنين وعشرين ألفا ونصف الألف.

سكان جدة شأنهم شأن سكان كل من مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] يكادون يكونون جميعا من الأجانب . هذا يعنى أن أحفاد العرب القدامى الذين سكنوا هذه المدينة ، قد اندثروا على أيدى الحكام ، أو أنهم عادوا إلى بلدانهم ومناطقهم . هؤلاء الذين يمكن وصفهم بأنهم وطنيون قلة قليلة من عائلات الأشراف ، وكلهم من أصحاب العلم ، ومرتبطون بالمساجد أو المحاكم ، الجداويون الآخرون جميعهم من الأجانب

أو أحفاد لهم . هؤلاء الأحفاد منهم الحضارمة ومنهم اليمنيون الذين يمثلون القسم الأكبر من سكان جدة . هناك جاليات من كل بلد من بلدان حضرموت واليمن مستقرة في جدة ، وتربطهم تجارة رائجة بمساقط رءوسهم فى بلادهم . هناك ما يزيد على مائة أسرة هندية (وهى أصلا من سورات ومجموعة قليلة من بومباى) ، كل هؤلاء مقيمون فى جدة ، ويمكن أن نضيف إلى هذه الجاليات بعضا من أهل الملايو وبعضا آخر من أهل مسقط . هناك أيضا المقيمون من كل من مصر وسوريا وباربای ومن تركيا الأوروبية ومن الأناضول ، صور كل من هؤلاء وسماته يمكن أن يراها المتفحص فى وجوه أحفادهم الذين تحولوا إلى كتلة عامة مختلطة ، ويعيشون بالطريقة العربية ويرتدون أيضا ثيابهم بالطريقة العربية . الهنود فقط هم الذين بقوا عرقا مميزا من حيث السلوكيات والملابس والعمالة . ليس هناك مسيحيون مقيمون فى جدة ، لكن هناك قلة قليلة من اليونانيين الذين يأتون من أرخبيل الجزر اليونانية بين الحين والآخر ، ويحضرون معهم من مصر بضاعة لبيعها فى سوق جدة . فى زمن الأشراف كان هؤلاء اليونانيون يجبرون على ارتداء ملابس محددة ، ومحرم عليهم الاقتراب من بوابة مكة ، لكن بعد أن أصبح الأتراك سادة على الحجاز ألغوا هذه القيود ، وأصبح بوسع المسيحى الآن التمتع بالحرية المطلقة هنا فى جدة ، وإذا ما توفى المسيحى فإنه لا يجرى دفنه على الشاطئ (باعتبار هذه أرض مقدسة داخلة ضمن المدينة المقدسة أيضا) ، وإنما يجرى دفنه فى جزيرة من الجزر الصغيرة الموجودة فى خليج جدة . كان اليهود فى الأزمان السابقة يعملون سماسرة ووسطاء فى جدة، ولكنهم طردوا منها قبل أربعين عاما على أيدى سرور ، الحاكم الذى جاء قبل الشريف غالب ، وجاء ذلك نتيجة سوء تصرف البعض من هؤلاء اليهود . تراجع هؤلاء اليهود إلى اليمن أو إلى صنعاء . خلال موسم الرياح الموسمية يقوم بعض البنيانيين بزيارة جدة فى سفن هندية ، لكنهم يعودون دوما مع تلك السفن ولا يبقى منهم أحد للإقامة فى جدة .

هذا الخليط من الأعراق فى جدة ناتج عن الحج الذى يقوم خلاله التجار الأثرياء بزيارة الحجاز ومعهم صفقات كبيرة من البضاعة . بعض هؤلاء التجار يعجزون عن التعجيل بتحصيل مديونياتهم وتسوية حساباتهم ، مما يضطرهم إلى البقاء عاما آخر ، خلال هذه الفترة يسكن هؤلاء ، حسب تقاليد البلاد وأعرافها ، مع بعض الإماء الحبشيات اللاتى سرعان ما يتزوجونهن ، وعندما يجد هؤلاء التجار أنفسهم بصحبة أسرة يقتنعون بالبقاء فى جدة والإقامة فيها . وبذلك نجد أن كل موسم من مواسم الحج يضيف أعدادا جديدة إلى السكان لا فى جدة وحدها ، وإنما فى مكة أيضا ، وهذا أمر ضرورى نظرا لأن معدل الوفاة فى المدينتين أعلى بكثير من معدل المواليد .

أهل جدة يكادون يكونون جميعا يعملون بالتجارة، ولا يمارسون أى نوع من الصناعات أو الحرف اللهم إلا باستثناء الأشياء الملحة من تلك الصناعات أو الحرف . أهل جدة جميعا على وجه التحديد إما يعملون فى البحر ، أو فى حرف البحر ، أو يعملون فى حركة النقل فقط بالسفن مع الجزيرة العربية . وجدة تستمد أهميتها لا من كونها ميناء لمكة [المكرمة] ، وإنما لأنها ميناء لمصر ، أو الهند ، أو الجزيرة العربية كلها ؛ فكل صادرات هذه الدولة المتجهة إلى مصر تمر أول ما تمر من خلال أيدى تجار جدة . من هنا نجد أن جدة أغنى من أى مدينة مماثلة لها فى الممتلكات التركية . الاسم العربى لجدة معناه " الثراء أو الغنى "، وبذلك فهو اسم على مسمى بحق . وأهم تاجرين فى جدة هما : الجيلانى والسكّات ، وهما من أصل مغربى(*) ، وقد استقر جداهما هنا فى جدة ، ومعروف أنهما يمتلكان ما يتردد بين مائة وخمسين ألف جنيه إنجليزى ومائتى ألف . هناك عديد من الهنود الذين جمعوا رءوس أموال مساوية لتلك التى سبقت الإشارة إليها ، وهناك ما يزيد على اثنى عشر منزلا (بيتا) يمتلك كل واحد من أصحاب هذه البيوت ما يتردد بين أربعين ألف جنيه إنجليزى وخمسين ألفًا . تجارة الجملة تجرى هنا بسهولة ويسر وتحقق أرباحا كبيرة ، ويقل

(*) مغربيين ، بمعنى " سكان الغرب "، وهذا الاسم يطلقه عرب الشرق على مواطنى دول البارباري .

فيها الغش والخداع عن أى مكان آخر من أماكن الليفانت التى سبق أن قمت بزيارتها ؛ والسبب الرئيسى وراء كل ذلك هو أن الصفقات كلها يجرى دفع أثمانها نقدا ، وأن نسبة الفائدة قد تكون معدومة أو قليلة جدا . ويجب عدم تفسير ذلك على أنه راجع إلى شخصية التجار المشهورين بفساد ذممهم وثرواتهم الكبيرة ، ومع ذلك فإن طبيعة التجارة ، والعادات الثابتة المتأصلة ، كل ذلك هو الذى يجعل التجارة هنا أقل متاعب وتآمرا عنها فى أى بلد آخر من بلدان الشرق .

يمكن تقسيم تجارة جدة إلى فرعين رئيسيين هما : تجارة البن ، والتجارة الهندية، وتجارة مصر لها علاقة بهذين الفرعين . السفن المحملة بالبن تأتى من اليمن على مدار العام دون الالتزام بفصل بعينه، وطوال الرحلة تحاول تلك السفن الإبحار بالقرب من الساحل ، حتى تتمكن من الاستفادة من ميزة نسيم البر خلال الموسم الذى تسود فيه الرياح الشمالية ، التى تجعل الإبحار فى منتصف المجرى أمرا صعبا . هذه السفن تتخلص من حمولتها نظير مبالغ من الدولارات ، التى هى بمثابة السلعة الوحيدة التى يأخذها التجار اليمنيون مقابل ذلك البن . تجارة البن هذه تتعرض لتقلبات كثيرة ، ويمكن اعتبارها شكلا من أشكال اليانصيب الذى لا يقبل عليه سوى هؤلاء الذين لديهم رءوس أموال كبيرة تحت تصرفهم ، والذين يقوون على تحمل الخسائر الكبيرة بين الحين والآخر . كما كانت أسعار البن فى جدة يجرى تحديدها ، بناء على توجيهات ونصائح من القاهرة ، فإن هذا السعر يتباين مع وصول السفن التى تجىء من السويس . أسعار البن فى السويس تعتمد على طلب بن المخا فى تركيا ، وبذلك يكون ذلك السعر متقلبا أيضا . عندما وصلت إلى جدة كانت أسعار البن خمسة وثلاثين دولارا للوزنة التى مقدارها مائة ثقل، وبعد ذلك بثلاثة أسابيع انخفضت أسعار البن إلى أربع وعشرين دولارا ، تأسيسا على معاهدة السلام بين إنجلترا وأمريكا ، وعلى إثر توقع استيراد البن من غربى الهند بكميات كبيرة فى كل من سمرنا Smyrna وإسطنبول . الطبيعة الخطرة لتجارة البن تحتم وجود كثير من التجار الذين لا يورطون أنفسهم فيها ، اللهم إلا إذا كانوا يقومون بدور العملاء الوكلاء .

بعض آخر من هؤلاء التجار يشحنون البن على حسابهم الخاص إلى القاهرة ، حيث إن القسم الأكبر من تجارة البن فى أيدى تجار الحجاز المقيمين فيها . وعلى امتداد السنوات الست الماضية ، نجد أن تجارة البن بين الجزيرة العربية والبحر الأبيض المتوسط ، عانت معاناة كبيرة من استيراد البن من غربى الهند إلى الموانئ التركية، هذه الموانئ التى كان يجرى من قبل إمدادها بالبن الذى كان يأتى من المخا فى اليمن ، ذلك البن الذى أصبح يتفوق عليه تماما بن غربى الهند ، وبخاصة فى تركيا الأوروبية ، وفى آسيا الصغرى ، وفى سوريا . واعتبارا من ذلك التاريخ أصدر باشا مصر تعليمات تقضى بمنع استيراد البن من غربى الهند ، وعدم دخول ذلك البن إلى ممتلكات الباشا .

الاتجار فى البضائع الهندية آمن وأكثر ربحا من العمل فى تجارة البن . والمعروف أن الأساطيل التى تأتى أصلا من كلكتا وسورات وبومباى تصل إلى جدة مع بداية شهر مايو ، لتجد التجار مستعدين وجاهزين لها بالفعل ، بأن جمعوا من الدولارات والسكوينات كل ما لا تسمح به ظروفهم ، وذلك من باب تمكين أنفسهم من الدخول فى صفقات الجملة فور وصول السفن . يزاد على ذلك أن تجار القاهرة أيضا يرسلون مبالغ كبيرة إلى جدة لشراء البضائع لحسابهم ، ولكن القسم الأكبر من حمولات هذه السفن يشتريه تجار جدة ، الذين يرسلون هذه البضاعة فيما بعد إلى القاهرة لتباع لحسابهم . والأساطيل الهندية تعود إما فى شهر يونية أو يولية ، وهذا هو الوقت الذى ترتفع فيه أسعار البضائع التى تجلبها تلك السفن(*) ، وعادة ما يحدث فى اليوم الذى تغادر فيه آخر السفن ميناء جدة أن يحصل التجار على ربح يعادل

(*) تغادر السفن القادمة من البنغال جدة فى شهر يونية ، والسفن القادمة من سورات وبومباى فتغادر جدة فى شهر يولية أو بداية شهر أغسطس . أما السفن القادمة من مسقط ومن باسورة وكذلك سفن العبيد القادمة من ساحل موزمبيق فتصل إلى جدة فى ذلك الوقت تقريبا .

عشرة فى المائة من سعر الشراء . ومع ذلك لا يبيع التجار بضاعتهم ، اللهم إلا إذا كانوا بحاجة إلى المال ، ويفضلون الاحتفاظ بالبن والبضاعة فى مخازنهم لمدة أربعة أشهر أو خمسة ، يتواصل خلالها ارتفاع الأسعار ، وإذا ما آثروا الانتظار إلى حلول شهر يناير أو فبراير من العام التالى فإنهم يحققون مكاسب أكيدة تصل إلى ما يتردد بين ثلاثين فى المائة وأربعين فى المائة ، وإذا ما نقل التجار جزءا من بضاعتهم إلى مكة لبيعها أثناء موسم الحج ازدادت أرباحهم أكثر وأكثر . طبيعة هذه التجارة هى التى تجعل جدة تزدحم بالناس أثناء بقاء تلك الأساطيل فى الميناء . الناس يحضرون إلى جدة من سائر أنحاء مناطق البحر الأحمر استهدافا لشراء الصفقات بالسعر الأول للبضاعة ، يزاد على ذلك أن تجار مكة وينبع وجدة يكنزون الدولارات التى فى حوزتهم لكى يستثمروها فى تلك المشتروات(*) . سبب آخر من أسباب أمان التجارة الهندية مع جدة ، وزيادة الأرباح الناتجة عنها، هو وصول السفن التجارية مرة واحدة فى العام إلى جدة وفى فترة محددة ، وهذا كله لا يستغرق سوى أسابيع قليلة ، وبالتالى لا يكون هناك ما يمكن أن يسيء إلى السوق . هذا يعنى أن سعر البضاعة يتحدد فى ضوء الطلب على كمية الواردات ، ومعروف أن هذا السعر لا يمكن أن ينزل مطلقا إلا بعد وصول الأسطول الذى يليه، أما فى تجارة البن فالوضع على العكس من ذلك تماما .

فى سوريا ومصر تستغرق مسألة عقد صفقة بين تاجرين قيمتها ألف دولار ، أياما عدة وعمل ثلاثة أو أربعة سماسرة أو وسطاء . فى جدة تجرى المبيعات والمشتروات على شكل حمولات سفن كاملة وفى زمن يستغرق حوالى نصف ساعة ، ويجرى دفع النقود فى اليوم التالى . ويجرى شحن هذه المشتروات التى تتم بهذه

(*) حدث أن كنت حاضرا بعد مغادرة الأسطول الهندى مكة ، عندما كان أحد التجار الأثرياء المحترمين يقوم بزيارة واحد من معارفى ليقترض مائة دولار ، وهو يقول إنه وضع كل مليم فى البضائع الهندية التى لا يريد بيعها فى الوقت الراهن ، وأنه لم يعد معه ما يكفى مصروفاته اليومية . هذا أمر دائم الحدوث بين هؤلاء التجار .

الطريقة عن طريق السفن إلى السويس ، ليجرى بيعها فى القاهرة ، ومن القاهرة تنفذ كل تلك المشتروات لتشق طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط . وتجىء العائدات من تلك المشتروات إما على شكل بضائع يجرى تصريفها فى الحجاز ، أو على شكل دولارات وسكوينات يجرى نقل كمية كبيرة منها كل عام إلى خارج جدة عن طريق الأسطول الهندى ، وهذا بحد ذاته يعد سببا رئيسيا فى ندرة العملة الفضية فى مصر . سفن البن التى تأتى من اليمن تعود إلى بلادها حاملة بعض السلع القليلة المصنوعة فى مصر ، مثل الملاءات (التى هى عبارة عن قماش قطنى مقلم أزرق اللون) ، وقماش الكتان الذى تصنع منه القمصان ، والسبح المصنوعة من الزجاج ، لكن القسم الأكبر من المبيعات يكون بالنقد وليس بالأجل .

لو قدر للسويس المشاركة فى التجارة الهندية بصورة مباشرة فسوف يؤدى ذلك إلى التقليل كثيرا من حالة الانتعاش التى تشهدها جدة ، وهذا يعنى أن جدة سوف تعود إلى وضعها الحقيقى الذى ينبغى أن تكون عليه ، أى ميناء الحجاز فقط ، وليس ميناء لمصر بالشكل الذى هى عليه الآن . كان من الطبيعى لأشراف مكة الذين فى أيديهم مقاليد الجمارك أن يعملوا من خلال كل الوسائل المتوفرة لديهم على جعل جدة مركزا للتجارة الهندية ، حيث تشكل الجمارك المفروضة عليها المصدر الرئيسى لدخول هؤلاء الأشراف . السويس ، على العكس من ذلك ،لا توجد فيها رءوس الأموال الكبيرة بصورة مستمرة ، والجاهزة للدخول فى المشتروات ، يزاد على ذلك أن القاهرة نفسها لم تكن قادرة على الدخول – على وجه السرعة فى أضعف الأحوال – فى التجارة الهندية ، من باب الامتياز ، لو قدر لتلك التجارة الانتقال إلى السويس . وسبب ذلك طبقا للأعراف والتقاليد القديمة التى يندر أن يتخلى الشرقيون عنها ، هو أن الشراء بالنقد يكاد يكون غير معروف فى المعاملات التجارية فى تلك المدينة ، أضف إلى ذلك أن البضائع الهندية ، طبقا لهذه الأعراف والتقاليد ،لا تباع فى هذه المدينة إلا بعمليات ائتمانية طويلة الأجل ، والذى لا شك فيه أن المال يمكن أن يشق طريقه فى الوقت المناسب إلى جدة ، لكن القنوات التجارية كانت على نحو لا يسمح لأسطول السفن

التجارية القادم من الهند إلى السويس ببيع حمولته بطريقة مربحة أو حتى فى الوقت المناسب . سبب آخر من الأسباب التى هى لصالح جدة يتمثل فى أن السفن الهندية ، على الرغم من أن السواد الأعظم منها يبحر حاملا العلم البريطانى فإن أطقم تلك السفن وقياداتها كانوا من أهل هذه البلاد ، أى من العرب أو لّلسكار(*) Las-cars. يزاد على ذلك أن هؤلاء البحارة والقباطنة يلزمون خط الملاحة الساحلى ، الذى يسلكه كل من يبحرون فى البحر الأحمر ، لذا يتعين على السفن المرور بكل من جدة وينبع . وهذان الميناءان يتبعان شريف مكة ، الذى يستطيع إجبار هذه السفن بسهولة ويسر على الرسو فى هذين الميناءين ودفع الرسوم ، طبقا لما هو سارٍ مع كثير من سفن البن المتجهة من اليمن إلى السويس . هذه الأسباب لم تعد قائمة ، وسبب ذلك أن محمد على باشا والى مصر ، بعد أن استولى على هذين الميناءين ، وبعد استيلائه على جمارك الحجاز ، قد ينقل جمارك جدة إلى السويس ، ومن السويس يمكن أن يكون هناك اتصال مباشر مع الهند . العقبة الرئيسية التى تعترض ذلك التغيير تتمثل فى غيرة تجار جدة وحقدهم ، وجهل الباشا بمصالحه الخاصة ، إضافة إلى الخوف من احتمال إغضاب سيده . وعلى الرغم من ذلك كان الباشا يفكر جديا فى تغيير النظام المعمول به ، إلى النظام المعمول به فى أحد البيوتات الإنجليزية المحترمة فى الإسكندرية ، وبخاصة أن هذا البيت قام بالتنسيق مع مراسليه فى بومباى فى عام ١٨١٢م ، عندما لم يكن الحجاز فى أيدى الباشا ، وتمكن من إبرام معاهدة مع الباشا تسمح للسفن الإنجليزية بالمجىء مباشرة إلى السويس . على أن يؤمن الباشا انتقال

(*) لّلسكار : بحار أو خادم عسكرى أو جندى مدفعية فى جزر الهند الشرقية . لم يكن هناك قبطان إنجليزى واحد فى جدة طوال خمس سنوات ، إلى أن وصلت السفينة ريسول Resoul فى العام ١٨١٤ الميلادى بقيادة القبطان بوآج Boag قادمة من بومباى ومحملة بالأرز . السفن لا يجرى تشغيلها أو قيادتها بواسطة الإنجليز ، كما أن قلة قليلة من التجار الإنجليز المقيمين فى الهند هى التى تتطلع أو تفكر فى الدخول فى تجارة البحر الأحمر، التى تكاد تكون مقصورة كلية على رءوس أموال التجار المسلمين فى كل من جدة ومسقط وبومباى وسورات وكلكتا ، أما الأمريكان فيندر أن يذهبوا إلى أى ميناء آخر فى البحر الأحمر غير ميناء جدة . (المترجم)

التجارة عبر الصحراء إلى القاهرة . وقد حالت التقارير الواردة عن الحرب الوهابية ، هى والطرادات المعادية فى البحر الأحمر ، بين التجار والاستفادة من مزايا تلك المعاهدة إلى عام ١٨١٥م ، عندما قامت السفينة المرسلة من بومباى بالوصول إلى السويس . ومع ذلك فإن الباشا الذى تصادف أن كان فى مكة يوم أن رست السفينة فى ميناء جدة ، وذلك فى انتهاك مباشر للترتيبات التى جرى الاتفاق عليها ، لذا فقد أوقفت السفينة ، ومنعت من مواصلة رحلتها إلى السويس ، وأجبر ربانها على بيع حمولتها بالخسارة ، يوم أن كان الطاعون مستعرا فى جدة ، وجرى تحصيل الرسوم من السفينة أسوة بسفن الدول الأخرى ، وذلك على العكس مما هو متفق عليه بين بريطانيا العظمى والباب العالى . هذا الإجراء الذى أغضب تماما الأوروبيين ، كان بالإمكان معالجته علاجا ناجحا ، عن طريق الثأر من سفن الباشا التى تتاجر مع مالطة ، الأمر الذى كان يمكن أن يلقن الباشا درسا فى احترام العَلم البريطانى ، ومع ذلك فإن الضباط البريطانيين، نتيجة جهلهم بقوة الباشا وأهميته من ناحية ، ونتيجة أيضا لرغبتهم فى الإبقاء على علاقتهم الودية مع الرجل من ناحية ثانية ، آثروا الصمت وتحمل الغضب ، ناسين أن الحصول على حظوة الحاكم التركى لا تكون بالمهادنة وإنما عن طريق التحدى . وتأسيسا على ذلك كله اضطر التجار إلى توقيع معاهدة ثانية مع الباشا ، جرى إقرارها رسميا من الطرفين . وكان طلب الباشا الأول فى تلك المعاهدة هو أن تدفع السفن فى السويس الرسوم مجمعة – أى عن ميناءى جدة والسويس – فى جمارك ميناء السويس ، وكانت تلك الرسوم الجمركية تقدر بحوالى ١٢ فى المائة ، لكنه وافق فى نهاية المطاف ، على وعد بحوالى ٩ فى المائة جمارك على الواردات الهندية كلها التى تصل إلى السويس ، وكانت تلك الرسوم الجمركية أعلى بحوالى ستة فى المائة عن الرسوم التى يجرى تحصيلها من التجار الأوروبيين فى موانئ الباب العالى . كان مفترضاً لهذه الإجراءات أن تؤدى إلى تجارة نشطة . لكن الباشا كان ميالا إلى المضاربة لحسابه الخاص ، وجاءت مغامرته الأولى عندما أرسل إلى بومباى ، فى ربيع العام ١٨١٦ الميلادى ، لشراء فيل من الهند لتقديمه هدية للباب العالى فى إسطنبول . ومع ذلك كنت لا أزال أخشى ألا يحترم

المعاهدة الثانية مثلما فعل مع المعاهدة الأولى . وسبب ذلك أن جشع الرجل إذا لم تتم السيطرة عليه فلن يقف عند حد من الحدود، وقد يصل الأمر به إلى حد جباية رسوم إضافية ، بالقدر الذى يسمح به ذلك الطريق التجارى الجديد ، وذلك عن طريق تهديد أمن الطريق من السويس إلى القاهرة ، نظرا لأن بدو الصحراء المجاورة لذلك الطريق كانوا كلهم تحت أمر محمد على باشا ورهن إشارته .

كان حاكم جدة السابق (الشريف غالب) مشغولا تماما بالتجارة الهندية ؛ كان الرجل صاحب سفينتين ، حمولة كل منهما أربعمائة طن ، وتعملان فى تجارة الهند، إضافة إلى سفن كثيرة أخرى صغيرة كانت تعمل فى تجارة البن مع اليمن . واقع الأمر أن الشريف غالب كان مضاربا واعيا وحصيفا فى كل أفرع تجارة البحر الأحمر البحرية . كان الرجل يفوق تجار جدة كلهم عن طريق الرسوم الثقيلة والمنافسة القوية، لكن لم يعرف مطلقا عن الرجل أنه كان يمارس الجباية على هؤلاء التجار . كان الرجل إذا ما اقترض مالا أعاده فى الوقت المحدد ، ولم يحاول مطلقا فرض إتاوات غير عادية على الأفراد ، على الرغم من أنه كان يحصِّل تلك الإتاوة من الطائفة أو الجالية كلها عن طريق زيادة الرسوم بطريقة تعسفية . كان الأمن الذائع الذى تمتعت به الممتلكات فى ظل حكم الشريف غالب هو الذى أقنع التجار الأجانب بزيارة ميناء جدة ، حتى بعد أن أصبح الرجل يعانى معاناة شديدة أيام حكم الوهابيين . لم يكن سلوك الشريف غالب فى هذا الاتجاه ناتجا عن حبه للعدل والعدالة ، لأنه كان حاكما مستبدا، ولأن الرجل كان يعرف جيدا أن التجار إذا ما خافوا وتركوا جدة ، فإن المدينة ستصبح بلا قيمة . فى أواخر حكم الشريف غالب زادت الجمارك المفروضة على البن من دولارين ونصف الدولار ، إلى خمسة دولارات على القنطار الواحد ، أى ما يعادل خمسة عشر فى المائة من ثمن شراء القنطار . كانت الجمارك المفروضة على البضائع الهندية تتردد بين ستة فى المائة وعشرة فى المائة ، طبقا لنوعية البضاعة . كان غالب ، إذا لم يستطع على الفور بيع البن أو البضاعة الهندية المستورة لحسابه ، يقوم بتوزيع حمولات سفنه بين التجار الوطنيين الموجودين فى جدة بالسعر السائد فى

السوق ، وبكميات تتناسب مع إمكانيات كل تاجر من التجار ، الذين كانوا يجبرون على دفع الثمن نقدا . لم يكن الشريف غالب الوحيد الذى يفعل ذلك، فى مصر على سبيل المثال ، كان الباشا يقوم فى معظم الأحيان بتوزيع البن على التجار وبفارق واحد عن الشريف غالب ، وهو أن السعر الذى كان يحصله الباشا يكون دوما أعلى من سعر السوق الحقيقى .

حركة المال والأعمال فى جدة تجرى من خلال الممارسة والوسطاء الذين هم فى معظمهم من الهنود من أصحاب رءوس الأموال الصغيرة ، وسيئى السمعة .

عدد السفن المسجلة فى ميناء جدة كبير جدا . ونحن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار السفن الصغيرة كلها المستخدمة فى تجارة البحر الأحمر ، نجد أن هناك حوالى مائتين وخمسين سفينة إما مملوكة لتجار المدينة ، أو لملاكها الذين يتولون تشغيلها ، والذين ينظرون إلى ميناء جدة باعتباره منزلا أو موطنا لهم . والأسماء المختلفة التى تطلق على هذه السفن ، والتى من قبيل السّاى ، والسيوم ، والمركب ، والسمبوك والدهو ، كلها توحى وتعبر عن أحجام هذه السفن والدهو هو أكبر هذه السفن ، وهو الذى يقوم بالرحلات إلى الهند . هذه السفن يجرى أصلا تشغيلها بواسطة أناس من اليمن ، ومن الساحل الصومالى (المقابل لعدن ، فيما بين الحبشة ورأس جواردافيو Guaradafui)، ومن العبيد الذين يوجد منهم ثلاثة أو أربعة على أقل تقدير فى كل مركب من المراكب . يحصل الطاقم على مبلغ معين نظير كل رحلة ، يضاف إلى ذلك أن كل بحار من البحارة يعد فى الوقت ذاته تاجرا من تجار التجزئة ويعمل لحسابه الخاص ، وهذا سبب آخر من أسباب لجوء الأجانب إلى جدة خلال موسم الرياح التجارية ، من المنبع مباشرة ، عن طريق أطقم هذه السفن . فى جدة لا يجرى بناء أى نوع من أنواع السفن بسبب ندرة الأخشاب ، واقع الأمر أن من الصعوبة بمكان - على الوسائل اللازمة لإصلاح السفن . ينبع نفسها تعانى من هذه المسألة . السويس والحديْدة والمخا هى الموانئ الوحيدة فى البحر الأحمر ، التى يجرى فيها بناء السفن ، والخشب الذى يجرى استعماله فى السويس ينقل إليها برا

من القاهرة ، ويأتى أصلا من سواحل آسيا الصغرى (*) . أما الخشب الذى يستعمل فى الحديدة وفى المخا فيأتى جزء منه من اليمن ، أما الجزء الثانى فيأتى من الساحل الإفريقى . ويجرى شراء كثير من السفن من بومباى ومن مسقط ، أما السفن التى يجرى بناؤها فى السويس فيشيع استعمالها فى البحر شمالى اليمن . كانت الحاجة ماسة إلى السفن فى جدة على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة ، وسبب ذلك هو استيلاء الباشا على عدد كبير من السفن ، وإجبار أصحابها على نقل المؤن والذخيرة والأمتعة من مصر إلى الحجاز ، نظير ناولون (رسوم نقل) منخفضة جدا . أثناء مقامى فى جدة ، لم يمض يوم واحد دون أن أشاهد وصول بعض السفن القادمة من ينبع ومن القصير ، وكانت فى الميناء بصفة مستمرة مجموعة من السفن لا يقل عددها بحال من الأحوال عن حوالى أربعين سفينة أو خمسين . هناك ضابط يلقبونه بأمير البحر يعمل رئيسا للميناء ، ويتقاضى من كل سفينة من السفن مبلغا محددا نظير رسوها فى الميناء . كانت تلك الوظيفة تحظى باحترام كبير فى زمن الشريف غالب ، لكنها أصبحت عديمة القيمة والقدر فى هذه الأيام . ولقد اندهشت عندما وجدت أن ميناء مطروقا مثل ميناء جدة ، كان خاليا من قوارب النزهة بكل أنواعها ، وأن الميناء كان خاليا أيضا من بحارة القوارب العامة ، لكنى عرفت أن ذلك كان راجعا إلى غيرة ضباط الجمارك الذين كانوا يمنعون القوارب التى من هذا القبيل ، بل كانوا يصرون على عودة قوارب السفينة إليها عقب غروب الشمس مباشرة .

جدة ليست لها تجارة برية مع أى مكان سوى المدينة المنورة ومكة [المكرمة]. هناك قافلة تتجه من جدة إلى المدينة المنورة مرة واحدة كل أربعين يوما أو خمسين ، حاملة إليها البضاعة والعقاقير الهندية ، وغالبا ما تكون مثل هذه القافلة مصحوبة

(*) القلاع المستخدمة هنا فى سائر أنحاء البحر الأحمر كلها صناعة مصرية ، أما الحبال فهى تصنع من ليف النخيل ، والسفن التى تأتى من جزر الهند الشرقية تكون حبالها مصنوعة من ألياف نخيل جوز الهند، التى يجرى إحضار كميات منها لبيعها هنا فى جدة .

بعدد من الحجاج الذاهبين إلى المدينة المنورة لزيارة قبر [سيدنا] محمد ﷺ . القافلة التى من هذا القبيل تتكون من عدد من الإبل يتراوح بين ستين جملاً ومائة جمل ، ويقودها بدو حرب . ومع ذلك ، فإن التواصل بين جدة والمدينة المنورة يغلب أن يتم عن طريق واحد من الطرق، يسمونه طريق ينبع الأوسط ، ويجرى بواسطة شحن البضاعة بالبحر من ينبع . وعلاوة على القوافل سالفة الذكر ، هناك بعض القوافل الأخرى التى تتجه إلى مكة مساء كل يوم ، أو مرتين كل أسبوع فى أضعف الأحوال ، وتكون تلك القوافل محملة بالمؤن والتموينات ، وطوال الأشهر الأربعة التى تسبق الحج ، وهو الوقت الذى تجلب فيه السفن القادمة إلى جدة الحجاج استعدادا لأداء فريضة الحج . تتزايد الحركة فى جدة أكثر وأكثر ، وهنا تبدأ القوافل فى الخروج بصورة منتظمة من البوابة التى يطلقون عليها اسم باب مكة ، مساء كل يوم بعد غروب الشمس مباشرة . والإبل المحملة تستغرق ليلتين فى هذه الرحلة ، وتحصل على قسط من الراحة أثناء النهار فى منطقة الهَدا التى تقع فى منتصف الطريق ، وإلى جانب هذه القوافل ، هناك قافلة حمير أخرى تكون محملة بأحمال خفيفة ، وهى الأخرى تبدأ أيضا مساء كل يوم عقب غروب الشمس ، وتقطع الرحلة التى تستغرق ما بين خمس عشرة ساعة أو ست عشرة فى ليلة واحدة ؛ إذ تصل قافلة الحمير هذه بصورة منتظمة إلى مكة فى مطلع الصباح الباكر(*) . قافلة الحمير هذه هى التى يجرى بواسطتها نقل الرسائل فيما بين المدينتين ، وفى زمن السلم يلتقى الناس القوافل على شاطئ البحر فى اتجاه اليمن ، وفى داخل تهامة ، وفى المخواه التى يجرى استيراد أو جلب القمح منها . (راجع الملحق رقم ٥ عن جغرافيا الحجاز) .

(*) فى حالة توفر الإبل يجرى تأجير الجمل الواحد للقيام برحلة من جدة إلى مكة نظير ما يتردد بين عشرين قرشا وخمسة وعشرين قرشا . وعندما تتوفر الإبل ، أو بالأحرى ومع اقتراب موسم الحج ، يتردد هذا المبلغ بين ستين قرشا وسبعين قرشا . وأثناء مقامى فى جدة كان إيجار الحمار من جدة إلى مكة يقدر بحوالى عشرين قرشا . هذه الأسعار تعد مرتفعة جداً فى أى مكان آخر فى الليفانت ؛ الجمل الذى يقطع المسافة من القاهرة إلى السويس يحصل صاحبه على خمسة عشر قرشا ، والمسافة بين السويس والقاهرة تقدر بضعف المسافة التى بين جدة ومكة .

الحصر الذى أُورده هنا للدكاكين المختلفة الواقعة فى الشارع الرئيسى فى جدة قد يلقى شيئا من الضوء على تجارة هذه البلدة، وعلى أسلوب الحياة التى يحياها سكان هذه البلدة.

الدكاكين هنا (شأنها شأن الدكاكين فى سائر أنحاء تركيا) تكون مرتفعة أقداما عدة عن مستوى الأرض، وتكون لها مصطبة من الحجر بارزة فى الشارع، ليجلس عليها المشترون. هذه المصطبة تكون محمية من أشعة الشمس بواسطة مظلة، عادة ما تكون مصنوعة من الحصير المثبت فى أعمدة عالية. كثير من الدكاكين يكون عرضها حوالى ستة أقدام أو سبعة من الأمام، أما عمق المحل فيتراوح بين عشرة أقدام واثنى عشر قدما، وتكون للدكان غرفة خاصة أو إن شئت فقل مخزن فى الخلف.

هناك نحو سبعة وعشرين مقهى فى الشارع. الناس فى الحجاز يبالغون فى شرب القهوة ، ولا يعد الأمر غريبا إذا ما شرب الرجل هنا ما يتردد بين عشرين كوبا وثلاثين كوبا من القهوة فى اليوم الواحد، وأفقر العمال هنا لا يقل شربهم قهوة القشر، عن ثلاثة أكواب أو أربعة فى اليوم الواحد، وفى قلة قليلة من المحلات يمكن شرب قهوة القشر ؛ والقشر هنا هو عبارة عن القشرة التى تغطى حبة البن، ويقدر أن تكون أدنى مذاقا من مذاق حبة البن نفسها. هذا واحد من الدكاكين التى يرتادها مرارا أولئك الذين يدخنون الحشيش الذى هو عبارة عن توليفة من زهور نبات القنب والتبغ، التى ينتج عنها نوع من الفتور فى العقل والإدراك. والحشيش لا يزال يستعمل(*) بكثرة فى مصر وبخاصة بين الفلاحين .

(*) يستخدم الناس لهذا الغرض، من زهور القنب، تلك الأوراق الصغيرة التى تحيط بالبذور ، وهم يطلقون على هذه الأوراق اسم (الشرانق) ، عامة الناس يضعون بعضا من تلك الشرانق مع التبغ الذى يعمرون به غلايينهم. أما الطبقات الراقية فيأكلون تلك الشرانق على بالوظة أو معجون يضعونه بالطريقة التالية: يجرى خلط العصير الناتج عن هذه العملية بشىء من عسل النحل، والعقاقير الأخرى حلوة الطعم، ويباع فى مصر على الملأ، فى دكاكين مخصصة لهذا الغرض. والناس يطلقون على معجون الحشيش اسما مؤدبا هو "البهجة" bast أما من يبيعون ذلك المعجون فيسمونهم "المبهجون" basty . وفى مناسبة الاحتفال بزواج الأبناء، وبخاصة أبناء الأعيان وعلية القوم فى القاهرة، وعندما يجرى الاحتفال بالمهن والحرف المختلفة فى البلدة، تجد المبهجين بين هؤلاء الأعيان، على الرغم من معرفتهم أنهم يمارسون عملا غير قانونى. كثير من أصحاب المراتب يستعملون "البهجة" بشكل أو بآخر، هذه البهجة تنبه الحواس وتستثير الخيال مثل الأفيون تماما. بعض الناس يخلطون المعجون ببذور البانجو التى تأتى من سوريا.

فى كل هذه الدكاكين ترى الناس و هم يدخنون النرجيلة (الشيشة) الفارسية التى تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- القدرة وهى أكبر هذه النرجيلات، و هى ترتكز على حامل ثلاثى، ويجرى تقديمها بطريقة أنيقة جدا، و لا وجود لها إلا فى المنازل والبيوتات الخاصة.

٢- الشيشة (ويسميها الناس الأرجيلة فى سوريا)، وهى أصغر حجما من القدرة، ويتصل بها أنبوب حلزونى طويل (يسمونه اللّى)، وهو الذى يجرى من خلاله شفط الدخان.

٣- البورى وله بوصة سميكة تقوم بدور الأنبوب الحلزونى، هذا الغليون هو الرفيق الدائم لأفراد الطبقات الدنيا، ورفيق كل بحارة البحر الأحمر المتيمون باستعماله ، والتبغ الذى يجرى تدخينه فى كل من القدرة والشيشة يأتى من الخليج الفارسى، وأفضل أنواع التبغ تلك التى تأتى من شيراز. هناك نوع أقل جودة من هذا التبغ (يسمونه التمباك) وهو يأتى من البصرة ومن بغداد. وورقة التمباك لونها يميل إلى الاصفرار، و هو أقوى من التبغ العادى، ويجرى غسل التمباك قبل استعماله للتخفيف من قوته. والتمباك الذى يستعمل فى البورى يأتى من اليمن، و هو من النوع نفسه الذى يأتى من البصرة وبغداد، لكنه أقل منه جودة. والاتجار فى هذه السلعة (التبغ والتمباك) يعد تجارة كبيرة جدا، فالاستهلاك فى الحجاز كبير جدا، كما يجرى شحن كميات كبيرة جدا من ذلك التمباك إلى مصر. البورى يندر استعماله فى الحجاز، اللهم إلا من الجنود الأتراك والبدو، والتبغ يأتى من مصر، أو قد يأتى من سنار، التى ينقل منها إلى سواكن. كمية صغيرة جدا من التبغ السورى الجيد هى التى تشق طريقها إلى مكان آخر غير البحر الأحمر.

تمتلئ المقاهى بالناس طوال النهار، و أمام المقهى تقام تعريشة يجلس الناس تحتها أيضا. الغرف والمقاعد و كذلك الكراسى الصغيرة المنخفضة، شديدة الاتساخ، و بذلك تكون على النقيض تماما من مقاهى دمشق النظيفة والأنيقة . الأشخاص

المحترمون لا يشاهدهم أحد مطلقا على المقهى، و لكن أفراد الطبقة الثالثة، هم و البحارة يجعلون من المقهى ملاذهم الدائم. كل إنسان هنا له منزله الخاص الذى يلتقى فيه كل أولئك الذين تربطه بهم صلة مال أو أعمال، والعربى الذى لا يقوى على مصاريف عزومة صديقه على الغذاء يدعوه إلى القهوة عندما يمر عليه، ليدخل ويتناول معه كوبا من القهوة، ويحزن حزنا شديدا إذا ما رفض صديقه الدعوة. وعندما يدخل الصديق يطلب إلى النادل إحضار كوب وعندما يحضر الكوب، يتعجب بصوت عال حتى يسمعه الحاضرون كلهم وهو يقول جدا! (شكرا). هذا الرجل قد يغش دائنيه، أو قد يُتَّهم بحلف يمين باطلة فى معاملاته، ومع ذلك يهرب من انتقاد عامة الناس له، لكن مثل هذا الرجل يمكن أن يشعر بالخزى إذا ما اتضح أنه يحاول مغالطة النادل فى حساب المقهى. بذل الجنود الأتراك قصارى جهدهم فى هذا الاتجاه ليزيدوا من احتقار العرب لهم، وأنا لم يحدث أن رأيت فى مقهى من المقاهى أى أحد من الشعراء الشعبيين الذين يكثر وجودهم فى مصر، ويزيد وجودهم أكثر وأكثر فى سوريا . المنقلة يجرى لعبها فى المقاهى كلها، وكذلك لعبة الدامة، وهى تختلف عن اللعبة الأوروبية الشبيهة بها، لكنى لم يحدث أن شاهدت مطلقا أحدا يلعب الشطرنج فى الحجاز على الرغم من أنى سمعت أنه يشيع لعبه بين الناس، و أن الأشراف متيمون به بصفة خاصة.

يوجد بالقرب من كل مقهى من المقاهى تقريبا شخص يقف أمام طاولة، يبيع ماء باردا فى جرار صغيرة معطرة(*) .

يوجد فى المدينة أيضا واحد وعشرون بائعا يبيعون الزبد، كما يبيعون العسل والزيت والخل على مستوى التجزئة. يشكل الزبد مادة رئيسية فى المطبخ العربى، الذى يعد أكثر دسما من المطبخ الإيطالى، الزبد الطازج الذى يطلق العرب عليه اسم زبدة ،

(*) من عادة الشرقيين أن يشربوا الماء قبل القهوة وليس بعدها مباشرة. و لقد عرفنى الناس ذات مرة عندما كنت فى سوريا على أنى أجنبى أو أوروبى، بعد أن طلبت شيئا من الماء عقب شرب القهوة مباشرة، قال النادل : لو كنت من أهل هذا البلد لما أضعت مذاق القهوة من فمك عن طريق محوه بشرب الماء.

نادرا مايراه أهل الحجاز. يشيع بين جميع الطبقات هنا، شرب كوب من السمن ، يجرى بعدها شرب القهوة. وهم يعتقدون أن السمن مصدر للقوة، وهم معتادون تماما على ذلك منذ عهد الصبا والشباب، الأمر الذى يجعلهم يحسون بالضيق إذا لم يمارسوا هذه العادة. الطبقات الراقية تقتصر على شرب كمية الزبد، لكن الطبقات الأدنى تضيف إلى الكوب نصف كوب آخر، يستنشقونه من خلال فتحات أنوفهم، متصورين أن ذلك يحول دون دخول الهواء الملوث من خلال فتحتى الأنف إلى أجسادهم. هذا التصرف يشيع أيضا بين سكان المدينة وبين البدو أيضا ، الطبقات الدنيا من عادتها أيضا دعك الصدور والأكتاف والأذرع والأرجل بالزبد وبالسمن مثلما يفعل الزنوج، وذلك من باب إنعاش أو ترطيب الجلد والبشرة. لا يكفى إنتاج الزبد استهلاك مدينة جدة، ويجرى جلب شيء من الزبد أيضا من مدينة سواكن، لكن أفضل أنواع الزبد، والذى يتوفر بكميات كبيرة، هو الذى يأتى من "ماسواه" ، ويطلق الناس عليه هنا اسم الدهلاك أو زبد الدهلاك. سفن كاملة تأتى محملة بذلك الزبد من بلدة ماسواه إلى مدينة جدة، وينقل القسم الأكبر من ذلك الزبد إلى مدينة مكة. يجرى استيراد الزبد أيضا من بلدة القصير، هذا النوع من الزبد يأتى من الوجه القبلى فى مصر، وهو يصنع من لبن الجاموس، أما زبد وسمن سواكن ودهلاك فيجرى الحصول عليهما من ألبان الأغنام.

الحجاز عامر بعسل النحل، فهو موجود فى كل ركن من أركان الجبال. أفضل أنواع العسل هو ذلك الذى يأتى من تلك المناطق التى يسكنها بدو النواصرة، فى جنوب الطائف. الطبقات الدنيا هنا يكون إفطارها مكونا من الزبد والعسل المسكوب على قطع الخبز بعد خروجها من الفرن مباشرة، يزاد على ذلك أن العرب المغرمون بالفطير لا يأكلونه مطلقا بدون عسل.

الزيت المستخدم فى القناديل هو زيت السمسم (السيرج الذى يجرى استيراده من مصر). العرب لا يستخدمون الزيت فى أغراض الطبخ، اللهم إلا باستثناء قلى السمك، أو فى عمل الفطير الذى يوزعونه على الفقراء. السلطة التى يغرم بها الأتراك الشماليون، لا وجود لها على المائدة العربية.

هناك ثماني عشرة طاولة لبيع الخضراوات أو الفاكهة. وقد تزايد عدد تلك الطاولات تزايداً كبيرا، بسبب زيادة عدد الجنود الأتراك الذين يغرمون بتناول الخضراوات. الفواكه كلها تأتي من بلدة الطائف التي تكثر فيها الحدائق وقد وجدت هنا في شهر يولية أعنابًا من أفضل الأنواع التي تكثر في الجبال الواقعة خلف مكة [المكرمة] والرمان هنا أيضا وهو من نوع ممتاز، والسفرجل نيئا، الخوخ والليمون موجودان هنا أيضا ولكن أحجامهما صغيرة كما هو الحال في القاهرة، النَّارنج موجود هنا أيضا، وكذلك الموز ، لكنهما لا يزرعان في الطائف، ولكن يجرى جلبهما عن طريق المدينة [المنورة] من الصفراء، ومن الحديِّدة ومن الخليص. هذه الفواكه تستمر إلى شهر نوفمبر، وفي شهر مارس يجرى جلب البطيخ من وادى فاطمة، و يقال إن ذلك البطيخ صغير الحجم ولكنه لذيذ الطعم. العرب لا يأكلون كثيرا من الفاكهة باستثناء العنب، وهم يقولون إن الإكثار من فالفاكهة يسبب الصفراء والتطبل، وهما على صواب في ذلك، فالفاكهة التي تباع في جدة ليست صحية، لأن تعبئة الفاكهة في الطائف قبل أن تنضج يجعلها تنضج نضجا غير طبيعي عن طريق التخمر طوال رحلة نقلها، وها هم الأتراك يتشاجرون ويتقاتلون صباح كل يوم أمام الدكاكين، وهم يحاولون الحصول على الفاكهة التي لا تجنى إلا بكميات صغيرة وتكاد تكون نادرة جدا. الفاكهة يجرى إحضارها إلى جدة من وادى فاطمة الذى يبعد مسافة خمسة أميال أو ستة في اتجاه الشمال، ووادى فاطمة يمد مكة أيضا بالفاكهة والخضراوات – وأكثر تلك الخضراوات شيوعا هي الملوخية والبامية والباذنجان الرومي والباذنجان العروس والخيار واللفت والبنجر الذى يأكل الناس أوراقه ويتخلصون من الجذور باعتبارها عديمة النفع. الفجل والكراث وحدهما هما من الخضراوات التي يجرى استعمالها يوميا وبصورة منتظمة في المطبخ العربي؛ الفجل والكراث صغيران جدا ولكن الناس يأكلانهما هنا مع الخبز. العرب بشكل عام لا يستهلكون الخضراوات إلا بكميات قليلة، وهم يصنعون أطباقهم من اللحم والأرز والدقيق والزبد. في دكاكين الفاكهة يجرى أيضا بيع التمر الهندى الذى يطلقون عليه هنا اسم "الحُمار". هذا التمر يأتي من جزر الهند الشرقية، لا على شكل أقراص، مثل ذلك التمر الذى يأتى من بلاد

الزنوج، وإنما بشكله الطبيعي، على الرغم من أنه يكون أكثر تحللا. هذا التمر عندما يغليه الناس في الماء، ينتج عنه مشروب منعش، وهو يعطى للمرضى مسلوقا مع اللحم على شكل عصيدة.

هناك ثمانية تجار يبيعون التمور، وهي خلافاً لسائر المأكولات العربية الأخرى، تعد المأكول المفضل عند العرب، والعرب لديهم أحاديث (شريفة) تبين فوائد التمور، وتفوقها على كل أنواع الأطعمة الأخرى. استيراد التمور وجلبها لا يتوقف طوال العام. في نهاية شهر يونية يظهر المحصول الجديد (الذي يسميه الناس هنا "رطبا"): هذا الرطب يستمر طوال شهرين، أما بقية العام فتشهد بيع معجون التمر، الذي يسميه الناس هنا "عجوة"، هذه العجوة يجرى تشكيلها عن طريق ضغط التمور بعد أن يكتمل نضجها لتصبح على شكل قفف كبيرة، وبذلك يمكن تحويل هذه التمور الناضجة إلى عجينة متماسكة، أو أقراص صلبة متماسكة أيضا، وكل قفة من هذه القفف تزن حوالي مائتي ثقل، والبدو يصدرون العجوة على هذا الحال، يجرى قطع هذه العجوة من القفة ليجرى بيعها بالرطل، وهذه العجوة تشكل جزءا من الطعام اليومي عند طبقات الشعب، أثناء السفر يجرى إذابة العجوة في الماء لتعطى مشروبا منعشا حلو المذاق. هناك ما يزيد على اثني عشر صنفا من العجوة، وأفضل أنواع هذه العجوة يأتي من بلدة تربة، التي تقع خلف الطائف (والتي سيطر عليها الوهابيون في الوقت الحالي) وأكثر الأنواع شيوعا في السوق حاليا هو ذلك النوع الذي يأتي من وادي فاطمة، أما أفضل الأنواع، فهو ذلك الذي يأتي من خليص، ومن الحديِّدة، على الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة. في موسم الرياح الموسمية تقوم سفن الخليج الفارسي [العربي] بجلب العجوة من البصرة، ليجرى بيعها في قفف صغيرة، لأن كل واحدة منها تزن حوالي عشرة أرطال، وهذه العبوة مفضلة عن سائر العبوات الأخرى. سفن الهند الشرقية تحمل معها عند عودتها إلى بلادها كميات كبيرة من العجوة، يجرى بيعها بأرباح كبيرة إلى مسلمي هندوستان .

هناك أربعة محلات تبيع البان - كيك (الفطير المحلى بالسكر)، هذه المحلات تبيع ذلك الفطير المحلى بالسكر في الصباح الباكر، وهذا الفطير المحلى بالسكر والمحمر في الزبد يشكل إفطارا شهيا ومفضلا.

خمسة محلات تبيع الفول، هذه المحلات لا تبيع الفول إلا للإفطار فقط فى الصباح، وذلك فى ساعة مبكرة. الفول الذى يباع هنا هو من نوعية الفول المصرى الذى يجرى سلقه أو تسويته فى الماء، و يأكله الناس مع شىء من الزبد و الفلفل. هذا الفول المسلوق يسمونه هنا مدمس، هذا المدمس يشكل طبقا شهيا عند المصريين، وقد تعلم العرب أكل الفول من المصريين.

أربعة دكاكين تبيع السكريات، والفواكه المُسَكَّرة، وسائر أنواع الحلوى التى يغرم بها أهل الحجاز دونا عن سائر سكان الشرق الذين سبق أن التقيتهم. أهل الحجاز يأكلون السكريات والحلوى بعد العشاء، وفى المساء نجد طاولات بيع السكريات محاطة بجموع كبيرة من الناس الذين جاءوا لشراء هذه الأنواع من الحلوى. الهنود هم أحسن من يصنع هذه السكريات. وأنا لم أر هنا نوعا من السكريات لم يسبق لى رؤيته فى مصر، البقلاوة والكنافة والغُرَيِّبة تشيع هنا مثلما هى شائعة فى حلب وفى القاهرة.

محلان لبيع الكباب، هذان المحلان يبيعان اللحم المحمر، وهما مملوكان لبعض الأتراك، نظرا لأن الكباب ليس طبقا عربيا.

دكانان لبيع الحساء، هذان المحلان يشبهان المسمط، فهما يبيعان رءوس الأغنام وأرجلها بعد سلقها، ويكثر تردد الناس عليها وقت الظهيرة.

دكان واحد لبيع السمك المحمر (المقلى) فى الزيت، هذا المحل يتردد عليه البحارة الأتراك والبحارة اليونانيون .

عشر طاولات أو اثنتا عشرة طاولة لبيع الخبز، وغالبا ما يباع الخبز بواسطة النساء، الخبز طعمه غير مستساغ، و ربما يكون الدقيق لم يجر تنظيفه تماما، كما أن الخميرة من النوع السيئ والرغيف من الحجم نفسه الذى يباع فى القاهرة ببارتين، هو هنا ولكن من نوع أردأ أو يباع بثمانِ بارات.

محلان لبيع الحليب، أو اللبن الرائب الذى يعد من الأشياء شديدة الندرة فى سائر أنحاء الحجاز. والأغرب بحق هو أن يصبح اللبن أمراً نادراً بين رعاة الأغنام والقطعان فى الجزيرة العربية، لكن كان ذلك هو الحال فى كل من جدة ومكة. واقع الأمر أن المناطق القريبة من هاتين المدينتين مناطق جرداء، لا تصلح لرعى الماشية، هى ومن يقومون على أمر رعيها نظير الحصول على الحليب من هذه الماشية. عندما كنت فى جدة كان رطل اللبن (اللبن يباع هنا بالوزن) يباع بقرش ونصف القرش، ولا يمكن الحصول عليه إلا عن طريق المحاباة. وهذا الذى يسميه أتراك الشمال يوغورت (زبادى)، أو اللبن الحامض (*) على حد قول السوريين والمصريين، ليس من بين الأطباق العربية الوطنية، يزاد على ذلك أن بدو الجزيرة العربية لا يقدرون ذلك النوع من اللبن مطلقا.

دكانان صاحباهما تركيان يبيعان الجبن اليونانى واللحم المقدد والتفاح المجفف والتين والزبيب والمشمش المجفف الذى يسمونه قمر الدين، كل هذه الأصناف تباع بثلاثة أضعاف ثمنها فى القاهرة. الجبن يجرى جلبه من كانديا **candia**، ويزداد الطلب عليه بين الجنود الأتراك. هناك نوع من الجبن يصنع فى الحجاز هذا النوع شديد البياض على الرغم من ملوحته، ولا يمكن الاحتفاظ به مدة طويلة، وليس مغذيا بأى حال من الأحوال. والبدو أنفسهم لا يعيرون الجبن اهتماما، وهم إما يشربون الحليب أو يحولونه إلى زبد. اللحم المجفف الذى يباع فى هذين الدكانين هو اللحم المملح، ولحم البقر المدخن الذى يأتى من آسيا الصغرى، والذى يعرف فى سائر أنحاء تركيا باسم البسطرمة، ويقبل عليه الرحالة بدرجة كبيرة. الجنود الأتراك والحجاج متيمون بالبسطرمة، أما العرب فلا يستسيغون طعمها مطلقا، كثير من العرب الذين يلاحظون اختلاف لحم البسطرمة من حيث الشكل عن اللحوم الأخرى يصرون على أنه لحم خنزير، ومن هنا فإن تقييم العرب وتقديرهم للجنود الأتراك يختلف ويتباين

(*) لبن شديد الكثافة، يصبح مر المذاق عن طريق غليه وإضافة نوع من الحامض إليه.

بسبب هذا الظن. الفواكه المجففة سالفة الذكر تأتى كلها من أرخبيل جزر اليونان، لكن باستثناء المشمش، هذا المشمش يرسل من دمشق إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية، التى تعده نوعا من الترف، وبخاصة بين البدو. والمشمش يجرى نزع بذوره وتحويله إلى عجينة ، ثم يجرى نشره على أوراقه إلى أن يجف فى ضوء الشمس، وبذلك يتحول المشمش إلى نوع من المرق إذا ما أذيب فى الماء. الجنود الأتراك يعيشون خلال مسيرتهم في سائر أنحاء الحجاز على البسكويت وعلى ثمرة المشمش.

أحد عشر دكانًا لتجارة الحبوب، و يمكن من هذه الدكاكين ابتياع القمح المصرى والشعير المصرى والفول المصرى و كذلك العدس المصرى وأيضا الذرة المصرية(*) وكذلك الأرز الهندى و الأرز المصرى والبسكويت إلخ، والدقيق (الطحين) الوحيد الذى يباع فى الحجاز حاليا يأتى من مصر. فى زمن السلم يزيد الاستيراد من اليمن إلى كل من مكة وجدة، ومن نجد ومن المدينة المنورة أيضا، ومع ذلك تظل الواردات من مصر الأكبر حجما، ويمكن القول بحق إن الحجاز يعتمد على مصر اعتمادا كبيرا فى مسألة القمح. كانت تجارة القمح من قبل فى أيدى الأفراد، وكان لا يجرى بيع أى شىء من القمح فى السويس أو القصير لأشخاص بعينهم، نظرا لأن كل حبة من حبوب القمح كانت تشحن إلى جدة لحساب الباشا، وهذا هو شأن كل المؤن والتموينات الأخرى، وكذلك الأرز والزبد والبسكويت والبصل الذى يجرى استيراد كميات كبيرة منه. طوال مقامى فى الحجاز، ونظرا لأن هذا البلد ينتج ما يكفيه، كان الباشا يبيع الحبوب فى جدة بسعر يتراوح بين مائة وثلاثين قرشا ومائة وستين قرشا للإردب الواحد، وقس على ذلك بقية المؤن والتموينات الأخرى، الباشا يشترى إردب،

(*) قد تأتى الذرة أيضا من سواكن التى تصل إليها من تاكة فى داخل النوبة، كما تصل إليها أيضا ذرة صغيرة الحبوب من اليمن ليجرى بيعها هنا فى جدة.

القمح فى مصر باثنى عشر قرشا فى الوجه القبلى، بما فى ذلك تكلفة النقل من قنا إلى القصير؛ والنقل من القصير إلى جدة يكلف حوالى خمسة وعشرين قرشا أو ثلاثين قرشا. هذه الأرباح الفظيعة هى التى ساعدت على تحمل نفقات الحروب الوهابية، لكن هذا الإجراء لم يكن محسوبا بشكل يعمل على استرضاء الناس. كان أعوان الباشا يلتمسون له الأعذار، مدعين أن رفع محمد على باشا لأسعار الحبوب هو الذى يجعل بدو الحجاز يخدمون مصلحة محمد على باشا ويراعونها، نظرا لأن البدو يعتمدون على كل من مكة وجدة فى الحصول على المؤن و التموينات اللازمة لهم، و من ثم كان البدو مضطرين إلى الدخول فى خدمة محمد على باشا، والحصول على الأجور التى يدفعها لهم، و بذلك ينجون من الموت جوعا. عامة الناس فى الحجاز لا يستعملون القمح بكميات كبيرة، ولذلك فهم يصنعون خبزهم من الذرة أو من دقيق الشعير، و كلاهما أرخص من القمح بمعدل الثلث، أو قد يعيشون على الأرز وحده هو والزبد، و هذا هو أيضا حال السواد الأعظم من بدو تهامة على الساحل. أهل اليمن المقيمون فى جدة لا يأكلون سوى الذرة. القسم الأكبر من الأرز المستخدم فى جدة يجرى جلبه من الهند بواسطة السفن ، وأفضل أنواع الأرز هو الذى يأتى من الجزيرات ومن كتش cutch.
الأرز هو الطعام الرئيسى بين أهل الحجاز، و هم يفضلون أرز الهند على الأرز الذى من مصر، لأنهم يظنون أن الأرز الهندى أفضل من الأرز المصرى من الناحية الصحية، و المعروف أن الأتراك عن بكرة أبيهم هم و الأجانب والأغراب من أهل الشمال يفضلون الأرز المصرى، والمعروف أن حبة الأرز يميل لونها إلى الاحمرار، لكن أفضل أنواع الأرز الهندى و المصرى هى الأنواع شديدة البياض. يزاد على ذلك أن الأرز الهندى ينتفخ مع الطهى أكثر من الأرز المصرى، و من هنا يفضل العرب ذلك النوع من الأرز نظرا لأن كمية صغيرة تكفى لملء الطبق، لكن قيمة الأرز المصرى الغذائية أكبر. الأرز الهندى أرخص من الأرز المصرى ويجرى نقله من جدة إلى كل من مكة والطائف والمدينة [المنورة] ثم بعد ذلك إلى نجد. و خليط من الأرز والعدس وعليهما شىء من الزبد يشكل وجبة مفضلة لدى أفراد الطبقة المتوسطة، وعادة ما يكون طبقهم الرئيسى

فى وجبة العشاء(*) . لقد وجدت فى كل جزء من أجزاء الحجاز أن البدو عندما ينتقلون لا يحملون معهم من المؤن سوى الأرز والعدس، بسبب استعمال الجيش التركى للبسكويت بكميات كبيرة. أهل الجزيرة العربية لا يحبون البسكويت ويندر أن يأكلوه حتى ولو كانوا على ظهور المراكب التى يخبزون فى أفرانها خبزتهم غير المخمورة كل صباح، ومعروف أن هذه الأفران موجودة على ظهور مختلف السفن العاملة فى البحر الأحمر.

تجار القمح يبيعون الملح أيضا، ويجرى جمع ملح البحر بالقرب من جدة، وهذا عبارة عن احتكار مقصور على شريف مكة وحده. سكان مكة يفضلون ملح الصخور، الذى يجرى جلبه إلى مكة بواسطة البدو الذين يجلبون ذلك الملح من بعض الجبال الغربية من الطائف.

واحد وثلاثون دكانا تبيع التبغ، يجرى فى هذه المحلات بيع التبغ المصرى والتبغ السورى والتمباك وإن شئت فقل التوباكو الذى يستخدم فى الغلايين الفارسية، كما تباع فى هذه المحلات أيضا رءوس الشياش وخراطيم الشياش وحبات جوز الهند والبن وقشر البن والصابون واللوز وزبيب الحجاز وبعض سلع البقالة الأخرى. التبغ المصرى يجرى خلطه فى بعض الأحيان بالتبغ السنارى، ليصنع منه صنف رخيص الثمن وعليه طلب كبير فى سائر أنحاء الحجاز. هناك نوعان من ذلك التبغ المصرى، أحدهما تكون أوراقه خضراء اللون حتى بعد أن تجف، وهذا هو ما يسميه الناس هنا الربّة ، وهو يأتى من الوجه القبلى فى مصر. النوع الثانى أوراقه بنية اللون، وأفضل أنواعه تلك التى حول بلدة طهطا، التى تقع جنوب مدينة أسيوط . أثناء الحكم الوهابى لم يكن التبغ يباع بصورة علنية، نظرا لأن بدو الحجاز متيمون بالتبغ، كان الناس يبيعونه فى الخفاء فى دكاكينهم، لا تحت اسم تبغ أو دخان

(*) هذا الطبق معروف فى سوريا أيضا، وهم يسمونه هناك مجدرة ، وسبب ذلك أن العدس يبدو من بين الأرز وكأنه علامات الجدرى التى تظهر على وجه من يصاب بهذا المرض .

وإنما تحت اسم "احتياجات الرجل" . يجرى استيراد خراطيم الشياش الفارسية من بلاد اليمن، أما ثمار جوز الهند فيجرى جلبها من جزر الهند الشرقية، ومن ساحل جنوب إفريقيا الشرقى، ومن بلاد الصومال، ويمكن الحصول على هذه الثمار وهى طازجة تماما وبأسعار منخفضة خلال فترة الرياح الموسمية، ويبدو أن أهل جدة ومكة مغرمون بتجارة جوز الهند. الحبات الكبيرة من جوز الهند يجرى استعمالها فى صناعة البوارى، وإن شئت فقل الشيشة الفارسية الشعبية، أما حبات جوز الهند الصغيرة فيستعملونها فى صناعة علب السعوط.

يأتى الصابون من السويس التى يجلب إليها من سوريا، وهى التى تمد ساحل البحر الأحمر كله بالصابون. تجارة رائجة، والقسم الأكبر منه فى أيدى تجار حبرون، التى (التى يطلق العرب عليها اسم الخليل) الذين ينقلون الصابون إلى جدة، إذ إنها المكان الذى يوجد فيه هؤلاء التجار بصفة دائمة. اللوز والزبيب يأتيان من الطائف، ومن جبال الحجاز، ويجرى تصدير كميات كبيرة منه إلى جزر الهند الشرقية. اللوز من نوعية ممتازة، وحبوب اللوز صغيرة وسوداء اللون، لكنها حلوة المذاق. ويجرى صناعة مشروب سكرى من كل من الزبيب واللوز.

ثمانية عشر محلا للعقاقير، أصحاب هذه المحلات كلهم من جزر الهند الشرقية، والغالبية العظمى منهم من سورات فى الهند. هذه المحلات تبيع إلى جانب كل أنواع العقاقير: الشموع والورق والسكر والعطر والبخور، وأهل الحضر يستخدمون كميات كبيرة من البخور الذى تستعمله الأسر المحترمة فى تعطير الغرف يوميا وبخاصة فى الصباح، والمستكة هى وخشب الصندل يجرى وضعهما على الفحم النباتى المشتعل طلبا لتعطير أجواء الغرف، والتوابل بكل أنواعها هى والعقاقير الباعثة على الدفء يشيع استعمالها فى الحجاز، ويندر شرب القهوة فى المنازل دون خلطها بالهيل أو القرنفل، كما أن الفلفل الأحمر الذى يجلب من الهند أو من مصر يدخل فى كل الأطباق هنا. وهناك سلعة تجارية مهمة تدخل ضمن ما يبيعه بائعو العقاقير فى جدة ومكة، هى زر الورد الذى يجرى جلبه من بساتين الطائف. أهل الحجاز، وبخاصة

النساء منهم ينقعن زر الورد فى الماء ليستخدمن الماء بعد ذلك فى وضوئهن، هن أيضا يغلين هذه الورود الصغيرة مع السكر، ليصنعن منها شرابا طيب الرائحة. السكر الذى يباع فى محلات بيع العقاقير يجرى إحضاره من الهند، هذا السكر يميل لونه الأبيض إلى الاصفرار، وهو شديد النقاء لكنه على شكل مسحوق. يجرى استيراد كمية صغيرة من السكر من مصر، لكن الناس هناك لا يستلطفون السكر المصرى، الناس هنا يفضلون بشكل عام كل ما يأتى من الهند، ظنا منهم أن المنتجات الهندية أجود، هذا تماما مثلما يحدث للمنتجات البريطانية التى تفضلها سائر دول القارة الأوروبية. بائعو العقاقير الذين من أصل هندى هنا يملكون ثروات كبيرة، وتجارتهم مربحة جدا، ولا يمكن للعرب منافستهم فى هذا المجال. فى كل من مكة وأيضا فى الطائف والمدينة المنورة وكذلك فى ينبع نجد أن باعة العقاقير كلهم ينحدرون من أصل هندى، وعلى الرغم من استقرار هؤلاء الباعة فى البلاد منذ أجيال عدة، وعلى الرغم أيضا من تطبيع حياتهم تطبيعا كاملاً، وعلى الرغم من أنهم يميزون أنفسهم ببعض العادات البسيطة عن العرب، فإنهم لا يستلطفونهم بشكل عام، ويتهمونهم بالجشع والخداع.

هناك أيضا اثنا عشر دكانا تبيع بضائع صغيرة من صناعة الهند، من قبيل أطقم الخزف، رءوس الشياش، والملاعق الخشبية، وحبات السبح المصنوعة من الزجاج، والسكاكين والمسابح والمرايا وأوراق اللعب، إلخ. هذه الدكاكين مملوكة للهنود، وغالبيتهم من بومباى. قليل جدا من البضاعة هى التى تشق طريقها إلى هنا، فيما عدا الإبر والمقصات والشغال الذى يستعمله الخياطون، وكذلك المبارد، يمكن القول إن الأشياء الأخرى التى من هذا القبيل تأتى كلها من الهند. زد على ذلك أن الأوانى الفخارية المصنوعة فى الصين تحظى هنا بقبول كبير فى الحجاز. السكان الأثرياء هنا يستعرضون مجموعات قيمة من الخزف الصينى الفاخر، وهم يعرضون مثل هذه الأوانى الخزفية على رفوف فى غرف الاستقبال، وهذا هو ما يحدث فى سوريا. لقد شاهدت فى كل من مكة وجدة، أطباقًا من الخزف توضع على المائدة قطر الواحد منها

لا يقل عن قدمين ونصف القدم، ويحمل الواحد منها شخصان، وفى كل طبق منها خروف مشوى كامل. السبح أو حبات السبح الزجاجية يجرى تصديرها من جدة إلى كل من سواكن والسوق الحبشية، هذه الحبات منها ما يصنع فى مدينة البندقية ومنها ما يصنع فى مدينة حبرون (الخليل). بدويات الحجاز يلبسن هذه العقود الزجاجية أيضا، على الرغم من أنهن يستعملن الأساور المصنوعة من القرون سوداء اللون، والعقود المصنوعة من الكهرمان. هذه الدكاكين هى التى تبيع حبات العقيق، التى يطلق الناس هنا عليها اسم الريش(*) التى تأتى من بومباى فى الهند ويجرى استعمالها فى أعماق إفريقيا. هناك أيضا حبات حمراء اللون تصنع من الشمع، أشاهدها هنا بكميات كبيرة. هذه الحبات الحمراء تأتى من الهند، وغالبا ما تكون مخصصة للحبشة. تباع هنا أيضا تشكيلة كبيرة من المسابح، منها ما هو مصنوع من اليسر(**) وهو الأغلى، واليسر هذا نوع من المرجان الذى ينمو فى البحر الأحمر، وأفضل أنواع ذلك المرجان هو النوع الذى يزرع بين جدة والقنفذة، ولونه أسود غامق، ويجرى تلميعه بنوع من الورنيش، والخيط المعلق فيه مائة حبة من حبات اليسر يباع بما يتراوح بين دولار واحد وأربعة دولارات طبقا لحجم الحبة، والذين يصنعون حبات اليسر هذه هم الصناع المهرة فى جدة، والطلب كبير على مسابح اليسر فى الملايو. هناك مسابح أخرى (يجرى جلبها من الهند) تصنع من مادة الكالمباك طيبة الرائحة، أو من خشب الصندل، والطلب كبير على هذا النوع من المسابح فى كل من مصر وسوريا. قلة قليلة من الحجاج هم الذين يغادرون الحجاز ولا يشترون بعضا من تلك المسابح من المدينتين المقدستين، وذلك على سبيل الهدايا لأصدقائهم فى بلادهم.

(*) راجع كتاب أسفار فى بلاد النوبة، المقال المعنون: شندى.

(**) حوش اليسر، وهو اسم الحارة الرئيسية فى جدة، مأخوذ من كلمة "يسر".

أحد عشر دكانا للملابس، يجرى فيها كل صباح بيع مختلف الملابس بطريقة المزاد العلني. القسم الأكبر من تلك الملابس عبارة عن طرز (موديلات) تركية، يبيعها تجار الطبقتين الأولى والثانية، مع إحداث بعض التعديلات الطفيفة في قصات الملابس. طوال موسم الحج يتردد الناس على هذه الدكاكين لشراء الحرام أو الإحرام ويقصد به ملابس الإحرام ، التي هي عبارة عن ذلك الرداء الذي يرتديه الحاج والذي يتكون من قطعتين من قماش الشراشف الهندي أبيض اللون. يأتي بدو الحجاز إلى هذه الدكاكين أيضا لشراء العباءات الصوفية، أو إن شئت فقل عباءات البدو التي تجلب من مصر، والتي يعتمدون عليها في هذه السلع، ومن هنا يبدو هؤلاء البدو متكاسلين تماما مثل باقي أهل الحجاز؛ فقد جرت العادة أن تقوم زوجات البدو بصناعة العباءات الخاصة بهن وبأزواجهن. هذه الدكاكين تجلب إلى جدة أيضا بعضا من السجاد التركي من الأصناف الرديئة، والذي يشكل جزءا أساسيا من تأثيث خيمة شيخ القبيلة، هذه الدكاكين تبيع أيضا بالتجزئة الواردات الأخرى كلها التي تجيء من مصر، والتي تدخل ضمن الملبوسات مثل الملاءات ، والمفارش المصنوعة من القطن والكتان الذي تصنع منه القمصان، والقمصان المصبوغة باللون الأزرق والتي يلبسها الفلاحون ، والنعال صفراء اللون (البلغ) التي يلبسها التجار والسيدات أيضا ، والطواقي حمراء اللون، وكل أنواع الملبوسات ، وشيلان الكشمير المستعملة وشيلان الموسلين ... إلخ.

هناك أيضا ستة محلات هندية تبيع الأشياء بالقطع والنسيج بالأطوال المحددة، هذه الدكاكين تبيع القماش الفرنسي ، وشيلان الكشمير... إلخ ، هذه السلع مملوكة لتجار كبار ولكن وكلاءهم يبيعونها بالتجزئة. كل التجار الكبار تقريبا يقومون في منازلهم بتجارة التجزئة، فيما عدا كبار التجار الهنود المقيمين في جدة بصفة دائمة، هؤلاء التجار لا يتاجرون إلا في البضائع الهندية التي تباع بالقطعة أو بالأطوال المحددة. تجار مكة الآخرون يعملون في أفرع التجارة كلها. شاهدت ذات مرة شقيق التاجر الجيلاني وهو يتشاجر مع بائع ينبعي جائل حول سعر واحدة من الملاءات ،

التى يصل سعرها إلى حوالى خمسة عشر شلنا؛ لكن هذا هو الحال نفسه فى مصر وفى سوريا، حيث يقوم أثرياء التجار المواطنين بالبيع بالتجزئة فى منازلهم، وبالتالى يدخلون فى أدق تفاصيل المال والأعمال، ومع ذلك لا يحتفظ الواحد من هؤلاء التجار بمجموعة كبيرة من الكتبة أو المساعدين، الذين لا يشكل وجودهم أهمية كبيرة. التاجر التركى لا يمسك أكثر من دفتر حسابى واحد، وهو يدون فى هذا الدفتر، من واقع دفتر الجيب، مبيعاته ومشترياته الأسبوعية أيضا. هؤلاء التجار ليست لديهم تلك المراسلات الواسعة التى يحافظ عليها التجار الأوروبيون ويداومون عليها. تجار جدة أقل تدوينا من التجار الأوروبين، ولهم صديق فى كل مدينة من المدن التى يتعاملون معها، وهم يجرون حسابا ختاميا مع هذا الصديق فى نهاية العام. التجار الأتراك، باستثناء أولئك الذين يعيشون فى الموانئ البحرية، لا يعملون إلا فى فرع واحد من أفرع التجارة، وهم لا يتعاملون سوى مع المدينة التى يحصلون منها على بضاعتهم من ناحية، والمدينة التى يرسلون إليها هذه البضاعة من ناحية ثانية. من هنا، وعلى سبيل المثال، نجد أن كبار تجار بغداد الحلبيين، وهم أناس يتراوح رأسمال الواحد منهم بين ثلاثين ألف جنيه إنجليزى وأربعين ألفًا، يتسلمون بضاعة من أصدقائهم فى بغداد، ثم يرسلون تلك البضاعة من حلب إلى إسطنبول. وأنا أعرف الكثيرين من هؤلاء التجار الذين ليس لديهم كتبة، ولكنهم يصرفون أمورهم بأنفسهم. فى القاهرة تجد التجار السوريين يتاجرون فى السلع الدمشقية والحلبية، ولا صلة بينهم وبين التجار المغربيين، أو السوريين، أو حتى تجار جدة.

المعاملات التجارية هنا أبسط بكثير من مثيلاتها فى أوروبا، نظرا لأن التجار هنا يستخدمون رأسمالهم الخاص، فضلا عن أن مسألة العمولات هنا أقل بكثير منها فى أوروبا. التاجر هنا عندما يشحن مجموعة من البضائع إلى مكان بعينه يرسل معها أحد شركائه، أو قريبا من أقربائه إذا لم يكن له شريك مقيم فى المكان الذى يتاجر معه. يزاد على ذلك أن المعاملات البنكية وكذلك الحوالات المالية غير معروفة هنا بين التجار الوطنيين، وهذا بحد ذاته يوفر الكثير من المتاعب. فى المدن التى توجد فيها

مصانع أوروبية، قد توجد الحوالات و الكمبيالات، لكنها ليست شائعة بين المواطنين الذين لم يألفوا سوى التنازلات.

يزاد على ذلك أن الإجراء الذى يتخذه كل من التجار المسلمين، والتجار المسيحيين، وكذلك التجار اليهود والذى يقضى بعدم سحب أى رصيد مطلقا من رأس المال، يعد سببا آخر من الأسباب التى لا تجعل التركيز على تفاصيل إمساك الدفاتر أمرا ضروريا كما هو الحال فى أوروبا. ولما كان البدوى لا يحصى مطلقا خيام قبيلته، أو عدد أغنامه، وكما أن الرئيس العسكرى لا يحصى عدد جنوده، وكما أن الحاكم لا يقوم باحصاء سكان مدينته، فإن التاجر بدوره لا يحاول مطلقا التأكد من المقدار الصحيح لثروته، كل ما يتطلع إليه مثل هذا التاجر هو تقدير تقريبى لتلك الثروة أو الممتلكات، وهذا ناتج عن اعتقاد مفاده أن إحصاء الثروة يعد مظهرا من مظاهر المباهاة، وأن الله يعاقب من يفعل ذلك بإنقاص تلك الثروة.

يندر أن يدخل الشرقى فى مضاربات خطرة، ولكنه يقصر تعاملاته على حدود رأسماله. مسألة الحصول على ائتمانات كبيرة لا تتم إلا بعد كثير من المصاعب، وسبب ذلك أن أمور الأفراد هنا تكاد تكون معروفة للناس كلهم ، وذلك على العكس من أوروبا. هذا يعنى أن مسألة الفشل فى رد الائتمان يعد أمرا نادرا ، وعندما يصاب تاجر بالحرج نتيجة الفشل فى المضاربة، أو نتيجة الخسائر الحتمية، نجد أن دائنيه يمتنعون عن الضغط عليه أو مطالبته، ويجرى سداد ديونهم بعد سنوات بما يحول بين الرجل وبين النتائج المترتبة على الإفلاس.

وعلى الرغم من ذلك نجد أن التجار الشرقيين معرضون، من ناحية أخرى، لإلصاق تهمة الشك فى مدفوعاتهم بهم، وبخاصة تلك المدفوعات التى يسددها هؤلاء التجار بعد فوات أوانها. زد على ذلك أن التجار المحترمين لا يترددون فى تأخير سداد ديونهم عدة أشهر، و يمكن القول إن تلك قاعدة سارية فى مصر وسوريا، أن الديون المحددة المواعيد لا يجرى سدادها إلا بعد ما يقرب من ضعف الموعد المحدد، لكن هذا التصرف – على حد قول العارفين هنا – لم يحدث إلا خلال السنوات العشرين الأخيرة

فقط، وإن ذلك جاء نتيجة للكساد التجارى على مستوى العالم من ناحية ، وتناقص رأس المال فى الليفانت من الناحية الأخرى. وعلى قدر ما شاهدته فى جدة، فإن الصفقات كلها تقريبا تكاد تكون بالنقد وليست بالأجل.

ثلاثة دكاكين تبيع مواعين من النحاس الأحمر، إذ توجد فى كل مطبخ من مطابخ الجزيرة العربية تشكيلة كبيرة من الأوانى المصنوعة من النحاس الأحمر، البدو أيضا لديهم غلاية من النحاس الأحمر فى كل خيمة من الخيام، هذه الغلايات تأتى من مصر. أهم هذه المصنوعات النحاسية هو ما يسميه الناس الإبريق الذى يستخدمه المسلمون فى الوضوء، ولا يمكن لأحد من الحجاج الأتراك الوصول إلى الحجاز دون أن يكون معه إبريق، أو يشترى لنفسه واحدا من جدة فى أضعف الأحوال. توجد فى السوق أيضا بعض الأوانى النحاسية الصينية التى يجلبها أهل الملايو إلى جدة، لكن هذه الأوانى النحاسية الصينية ليست مطروقة ، وعلى الرغم من أن خام النحاس يكون أفضل من مثيله فى الأناضول، والذى يجلب من القاهرة، فإنه لا يحظى برضا أهل جدة.

أربعة دكاكين للحلاقة. الحلاقون هم الجراحون والأطباء فى هذا البلد، إنهم يعرفون كيف يستنزفون الدم، كما يعرفون أيضا طريقة تركيب بعض الأدوية، قلة قليلة من أهل الجزيرة العربية الذين لهم لحى أطول وأكثر كثافة من لحى إخوانهم المواطنين الآخرين يلاقون مصاعب كبيرة فى تشذيب تلك اللحى، حتى لا تطول شعرة عن الأخرى، الناس هنا يقصون شواربهم بصفة دائمة، ولا يسمحون لشواربهم أن تلامس شفاههم، وهم فى ذلك يختلفون عن أتراك الشمال، الذين يندر أن يجعلوا المقص يضرب شواربهم الكثيفة. دكاكين الحلاقين يتردد عليها صعاليك الطبقات الدنيا الذين يلجأون إلى تلك الدكاكين لصيد الأخبار، ولتسلية أنفسهم بالحوار والمناقشات . عثرت فى واحد من دكاكين الحلاقين على واحد من أولئك الذين يقطعون الأختام، وكان فارسى الأصل، كانت مهنة ذلك الرجل رائجة؛ ذلك أن الحاج بعد أن ينتهى من زيارة الأماكن المقدسة يقوم بإضافة كلمة "الحاج" إلى ختمه.

أربعة محلات للخياطين. هناك خياطون كثيرون آخرون يعيشون فى سائر أنحاء جدة، هؤلاء الخياطون معظمهم من الأجانب. كان ترزى البلاط عند طوسون باشا من المسيحيين ، وكانت له سلطة على باقى الخياطين الآخرين فى المدينة، والذين كانوا يشكون مر الشكوى ليس من مجرد خضوعهم لسب ذلك الخياط ولعنه لهم، وإنما لعصاه التى كانت تنالهم فى معظم الأحيان.

خمسة صناع للنعال، ليس هناك صانع أحذية واحد فى الحجاز، هؤلاء الذين يرتدون أحذية أو نعالا يشترونها من التجار الذين يستوردونها من مصر.

يختلف شكل النعال المستعملة فى الجزيرة العربية من منطقة إلى أخرى، ويمكن أن نضيف للنعال التى أتينا على ذكرها عشرات من الأنواع الأخرى، هناك بعض النعال الخاصة بطبقة معينة من البشر. التاجر على سبيل المثال يرفض أن يلبس النعل الذى يستعمله. وهذا هو حال الأحذية فى تركيا، إذ إن كل منطقة بل وكل طبقة من طبقات المجتمع لها حذاؤها الخاص بها . ومصر والحبشة توردان الجلود السميكة التى تصنع منها النعال.

ثلاثة دكاكين يجرى فيها بيع القراب (قراب الماء) وإصلاحها التى تجلب من سواكن ومن مصر. يجرى تزويد القسم الأكبر من الحجاز بقراب الماء التى يجلبها التجار من سواكن فى السودان، والطلب كبير على هذه القراب؛ نظرا لخفة وزنها ولإخاطتها بطريقة أنيقة . قربة الماء التى تجلب من سواكن تستعمل يوميا لمدة حوالى ثلاثة أشهر أو أربعة .

خراطان يثقبان الأنابيب ويصنعان الخرز .. إلخ.

ثلاثة دكاكين تبيع مركزات العطور، الزبّاد(*) والعود والبلسم المكى وماء الورد الذى يأتى من الفيوم فى مصر. الزبّاد، والبلسم المكى يندر شراؤهما

(*) نوع من الطيب .

نقيين، اللهم إلا إذا كان ذلك من المنتج شخصيا. التجار الأحباش يحضرون الزبّاد فى قرون الأبقار، وهم يبيعونه بواقع أربعة قروش للجرام الواحد، كان ذلك فى العام ١٨١٤ الميلادى. العنبر يباع أيضا فى هذه الدكاكين ، وأفضل أنواع العنبر يباع بدينارين للمثقال الواحد. والذى يشترى العنبر هنا هم الحجاج الهنود والحجاج الفارسيون.

ساعاتى واحد، وهو تركى الأصل. كل تجار مكة وجدة يحملون ساعات، والكثير من تلك الساعات من النوع الإنجليزى جيد الصنع، هذه الساعات تجلب من الهند أو قد يأتى بها الحجاج من إسطنبول، ونظرا لأن الحجاج الأتراك قد يحتاجون إلى المال فى الحجاز، فهذا يضطرهم إلى التفريط فى أشيائهم الثمينة، وغالبا ما تكون الساعة أول ما يفرط فيه الحاج التركى، ثم بعد ذلك المسدس، ومن بعده الخنجر المعقوف، وأخيرا الغليون الفاخر، ثم بعد ذلك طبعته المفضلة من القرآن. هذه السلع والأدوات غالبا ما توجد بكثرة فى أسواق المزاد فى كل من جدة ومكة.

دكان واحد يبيع غلايين التبغ التركية والفارسية. الغلايين الفارسية تأتى رأسا من بغداد، والأثرياء من الناس يتباهون فى غرف جلوسهم بمجموعة كبيرة من النرجيلات الفاخرة، كل واحدة من هذه النرجيلات تكلف حوالى مائة دولار.

سبعة دكاكين للصرافة. هؤلاء الصيارفة يجلسون فوق مقاعد فى عرض الشارع، وأمامهم صندوق يحتوى على النقود، فى الماضى كان كل هؤلاء الصيارفة من اليهود، والحال لا يزال على ما كان عليه ، اللهم إلا باستثناء بعض الحالات فى كل من القاهرة ودمشق وحلب، لكن بعد أن طرد الشريف سرور اليهود من الحجاز، راح أهل جدة أنفسهم يمارسون هذه المهنة التى يميلون إليها بطبيعتهم، على كل طاولة من طاولات الصيارفة توجد مجموعة من الأشخاص لا يقلون عن ستة أفراد. وممارسة هذه المهنة تحتاج إلى مبالغ نقدية كبيرة، ومع ذلك فهى مهنة مربحة. قيمة النقود هنا سريعة التغير عن سائر أنحاء الشرق الأخرى التى أعرفها. أسعار الدولار والسكوينات تكاد تتغير كل يوم، ويحرص الصيارفة على أن يكونوا هم الرابحون دوما . طوال فترة بقاء

الأسطول الهندى فى الميناء ترتفع قيمة الدولار ارتفاعا كبيرا جدا . عندما كنت فى جدة ارتفع سعر الدولار ليصل إلى اثنى عشر قرشا، وبعد رحيل الأسطول الهندى وبعد أن يقل الطلب على الدولار ينخفض السعر . فى شهر يناير من العام ١٨١٥ الميلادى كان سعر الدولار تسعة قروش. تختلف قيم العملات الذهبية فى ضوء اختلاف قيمة الدولار.

فيما قبل كانت العملات المعدنية السائدة فى الحجاز هى السكوين البندقى والسكوين المجرى والدولار الإسبانى والنقود المسكوكة فى إسطنبول. كانت العملات المصرية كلها مستبعدة(*)، لكن اعتبارا من وصول قوات محمد على باشا أصبحت كل عملات القاهرة المعدنية يجرى تداولها بطريقة قسرية، يضاف إلى ذلك أن النقود الفضية المصرية تحتل المرتبة الثانية بعد الدولار الإسبانى. أساء باشا مصر، الذى له حق سك النقود ، أساء مؤخرا استعمال هذا الحق؛ فى العام ١٨١٥ الميلادى أصدر الباشا أوامر لدار سك النقود بسك مبلغ يقدر بحوالى ٧ ملايين قرش أى ما يعادل حوالى مائتى ألف جنيه إنجليزى – حسب سعر الصرف –، وأجبر الناس على دفع ثمانية قروش نظير الدولار ، على الرغم من معرفة الجميع أن الدولار يساوى اثنين وعشرين قرشا أو ثلاثة وعشرين. فى الحجاز لم تكن لدى باشا مصر وسائل تمكنه من فرض إجراءاته التعسفية المستبدة، وقد تصادف أن كان الدولار فى المناطق الداخلية من الحجاز، التى تتمركز فيها القوات التركية، يساوى ما يتردد بين ثمانية عشر قرشا وتسعة عشر . يزاد على ذلك أن البدو يرفضون التعامل بالقروش المصرية، حتى لو انخفضت قيمتها، ويرفضون قبول أى شىء سوى الدولارات، هذا التصميم أجبر الباشا على الاستسلام أمامه فى كثير من الأحيان.

(*) نقلا عن مؤرخى مكة، يبدو أن الأشراف كان لهم امتياز حق سك العملات الخاصة بهم تحت اسم سلطان إسطنبول، كان ذلك فى أواخر القرن السابع عشر، لكن هذا الامتياز لم يعد قائما فى الوقت الحالى.

البارة، أصغر العملات المعدنية التركية (الناس هنا فى جدة يسمونها الديوانى) هى القطعة المعدنية الشائعة فى سائر أنحاء الحجاز، وعليها طلب كبير، باعتبارها أكثر ثباتا من الناحية القيمية عن القرش، وذلك على الرغم من أنها (البارة) تسك هى الأخرى فى القاهرة. القرش يساوى ٤٠ بارة، لكن فى موسم الحج، عندما يكثر الطلب على الفكة الصغيرة اللازمة للتنقلات اليومية للحجاج فإن الصيارفة يصرفون القرش بخمس وعشرين بارة. هناك بعض الروبيات الهندية فى سوق جدة، لكن هذه الروبيات لا يجرى صرفها أو فكها، لم يحدث مطلقا أن التقيت أو شاهدت عملات معدنية مسكوكة بأوامر من إمام اليمن.

فى هذا الشارع الرئيسى نفسه توجد عشرة دكاكين كبيرة أو بالأحرى عشر وكالات عامرة دائما بالغرباء والبضائع، كانت تلك الدكاكين أو الوكالات ملكا للشريف، لكن حاليا أصبحت من ممتلكات الباشا الذى يفرض إيجارا سنويا على التجار. فى سوريا يطلق على هذه الوكالات اسم خانات ، وفى الحجاز يسمونها حوش، وهى بالعامية المصرية تعنى "فناء" .

فى شارع مجاور للشارع الرئيسى تعيش قلة قليلة من الحرفيين: الحدادين وسباكى الفضة والنجارين وبعض القصابين .. إلخ، والسواد الأعظم منهم من المواطنين المصريين.

سوف يلاحظ القارئ من الصفحات السابقة، أن جدة تعتمد اعتمادا كليا فى وارادتها ، أو بالأحرى على تلك الواردات التى تأتى من مصر أو من جزر الهند الشرقية، وهذا هو أيضا حال معظم السلع التافهة . الافتقار إلى الأيدى العاملة، وارتفاع أسعار العمل اليدوى، وكذلك التكاسل وعدم الجد الكامن فى المواطنين فى الحجاز، كل ذلك حال بين هؤلاء المواطنين وبين إقامة أى نوع من أنواع الصناعة، اللهم إلا باستثناء السلع التى لا غنى عنها ، من هنا نجد أن سكان الحجاز على طرفى نقيض من العرب السوريين والعرب المصريين، الذين يتميزون بالجد، والذين – على الرغم من الصعاب التى تعترض طريقهم بفعل الحكومة – أقاموا العديد من الصناعات

التى تجعلهم فى بعض أجزاء البلاد مكتفين تماما عن الواردات الأجنبية ... سكان الحجاز يبدون وكأنهم ليس لهم سوى حرفتين: التجارة ورعى الماشية. التجارة تشغل بال الحضر جميعهم، ولا يستثنى من ذلك العلماء ، أو أولى العلم. كل واحد من الحضر يحاول استخدام رأس المال الذى بحوزته أيا كان، فى تجارة مفيدة ، كما يتمكن من العيش دون بذل مجهود بدنى كبير، والسبب فى ذلك أن أهل الحجاز يعارضون المجهود البدنى مع أنهم يتحرقون شوقا لتحمل كل القلق والمخاطر التى لا تنفصل عن التجارة. يصعب أيضا العثور على أشخاص يقومون بالعمل العام الذى يؤديه الحمالون .. إلخ. أما هؤلاء الذين لهم مهن شبيهة بتلك المهن فهم أصلا من الأجانب، أو بالأحرى من مصر أو سوريا، ومن الحجاج الزنوج، العرق الوحيد من أعراق الجزيرة العربية الذى وجد أفراده مجدُّون خلافا لبقية الأعراق الأخرى هم أهل حضرموت، أو الحضارمة كما يقول لهم الناس. كثير من هؤلاء الحضارمة يعملون خدما فى بيوت التجار وبوابين ومراسلين، وحمالين، وهم مفضلون فى هذه الحرفة على غيرهم نظرا لأمانتهم وجدهم. كل مدينة كبيرة من مدن الشرق لها جنسية خاصة ، أفرادها هم الذين يقومون بأعمال الحمالين، فى حلب نجد أن من يقومون بأعمال الحمالين هم الأرمن الذين يجيئون من جبال آسيا الصغرى، والطلب عليهم كبير فى هذه المهنة، فى دمشق نجد أن سكان جبل لبنان هم الذين يقومون بأعمال الحمالين، فى القاهرة نجد البرابرة النوبيين هم الذين يقومون بهذه الأعمال، وفى مكة وجدة يقوم الحضارمة بهذا العمل. هؤلاء الحضارمة شأنهم شأن السوريين يعدون متسلقين ممتازين للجبال. معروف أن مؤهلات شبيهة هى التى أهلت أبناء بلدى متسلقى جبال الألب لأن يقوموا بالدور نفسه فى باريس. هناك تشابه واضح بين مواطنى هذه البلاد كلها. جرت العادة أن يعود مثل هؤلاء الناس إلى مواطنهم ومعهم مكاسبهم، ليمضوا بقية حياتهم مع أسرهم. على الرغم من هذا المصدر هناك حاجة ماسة إلى الخدم فى الحجاز، لا أحد من أولئك الذين ولدوا فى المدن المقدسة على استعداد للعمل بالأعمال الوضيعة ، إلا إذا كان دافعه إلى هذا العمل هو الخوف من الموت جوعا، وما إن يتحسن حال مثل هذا المواطن حتى يتوقف عن العمل، ويتحول إلى بائع جائل أو إلى

شحاذ. عدد الشحاذين فى كل من مكة وجدة كبير جدا، وتجار جدة كلهم يعلمون أن الجداوى لا يمكن أن يلجأ مطلقا إلى العمل طالما كان قادرا على الإبقاء على رمق الحياة فيه عن طريق الشحاذة وسؤال الناس. التسول أمر يشجع عليه الحجاج الذين يبالغون فى استعراض إحسانهم فور نزولهم على هذا الجزء من الأرض المقدسة.

فيما يتعلق بأهل جدة وطبيعتهم ، أجد أن الفرصة مهيأة لإبداء بعض الملاحظات على وصفى لسكان مكة الذين يشبهون سكان جدة. واقع الأمر أن الأسر المحترمة لها منازل فى المدينتين، وغالبا ما تنتقل تلك الأسر بين هذه المنازل .

جدة يحكمها باشا بثلاثة شرائط، ويجيء فى مقدمة السواد الأعظم من الباشوات الآخرين ، وسبب ذلك هو ارتباط ذلك المكان بالأراضى المقدسة ، لكن حكومة جدة لا تعد تكريما أو تشريفا من وجهة نظر الأعيان من الأتراك ، الذين ينظرون إلى جدة دوما باعتبارها منفى وليست مكانا مفضلا ، وغالبا ما كان حكم جدة يسند إلى السياسيين أصحاب السمعة السيئة. والباشا لا يعد نفسه مجرد والٍ على جدة أو حاكما عليها ، وإنما هو حاكم أو والٍ على سواكن وعلى الحبش ، ومن باب تعزيز ذلك اللقب يحاول الباشا التحكم فى موظفى الجمارك الذين كانوا يعتمدون ، قبل حكم محمد على باشا ، اعتمادا كليا على الشريف .

أدت سلطة شريف بك إلى التقليل إلى حد كبير من أهمية باشوية جدة ، وتحول اللقب إلى مجرد تمييز من الناحية الشرفية ليس إلا لحامل ذلك اللقب ، فى الوقت الذى كان يقيم فيه فى إحدى المدن التركية أو فى إسطنبول ، دون أن يحاول تولى سلطة الحكم . كان هناك استثناء فى العام ١٨٠٣ الميلادى ، عندما جلا الفرنسيون عن مصر ، إذ سافر شريف باشا إلى جدة ومعه قوة مكونة من أربعمائة جندى أو خمسمائة ، لكنه مثل من سبقوه أصبح مجرد أداة للشريف غالب ، وفى العام ١٨٠٤ الميلادى انتهى مستقبل شريف باشا العملى بعد أن لقى ربه بصورة مفاجئة ، وكان ذلك مصير كثير من الباشوات الذين سبقوه فى جدة وفى مكة.

بناء على أوامر من السلطان الذى جرى الاعتراف بسلطته الاسمية على الحجاز إلى أن حدث الغزو الوهابى الأخير ، كان الدَّخْل الناتج عن الجمارك التى يجرى تحصيلها من جدة يتم تقسيمها بالتساوى بين الباشا وشريف مكة ، فى حين يتولى الباشا حكم المدينة كلها . وعندما بدأ الأتراك فى إخضاع آسيا كان الشريف يحصل على ثلث ذلك الدَّخْل فقط ، ولم يحصل الشريف على نصف هذا الدخل الجمركى إلا فى العام ١٠٤٢ الهجرى(*) ، وعقب ذلك مباشرة لم يغتصب الشريف غالب حكم جدة فقط ، وإنما حصل الجمارك لحسابه الشخصى، وأصبح الباشا يعتمد على ما يعطيه الشريف غالب إياه .

عقب وفاة شريف باشا مباشرة اضطر الشريف غالب إلى تسليم مكة للوهابيين ، بعد أن حاصره سعود فى جدة فى العام السابق ، وسرعان ما أعلن الشريف غالب على الملأ ولاءه واتباعه للمذهب الوهابى ، على الرغم من أنه كان لا يزال مسيطرا على جدة كلها ، وعلى المداخيل التى تأتى من جماركها ، والتى كانت تشكل المصدر الرئيسى لدخل هذا الرجل . لم يدخل الوهابيون المدينة التى أعلنت على الملأ اتباعها لمذهبهم الدينى ، وهنا اضطر الجنود الأتراك إلى التراجع فى اتجاه مصر ، أو أى مكان آخر ، واعتبارا من ذلك التاريخ وإلى العام ١٨١١ الميلادى جرى استبعاد السلطة التركية استبعادا تاما عن الحجاز .

فى العام ١٨١١ الميلادى بدأ محمد على باشا عملياته ضد الوهابيين ، بإرسال مجموعة من الجند بقيادة ولده طوسون بك الذى انهزم فى المنطقة ما بين اليمن والمدينة المنورة، كانت الحملة أو العملية الثانية التى وقعت فى العام ١٨١٢ الميلادى أكثر نجاحا من سابقتها، ففى الوقت الذى استولى فيه طوسون بك فى شهر سبتمبر من ذلك العام على المدينة المنورة ، واصل مصطفى بك صهر محمد على باشا ، سيره مباشرة بالخيالة التى كانت تحت قيادته إلى كل من جدة ومكة ثم الطائف ،

(*) راجع العصمى ، تاريخ الحجاز .

واستسلمت المدن الثلاث دون إراقة الدماء . كان الشريف غالب ، اعتبارا من لحظة تخوفه من احتمال نجاح الحملة التى يقوم بها مصطفى بك ، قد سارع إلى الدخول فى مراسلات سرية مع مصر ، الأمر الذى جعله يعلن على الملأ أنه صديق للأتراك الذين دخلوا جدة دخول الأصدقاء ، وسرعان ما أسبغ الباب العالى لقب باشا جدة على طوسون ولد محمد على ، وذلك نظير خدماته التى قدمها للباب العالى. سوف آتى على ذكر تفاصيل هذه الحرب فى موضع آخر ، ولذلك لن أتطرق هنا إلا إلى الحقيقة التى مفادها أنه بعد دخول العثمانيين – أو إن شئت فقل الأتراك – جدة نشبت مشاجرة بين الباشا والشريف غالب حول الجمارك التى كان قد تقرر تقسيمها بينهما ، لكن نظرا لأن الباشا كان هو صاحب القوة الأكبر ، فقد احتفظ بالجمارك كلها لنفسه، وألقى القبض على الشريف غالب وأرسله أسيرا إلى تركيا . واعتبارا من ذلك التاريخ أصبحت المدينة كلها تحت تصرفه وإمرته ، ولم يكن الشريف الجديد المدعو يحيى سوى موظف على كشوف مرتبات طوسون باشا .

كانت جدة فى زمن الشريف غالب تحكم بواسطته عندما يقيم فيها ، أو بواسطة موظف يدعى الوزير عندما كان الشريف غالب يتغيب عن المدينة ، فى حين جرى إسناد تحصيل الجمارك إلى موظف آخر ، كانوا يطلقون عليه اسم الجمركى كما أسند شرطة الميناء إلى أمير البحر وأمير البحر هذا لقب يساوى مدير الميناء ، فيما بعد أصبح الوزير عبداً أسود من عبيد الشريف غالب ، وكان الناس يكرهونه لتعاليه وكبريائه وأسلوبه الاستبدادى . كانت إقامة الشريف غالب فى جدة مسألة جد نادرة ، وسبب ذلك أن مؤمرات الرجل المستمرة مع البدو ، وكذلك تآمره على القبائل الوهابية حتمت عليه البقاء فى مكة ، ذلك الموقع المركزى المهم .

لم يغير العثمانيون شكل الحكم الذى كان سائدا فى زمن الشريف غالب . وتصادف أن طوسون باشا لم يستطع الإقامة فى عاصمته إلا نادرا؛ نظرا لأنه كان دوما تحت إمرة والده الذى كان يتلقى من الباب العالى التعليمات والتوجيهات الكاملة

الخاصة بحرب الحجاز والتصرف فى موارد ذلك البلد . وقد جرت الإفادة من طوسون عن طريق تجواله بالقوات التى كانت تحت قيادته إلى أن عاد إلى القاهرة فى خريف العام ١٨١٥ الميلادى واعتبارا من العام ١٨١٢ الميلادى أصبح الآمر (القائد) العسكرى يقيم فى جدة بصورة دائمة ، ومعه حامية قوامها مائتا رجل أو ثلاثمائة رجل ، التى حرص الباشا على تغييرها كل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر ، هذا الآمر العسكرى كان اسمه سيد على أو جقلى ، وقد أوكل إليه تحصيل الجمارك ، وتنظيم شئون الحياة المدنية ، والمراسلات مع كل من القاهرة ومكة ، ونقل الجنود ، والمخزونات والمستودعات ، وكذلك التجارة الحكومية بين مصر وجدة ، كما أوكلت إلى ذلك الرجل أيضا مسئولية خزانة الباشا . كان والد سيد على أوجقلى ، من آسيا الصغرى ، وكان من الفيلق الإنكشارى (الأوجاك) ، الأمر الذى أضفى على ولده لقب أوجقلى ، وتجار جدة يكرهون هذا الأوجقلى ، نظرا لأنهم ما زالوا يتذكرون ذلك الرجل عندما كان يبيع المكسَّرات فى الشارع قبل عشرين عاما . فى زمن حكم الشريف غالب كان يستخدم ذلك الرجل فى أعماله التجارية الخاصة ، ونظرا لأن سيد أوجقلى كان صاحب مواهب كثيرة ونشاط كبير، إضافة إلى معرفته الجيدة للغة التركية ، لم يكن أمام محمد على باشا رجل آخر يمكن وضعه فى ذلك المنصب الذى يحتله هذا الرجل حاليا . دَخْل جدة العام يتمثل فى المتحصلات التى تأتى من الجمارك بصفة أساسية ، وهذه الجمارك يطلق عليها هنا اسم العشور، هذه العشور فى ضوء ما قيل لى تعادل عشرة فى المائة يجرى تحصيلها على البضائع المستوردة بكل أنواعها ، لكن فى ضوء العبث الذى سار زمنا طويلا جرى رفع هذه النسبة إلى ما هو أعلى من عشرة فى المائة على بعض السلع ، فى حين كانت السلع الأخرى تدفع أقل من ذلك . فى أواخر حكم الشريف كانت الجمارك على قنطار البن بواقع خمسة دولارات للقنطار الواحد ، وهذا ما يعادل ما يتردد بين خمسة عشر فى المائة وعشرين فى المائة من ثمن القنطار ، التوابل تدفع جمركا يقل عن عشرة فى المائة ، البضائع الهندية التى تباع بالقطعة أو بالأموال تدفع

جمارك أكثر من ذلك . هذا يعنى أن هناك تباينات كبيرة فى فرض الجمارك ، كما أن مسئول الجمارك بوسعه محاباة أصدقائه ومعارفه دون أن يتعرض للمساءلة .

بعد اعتناق الشريف للمذهب الوهابى تناقص دخله تناقصا كبيرا ، وسبب ذلك أن سعود رئيس الوهابيين أصر على حتمية مرور بضاعة أتباعه بلا رسوم جمركية ، الأمر الذى أدى إلى إعفاء القسم الأكبر من تجارة البن من الرسوم الجمركية . بلغنى من شخص من أولئك الذين يطلعون على الحقائق ، أن الرسوم الجمركية التى جرى تحصيلها فى جدة فى العام ١٨١٤ الميلادى قدرت بحوالى أربعة آلاف دولار ، وهو ما يساوى ثمانية آلاف كيس ، أو ما يقرب من أربعة ملايين قرش ، يمكن أن تغطى واردات سنوية مقدارها أربعة ملايين دولار ، وهذا المبلغ يقل عن الواقع كثيرا ، الجمارك يجرى فرضها بنفس النسبة المعمول بها فى بوابتى المدينة التى تسمى إحداهما باسم باب مكة والثانية باب المدينة (المنورة)، وأن هذه الرسوم تفرض على كل أنوا ع المؤن والتموينات التى ترد من داخل البلاد، وبخاصة الماشية والزبد والتمور وبخاصة فى وقت السلم، عندما لا يتوقف الاتصال مع داخل البلاد. أهل المدينة لا يدفعون أى نوع آخر من العشور غير هذه الرسوم الجمركية.

طوال مقامى فى الحجاز كانت جدة بمثابة مستودع رئيسى للجيش التركى ؛ فقد كان فيها مخزن كبير للقمح تابع للباشا، وكان ذلك المخزن يستقبل إمدادات يومية من مصر، وكان يجرى يوميا إرسال قوافل إلى كل من مكة والطائف، وتزايدت تجارة جدة تزايدا كبيرا بسبب احتياجات الجيش ومنسوبيه. وجرى تنظيم الشرطة فى جدة تنظيما جيدا، وكان الباشا قد أصدر تعليمات صارمة لقواته تقضى بحتمية عدم ارتكاب المخالفات أو إساءة المعاملة، نظرا لأنه كان يعرف جيدا أن أهل الجزيرة العربية من أصحاب الذهن الصافى لا يمكن أن يستكينوا لسوء المعاملة مثلما يفعل المصريون، وعندما كانت تحدث مشاجرات بين العرب والأتراك كان العرب يُنصفون بشكل عام، ولم يُمارس الظلم أو القهر تحت أى مسمى من المسميات على الأفراد، فيما عدا استيلاء الباشا على مجموعة قليلة جدا من المنازل الفاخرة، التى استخدمها

مساكن لزوجاته. ومع ذلك عاني التجار كثيرا من المصاعب، مثلما كان الحال في زمن الشريف غالب، حيث عانوا من الرسوم الجمركية التعسفية، كما عانوا أيضا من حتمية شرائهم كل أنواع البضائع من الباشا في كثير من الأحيان، الباشا الذي كان يشغف - عندما يكون في الحجاز - بالتجارة شغفه بأعماله العسكرية، لكن بعد تقييم مزايا نظام الحكم وعيوبه، نستطيع القول إن أهل جدة كسبوا الكثير من العثمانيين، وليس من الغرابة في شيء القول إن أحدا من العرب، سواء كان غنيا أو فقيرا، لم يكن مرتبطا بسادته الجدد أو محبا لهم، وكان الناس جميعا نادمين على إنهاء حكم الشريف غالب. ولا يمكن عزو هذا كله إلى جماهير الدهماء الذين يوجدون بين رعايا الباب العالي أكثر مما يوجدون بين رعايا أية أمة من الأمم الأوروبية. الحكام العثمانيون أو بالأحرى الباشوات يتغيرون بصورة مستمرة، وكل واحد منهم يتحول إلى حاكم أعلى، الأمر الذي يولد الشكوى والكراهية والاستياء بين الناس، وإذا كان التتابع السريع للحكام (الباشوات) يوحي للناس بأمل سرعة التخلص من المستبد الحاكم، ويتطلعون لحدوث ذلك بكل الفرح والسرور، فإنهم يفعلون ذلك من معرفتهم بأن الأشهر الأولى من حكم الباشا الجديد تتسم عادة بالرحمة والعدل.

أهل الجزيرة العربية فخورون بأنفسهم، وهم أمة ذات روح معنوية عالية، وهذا القول ينسحب أيضا على سكان المدن، على الرغم من ذيوع الطابع البدوي الفاسد بين هؤلاء السكان الذين ينتمون إلى ذلك العرق المتفسخ والمنحل. هؤلاء الناس يحتقرون الأمة التي لا تتكلم العربية، أو التي تختلف سلوكياتها عن سلوكياتهم، وقد اعتادوا منذ زمن طويل النظر إلى الأتراك باعتبارهم أناسا منحطين، حيث كانوا يرتجفون رعبا من الشريف كلما كانوا يدخلون الحجاز. يزاد على ذلك أن مراسم البلاط التركي الاحتفائية لم يجر تكييفها لتناسب العادات والأفكار الراسخة عند رعايا محمد علي باشا الجدد، وكان الشريف بكل قوته شبيها بشيخ بدوي كبير، يخضع لمن يتكلم بجرأة ويستعمل لغة خشنة في معظم الأحيان. الباشا التركي يجري التقرب منه بأبشع أشكال العبودية والذلة، قال أحد تجار الحجاز وهو يتكلم معي: "إن الشريف غالب

عندما كان يريد قرضا، كان يرسل فى طلب ثلاثة منا أو أربعة، ونجلس نتحادث معه على امتداد ساعتين، ويصل الأمر إلى حد العراك بصوت عال، وكنا ننجح دوما فى تقليل المبلغ إلى ما هو أقل من المطلوب، وعندما كنا نذهب إلى الشريف فى الأمور العادية كنا نتحدث إليه مثلما أتحدث أنا معك الآن، أما الباشا فكان يجعلنا نظل وقوفا أمامه بطريقة مهينة، شأننا فى ذلك شأن العبيد من الأحباش، وكان ينظر إلينا كما لو كنا مخلوقات أدنى منه". ويخلص التاجر من كلامه قائلا: " أنا أفضل دفع غرامة للشريف بدلا من دفعها للباشا التركى".

معرفة الأتراك الضئيلة للغة العربية ونطقهم السيئ لهذه اللغة، حتى وهم يقرأون القرآن، وجهل الأتراك بالجزيرة العربية وعاداتها التى لا يراعونها فى تصرفاتهم وأعمالهم، تعد من بين الأسباب المتعددة الأخرى لكراهية أهل الجزيرة العربية للأتراك واحتقارهم إياهم. الأتراك يبادلون ذلك الاحتقار باحتقار مماثل وكراهية أكثر، ومن لا يتكلم لغة الجندى التركى أو يحاكيه فى اللباس يدخل فى عداد الفلاحين ، ذلك المصطلح الذى درج الأتراك على إطلاقه على الفلاحين المصريين، باعتبارهم مخلوقات فى أحط درجات العبودية والقمع. كراهية الأتراك للعرق العربى أكبر وأشد، وسبب ذلك أن الأتراك لا يستطيعون الانغماس فى نزعتهم الاستبدادية والبذاءة وسلاطة اللسان مثلما يفعلون فى مصر، وذلك لقناعة هؤلاء الأتراك بحكم الخبرة والتجربة أن مواطن الجزيرة العربية سوف يضرب إذا ما ضُرِبَ. أهل الجزيرة العربية يرمون الأتراك بالخيانة، فقد ألقوا القبض على الشريف غالب وأرسلوه إلى تركيا بعد أن أعلن استسلامه للباشا، وبعد أن سمح للجنود الأتراك باحتلال جدة ومكة، هؤلاء الجنود يقرون ويؤكدون أنه لولا مساعدة الشريف لما استطاعوا التقدم فى الجزيرة العربية، ولما أصبح لهم موطئ قدم فيها.

مصطلح " خائن" يطلق على كل الأتراك الذين فى الجزيرة العربية، فى ظل ما يشتهر به العرب من التباهى بالثقة بالنفس والتفوق، وقد اكتشفت الطبقات الدنيا من العرب تأكيدا خياليا للاتهام الذى يوجهونه للأتراك، اكتشفوا ذلك من اللقب

"خان" الذى هو من بين الألقاب التى يمنحها الباب العالى. كلمة "خان" واحدة من كلمات التتار القديمة، هذه الكلمة تعنى فى العربية "الخيانة" ، أو بالأحرى هى الفعل الماضى للفعل المضارع "يخون"، وهم يدعون أن أحد أسلاف السلطان بعد أن خان آبقا لجأ إليه، أطلق عليه نعت هو " السلطان خان" وأن هذا اللقب احتفظ به من جاءوا بعده لجهلهم باللغة العربية.

وإذا ما تدهورت قوة الأتراك في الحجاز، وسوف يحدث ذلك عندما لا يجرى توجيه موارد مصر إلى تلك النقطة بواسطة محمد على الذى يمتلك مصر بلا منازع، فإن العرب سيثأرون لأنفسهم من الخضوع الذى يعيشون فيه، وسوف ينتهى الحكم العثمانى فى الحجاز بكثير من المشاهد الدموية.

الطريق من جدة إلى الطائف(*)

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس من العام ١٨١٤الميلادى، (المصادف للحادى عشر من شهر رمضان من العام ١٢٣٠ الهجرى) بدأت تحركى من جدة فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم، وبصحبتى مرشد وعشرين جمالا من قبيلة حرب، كانوا يحملون النقود من جدة قاصدين خزانة الباشا فى مكة. بعد أن تركنا حدود مدينة جدة التى يمر الطريق عندها ببعض التلال الرملية، والتى توجد بينها مقبرة السكان، سرنا خلال سهل رملى شديد الجدب، يرتفع ارتفاعا متدرجا فى اتجاه الشرق، هذا الطريق خالٍ من الشجر ومشبع تماما بالملح على بعد حوالى ميلين من المدينة. وبعد مسير دام ثلاث ساعات دخلنا منطقة عامرة بالتلال فيها مقهى على شكل كوخ بالقرب من بئر يدعونها رغام . واصلنا مسيرنا فى وادٍ رملى واسع عامر بالرمال

(*) لم أستطع أن آخذ معى متعلقاتى فى هذه الرحلة، والسبب فى ذلك أن البوصلة الوحيدة التى كانت معى والتى خدمتنى طوال رحلتى فى النوبة أصبحت عديمة النفع، ولم تتهيأ لى فرصة استبدال بوصلة أخرى إلا فى شهر ديسمبر من هذا العام، عندما حصلت على بوصلة أخرى بها من سفن بومباى التى وصلت إلى جدة.

يقع بين هذه التلال التى هى خليط من التلال الرملية والتلال الصخرية، وبعد أن سرنا مدة خمس ساعات ونصف الساعة توقفنا فترة قصيرة عند كوخ من أكواخ القهوة وبئر يسمونها البياضية . ماء هذه الآبار ليس عذبا. اعتبارا من هذا المكان، وفى خلال ساعة ونصف الساعة، (أى بعد مسير دام سبع ساعات منذ أن بدأنا الرحلة) وصلنا محطة أخرى شبيهة بالمحطات السابقة ويسمونها الفراينة ، ولحقنا عندها بقافلة من قوافل الحجاج الذين كانوا يرافقون البضائع والمؤن والتموينات المرسلة للجيش، كانت تلك القافلة قد غادرت جدة قبلنا فى فترة المساء. أكواخ القهوة عبارة عن أكواخ بائسة مبنية من الخشب، هذه المقاهى الكوخية لا تقدم شيئا سوى القهوة والماء. يقال إنه كان هناك حوالى اثنى عشر مقهى على ذلك الطريق، وإن تلك المقاهى كانت تقدم المرطبات والمسليات بكل أنواعها للمسافرين من جدة إلى المدينة المقدسة، لكن لأن الرحلة تتم أثناء الليل فى أيامنا هذه ، ونظرا أيضا لأن الجنود الأتراك لا يدفعون ثمن أى شىء إلا تحت الضغوط، فقد تخلى أصحاب هذه المقاهى عن القسم الأكبر منها، البقية الباقية من هذه المقاهى يقوم على أمرها بعض عرب قبيلة اللهيان ، (اللهيان فرع من عرب هذيل)، والمطارفة الذين هم أسر بدوية، ويعيشون مع قطعانهم بين التلال. واعتبارا من الفرانية ينفتح كل من الوادى والتلال، ويتحولان على الجانبين، ويتزايد ارتفاعهما تزايدا كبيرا. وبعد أن سرنا ثمانى ساعات، ومع شروق الشمس وصلنا إلى بحرة ، وهى عبارة عن مجموعة من حوالى عشرين كوخا، تقع فى سهل يصل طوله إلى مسير حوالى أربع ساعات، وعرضه حوالى ساعتين، ويمتد فى اتجاه الشرق، فى بحرة يوجد الماء وفيرا فى الآبار، وبعض هذا الماء عذب والبعض الآخر مالح. وفى صف من الدكاكين التى يبلغ عددها عشرة، يباع الأرز والبصل والزبد والتمور والبن بسعر أعلى بنسبة ثلاثين فى المائة عن سعر استلام البن فى جدة، وهذا هو ما يطلق عليه العرب اسم السوق ، وهناك أماكن أخرى كثيرة شبيهة بهذا المكان، فى كل محطة من المحطات التى فى هذه السلسلة الجبلية إلى أن تصل اليمن. كانت هناك بعض الخيالة التركية متمركزة فى بحرة لحراسة الطريق. بعد أن مشينا مدة ساعتين أخريين فى

السهل، توقفنا بعد عشر ساعات من جدة، في منطقة الهَدا، التي هي سوق مثل السوق السابقة. فيما بين بحرة والهَدا، وعلى تلَّة منعزلة في السهل، توجد أنقاض بعد التحصينات القديمة.

اليوم الخامس والعشرون من شهر أغسطس، هذه هي القافلة القادمة من جدة إلى مكة تنال قسطا من الراحة أثناء النهار في بحرة أو في الهَدا، وبذلك تتصرف تصرف عرب الحجاز الذين لا يسافرون إلا أثناء الليل. هذا يجري صيفا وشتاء، لا من أجل تجنب الحرارة، وإنما لتهيئة الفرصة للإبل كي ترعى بعض الوقت، نظرا لأن الإبل لا تأكل أثناء الليل. هذه المسيرات الليلية لا تناسب مطلقا أبحاث الرحال، الذي يعبر البلاد في وقت لا يستطيع فيه ملاحظة الأشياء، وأثناء النهار يكون الإرهاق والرغبة في النوم سببين كافيين للحيلولة دون العمل .

حططنا رحالنا في الهَدا تحت تعريشة واسعة من كهوف القهوة، حيث وجدت جماعة متباينة من الأتراك والعرب في طريقهم إما من مكة وإما إليها، كان كل واحد من هذه الجماعة ممددا على سجادته الصغيرة. كان بعض التجار قد أحضروا من الطائف سلة من العنب، وعلى الرغم من أني كنت لا أزال استشعر الضعف من الحمى التي أصابتني، فإنني لم أستطع مقاومة الإغراء، وأمسكت بقليل من حبات العنب نظرا لأن السلة ما إن فتحت حتى انهالت عليها الجماعة كلها، وسرعان ما التهموا السلة كلها، وجرى بعد ذلك دفع الثمن لصاحب العنب. الهَدا هي ميقات الجداويين الذين ينوون الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج، هذا يعني أنهم يرتدون ملابس الإحرام في الهَدا . الشريعة الإسلامية تحتم على كل من يذهب للحج ارتداء ملابس الإحرام، بغض النظر عن منزلته أو مكانته بين الناس، وهذا يعني أيضا أن من يدخل تلك المدينة المقدسة لابد أن يكون مرتديا ملابس الإحرام، سواء أكان قادما للحج أم لأي غرض آخر(*)، ولا يمكن التحرر من ملابس الإحرام إلا بعد زيارة المسجد الحرام. كثير من

(*) الإحرام فرض على الحاج والمعتمر فقط . (المراجع)

الناس ينتهكون هذا الشرط، لكن المكى الأصيل لا يمكن أن يذهب إلى جدة دون أن يحمل معه ملابس الإحرام، وعند عودته من جدة يرتدى ملابس الإحرام فى الميقات المحدد. فى فترة العصر يقوم بعض الجنود الأتراك بارتداء ملابس الإحرام طبقا للطقوس سالفة الذكر، التى تتمثل فى أداء الحاج ركعتين، ثم التلبية ، ونظرا لأن الوقت وقت حرب، فقد واصل الجنود حمل أسلحتهم وهم يرتدون ملابس الإحرام.

فى فترة العصر قام صاحب المقهى بتخزين المؤن التى أحضرتها معى، والمؤن الخاصة بباقى أفراد الجماعة. حدث اضطراب كبير فى سائر أنحاء المكان، ولم يحاول أحد منا أن ينام. عقب وصولنا مباشرة مرت على المكان جماعة من الجنود، نصبوا خيامهم على مسافة بعيدة عنا فى السهل، دخل هؤلاء الجنود المقاهى وأخذوا الماء العذب كله الذى جرى جلبه من بئر تبعد مسير حوالى نصف ساعة، وجرى الاحتفاظ به فى الهَدا فى جرار كبيرة. أكواخ هذا العدد الصغير من السكان البائسين، والمعرضين لكل أنواع الخسائر والإصابات التى تترتب على الحركة الدائمة للقوات، هذه الأكواخ يجرى بناؤها باستعمال أخشاب الأراك، على شكل مخروط، ولا يدخلها الضوء إلا من خلال مداخلها، فى هذا المدخل تتكدس الأسرة كلها فى غرفة واحدة. هذه المقاهى الكوخية المتعددة عبارة عن حظائر فسيحة، محمولة على أعمدة، فى حين يوجد وجار القهوة فى جانب من أجناب ذلك الكوخ. هذه الأكواخ عامرة بأعداد كبيرة من الفئران التى لم أر أكثر جرأة منها فى حياتى كلها.

غادرنا الهَدا عند الساعة الخامسة مساء على وجه التقريب، واصلنا مسيرنا فى طريقنا عبر السهل، حيث التربة رملية ومختلطة بالطين فى أجزاء أخرى، ويسهل زراعتها عن طريق حفر الآبار. بعد مسير ساعة من الهَدا شاهدنا على يسارنا فى السهل بعض النخيل، هنا، على حد فهمى، ينساب نهر صغير كان يروى بعض الحقول فى الزمن القديم، الأشجار هنا مهملة فى الوقت الراهن. تركنا السهل وانحرفنا عن مسارنا قليلا نحو الجنوب متجهين شرقا، لندخل من جديد منطقة من

التلال، ووصلنا بعد ساعتين من مسيرنا من الهَدا إلى كوخ آخر من أكواخ القهوة، يطلق الناس عليه اسم الشميسة . جبل الشميسة يوجد خلف هذا الكوخ، جبل الشميسة هذا هو الجبل الذى جلب منه – على حد قول مؤرخى مكة – الرخام الذى صنعت منه أعمدة كثيرة فى المسجد الحرام. فى هذا الجبل، وبالقرب من كوخ القهوة توجد بئر، ومن الشميسة سرنا بدوابنا فى واد واسع تنتشر فيه الرمال العميقة، كما أن فيه أيضا بعض الأشجار الشوكية. وعلى بعد مسير أربع ساعات من الهَدا مررنا بقهوة سالم، كما مررنا أيضا على بئر، وعند قهوة سالم التقينا قافلة قادمة من مكة. والجبال فى هذه المنطقة قريبة جدا بعضها من بعض، إذ لا يفصل بينها سوى واد مستقيم ضيق جدا، تتقاطع معه وديان عدة أخرى على بعد مسافات متباينة. واصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا الحجالية ، والحجالية هذه عبارة عن مقهى يبعد عن الهَدا مسير سبع ساعات، وتوجد بئر كبيرة بالقرب من هذا المقهى، ويحصل منه جمالو قافلة الحج السورية، على الماء سواء فى رحلة الذهاب أو العودة من مكة.

لما كنت لم أنعم بالنوم ولو للحظة واحدة منذ أن غادرت جدة فقد وجدتنى أستلقى أرضا على الرمل، ورحت فى سبات عميق إلى أن طلع النهار، فى حين راح رفاقى يواصلون مسيرهم إلى مكة. لم يبق معى سوى مرشدى وحده، لكن خوفه على سلامة إبله جعل عينيه لا ترى النوم. الطريق من جدة إلى مكة تتردد عليها دوما شخصيات مشبوهة، ونظرا لأن الناس هنا يسافرون أثناء الليل فإن ذلك يسهل على اللصوص سلب الشاردين أو التائهين ونهبهم. بالقرب من الحجالية توجد بعض الأنقاض والخرائب المتبقية من قرية قديمة مبنية من الحجر، وفى الوادى توجد آثار أو بقايا زراعة قديمة.

السادس والعشرون من شهر أغسطس ، بعد نصف ساعة من مسيرنا من الحجالية ووصلنا إلى مزرعة صغيرة من أشجار النخيل محاطة بسور. الطريق بدءا من هذه المنطقة إلى أن يصل مكة يقع على الجانب الأيمن ويدخل المدينة عن طريق الحى

الذى يسمونه جرول . كانت لدى مرشدى تعليمات تقضى بالوصول إلى الطائف عن طريق أحد الطرق الفرعية الذى يمر بشمالى مكة، هذا الطريق يتفرع فى منطقة الهَدا، ويعبر الطريق القادم من مكة إلى وادى فاطمة، - ويتصل بالطريق الكبير القادم من مكة إلى الطائف من خلف وادى منى. قبل مغادرة الهَدا مباشرة وجدت مرشدى، الذى لم يعرف عنى شيئا أكثر من أنى صاحب مصلحة عند الباشا فى الطائف، وأنى كنت ملتزما بكل مظاهر الحاج المسلم، وأننى كنت كريما معه قبل أن تبدأ رحلتنا، وجدت هذا المرشد يسألنى عن سبب صدور أوامر له بتوصيلى إلى المدينة من الطريق الشمالى، وأجبته أنه ربما كان ذلك من منطلق أن هذا الطريق أقصر من ذاك. رد على قائلا: "هذا خطأ، طريق مكة قصير جدا وأكثر أمنا، وإذا لم يكن لديك مانع، فسوف نسلكه". كان ذلك مبتغاى، على الرغم من احتراسى لعدم ظهور أى قلق حول هذا الموضوع، وترتب على ذلك أن سلكنا الطريق الكبير بصحبة المسافرين الآخرين. ومع ذلك، وبدلا من أن يأخذنى من الطريق المعتاد الذى كان يمكن أن يجعلنى أمر خلال المدينة كلها، ونظرا أيضا لأنه لم يكن حريصا على إرضائى، فقد اقتادنى دون علم منى، من خلال طريق قصير، وبذلك حرمنى من فرصة مشاهدة المدينة كلها فى ذلك الوقت.

من "بيارة النخيل" الواقعة خلف الجمالية وصلنا خلال نصف ساعة السهل الذى جرت العادة أن تخيم فيه قافلة الحج السورية، والذى أصبح الناس يسمونه الشيخ محمود، وذلك تيمنا باسم أحد الأولياء الذى له قبر فى هذه المنطقة. هذا القبر جرى بناؤه فى وسط السهل، والقبر تحيط به بعض الجبال المنخفضة، وطول السهل يتردد بين ميلين وثلاثة أميال، أما عرضه فيصل إلى ميل واحد، وهذا السهل مفصول عن وادى مكة بسلسلة ضيقة من التلال التى جرى شق طريق فوق صخورها، كلَّف من شقوه عناء كبيرا. صعدنا من هذا الطريق، ومررنا على قمة التل على برجين من أبراج المراقبة بنيا على جانبى الطريق بواسطة الشريف غالب. وبينما كنا ننزل على الجانب الآخر من التل حيث الطريق الممهد، بدأ يطالعنا منظر مكة، وبعد مسير من الحجالية

دام ساعة ونصف الساعة دخلنا الحى الشرقى من مدينة مكة، بالقرب من قصر الشريف غالب (المرقوم ٥٠ فى المخطط الملحق بهذا الكتاب). القسم الأكبر من مدينة مكة يقع على يميننا وهو مخبأ فى بعض أجزائه، بواسطة انحناءات الوادى. ونظرا لأنى كنت أعلم بحتمية عودتى إلى مكة لم ألح على مرشدى فى السماح لى برؤية منظر المدينة بكاملها، لأن ذلك كان سيحتم علينا الرجوع إلى الوراء مسافة حوالى ميلين فى الاتجاه العكسى، وهنا تغلبت على فضولى ورحت أتبع المرشد وأنا أردد الدعاء والتكبير اللذين يرددهما كل من يدخل مكة.

تنقلت بعد ذلك مرات عدة بين جدة ومكة فى الاتجاهين. معدل سير القافلة هنا بطىء جدا؛ إذ لا يمكن أن يتعدى ميلين فى الساعة الواحدة، ولقد قطعت المسافة من مكة إلى جدة على ظهر حمار فى ثلاث عشرة ساعة. هذه الرحلة تقدر بحوالى ست عشرة ساعة أو سبع عشرة ساعة من المشى، أو بما يقرب من خمسة وخمسين ميلا، والطريق ينحرف قليلا عن الاتجاه الشمالى الشرقى.

عندما تحولنا إلى جهة اليسار، مررنا على مسافة قصيرة، بثكنات كبيرة للجنود التابعين للشريف غالب، وفى ضاحية المعابدة نزلنا أمام منزل أحد الأعراب، تصادف أن كان مرشدى يعرفه. كنا فى ذلك الوقت فى شهر رمضان، لكن الشرع يعفى المسافر من الصيام. قامت ربة البيت التى كان زوجها غائبا عن المنزل بتقديم إفطار لنا، دفعنا لها ثمنه، وبقينا فى المنزل إلى ما بعد الظهر، ثم ركبنا بعد ذلك إبلنا واتجهنا صوب منزل الشريف غالب الذى على شكل بستان، ويقع عند الطرف الشرقى للضواحى، ثم سلكنا بعد ذلك الطريق قاصدين وادى منى . الوديان المتعرجة صغيرة العرض أو كبيرة، والمغطاة بالرمال، والجرداء تماما من الحياة النباتية، وتحيط بها التلال من الجانبين، هذه الوديان توصل كلها إلى وادى منى. بعد مسير نصف ساعة من قصر الشريف تنفتح الأرض بعض الشىء فى الجهة اليسرى، القناة التى تمد مكة بالماء العذب تمر بهذا المكان، وشاهدنا على بعد مسير حوالى ميلين عند نهاية الأرض المفتوحة جبلا مخروطى الشكل، يسمونه جبل النور ، الذى يعده الحجاج جبلا

مقدسا، كما سنورد فيما بعد. وبعد مسير دام ساعة ونصف الساعة تجاوزنا عن يميننا خزانا كبيرا مبنيا من الحجر، هذا الخزان يجرى ملؤه فى موسم الحج بالماء من القناة التى تمر بالقرب منه. وأنا أظن أن هذا المكان هو ما يطلقون عليه اسم سبيل الست. هناك وادٍ من الوديان الجانبية التى بين مكة ومنى، يسميه الناس هنا وادى المحصب . يقول الفاسى مؤرخ مكة، إنه كان هناك ست عشرة بئراً بين المدينة ومنى. وبعد مسير دام ساعتين، بعد أن صعدنا قليلا عن طريق ممر مرتفع ممهد جرى شقه عبر الوادى، وصلنا أخيرا إلى وادى منى. بالقرب من هذا الطريق المرتفع شاهدنا حقلا صغيرا، يروى من بئر مالحة الماء، ويزرع فيه بعض البدو البائسين البصل والكراث الذى يطلبه السوق المكى. وسوف أورد فيما بعد وصفا كاملا لوادى منى، الذى يمضى الحاج فيه ثلاثة أيام بعد العودة من عرفات.

واصلنا مسيرنا بين منازل منى المهدمة، وتجاوزنا الأعمدة القصيرة، التى يرميها الحجاج ، ثم مررنا بعد ذلك على قصر الشريف غالب، لندخل بعد ذلك إلى الأرض الواسعة المفتوحة التى يتواصل امتدادها ناحية مزدلفة ، التى تبعد عن مكة مسير ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة. اسم المزدلفة يطلق على مسجد صغير يكاد يكون أنقاضا فى الوقت الراهن، وبالقرب منه يوجد خزان أو مستودع للماء. من هنا تلقى خطبة من فوق حلبة مرتفعة أمام المسجد على الحجاج بعد عودتهم من عرفات. يقول الفاسى المؤرخ: إن هذا المسجد بنى فى العام ٧٥٩ الهجرى. ويغلب أن يطلق على هذا المسجد اسم المشعر الحرام، ولكن الفاسى نفسه يقول: إن هذا الاسم يطلق على تلة صغيرة فى نهاية وادى مزدلفة، يسميها الناس أيضا القازح . هناك طريقان يؤديان من مزدلفة إلى عرفات، الطريق الأول على الجانب الأيسر ويمتد بطول السهل أو الوادى الذى يطلق عليه هنا اسم ضب ، الطريق الثانى يمر مباشرة عبر الجبال، ويتصل بالطريق الأول بالقرب من العلمين . واصلنا سيرنا فى الطريق الكبير فى الوادى، وبعد مسير أربع ساعات وربع الساعة تبدأ الجبال فى التقارب من جديد، وهنا

يبدأ ممر ضيق يسميه الناس المزومين أو المضيق ، الذى يمر خلال الجبال لمدة نصف ساعة ينفتح المنظر بعدها على سهل عرفات، وبعد مرور أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة، مررنا فى ذلك السهل، على خزان للماء يسميه الناس بير باسان ، وهو مبنى من الحجر، وهناك مصلى صغير على القرب منه، وفى هذه المنطقة تنفتح الأرض متسعة شمالا ويمينا. فى اتجاه الشرق أرى جبال الطائف، وهذه هى المرة الأولى التى أرى فيها هذه الجبال بارتفاعها الكامل(*). بعد خمس ساعات وصلنا العلمين، وهما عبارة عن هيكلين حجريين يقع كل واحد منهما على جانب من جانبى الطريق، ويبعد كل هيكل منهما عن الآخر مسافة تقدر بحوالى مائتى خطوة، ويتعين على الحجاج المرور بينهما فى الذهاب إلى عرفات وفى العودة على وجه الخصوص. هذان العلمان من الحجر الغشيم المدهون باللون الأبيض.

يقول الفاسى إن العلمين كانا ثلاثة لكن انهار منهم واحد، ويقول أيضا إنه جرى بناؤها فى العام ٦٠٥ الهجرى، ولم يتبق منها إلا حجر واحد كامل والثانى تحطم نصفه. بعد مرور خمس ساعات وربع الساعة مررنا وعن يميننا مسجد منعزل كبير يكاد يكون متحللا، يسميه الناس جامع نمرة، أو إن شئت فقل جامع (سيدنا) إبراهيم، وقد بنى هذا الجامع بالشكل الذى هو عليه الآن السلطان قايتباى سلطان مصر. هنا كان جبل عرفات المنخفض عن يسارنا، ويقع فى نهاية السهل، ويبعد مسافة ميلين. واصلنا سيرنا فى السهل بدون توقف، والسهل فى هذه المنطقة تغطيه

(*) أثناء عودتى من الطائف إلى مكة، وعندما كنت سيدا لنفسى تماما، دونت وصفا أكثر تفصيلا ودقة للطريق، وذلك على العكس من الوصف الذى أوردته هنا، لكن ضاعت منى الأوراق التى دونت فيها ذلك الوصف، والوصف الذى أوردته هنا من الذكراة، ومن الملاحظات المتعجلة التى دونتها وأنا فى طريقى إلى الطائف.

أعشاب كبيرة الارتفاع وأشجار السنط المنخفضة، هذه الأعشاب وهذه الأشجار محرم قطع أى شيء منها من منطلق أن هذه أرض مقدسة. وعندما وصلنا إلى الحدود الشرقية للسهل وصلنا عند الساعة الخامسة وثلاثة أرباع الساعة إلى قناة سكة التى تنبع من الأرض الجبلية. بالقرب من هذه القناة يوجد خزان صغير، وبجوار هذا الخزان توجد مجموعة من أكواخ العرب، وهذه الأكواخ شبيهة بأكواخ الهَدا، وتحمل اسم قهوة عرفات. هذه الأكواخ لا يسكنها سوى بنى قريش الذين يزرعون الخضراوات فى الوادى الذى يمتد من هذه المنطقة إلى ناحية الجنوب. نلنا هنا قسطا من الراحة لبضع ساعات، ووصلت فى الوقت نفسه من الطائف قافلة مكونة من البغال والحمير.

اعتبارا من قهوة عرفات يصبح الطريق صخريا، وتكاد الجبال تقترب جدا بعضها من بعض ، كما تتقاطع معه الوديان التى تعبر الطريق من مختلف الاتجاهات، أشجار السنط غزيرة النمو فى هذا المكان. عند الساعة السابعة والنصف دخلنا من جديد أرضا رملية فى واد يسمونه وادى النومان، توجد فى جنوبه بعض الآبار، وبعض المزارع القليلة التى يزرعها عرب قبيلة قباقب وعرب ريشية . وعند الساعة الثامنة والنصف تجاوزنا مخيما لبدو من قبيلة هذيل ، حيث هاجمت الكلاب إبلنا مهاجمة شديدة، إلى حد أنى عجزت عن الدفاع عن نفسى ، على الرغم من أنى كنت راكبا فوق الجمل، عند الساعة الثامنة وثلاثة أرباع الساعة تجاوزنا مجموعة من الأكواخ والمقاهى التى يطلق الناس عليها هنا اسم شداد ، وفيها آبار ماؤها شديد العذوبة. عند الساعة التاسعة والنصف، ونظرا لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم والليل شديد الظلمة، فقد ضللنا طريقنا بأن سلكنا انحناء الوادى الملتوى، وعندما عجزنا عن استعادة الطريق الصحيح استلقينا أرضا ونمنا على الرمل لحين طلوع النهار.

اليوم السابع والعشرون من شهر أغسطس، وجدنا أنفسنا على مقربة من الطريق، وواصلنا المسير وبدأنا نصعد، وفى خلال نصف ساعة كنا قد وصلنا إلى

سلسلة الجبال العظيمة، وبدءا من جدة إلى أن وصلنا إلى هذا المكان كان طريقنا، على الرغم من وجوده بين التلال والجبال، يمر بصورة مستمرة عبر أرض منبسطة، خلال وديان فيها مطلع لا يحس به المسافر أو الرحال، ولم يصبح ذلك المطلع أمرا واضحا للعيان إلا من خلال النظر إلى البلاد من فوق قمة الجبال الموجودة أمامنا حاليا. هذه التلال المنخفضة يندر أن يزيد ارتفاعها على أربعمائة قدم أو خمسمائة. أقل السلاسل انخفاضا فوق جدة هي سلسلة التلال الجيرية، لكن صخور هذه السلسلة سرعان ما تتحول إلى صخور صَوَّانية، وإلى نوع من الجرانيت الذي يتخلله الشَّوْزل أسود اللون، المصحوب بكتل رئيسية من الكوارتز وشيء من الرمال. هذا النوع من الصخور يلازمنا طوال الطريق، مع شيء قليل من التباين، إلى أن نصل إلى المنطقة الغربية من جبل النور، في الجانب الشرقي من مكة، حيث يبدأ ظهور صخور الجرانيت. وفي مكة أخبروني أنه على بعد مسافة بضع ساعات جنوبي الهَدا، يوجد جبل عامر بالرخام الفخم الذي استخدم في تبليط المسجد الحرام. الجبال التي يتكون منها وادي منى مكونة من ذلك الجرانيت الأحمر اللون والجرانيت رمادي اللون، وأن ذلك النوع من الجرانيت يمتد من هنا إلى السلسلة الأعلى منه، ولكنه يختلط في قليل من الأماكن بطبقات أخرى من صخور مختلفة. سلسلة التلال المنخفضة المتفرعة من سلسلة الصخور العالية التي كنا نرتَقيها ونصعد إليها، هذه السلسلة هي الأخرى مكونة من الجرانيت، وعند منتصف هذه السلسلة وجدتها عامرة بالألوان كلها، ومختلطة بطبقة من أنواع أخرى من الصخور التي وجدت بعضها متحللا، وعند قمة تلك السلسلة الجبلية وجدت الجرانيت الأحمر يظهر من جديد، وقد اسود سطح ذلك الجرانيت الأحمر نتيجة لأشعة الشمس.

صعدنا من طريق سيئ، على الرغم من ترميمه مؤخرا بناء على أمر من محمد على باشا. كانت المنطقة المحيطة بالطريق برية تماما، إذ كانت تغطيها كتل كبيرة من الأحجار السائبة التي جرفتها سيول الشتاء إلى الأسفل، ومتناثرة هنا وهناك مع قلة قليلة من أشجار السنط وأشجار النبق، بعد مضى ساعة وصلنا إلى مبنى من

الحجارة السائبة يطلقون عليه اسم قبر الرفيق . وروى لى مرشدى الرواية التالية عن ذلك المبنى: فى القرن الماضى حدث أن كان بدوى عائدا من الحج، فانضم إليه بعد بوابات مكة مسافر على الطريق نفسه الذى كان يسلكه ذلك البدوى، وصلا سويا إلى هذا المكان، وعندها أحس واحد منهما بالمرض الشديد الذى جعله عاجزا عن مواصلة السير أكثر من ذلك، وفى اليوم التالى ظهر مرض الجدرى منتشرا فى سائر أنحاء جسمه. لم يكن رفيقه على استعداد لتركه فى هذا الحال أو التخلى عنه، فقام ببناء كوخين من فروع أشجار السنط أحدهما لصديقه والآخر له، واستمر الرجل يمرض صديقه المريض ويرعاه، ويطلب الصدقات من المارين لذلك المريض إلى أن شفاه الله تماما. لكن فى المقابل سقط ذلك الصديق مريضا إذ أصابه الجدرى هو الآخر ، وراح ذلك الصديق المتعافى يمرض صديقه المريض بنفس العطف والحنان اللذين لقيهما من صاحبه، على الرغم من أن الشفاء لم يكن بالقدر نفسه، فقد مات الرجل ودفنه صديقه فى هذا المكان، حيث يعد قبره تذكارا لكرم البدو، ويوحى بالشفقة والإحسان إلى الرفاق العشوائيين على الطرق.

بعد حوالى ساعة ونصف الساعة من الصعود، وصلنا إلى بعض الأكواخ المبنية بين الصخور بالقرب من عين غزيرة الماء، هذه الأكواخ يسميها الناس هنا قهوة قورة ، وهذا الاسم مشتق من الجبال التى يطلق عليها اسم جبال قورة، التقيت هنا أحد الجنود الأتراك كان مكلفا بنقل مؤن لجيش الباشا عبر الجبل، ولما كان هذا هو أقصر الطرق الواصلة بين مكة والطائف، فذلك يجعل القوافل فى حركة دائمة على هذا الطريق. هذا يعنى أن أحمال الإبل يجرى إنزالها فى هذا المكان، ثم يجرى نقلها بعد ذلك إلى قمة الجبل باستعمال البغال والحمير، التى يجرى الاحتفاظ بمائتين منها فى هذا المكان. إبل الجبل يجرى إعدادها لنقل الأحمال إلى الطائف، يضاف إلى ذلك أن الطريق الشمالى البعيد المؤدى إلى الطائف، الذى سوف أتحدث عنه فيما بعد، طريق مطروق وصالح لسير الإبل، لكن مشكلة هذا الطريق أن السير فيه يستغرق يوما أكثر من الطريق المعتاد.

أكواخ قورة بناها أصحابها بين الصخور، على منحدر الجبل الذى يتعذر وجود مكان مستو عليه. سكان هذه الأكواخ هم من بدو هذيل، فى اثنين أو ثلاثة من هذه الأكواخ لا يمكن الحصول على شىء سوى القهوة والماء. كان الجندى التركى قد استثار مؤخرا غضب الباشا واستياءه، بعد أن سرق جملا مملوكا لامرأة من هذيل وباعه، وكانت تلك المرأة قد سافرت مؤخرا لتقديم شكواها للباشا سيد ذلك الجندى من الطائف. عاملنى الجندى معاملة طيبة للغاية عندما علم أنى ذاهب لزيارة الباشا، ورجانى التوسط له لدى الباشا، ومع ذلك رفضت القيام بهذا العمل، وقلت للجندى إننى ذاهب للتوسل إلى الباشا لتصريف همومى. بقينا فى ذلك المكان إلى فترة الظهر، ومنظر البلد المنخفض من هذا المكان رائع وجميل، وهذه شجرة كبيرة من أشجار النبق، بالقرب من عين الماء الذى ينساب نازلا فوق الصخور، وفرت لى ظلا ونسيما عليلا باردا ، خفف عنى الحرارة الشديدة التى تحملتها منذ بداية تحركنا من جدة. بعد أن غادرنا قورة وجدنا الطريق شديد الانحدار، وعلى الرغم من ترميمه مؤخرا كان لا يزال سيئا، إلى الحد الذى يتعذر معه على المسافر الراكب الوصول إلى القمة دون النزول عن راحلته. هذه درجات مثل درجات السلم، جرى قطعها فى أماكن عدة، الأمر الذى قلل من شدة منحدر الصعود أو قسوته ، وذلك عن طريق توجيه صعود المنحدر إلى منحنيات كثيرة، وحتى يسهل الوصول إلى القمة جرى أيضا تجهيز ست محطات واسعة وفسيحة على جانب الجبل، كى تلتقط الإبل فيها أنفاسها، حيث لا توجد أرض مستوية تزيد مساحتها بأى حال من الأحوال عن ثمانية أقدام مربعة. هذه العين التى تنساب قادمة من قمة الجبل، يجرى عبورها مرات عدة. التقيت عددا كبيرا من بدو هذيل، وكانت معهم عائلاتهم وقطعان أغنامهم بالقرب من الطريق، أعطانى أحدهم شيئا من الحليب، لكنه رفض أن يأخذ نقودى مقابلا لذلك الحليب. هؤلاء البدو يعدون بيع الحليب فضيحة، على الرغم من أنهم فى مكة يمكن أن يجنوا من ذلك أرباحا كبيرة ، حيث يباع رطل اللبن بقرشين. تناقشت نقاشا حرا مع الرجال ومع زوجة واحد منهم. رأيت فيهم سلالة متينة من سلالات متسلقى الجبال، وعلى الرغم من أنهم كانوا فقراء تماما، فإن مظهرهم كان يوحى بالقوة والشدة عن بدو الشمال، وأنا أعزو

هذا الفارق إلى المناخ الصحى، وجودة الماء. بنو هذيل، المشهورون فى تاريخ الجزيرة العربية القديم، كانوا رعايا من الناحية الاسمية لشريف مكة الذى كانوا يعيشون على أرضه، لكنهم كانوا حقيقة الأمر مستقلين تماما عنه، بل كانوا فى حرب معه فى معظم الأحيان.

أمضينا ساعتين كاملتين فى الصعود من أكواخ القهوة إلى قمة الجبل، ومن قمة الجبل شاهدنا منظرا جميلا للبلاد المنخفضة. استطعنا من هذه القمة العالية تمييز وادى منى، لكننا لم نستطع تمييز مكة، وشاهدنا على مد البصر ، سلاسل متعرجة من التلال ، وكأنها تنبعث من سطح منبسط فى الناحيتين الشمالية والجنوبية، وشاهدنا أيضا شرائط من الرمل الأبيض بين هذه السلاسل المتعرجة، لكن هذه الشرائط كانت خالية من الخضرة بكل أشكالها. شاهدنا عن يميننا بالقرب منا قمة قورة التى يسمونها ناقب الأحمر، هذه القمة يتردد ارتفاعها بين أربعمائة قدم وخمسمائة قدم، وهى أعلى من المكان الذى نقف عليه حاليا، وتبدو لنا وكأنها تفوق السلسلة المحيطة بها من حيث الارتفاع. فى الناحية الشمالية كان الجبل الذى يبعد حوالى ثلاثين ميلا، يبدو لنا وكأنه يتناقص ارتفاعه تناقصا كبيرا، لكن هذا الجبل نفسه كان يواصل ارتفاعه فى اتجاه الجنوب، وبعد أن أمضينا نصف ساعة ونحن ركوب، عندما ابتعدنا عن القمة، وصلنا قرية صغيرة تسمى رأس قورة. بعد أن وجدت نفسى متعبا قررت النوم فى هذا المكان، ووافق مرشدى على قرارى بعد شىء من التردد، نظرا لتلقيه أوامر تقضى بأن يسافر ويتنقل معى بهمة ونشاط.

الثامن والعشرون من شهر أغسطس، تعد قرية رأس قورة هى والمنطقة المحيطة بها أجمل بقاع الحجاز، هذه البقعة أجمل وأبهى وأبهج الأماكن التى وقعت عليها عيناى منذ رحيلى عن لبنان وسوريا. قمة جبل قورة عبارة عن أرض منبسطة، لكن هناك كتلاً كبيرة من صخور الجرانيت مبعثرة على هذه الأرض المنبسطة، سطح هذه الكتل الجرانيتية شبيه بسطح الصخور الجرانيتية القريبة من الشلال الثانى فى نهر النيل، هذا يعنى اسوداد سطح هذه الكتل الصخرية بفعل أشعة الشمس وحرارتها.

هناك نهيرات عدة تنحدر نازلة من هذه القمة وتروى السهل الذى تغطيه حقول خضراء، وأشجار ظليلة كبيرة على جانب الصخور الجرانيتية. هذا المشهد والهواء المنعش الذى يهب علينا هنا يستثيران دهشة هؤلاء الذين لم يعرفوا سوى الرمال الموحشة والمحرقة فى أراضى الحجاز المنخفضة. أشاهد هنا كثيرا من أشجار الفواكه الأوروبية: أشاهد أشجار التين والمشمش والخوخ والتفاح واللوز والرمان، أشاهد أيضا أشجار الجميز المصرى، وأشاهد هنا وبصفة خاصة الكروم التى تعد أعنابها من أفضل الأنواع. المنطقة هنا خالية من النخيل، لكن فيها القليل من أشجار النبق. الحقول هنا تنتج القمح والشعير والبصل لكن صخرية التربة هنا تجعل هذه الحاصلات لا تجود مثل أشجار الفاكهة. كل "بلد"، وهذا هو الاسم الذى يطلقه الناس هنا على "الحقل" ، محاط بسور منخفض، وهو ملك لبدوى من بدو هذيل. هذا المكان جرى تدميره وتخريبه وتدمير حقوله، عندما استولى عثمان المضايفة على الطائف من الشريف غالب، ولم يجر إلى يومنا هذا إعادة بناء كثير من أسوار الحقول.

بعد أن تجولنا قرابة نصف ساعة فى هذه المنطقة الجميلة، وكان ذلك مع بداية شروق الشمس، حيث كان الندى الجميل يغطى كل ورقة وكل عود من أعواد الحشائش، وعندما كانت كل شجرة وكل دغل من الأدغال يرسل عبيقه فى الجو لتتلقفه الأنوف، وعندما كان المنظر الطبيعى يسر الخاطر ويسر الناظرين، هنا توقفت بالقرب من أكبر تلك الأفلاج، الذى – على الرغم من أن عرضه لم يكن يزيد على خطوتين – كان يغذى على ضفتيه أشجار الطرفاء الألبية شديدة الخضرة التى لا يستطيع النيل العظيم بكل عنفوانه إنتاجها فى مصر. أحضر لنا بعض العرب شيئا من حبات اللوز والزبيب، وأعطيناهم مقابل ذلك شيئا من البسكويت، لكن على الرغم من نضوج الأعناب، لم نستطع الحصول على أى شىء منها، وسبب ذلك أن تلك الأعناب يجرى شراؤها وهى على أشجارها بواسطة تجار الطائف الذين يصدرون هذه الأعناب إلى مكة، ويقومون بحراستها بواسطة حراس من قبلهم، إلى أن يقوموا هم بحصادها. هنا

وجدنا جنديا تركيا يحمل لقب أغا يقيم فى خيمة، وتتمثل مهمته فى توصيل المؤن والتموينات التى تصل إليه من محطة الطائف المنخفضة. لاحظت فى شيء من الدهشة عدم بناء أى محل من محلات تزجية وقت الفراغ على هذه الحلبة المرتفعة . فى الماضى كان لتجار مكة منازل أو مقرات فى الطائف، هذه المقرات مهجورة ويخيم عليها الحزن، بقدر ما يبدو هذا المكان مبهجا وفارها، لكن أحدا من هؤلاء التجار لم يفكر مطلقا فى بناء كوخ هنا فى هذا المكان، وهذا دليل جديد على الفكرة التى كانت تراودنى منذ زمن بعيد، ومفادها أن الشرقيين، وبخاصة العرب، أقل أحساسا بجماليات الطبيعة من الأوروبيين. ماء رأس قورة شهير بعذوبته وامتيازه فى سائر أنحاء الحجاز. طوال مقام محمد على باشا فى كل من مكة وجدة كانت تصله بصورة منتظمة كميات من ماء النيل لاستخدامها فى الشرب، كانت تلك المياه ترسل من مصر مع كل أسطول من الأساطيل التى كانت تقصد جدة. كانوا يرسلون له ذلك الماء فى أوعية كبيرة مصنوعة من القصدير والصفيح، لكن محمد على باشا عندما مر بهذه المنطقة وجد أن ماءها جدير بأن يحل محل الماء الآخر، وبناء عليه يأتى جمل من الطائف ليجلب كل يوم حملا من هذا الماء.

منازل هذيل أصحاب هذه المزارع، مبعثرة فى سائر أنحاء الحقول على شكل مجموعات مكونة من أربعة منازل أو خمسة ، هذه المنازل صغيرة مبنية من الحجر والطين ، لكن بعناية وحرفية لا يمكن أن ننتظرها من هذه الأيدى الخشنة. كل منزل من هذه المنازل مكون من ثلاث غرف أو أربع ، كل واحدة منها مستقلة عن الغرف الأخرى بواسطة ردهة ضيقة مكشوفة، تشكل ما يشبه الكوخ المنعزل الصغير. هذه الغرف لا يدخلها الضوء إلا من مداخلها فقط، وهى مرتبة ونظيفة جدا، وتحتوى على أثاث بدوى، وبعض السجاد الجيد، وجوالات مصنوعة من الصوف والجلد، وقلة قليلة من الأطباق المصنوعة من الخشب، وأوانى للقهوة مصنوعة من الفخار، وبندقية فتيلية يوليها صاحبها عناية كبيرة؛ إذ يحفظها دوما فى جراب من الجلد. أثناء الليل أخذت قسطا من الراحة وأنا مستلقٍ على جلد بقرة كبير ومدبوغ، أما الغطاء الذى التحفت به

فكان عبارة عن مجموعة من جلود الأغنام الصغيرة المخيطة بعضها إلى بعض، وهو شبيه بالأغطية المستخدمة في بلاد النوبة. أبلغني هذلي أنه قبل مجيء الوهابيين، وقبل إجبارهم هذيل على دفع إتاوة عن حقولهم، لم يكونوا يعرفون أى نوع من أنواع الضرائب التى تفرض على الأراضى المنزرعة، بل إنهم كانوا على العكس من ذلك يتلقون هدايا سنوية من الأشراف ومن أهل مكة الذين كانوا يمرون من ذلك الطريق قاصدين الطائف. تمتد رأس قورة من الشرق إلى الغرب حوالى ميلين ونصف الميل أو ثلاثة أميال تقريبا، أما عرضها فيصل إلى قرابة الميل. وفى الاتجاه نحو الجنوب تقطن قبائل بدوية مثل هذيل تقوم بحرفة الزراعة فى أماكن سفوح الجبال ، وهى أرض لا تقل خصوبة ولا جمالا عن ذلك المكان الذى رأيناه فى سلسلة الجبال سالفة الذكر.

غادرنا رأس قورة، التى ستظل ذكراها فى ذهنى طوال إحساسى بروعة المناظر الرومانسية ومباهجها، وركبنا رواحلنا مدة ساعة عبر أرض جرداء غير مستوية، فيها ارتفاعات وانخفاضات طفيفة، إلى أن وصلنا منحنى شديد الانحدار، استلزم سيرنا فيه حوالى نصف ساعة، وصعود هذا المنحنى يتطلب ضعف هذا الوقت. الصخر كله هنا من الحجر الرملي. ومن قمة ذلك المنحنى سالف الذكر، يستطيع الرائى مشاهدة الطائف من مسافة بعيدة. وبعد مسير نصف ساعة من سطح الجبل دخلنا وادياً خصيبا يسمونه وادى محرم، يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى. هذا الوادى شأنه شأن المنطقة الأعلى منه، عامر بأشجار الفاكهة، لكن الحقول المنزرعة القليلة تروى من آبار، وليس من أفلاج جارية. وهذه قرية من القرى التى أتى على أغلبها الوهابيون وخربوها، تقع على المنحدر، وفيها برج صغير بناه أهلها ليحفظوا فيه إنتاج حقولهم .

من هنا تبدأ حدود الطائف، وحدود أراضى قبيلة ثقيف، الذين كانوا فى الزمن الماضى فى حرب مستمرة مع جيرانهم هذيل. والوادى يسمى وادى محرم، بحكم الظروف، هذا يعنى أن الحجاج فى هذه المنطقة و – كذلك – الزوار المتجهين شرقا إلى

مكة، يتعين عليهم ارتداء ملابس الإحرام قبل أن يلاحظهم أحد، هناك حوض (خزان) صغير مهدم بالقرب من الطريق. والمعروف أن قافلة الحج اليمنى، التى يسمونها الحج القبصى، والتى يقع مسارها على طول هذه الجبال، تلتزم دوما فى هذا المكان بمراعاة طقوس دخول مكة، ومن ثم جرى ملء هذا الخزان بالماء كى يتوضأ منه الحجاج. يجلب مزارعو وادى محرم الماء من الآبار باستخدام دلاء من الجلد معلقة من أحد أطرافها بسلسلة من الحديد، تنزلق حول بكرة، ويعلقون فى الطرف الآخر بقرة، تقطع، فى ظل عدم وجود ساقية، مسافة كافية بعيدا عن البئر لرفع الدلو من البئر، ثم تعاد البقرة من جديد لاستئناف هذه العملية. الأبقار التى رأيتها هنا، شأنها شأن أبقار الحجاز كلها، صغيرة الحجم لكنها قوية البنية وشديدة، قرون هذه الأبقار قصيرة، ولها ختم على ظهرها فوق الكتفين مباشرة، ويصل ارتفاعه إلى ما يقرب من خمس بوصات وطوله حوالى ست بوصات، وهو فى ذلك يشبه أختام الأبقار التى رأيتها على حدود النيل فى بلاد النوبة. وعلى حد قول المواطنين فإن سلسلة الجبال التى تمتد من هنا إلى الناحية الشمالية، إلى أن تصل إلى المنطقة التى تبدأ عندها مزارع البن، تتقاطع معها وديان أخرى منزرعة عشبية بهذا الوادى، لكنها منفصلة بعضها عن بعض، ولكن المساحة الوسطية التى بين هذه الوديان عبارة عن تربة صخرية جرداء.

بعد وادى محرم بدأنا من جديد نعبر أرضا جبلية غير مستوية، عثرت فيها على الحجر الرملى ونوع آخر من الصخور. أشجار السنط تنتشر هنا فى العديد من الوديان الرملية التى تتفرع من الطريق الرئيسى. بعد أن سرنا مدة ساعتين ونصف الساعة اعتبارا من مغادرتنا لوادى محرم صعدنا إلى قمة تل من التلال، ومن تلك القمة شاهدت الطائف أمامنا. وصلنا الطائف بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من مغادرتنا لوادى محرم، بعد أن عبرنا السهل الرملى القاحل الذى يفصل وادى محرم عن التلال المحيطة به. كان معدل سيرنا بدءا من مكة، عندما كنا وحدنا تماما فوق إبلنا وعندما كان بوسعنا ضبط ذلك المعدل حسب هوانا، لا يقل بحال من الأحوال عن ثلاثة أميال وربع الميل فى الساعة الواحدة، وتأسيسا على ذلك فأنا أقدر المسافة من مكة إلى

سفح جبل قورة بما يقرب من اثنين وثلاثين ميلا، والمسافة إلى قمة جبل قورة تقدر بحوالى عشرة أميال، ومن قمة جبل قورة إلى الطائف تقدر بحوالى ثلاثين ميلا، بحيث يصل إجمالى المسافة إلى اثنتى وسبعين ميلا. اتجاه الطريق من عرفات إلى الطائف يقدر بحوالى اثنتى عشرة أو خمس عشرة درجة على البوصلة، وذلك جنوبى الطريق المتجه من مكة إلى عرفات، لكن نظرا لعدم وجود بوصلة برفقتى لم أستطع تحديد الاتجاه تحديدا دقيقا.

الإقامة فى الطائف

وصلت إلى الطائف عند الظهر، ونزلت عن راحلتى أمام منزل بوسارى ، وبوسارى هذا هو طبيب الباشا ، وسبق أن تعرفت عليه عندما كنت فى القاهرة. ولما كنا فى رمضان فقد كان الناس صياما، ومعروف أن أعيان الأتراك وأغنياءهم ينامون دوما أثناء النهار، الأمر الذى يعنى أن الباشا لا يمكن إبلاغه بوصولى إلا بعد غروب الشمس. وفى ذات الوقت، وبعد التأكيد من جانب بوسارى على اهتمامه الكامل بمصالحى، والتأكيد الشرقى المعتاد من جانبه أيضا على مدى صداقته الحقة معى. سألنى الرجل عن وجهات نظرى فى مجيئى إلى الحجاز، وأجبته أن مجيئى إلى الحجاز كان بهدف زيارة مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] ثم العودة إلى القاهرة، ولكن الرجل ساوره الشك فى نواياى فيما يتعلق بمصر، ورجانى أن أكون صريحا معه بصفتى صديقا له، وأن أقول له الحق، بحكم أنه اعترف لى أنه كان يتشكك فى ذهابى إلى جزر الهند الشرقية، وقد أنكرت ذلك تماما، ولكنه ألمح خلال حديثنا أننى إذا كنت أنوى بحق العودة إلى مصر، فالأفضل لى هو البقاء فى مركز الرئاسة معهم إلى أن يعود الباشا نفسه إلى مصر. لم يرد بيننا حديث عن مسألة النقود، على الرغم من أن بوسارى كان جاهلا بمسألة احتياجاتى المالية فى جدة.

فى فترة المساء ذهب بوسارى وحده إلى الباشا فى مسكن الحريم، الذى لا يستقبل الباشا فيه أحدا سوى الأصدقاء الحميمين والمعارف المقربين له تماما. عاد إلىَّ بوسارى فى غضون نصف الساعة ليقول لى إن الباشا يود لقائى فى ساعة متأخرة من هذا المساء فى مجلسه العام، وأضاف أنه وجد قاضى مكة جالسا مع الباشا، حيث تصادف وجوده فى الطائف بسبب ظروفه الصحية، وأنه سمع القاضى وهو يقول عندما سمع عن رغبتى فى زيارة المدينتين المقدستين: "ليست اللحية وحدها(*) دليلا على صدق إسلام المسلم"، ولكنه التفت إلى القاضى وقال: "أنت خير منى فى الحكم على مثل هذه الأمور". ثم أبدى القاضى ملاحظة بعد ذلك مفادها أنه مادام المسلم هو الشخص الوحيد الذى يسمح له برؤية المدينتين المقدستين، وأن هذا الظرف لا يمكن أن يكون جاهلا به، فهو لا يصدق أنى يمكن أن أعلن أنى مسلم، إلا إذا كنت كذلك فعلا. عندما علمت بهذه التفاصيل قلت لبوسارى أنه يمكن أن يعود إلى الباشا وحده، ويقول له إنى أوذيت فى مشاعرى إيذاء كبيرا بسبب التعليمات التى أعطيت لمرشدى بعدم تنقلى فى مكة، وإنى بكل تأكيد ينبغى ألا أذهب إلى مجلس الباشا إذا لم يستقبلنى بصفتى واحدا من الأتراك.

انزعج بوسارى من كلامى، وحاول دون جدوى إبعادى عن ذلك الخط، وأخبرنى أن لديه أوامر بأن يصحبنى إلى الباشا، وأنا لا يمكن أن أخالف تلك الأوامر، ومع ذلك تمسكت تماما بما قلته، وعاد بوسارى مترددا إلى محمد على باشا، الذى كان جالسا وحده بعد أن انصرف القاضى. وعندما ألقى أو أوصل بوسارى الرسالة ابتسم الباشا، وقال إنه يرحب بى سواء كنت تركيا أو غير تركى. فى حوالى الساعة الثامنة مساء عدت إلى القلعة، ذلك المبنى، أو بالأحرى المسكن البائس شبه المخرب الذى يتبع الشريف غالب، مرتديا البذلة الجديدة التى تسلمتها فى جدة بناء على أمر من الباشا. وجدت سعادة الشريف جالسا فى صالون كبير مع القاضى الذى كان يجلس

(*) كنت أطلق لحيتى فى ذلك الوقت، مثلما فعلت فى القاهرة، عندما رآنى الباشا.

بجانب الشريف من ناحية، وحسان باشا الذى كان يجلس على الجانب الآخر من ناحية ثانية. حسان باشا هذا كان رئيسا للجنود الأرناءوط، وكان هناك حوالى ثلاثين من كبار ضباطه أو أربعين يشكلون نصف دائرة حول الأريكة التى كانوا يجلسون عليها، وكان هناك عدد من شيوخ البدو جالسين فى المنتصف على شكل شبه دائرة. قصدت إلى الباشا مباشرة وألقيت عليه السلام وقبلت يده، وأشار إلىَّ بالجلوس إلى جانب القاضى، وراح يخاطبنى بأدب جم، وسألنى عن حالتى الصحية، وسألنى عما إذا كانت لدى أخبار عن المماليك فى ذلك البلد الأسود الذى سبق أن زرته، لكنه لم يتطرق إلى أهم موضوع عندى. كان أمين أفندى المترجم العربى مع الباشا هو الذى تولى الترجمة فيما بيننا، لأنى لا أتكلم اللغة التركية، ونظرا لأن الباشا لم يكن يتقن العربية. وفى غضون خمس دقائق استأنف محمد على باشا الموضوع الذى كان يناقش البدو فيه، عندما قاطعت حديثهم. بعد أن انتهى الباشا من حديثه مع البدو، وبعد أن غادر حسان باشا الغرفة، طلب الباشا من الجميع الخروج من المجلس ما عدا القاضى وبوسارى وأنا معهما. توقعت أن يختبرونى، وكنت مستعدا لذلك تمام الاستعداد ولكن لم يتطرق الحديث إلى أمورى الشخصية، بل إن محمد على نفسه لم يتطرق فى أى حوار من الحوارات التى دارت بينى وبينه فيما بعد إلى أمر من أمورى الشخصية، اللهم إلا من تلميحه إلى أنى كنت فى طريقى إلى جزر الهند الشرقية. وعندما أصبحنا بمفردنا وحدنا، أنا وهو، أقحم الباشا موضوع السياسة، فقد وصلته مؤخرا أنباء دخول الحلفاء باريس وانسحاب بونابرت إلى جزيرة إلبا، وأن مجلات مالطية متعددة أوردت تفاصيل هذه الأحداث، وأن هذه المجلات أرسلت إليه من القاهرة. يبدو أن الباشا كان شديد الاهتمام بهذه الأحداث المهمة، نظرا لأنه كان يعمل فى ظل انطباع مفاده أن بريطانيا بعد سقوط بونابرت يحتمل أن تذهب إلى تدعيم القوة فى البحر المتوسط وتعضيدها، ومن ثم القيام بغزو مصر.

بعد أن بقيت مع الباشا مدة ثلاث ساعات أو أربع فى حوار خاص، إما بالحديث معه باللغة العربية من خلال القاضى الذى كان يعرف العربية معرفة جيدة، على الرغم

من أنه كان مواطنا من مواطنى إسطنبول، وإما من خلال اللغة الإيطالية، بواسطة بوسارى الذى كان مواطنا أرمينيا، لكنه اكتسب اللغة الإيطالية فى القاهرة، بعد هذه الساعات الثلاث أو الأربع استأذنت فى الانصراف وأبلغنى الباشا أنه يتوقع حضورى فى الغد فى الموعد نفسه.

اليوم التاسع والعشرون من شهر أغسطس، زرت القاضى قبل غروب الشمس، ووجدته مع رفيقه وسكرتيره، الذى هو أحد العلماء من إسطنبول. كان القاضى صادق أفندى أحد أفراد الحاشية الشرقية حقا وحقيقة، وسلوكياته وحديثه شيق جدا، ويمتلك كل طلاوة التعبير التى يتميز بها مواطنو إسطنبول الحقيقيون. بعد أن تبادلنا بعض عبارات التحية، أعربت عن دهشتى من أن الباشا أعرب عن شكوكه فى حقيقة إسلامى، بعد أن أصبحت تابعا لهذا الدين منذ سنوات عدة، وردّ علىّ الرجل أنه (القاضى) أفضل حكم فى مثل هذه الأمور، وأردف الرجل أنه يتطلع إلى أن نكون على معرفة أوثق بعضنا ببعض، وبدأ الرجل يسألنى عن أسفارى فى بلاد النوبة، وخلال الحوار الذى دار بيننا تطرقنا إلى بعض المواضيع الأدبية، سألنى القاضى عن الكتب العربية التى قرأتها، وما التفاسير التى قرأتها للقرآن والشريعة، ويحتمل أن يكون قد عرف أنى على معرفة لا بأس بها بهذه الأمور، وبخاصة عناوين بعض الكتب المهمة فى هذه المجالات، ولكننا لم نتعمق فى هذا الموضوع، وبينما كنا نتحاور انطلق أذان المغرب منهيا صيام ذلك اليوم. تناولت الإفطار مع القاضى، وذهبت بصحبته لأداء صلاة العشاء، وحرصت على قراءة سورة طويلة قدر المستطاع من القرآن الكريم، وبعد أداء صلاة العشاء ذهبنا إلى الباشا الذى أمضى بدوره جزءا من الليل فى حوار خاص معى، وبخاصة فى الشئون السياسية دون التعرض لأمورى الشخصية.

بعد مقابلة ثانية درجت على أن أذهب كل مساء أولا إلى القاضى، ثم بعد ذلك إلى الباشا، لكن على الرغم من ذلك الاستقبال الطيب الذى لقيته فى القلعة لاحظت أن تصرفاتى كانت مراقبة مراقبة لصيقة. سألنى بوسارى إن كنت أدون يومياتى،

لكنى أجبته أن الحجاز ليست كمصر، مليئة بالآثار، وقلت له أيضا إنى لم أر فى هذه الجبال الجرداء أى شيء جدير بالملاحظة. لم يسمحوا لى أن أنفرد بنفسى ولو للحظات قليلة، وكانت لدىَّ شكوك مفادها أن بوسارى، وعلى الرغم من كل تأكيده للصداقة التى بيننا، لم يكن شيئا سوى جاسوس. وهكذا توصلت إلى أن بقائى فى الطائف لفترة غير محدودة، فى ظل الظرف الذى أنا فيه حاليا، يعد أمرا غير مرغوب فيه وغير مستحب أيضا، ومع ذلك لم أستطع تحديد نوايا الباشا قبَلى. كان واضحا أنه يُنظر إلىَّ من منظور واحد فقط وهو أنى جاسوس موفد إلى هذا البلد من قبل الحكومة الإنجليزية، للتأكد من الحال الراهن، وأن أكتب تقريرا عن هذا الأمر وأنا فى جزر الهند الشرقية. هذا فى تقديرى هو رأى الباشا، كان يعرفنى على أنى من الإنجليز، وقد انتحلت هذا الاسم أثناء أسفارى (وآمل ألا يكون فى ذلك إساءة لهذا البلد)، على أمل أن أبدو أوروبيا إذا ما دعت الضرورة، وسبب ذلك هو أن رعايا إنجلترا وفرنسا دون غيرهم، كانوا هم الوحيدين الذين يتمتعون بالأمن والسلامة فى الشرق؛ كانوا يعدون محميين حماية تامة من قبل حكوماتهم فى بلادهم من ناحية ومن قبل وزرائهم فى إسطنبول من ناحية ثانية، الأمر الذى كان يحول دون تلاعب الحكومات الإقليمية بهم أو الإساءة إليهم. يزاد على ذلك أن الباشا كان يعدنى من أصحاب المقام الرفيع، ذلك أن واحدا من الإنجليز الذين يترحلون فى الشرق يقولون له "سيدى" : وكان الباشا مقتنعا بذلك تمام الاقتناع، فى ضوء تلك الحالة من الاحترام التى أحطت بها نفسى فى هذا البلاط التركى، الذى فيه التواضع السلوكى وعذوبة المعاشرة والأنس أمور لا محل لها من الإعراب. وربما كان تخوفه من بريطانيا العظمى هو الذى حدا به إلى عدم إساءة معاملتى، وذلك على الرغم من عدم فعل أى شيء فى أمورى المعروضة عليه، وعلى قدر معرفته، أنا لا يمكن أن آخذ سوى خمسمائة قرش التى أمر لى بها فى جدة، والتى لم تكن كافية لسداد مصروفاتى فى الحجاز إلا لمدة قليلة جدا، ولم يقل لى الباشا أو بوسارى عن مسألة سحب حوالتى على القاهرة، كما سبق أن عرضت، ولم أعاود التطرق إلى هذا الموضوع، إذ كان معى ما يكفينى من النقود فى الوقت الراهن، فضلا عن أنى كنت أتوقع وصول مبالغ إضافية من مصر.

لم ترق لى مسألة البقاء فترة طويلة فى الطائف فيما يمكن أن أسميه السجن المؤبد، ومع ذلك كنت عاجزا عن الحض على التعجيل برحيلى دون أن تتزايد الشكوك من حولى، وقد أصبح ذلك أمرا شديد الوضوح بعد لقائى الأول مع كل من الباشا والقاضى، وعرفت أيضا أن تقارير بوسارى يمكن أن تؤثر تأثيرا كبيرا فى ذهن محمد على. فى ظل هذه الظروف رأيت أن أفضل السبل إلى تحقيق ما أبتغيه هو أن أجعل بوسارى يمل منى ويسأمنى، الأمر الذى يقنعه بعرض وجهات نظرى على محمد على باشا، ومن ثم بدأت التصرف فى منزله تصرفات العثمانيين الوقحة، ونظرا لأننا كنا فى رمضان فقد صمت النهار، وفى الليل كنت أطلب عشاء مستقلا، وفى ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالى طلبت إفطارا كبيرا، قبل أن أبدأ الصيام، وخصصت لنفسى أفضل الغرف فى منزل الرجل، إضافة إلى أن خدم الرجل كانوا يقومون دوما على تلبية طلباتى. الكرم الشرقى يحظر التبرم من السلوك الذى يكون من هذا القبيل، يضاف إلى ذلك أنى كنت واحدا من الرجال العظام، وأنى كنت أقوم بزيارة للباشا. فى حوارى مع بوسارى أكدت له أنى مرتاح للغاية لوجودى فى الطائف، وأن مناخها يناسب حالى الصحى تماما، وأعربت له عن عدم رغبتى فى ترك المكان فى الوقت الراهن. مسألة إعاشة شخص له شخصيتى مدة طويلة فى الطائف التى تعد المؤن والتموينات بكل أنواعها شحيحة على نحو أكثر مما هى عليه فى لندن نفسها، لم تكن أمرا سهلا أو يسيرا، يزاد على ذلك أن الضيف الثقيل يكون مكروها فى كل مكان. مبلغ علمى أن الخطة نجحت تماما، وحاول بوسارى إقناع الباشا بأنى مخلوق لا حول له ولا قوة ولا ضرر منه، وذلك تمهيدا لإرسالى إلى حال سبيلى.

مكثت ستة أيام فى الطائف لم أغادر المنزل خلالها إلا عندما كنت أذهب إلى القلعة فى المساء، إلى أن سألنى بوسارى ما إذا كان عملى مع الباشا سيمنعنى ويؤخرنى إلى وقت طويل قبل أن أستأنف أسفارى وأزور مكة. رددت عليه أنى ليس لى أى عمل مع الباشا، على الرغم من مجيئى إلى الطائف بناء على رغبته، لكنى كنت سعيدا جدا بموقفى، وبخاصة فى وجود صديق كريم وصدوق مثل بوسارى مضيفى.

فى اليوم التالى جدد بوسارى الموضوع نفسه، وأبدى ملاحظة مفادها أن العيش بين الجنود أمر يصيب الإنسان بالسأم والملل، فى غياب وسائل الراحة أو التسلية أو التعارف على الناس، أو حتى معرفة اللغة التركية، كما هو الحال بالنسبة لى. وافقت على ما قاله الرجل، لكنى أضفت قائلا: إن جهلى بما يريده الباشا، هو الذى يجعلنى عاجزا عن اتخاذ أى قرار أو البت فى أى أمر من الأمور. وقد أوصل ذلك بوسارى إلى ما أبتغيه وأريده أنا، قال بوسارى: إذا كان هذا هو الحال فسوف أكلّم جلالته، إذا ما كانت هذه هى رغبتك فى هذا الأمر. وفعل بوسارى ذلك فى المساء قبل ذهابى إلى القلعة، وهنا أبلغنى الباشا خلال حوارنا، أنى مادمت أود تمضية الأيام الأخيرة من رمضان فى مكة (هذا الاقتراح كان نابعا من بوسارى نفسه) فالأفضل لى هو اللحاق بجماعة القاضى الذى قرر الذهاب إلى مكة إلى حلول العيد، وأنه سوف يسعد برفقتى له. كان ذلك على وجه التحديد الظرف الذى كنت أتمناه وأنتظره، وتحدد سفر القاضى اليوم السابع من شهر سبتمبر، وهنا استأجرت حمارين – وهذه هى طريقة النقل المعتادة فى هذا البلد – لكى أتبع القاضى.

لما كنت انتويت المضى قدما بعد ذلك إلى المدينة [المنورة] التى كان طوسون باشا ولد محمد على حاكما عليها، فقد التمست إلى بوسارى أن يطلب من الباشا فرمانا أو جواز سفر، يرخص لى بالتجوال فى سائر أنحاء الحجاز، فضلا عن خطاب تزكية لولده طوسون، وردا على هذا الطلب أبلغنى بوسارى أن الباشا لا يود التدخل شخصيا فى مسألة أسفارى، وأنى بوسعى التصرف كما أشاء وعلى مسئوليتى الخاصة، وأن معرفتى للغة العربية تجعل الفرمان غير ذى بال. هذا القول كان كما لو كان الباشا يقول لى: "افعل ما تشاء، وأنا سوف لا أعرفك أو أسهِّل مخططاتك." وجاء ذلك فى واقع الأمر كما كنت أريده أو أبتغيه فى الوقت الراهن.

فى اليوم السادس من شهر سبتمبر، استأذنت الباشا الذى أبلغنى عند الرحيل، أننى إذا ما حملتنى أسفارى إلى الهند، فإننى يتعين علىَّ إبلاغ الشعب الإنجليزى هناك أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمصالح تجارة الهند. وفى صبيحة اليوم السابع من

شهر سبتمبر، أرسل القاضى إلىَّ من يبلغنى أنه يجب ألا يتحرك إلا فى المساء، أى أنه سيسافر أثناء الليل، وأنه يتطلع إلى لقائى عند جبل قورة فى منتصف الطريق إلى مكة. وهنا رأيت أن أغادر الطائف بمفردى، مثلما دخلتها بمفردى أيضا، بعد إقامة فيها دامت عشرة أيام. عند مغادرة الطائف أبلغنى بوسارى بولائه الشديد لصالحى، وبعد أن غادرت حدود الطائف رحت أشكر الله على حظى السعيد، وعلى نجاتى من الإقامة فى بلاط تركى، كان من الصعب علىَّ فيه تحاشى الخطر، كما لو كنت بين البدو غير المتحضرين فى بلاد النوبة.

طوال مقامى فى الطائف التقيت الباشا خمس مرات أو ست مرات، والمقتطفات التالية من مفكرتى اليومية توضح النتائج العامة التى أسفرت عنها تلك المقابلات:

سؤال: أتمنى أن تكون بخير يا شيخ إبراهيم.

جواب: أنا بخير تماما، وأنا فى غاية السعادة لأنى ألقاك مرة ثانية.

سؤال: لقد ترحلت كثيرا منذ آخر مرة رأيتك فيها فى القاهرة. ما هو المدى الذى وصلت إليه فى بلاد الزنوج؟

رددت على هذا السؤال بأن أوردت ملخصا لأسفارى فى بلاد النوبة.

سؤال: خبرنى كيف حال المماليك فى دنقلة؟

حكيت له ذلك الذى سيجده القارئ فى كتابى المعنون "الأسفار النوبية" .

سؤال: أنا أفهم أنك تعاملت فى إبريم مع اثنين من المماليك؟ هل هذا صحيح؟

أدهشتنى الكلمة "تعاملت" (إذا كان المترجم قد ترجم الكلمة التركية حقيقة)، ذلك أن الباشا عندما كان فى مصر بلغه وأنا فى طريقى إلى دنقلة أنى التقيت اثنين من المماليك فى بلدة "در" ونظرا لأن الباشا كان لا يزال يشك فى محاباة الإنجليز لقضية أو مصلحة المماليك ، فلربما ظن أنى كنت أحمل رسالة إليهما من الحكومة. وهنا أكدت للباشا أن لقائى بالمملوكين كان طارئا تماما، وأن الاستقبال السيئ الذى

لقيته فى المحاس كان بسببهما، كما أبلغته أيضا أنى أخشى على حياتى منهما، ويبدو أن الباشا اقتنع بهذا التفسير.

سؤال: دعنا هنا نسوى أمورنا مع الوهابيين، وبعدها سوف أتخلص من المماليك على وجه السرعة. كم فى رأيك عدد الجنود اللازمين لإخضاع البلاد حتى منطقة سنار؟

جواب: خمسمائة رجل من القوات الجيدة يمكن أن يصلوا إلى تلك النقطة، لكنهم لا يستطيعون التمسك بالأرض، كما أن النفقات لا يمكن استعاضتها من الغنائم.

سؤال: ما الذى يمكن الحصول عليه من تلك البلاد؟

جواب: الإبل والعبيد، والذهب من نواحى سنار، إذ يجرى جلبه من الحبشة، لكن ذلك كله مملوك لبعض الأفراد. ملوك هذه البلدان أو رؤساؤها ليست لهم ثروات.

سؤال : ما حال الطريق من مصر إلى سنار؟

جواب: لقد وصفت الطريق بين أسوان وشندى، ووصفته أيضا من سواكن إلى شندى.

سؤال: كيف أزجيت وقتك بين السود؟

رويت له بعض القصص المضحكة، الذى بدا لى أنه انشرح صدره لها.

سؤال: الآن، إلى أين تود الذهاب يا شيخ إبراهيم؟

جواب: أود أداء فريضة الحج، ثم العودة إلى القاهرة، ثم أقوم بعد ذلك بزيارة بلاد فارس (وجدت أنه من المناسب عدم التطرق إلى ما أنتوى، وبخاصة العودة إلى وسط إفريقيا).

سؤال: سهل الله لك طريقك! لكنى أرى أن سفرك الكثير على هذا النحو يعد نوعا من الحماقة والجنون، دعنى أسألك، ماذا كانت نتيجة رحلتك السابقة؟

جواب: مصائر الناس وأقدراهم محددة، ونحن جميعا نتبع أقدارنا. وأنا شخصيا أجد متعة فى استكشاف بلدان جديدة وغير معروفة، وأجد متعة أيضا فى تعرف أعراق مختلفة من البشر. أنا متيم بالقيام بالرحلات من باب الإشباع الشخصى الذى أجده فى الأسفار والترحال، وبالتالى أنا لا أعير متاعبى الشخصية اهتماماً.

سؤال: هل وصلتك أخبار من أوروبا؟

جواب: وصلتنى بعض التقارير المقتضبة عندما كنت فى جدة.

وهنا حكى لى الباشا الأحداث التى أسفرت عن نفى بونابرت إلى جزيرة إلبا بعد دخول الحلفاء باريس. قال الباشا : لقد تصرف بونابرت تصرف الجبناء، لقد كان أحرى به أن يسعى إلى الموت بدلا من بقائه معروضا فى قفص والعالم يضحك منه سخرية واستهزاء. ثم أضاف : إن الأوروبيين خونة أكثر من العثمانيين، لقد تخلى أصدقاء بونابرت عنه ، لقد تخلى عنه كل قواده الذين هم مدينون له بثرواتهم.

كان محمد على باشا يتطلع من خلال تساؤلاته إلى معرفة العلاقات السياسية بين بريطانيا العظمى وروسيا، ومعرفة احتمال نشوب الحرب بينهما، بسبب نوايا روسيا العدوانية تجاه الباب العالى (كان محمد على باشا قد تلقى معلومات استخباراتية غير صحيحة حول هذا الموضوع). كانت مخاوف محمد على تتركز فى أن الجيش الإنجليزى، الذى جرى استخدامه فى جنوب فرنسا وإسبانيا أصبح خاليا وبلا عمل ويمكن استعماله فى غزو مصر. قال محمد على "السمك الكبير يبتلع السمك الصغير، ومصر ضرورية ومهمة لإنجلترا، وبخاصة فى إمداد مالطة وجبل طارق بالقمح". تناقشت مع محمد على باشا نقاشا موضوعيا حول هذا الموضوع، لكن ذلك النقاش جاء بلا طائل، كما لاحظت أيضا أن المترجم لم يكن يترجم إجاباتى ترجمة دقيقة، وذلك من باب التخوف من معارضة آراء سيده وأفكاره الشهيرة المعروفة للجميع. هذه

الآراء كانت متأصلة فى واقع الأمر وراسخة، وجرى تعزيزها من قبل البعثة الفرنسية فى مصر. أردف محمد على قائلا: " أنا صديق الإنجليز" (هذا الكلام إذا ما صدر عن تركى إلى مسيحى، لا يدل على شيء سوى تخوفه من ذلك المسيحى أو أنه يريد نقوده). " وأنا أصدقك القول إننا نشاهد بين كثير من عظماء الرجال قدرا كبيرا من المجاملات وشيئا قليلا جدا من الصدق والإخلاص، وأنا آمل ألا يهجموا على مصر أثناء وجودى فى الحجاز، وأنا لو قدر لى شخصيا أن أكون هناك، فسوف أقاتل، وهذا هو أضعف الإيمان ؛ كيما أكون راضيا عن مشاركتى أنا شخصيا فى القتال من أجل ممتلكاتى. أنا لا أخاف السلطان (أكد محمد على على هذه العبارة مرارا، لكنى يراودنى شك كبير فى إخلاص الرجل وولائه)، وأنا أعرف جيدا كيف أبزه وأتفوق عليه فى إجراءاته كلها. أى جيش يجيء من سوريا لا يمكن له أن يهاجم مصر عن طريق البر بأعداد كبيرة، نظرا لقلة عدد الإبل، يزاد على ذلك أن الفيالق المنفصلة أو المستقلة يمكن تدميرها بسهولة ويسر فور عبورها الصحراء".

انتهزت الفرصة وقلت لمحمد على: إنه يشبه ذلك الشاب الذى معه فتاة جميلة، وهو على الرغم من تأكده من حبها له فإنه يغار عليها من الغرباء. أجابنى قائلا : كلامك جميل وأنا أحب مصر حبا جما، أحبها حب العاشق لها، وأنا إن قدر لى أن تكون لى عشرة آلاف روح، فسوف أضحى بكل هذه الأرواح من أجل أن تبقى لى مصر".

سألنى عن الحال التى وجدت عليها الصعيد، وهل كان ولده إبراهيم (حاكم الصعيد) محبوبا أو لا فى هذه المنطقة؟ وأجبته بلغة الحقيقة قائلاً : إن رؤساء القرى كلهم يكرهون ولده (لأنه أجبرهم على التخلى عن معاملتهم القاسية مع الفلاحين)، لكن الفلاحين أنفسهم كانوا متعلقين تماما بولده إبراهيم (واقع الأمر أن القمع مهم فى الوقت الراهن، وبعد أن كان يجرى قبل ذلك على أيدى المماليك، وعلى أيدى الكاشفين ، وعلى أيدى شيوخهم ، أصبح يجيء عن طريق مستبد أو طاغية واحد هو الباشا نفسه، الذى يضع حكام المناطق تحت إمرته وسيطرته).

كان محمد على باشا يود أن يقف على رأيى فيما يتعلق بعدد القوات المطلوبة للدفاع عن مصر ضد أى جيش أجنبى، وأجبته بأنى لا أعرف شيئا عن الحرب إلا بقدر قراءتى فى الكتب. رد على متعجبا: "لا، لا، أنتم أيها الرحالة تكونون مفتوحى الأعين دوما، وتسألون عن كل شىء". أصر محمد على على سؤاله، وأمام إلحاحه على إجابتى عن سؤاله قلت له: إن حوالى خمس وعشرين ألفا من القوات المنتقاة يمكن أن تصد أى هجوم. قال: " أنا لدىَّ حاليا ثلاثة وثلاثون ألفًا". وهذا تأكيد كاذب، لأنى على يقين من أن عدد جنود محمد على فى ذلك الوقت لم يكن يزيد بأى حال من الأحوال عن ستة عشر ألف رجل، موزعين فى سائر أنحاء مصر والحجاز.

وهنا راح محمد على يشرح لى النظام الجديد، الخاص بالنظم والقوانين العسكرية. قال إن جشع الرؤساء وليس استياء الجنود هو الذى عرقل إنشاء جيش عالى التنظيم فى تركيا، واعترض أيضا على فكرة منع الضباط من فرض إتاوات على الخزانة العامة، وأردف محمد على قائلا: "لكنى سوف أشكل فيلقا نظاميا من الجنود الزنوج". مسألة تشكيل فيلق من الزنوج هذه حاول سلفه خورشيد باشا تنفيذها لكنه لم يصب فيها نجاحا كبيرا. مسألة النظام الجديد هذه استؤنفت على الفور عقب عودة محمد على باشا إلى مصر من حملته على الحجاز، لكن تمرد الجنود الذين سلبوا عاصمته ونهبوها اضطرته إلى التخلى عن تنفيذ فكرة النظام الجديد هذه، التى جرى التخطيط لها بصورة سيئة. فى سياق حديثه عن الدفاع عن مصر قال محمد على : إنه ينبغى أن يركز، فى بداية الأمر، على خيَّالته من ناحية ومدفعية الخيالة من الناحية الأخرى، على أن تقوم الخيالة بتدمير المؤن والتموينات قبل العدو، على غرار ما فعله الروس مؤخرا، على أن تقوم مدفعية الخيول بمداهمة الأعداء من جميع الجوانب، دون التوقف مطلقا.

أثناء مقامى فى الطائف وصلت رسائل من إسطنبول عن طريق الصحراء ومن خلال دمشق، تحمل إلى الباشا ترجمة تركية لمعاهدة السلام التى أبرمت فى باريس. بعد أن قرأ الباشا هذه الترجمة مرات عدة، أمر كاتبه التركى أن يترجمها إلى اللغة

العربية كلمة بكلمة. وقد استغرق ذلك منا ساعات عدة فى سكن خاص، ثم عدت بعد ذلك إلى مجلس محمد على، وطلب الباشا منى إبداء رأيى فى هذه المعاهدة، وراح الباشا يشير إلى أطلس تركى منسوخ من الخرائط الأوروبية، ومطبوع فى إسطنبول، طالبا منى أن أوضح له الحدود الجديدة لكل من بلجيكا، وجزر موريشيوس، وطوباجو وموقع جنوده ...إلخ. وجدت خطأ عجيبا فيما يتعلق بموقع جنوده، فقد سبق أن قيل لى إن بنيفا beneva جرى ضمها إلى السويد swedes وهذا ما لم أصدقه. بعد التحرى اكتشفت أن جنيف Geneva وسويسرا Swiss هما المعنيتان، هذه المدينة وهذا البلد، يؤسفنى القول إنهما لم يكونا داخلين ضمن المعرفة الجغرافية للحاكم التركى، ومع ذلك وقع الخطأ بالفعل، ذلك أن جنيف Geneva تكتب Genoua باللغة التركية، كما أن الأتراك ينطقون السويد Sweden على أنها "شويت" Shwit.

أبدى الباشا ملاحظة مفادها أن هناك الكثير الذى لا يزال يتعين عمله قبل تسوية الخلافات بين جميع الأطراف، وقد لاحظت مدى قلق الباشا من الحرب بين الدول الأوروبية، وأن هذه الحرب سوف تخلصه من كل المخاوف التى تتعلق بأمنه وسلامته، فى هذا الوقت نفسه حدث طلب كبير على القمح فى الإسكندرية.

فيما يتعلق ببونابرت، كان محمد على باشا على يقين تماما من أن الإنجليز سوف يلقون القبض عليه يوما ما فى جزيرة إلبا. تعجب محمد على متسائلا: "هل يعنى ذلك أن الإنجليز لم يجنوا أى شيء طوال عشرين عاما؟ إنهم لم يحصلوا سوى على مالطة وبعض الجزر القليلة الأخرى"! كان محمد على متخوفا من احتمال وجود مواد سرية فى المعاهدة، وأن تكون هذه المواد تخولهم تملك مصر والاستيلاء عليها. يزاد على ذلك أن فكرة استعداد الإنجليز لتوازن القوى فى أوروبا، وتأكيدهم على سلامتهم واستقلالهم، لم تخطر على بال الباشا. استطرد الباشا قائلا: "يجب أن لا يتركوا إسبانيا دون أن يدفع لهم الإسبان الثمن المناسب، ولماذا يتخلون الآن عن صقلية؟" لم يفهم الباشا أن الذى يحكم سياسة الإنجليز قوانين الشرق والإحساس بالصالح العام الأوروبى. قال الباشا متعجبا وبصدق شديد: "الملك العظيم، لا يعرف شيئا سوى سيفه

وحافظة نقوده، وهو يستل الأول ليملأ الثاني، والغزاة لا يعرفون الشرف!" وهذا نذير من نذر المشاعر التي يسترشد بها السواد الأعظم من الحكام الأتراك أصحاب الأفق الضيق.

كان لدى محمد على باشا بعض الأفكار عن البرلمان الإنجليزى، فقد كان اسم ولينجتون Wellington مألوفا للرجل. قال محمد على: "لقد كان ولينجتون جنرالا عظيما، لكنه كان يتشكك فى مسألة قيادته لقواعد وجنود أتراك سيئين، مثلما فعل هو (الباشا) عندما استولى على مصر والحجاز". وأعرب الرجل عن قلقه البالغ على التملك المستقبلى لكل من كورفو Corfu والجزر السبعة. كان محمد على يتمنى من ناحية أن يشن الروس الحرب على الباب العالى، ويطردوا السلطان من أوروبا، ومن الناحية الأخرى، كان الرجل يخشى إذا ما استولى الروس على تركيا فى أوروبا ألا يبقى الإنجليز فى موقف المتفرج، لكنهم سيبادرون إلى أخذ نصيبهم من الإمبراطورية التركية، التى كان على ثقة من أنها لن تكون أكثر من منطقة مصر وحدها.

أنا مازلت جاهلا برأى الباشا الحقيقى فى مسألة اعتناقى للإسلام اعتناقا حقيقيا. صحيح أنه كان يعاملنى معاملة المسلمين، وأنا أقنعت نفسى بأن سلوكى الجرىء فى الطائف أقنعه بأنى مسلم حقيقى، أما بالنسبة للضامن الذى كان إسطنبوليا ناصحًا، فقد كانت غالبية الناس ترى أنه موفد من قبل الباب العالى لكى يقف على ما يفعله محمد على باشا، ثم يقوم بتوصيل المعلومات إلى السلطان، وخطر ببالى أن سلوك القاضى تجاهى مرتبط بنية توجيه الاتهام للباشا بعد عودته إلى إسطنبول، وأن يكون ذلك الاتهام مرتكزا على مسألة حماية محمد على باشا لأحد المسيحيين أثناء زيارته للمدينتين المقدستين، وهذه الجريمة لا يمكن اغتفارها لأى أحد من الباشوات. كان محمد على باشا بعد عودته إلى القاهرة (التى وجدنى فيها على العكس من توقعاته، والتى التقيته فيها مرة واحدة) يتحين الفرص مرارا، بل إنه كان يبدو قلقا ويتطلع إلى إقناع كل من السيد سالت Salt ومعه السيد "لى" Lee، وهما من رجال صاحب الجلالة، ومعهم مستشارى شركة الليفانت، وعدد كبير من الرحالة

الإنجليز المشهورين الذين مروا بالقاهرة، كان يحاول إقناع هؤلاء أنه عندما كان فى الحجاز، كان يعلم جيدا أنى (الشيخ إبراهيم أو إن شئت فقل بوركهارت) لم أكن مسلما، وأن صداقته (أى محمد على) مع الإنجليز هى التى جعلته يتغاضى عن ذلك ، ويسمح لى باستغلال القاضى. كانت لدى محمد على باشا فكرة أوحى له بها بعض مستشاريه من الفرنجة فى القاهرة، مفادها أنى فى أسفارى المستقبلية، قد أتباهى بخداعى له واستغلالى إياه، مثلما حدث مع على بك العباسى ، الذى كان كتابه قد وصل إلى القاهرة، والذى يقول فيه إنه لم يخدع الباشا وحده، وإنما خدع أيضا العلماء كلهم، أو إن شئت فقل أهل العلم فى القاهرة. المسألة كانت أخطر بالنسبة لمحمد على من منطلق أنه لو كان أحمق فذلك لا يضير، وإنما الأهم هو ألا يكون مسلما حقيقيا فى عيون الآخرين.

وعلى الرغم من هذه التصريحات الصادرة عن الباشا إلى أعيان الإنجليز، والتى كانت تجرى فى الجلسات الخاصة، والتى لم تكن مصحوبة بكلام يسىء إليه ، واصلت حياتى فى القاهرة بعد عودتى إليها باعتبارى مسلما، دون أن يضايقنى أحد، ، فى الحى التركى، وأنا لا يسعنى إلا أن أشكر محمد على باشا على استقباله الطيب لى فى الطائف، وأشكره أيضا على عدم وضع عراقيل أو عقبات فى طريق أسفارى فى الحجاز.

كنت فى مكة [المكرمة] فى شهر ديسمبر، وفى المدينة [المنورة] فى شهر إبريل، وهما الموعدان اللذان كان الباشا فيهما موجودا فى هاتين المدينتين، لكنى وجدت من الصالح والمناسب لى ألا أكون معه فى أى من هذين المكانين، اللذين لم أكن معروفا فيهما مطلقا. كانت خطتى فى الأسفار والترحال تقضى بأن ألجأ إلى العزلة قدر المستطاع، وفيما عدا وجودى القصير فى الطائف، التى اضطرتنى ظروفى فيها إلى الظهور بعض الشىء، كان الناس فى الحجاز يعرفون أنى مجرد واحد من الحجاج، رجل من أعيان مصر، رجل لا يعرفه أحد سوى قلة قليلة من ضباط الباشا الذين التقيتهم فى الطائف.

معلوماتى عن الطائف جد قليلة، ولم أدونها على الورق إلا بعد مغادرتى لها، وأنا لم تتهيأ لى فرصة الانفراد بنفسى يوم أن كنت فى الطائف. لم يكن لدىَّ معارف كثيرة حتى أستقى منهم معلومات، يزاد على ذلك أن قلة قليلة من أفراد الطبقة العالية الذين كنت أعيش بينهم؛ يندر أن يخرجوا من منازلهم أثناء النهار فى رمضان.

مدينة الطائف تقع وسط سهل رملى، يقدر محيطه بمسير حوالى أربع ساعات، وهذا السهل تنمو فيه الأشجار الكثيفة، وتحيط به الجبال التى يسميها الناس هنا جبل غزوان ، جبل غزوان هذا عبارة عن صخور فرعية من سلسلة رئيسية، تمتد إلى مسافة مسير أربع ساعات أو خمس فى اتجاه الشرق، ثم تنخفض بعد ذلك فى السهل، والطائف عبارة عن مربع غير منتظم، يصل محيطه إلى مسير حوالى خمس وثلاثين دقيقة بالخطوة السريعة، كما أنها محاطة بسور وخندق أنشأه مؤخرا عثمان المضايفة، هذا السور فيه ثلاث بوابات وتحرسه ثلاثة أبراج، لكنه أقل صلابة من أسوار جدة، والمدينة (المنورة) وينبع، ويصل سمكه فى بعض أجزائه إلى ثمانى عشرة بوصة. على الجانب الغربى من السور، من داخل المدينة، توجد قلعة مقامة على أرض صخرية مرتفعة، وهذه القلعة تشكل جزءا من السور. الشريف غالب هو الذى بنى هذه القلعة، لكن لا يطلق عليها اسم القلعة، اللهم باستثناء أنها أكبر من المبانى الأخرى التى فى المدينة (الطائف)، وأن جدرانها الحجرية أقوى من جدران المبانى الأخرى. وعلى الرغم من أن هذه القلعة شبه مخربة حاليا، فإن محمد على جعل منها مركزا للرئاسة. منازل الطائف صغيرة فى معظمها، لكنها مبنية من الحجر، غرف الاستقبال فى الطابق العلوى، وأنا لم أر غرف استقبال فى الدور الأرضى، كما هو الحال فى تركيا. شوارع الطائف أوسع من شوارع المدن الشرقية والمكان العام الوحيد الموجود أمام القلعة، عبارة عن مساحة واسعة مفتوحة يستخدمها الناس سوقًا.

يمكن وصف الطائف فى وضعها الراهن بأنها مخربة، إذ إن قلة قليلة من منازلها هى التى بحالة جيدة؛ فقد دمر الوهابيون السواد الأعظم من بيوت الطائف ومبانيها، وذلك عندما استولوا عليها فى عام ١٨٠٢م ونظرا لمغادرة الناس لتلك المدينة منذ ذلك

التاريخ، فقد بدأ كل ما فيها يتحلل وينهار. شاهدت مسجدين كبيرين، أفضل هذين المسجدين هو مسجد الهنود . وقد قام الوهابيون بتدمير قبر العباس تدميرا كاملا، ذلك أن هذا القبر كانت له قبة من فوقه وكان الناس يزورونه وبخاصة الحجاج. وباستثناء البنايات الأربع أو الخمس التى يسكنها موظفو الباشا، لم أر مبنى من المبانى أكبر من الحجم الشائع هنا فى هذا البلد.

يجرى مد الطائف بالماء من بئرين غزيرتين، إحداهما داخل الأسوار، والأخرى من أمام واحدة من البوابات. والماء هنا عذب، لكنه ثقيل. هذا البلد شهير فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بحدائقه الجميلة، التى تقع عند سطوح الجبال التى تحيط السهل الرملى. أنا لم أشاهد أية حديقة من هذه الحدائق، بل لم أشاهد مطلقا حتى ولو شجرة واحدة داخل أسوار المدينة، يضاف إلى ذلك أن المنطقة المجاورة لنا جرداء وخالية من الخضرة، الأمر الذى يجعل الحزن يخيم على المنزل شأن كل المنازل الأخرى فى الجزيرة العربية. أقرب الحدائق إلينا كانت فى الاتجاه الشمالى الغربى، على بعد مسير حوالى نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة، فى هذا الجانب أيضا توجد ضاحية مهجورة، مفصولة عن المدينة ببعض النخيل الموجود بين أنقاض هذه الضاحية التى هجرها أهلها قبل الغزو الوهابى.

أنا لم أزر أيا من تلك الحدائق. يوجد وسط هذه الحدائق بعض المقصورات التى يزجى أهل الطائف فيها أوقات فراغهم، أشهر هذه المقصورات هى وادى مثنة ، ووادى سلام ووادى شمال هذه الحدائق تروى من آبار ومن أفلاج تنحدر من الجبال. أشجار الفاكهة موجودة هنا بأعداد كبيرة، وكذلك حقول القمح والشعير. الفواكه التى تذوقتها فى الحجاز هى الأعناب ذات الأحجام الكبيرة، والمذاق اللذيذ، والتين، والسفرجل، والرمان، لكن الأنواع الأخرى التى سبق ذكرها فى جبل قورة هى الأخرى موجودة هنا. حدائق الطائف شهيرة أيضا بوفرة الورود، التى يجرى نقلها مثل الأعناب، إلى سائر أنحاء الحجاز. كان كبار تجار مكة من قبل يجعلون من تلك الحدائق والبساتين منتجعا لهم فى فصل الصيف، فى هذه الحدائق والبساتين كان

الشريف غالب يمضى القسم الأكبر من فصل الصيف، كان لهؤلاء التجار منازلهم ومؤسساتهم فى الطائف، ولذلك كانت خسائرهم جسيمة، عندما استولى الوهابيون على الطائف .

سكان الطائف المتجانسون كلهم من العرب، أو بالأحرى من قبيلة ثقيف(*)، وبخاصة الذين استقروا واستوطنوا الأماكن التى يعيشون فيها، وتعود ملكية الحدائق المجاورة للبلدة هى ومحلات المؤن والتموينات التى داخل أسوار البلدة إلى العرب الذين هم من بنى ثقيف. يوجد أيضا بعض المكيين الذين استوطنوا الطائف، لكن القسم الأكبر من السكان الأجانب هم من أصل هندى. الناس هنا فى الطائف، كما هو الحال فى جدة، وعلى الرغم من مولدهم فى الجزيرة العربية، بل ومن المستقرين هنا فى الطائف، فى بعض الأحيان، منذ أجيال عدة، فإنهم لا يزالون يرتدون الزى الهندى الإسلامى، كما أن سلوكياتهم هى سلوكيات الهنود المسلمين، بعض هؤلاء السكان من التجار، لكن القسم الأكبر من تجار العقاقير، الذين لتجارتهم أهمية كبيرة فى الحجاز أكثر من أى مكان آخر، والسبب فى ذلك راجع إلى إقبال الطبقات كلها على العقاقير والعطور إلخ. ومبلغ علمى، أنه لا يوجد تجار جملة فى الطائف. أحصيت الدكاكين فى الطائف فوجدتها خمسين دكانا . كانت الطائف قبل الغزو الوهابى مدينة تجارية، وكان عرب المناطق المحيطة بها، والتى تبعد مسير أيام كثيرة، يفدون إلى الطائف طلبا لشراء الملبوسات، فى الوقت الذى كان سكان الجبال يجلبون محصولهم من القمح والشعير، كانت الطائف أيضا مكانا مهما من أماكن تجارة البن، الذى كان يجلب من جبال اليمن عن طريق البدو، وبذلك كانوا يتحاشون أو يروغون من العشور الثقيلة التى كانت تفرض عليهم فى موانئ سواحل الجزيرة العربية. كل شىء هنا يوحى بالبؤس الشديد فى هذا البلد. واردات الطائف من المناطق الداخلية فى الجزيرة العربية تتمثل فى التمور، التى يجلبها عرب عتيبة من مزارعهم المثمرة الموجودة داخل

(*) قبائل الحمدة، وبنى محمد، والثمالة كلها من ثقيف – راجع العصمى.

أراضيهم، شوارع الطائف الرئيسية تعج بالشحاذين، الذين يشكل الهنود أعداداً كبيرة منهم، هؤلاء الهنود معرضون فى معظم الأحيان للموت جوعا؛ ذلك أننى أثناء مقامى فى الطائف، وجدت أن مجرد حصول فرد واحد على الخبز الذى يكفيه يوما واحدا، يكلفه قرشين (قيمة هذين القرشين بسعر الصرف يصل إلى حوالى سدس دولار، أو إن شئت فقل، عشر بنسات). كانت قوافل المؤن والتموينات تصل إلى الطائف مرة واحدة فى الأسبوع، لكن النقص فى أعداد الإبل كان هو السبب الرئيسى وراء شح الاستيراد من الساحل بغية تقليل أسعار المواد الغذائية، وعلى الرغم من أن عامة الناس يعيشون على التمور بصفة أساسية، وبالتالى فهم لا يستهلكون شيئا من التموينات التى يجرى إحضارها من مكة، على الرغم من كل ذلك فقد عرفت من مصدر جيد أن التموين فى الطائف لا يكفى الجيش التركى سوى عشرة أيام.

فى زمن الشريف كان يحكم مدينة الطائف موظف معين من قبل الشريف، اسمه حاكم وكان هو أيضا من الأشراف، وقد نجا من سيوف الوهابيين بمعجزة، وقد أعاد محمد على باشا ذلك الرجل إلى منصبه، لكن هذا المنصب يعد منصبا شرفيا فى الوقت الراهن. هناك أسماء متعددة من أسر أشراف مكة، يعيشون هنا فى الطائف، كما أن أسلوب الحياة، وكذلك الملبس والسلوكيات، يبدو أنها مثل نظيراتها فى مكة، لكن تهيأت لى فرصة إبداء بضع الملاحظات على هذا الموضوع.

الرحلة إلى مكة :

اليوم السابع من شهر سبتمبر. بدأت التحرك فى الصباح الباكر من الطائف إلى مكة، سالكا الطريق نفسه الذى جئت منه إلى الطائف. هناك كما أسلفت، طريق قصىٍّ فى الشمال، تستخدمه القوافل تجنبا للمصاعب التى تلقاها تلك القوافل أثناء السير فى جبل قورة. أولى المحطات من مكة على الطريق هى محطة زيمة ، وبالقرب منها، على بعد حوالى عشرة أميال، توجد منحنيات عدة شديدة الانحدار. زيمة بحد

ذاتها عبارة عن قلعة شبه مدمرة من الناحية الشرقية من وادى الليمون، وفيها عيون جارية غزيرة الماء. وادى الليمون واحد من الوديان الخصبة يمتد مسير ساعات عدة فى اتجاه وادى فاطمة، وادى الليمون عبارة عن بيارات ومزارع نخيل، وكان الناس يزرعون أرض هذا الوادى فى الماضى، لكن مسألة الزراعة هذه توقفت اعتبارا من الغزو الوهابى، يزاد على ذلك أن بساتين الفاكهة فى وادى الليمون جرى تدميرها هى الأخرى. هذه هى آخر مراحل طريق الحج السورى الشرقى، أو إن شئت فقل ، ذلك الطريق الذى يقع إلى الشرق من سلسلة جبال الحجاز الكبيرة، التى تمتد من المدينة (المنورة) إلى مكة فى الجنوب الشرقى أو بالأحرى فى الاتجاه جنوب - شرق من وادى الليمون، يوجد واد آخر خصب، يسمونه وادى المضيق ، الذى يستوطنه بعض الأشراف، ويمتلك الشريف غالب فيه بعض الأطيان.

اعتبارا من زيمة، نجد أن الطريق إلى الطائف، فى اليوم التالى، أو بالأحرى من مكة إلى السيل، الذى هو نهير يحمل هذا الاسم، يمر عبر سهل خالٍ من الأشجار، لكنه عامر بالمراعى الكثيفة. فى السيل نجد الطريق يدخل منطقة جبلية، يمر خلالها ممر وعر شديد الضيق يستغرق عبوره ست ساعات. محطة اليوم الثانى هى منطقة عقرب ، وهى تقع فى السهل العلوى، على بعد مسير حوالى ثلاث ساعات من الطائف، فى اتجاه الشمال، وعلى مستوى ارتفاع الطائف نفسه، وبذلك يمكن القول إن المسافر من مكة يصل الطائف فى اليوم الرابع. هذا الطريق يصعب اجتيازه فى الوقت الراهن، اللهم باستثناء القوافل الكبيرة المحمية حماية جيدة، والمعروف أن عرب قبيلة عتيبة كانوا يقومون فى كثير من الأحيان بغزو هذا الجانب والهجوم عليه ، كما كانوا يقومون بسلب القوافل الصغيرة ونهبها.

على مقربة من الطائف أدركت ثلاثة جنود من الأرناءوط، كان كل واحد منهم راكبا حماره، هؤلاء الجنود كانوا قد استبدلوا نقودهم بواقع ثلاثة عشر قرشا مصريا من سك القاهرة نظير الدولار الإسبانى، الذى لم يكن يساوى فى جدة سوى أحد عشر قرشا. كان هؤلاء الجنود قد سفكوا محفظة واحدة قيمتها ألف دولار وسافروا جميعا من جدة إلى الطائف، عندما كان الطريق آمنا، كل ذلك من أجل هذا الفارق البسيط

فى سعر الصرف. حملوا النقود معهم معبأة فى أكياس، على حميرهم، وبعد أن غم عليهم ونسوا مصاريف السفر، انضموا إلىَّ عندما شعروا أن جوال سفرى كان عامرا بالمؤن والتموينات، وحملونى وحدى مسألة مصروفات الطريق، عندما كنا نتوقف عند أكواخ القهوة. ومع ذلك كان هؤلاء الأرناءوط رفاقا طيبين، ولذلك لم تضع تلك المصروفات هباء.

عندما وصلت وادى محرم ، ارتديت ملابس الإحرام، باعتبار أن هذه هى أول مرة أزور فيها مكة والكعبة، ملابس الإحرام مكونة من قطعتين من قماش الكتان الأبيض، أو قد تكون من الصوف أو القطن، إحداهما تلف حول العجز، والثانية توضع على الكتفين، بحيث يبقى جزء من الذراع الأيمن مكشوفا. يجب أن يتحرر الحاج من ملابسه المعتادة قبل ارتداء ملابس الإحرام. وأية قطعة من القماش يمكن أن تفى بالغرض، لكن الشرع يحتم أن تكون هذه القطعة من القماش غير مخيطة، وألا تكون من الحرير وخالية من الزينات بكل أنواعها، واللون الأبيض هو المفضل على سائر الألوان الأخرى. وقماش الكمبريت الهندى أبيض اللون هو المستخدم عادة فى هذا الغرض، لكن الحجاج الأثرياء يستخدمون شيلانا من الكشمير الأبيض، بدلا من قماش الكمبريت الهندى، هذه الشيلان الهندية تكون أطرافها خالية من الورود التى تنقش عليه.

والرأس يظل حاسرا طوال أداء الفريضة، وليس مسموحا بحلق الرأس، حسب العرف الشرعى، إلا بعد التحلل من ملابس الإحرام. مشط القدم لابد أن يكون مكشوفا، وتأسيسا على ذلك، فإن هؤلاء الذين يلبسون أحذية، يقطعون جزءا من الجلد العلوى للحذاء، أو يلبسون أحذية تصنع خصيصا لهذا الغرض، وهى من قبيل الأحذية التى يجلبها الحجاج الأتراك معهم من إسطنبول. وأنا مثل سائر الحجيج كنت أرتدى نعلة أثناء ارتدائى ملابس الإحرام.

كبر السن والمرض أعذار تبيح للحاج تغطية الرأس، لكن ذلك يجب التعويض عنه بتقديم الصدقات للفقراء. أشعة الشمس تتعب حاسرى الرءوس تعبًا كثيرا، وعلى الرغم من أن الشرع يحرم أى شىء يكون له اتصال مباشر بالرأس، فإن الشرع لا يحرم

استعمال المظلة (الشمسية) التى يتزود بها السواد الأعظم من الحجاج الشماليين، أما الوطنيون فإنهم يتحملون أشعة الشمس، أو قد يربطون خرقة من القماش فى عصى، ليصنعوا بها ظلا صغيرا، بتحويلها ناحية الشمس.

ملابس الإحرام عندما ترتدى صيفا أو شتاء لا تكون مناسبة ومؤذية للصحة وبخاصة عند حجاج الشمال، الذين اعتادوا ارتداء الملابس الصوفية الثقيلة، هؤلاء الحجاج يتعين عليهم عند أداء فريضة الحج التحرر من تلك الملابس الثقيلة أياما عدة، ومع ذلك نجد أن الحماس الدينى لدى بعض من يزورون الحجاز يصل إلى حد أنهم إذا ما وصلوا إلى مكة قبل أشهر عدة من الحج، فإنهم يقسمون على ارتداء الإحرام، عندما يقتربون من مكة، ولا يتحررون منه إلا بعد اكتمال حجهم فى عرفات، وبذلك نراهم طوال أشهر عدة وهم لا يتغطون ليلا أو نهارا إلا بتلك الملابس الخفيفة(*)، ذلك أن الشرع يحرم استعمال أى غطاء آخر أثناء الليل؛ لكن قلة قليلة من الحجاج هم الذين يلتزمون بهذا الشرط.

كان العرب فى الجاهلية عندما يقومون بالحج إلى الأصنام التى فى مكة يرتدون أيضا ملابس الإحرام، لكن هذا النوع من الحج كان مقصورا على مدة محددة من العام، ويحتمل أن ذلك كان فى فصل الخريف؛ والسبب فى ذلك أن العرب يستخدمون التقويم القمرى، وبذلك يضيفون شهرا كل ثلاث سنوات، وبذلك لم يكن موسم الحج يختلف مثلما عليه الحال حاليا، ولكن القرآن حرم ذلك(**)، وحث على أداء فريضة الحج تكريما للحى القيوم، وليس للأصنام مثلما كان يجب فى السابق، كما حث القرآن أيضا على أن يكون التقويم هو التقويم القمرى، وبذلك انتظم موسم الحج مع اختلاف الفصول التى يجىء فيها، وأمكن خلال ثلاثة وثلاثين عاما أن يتغير موسم الحج من الشتاء القارس البرودة إلى الصيف شديد الحرارة.

(*) يروى المؤرخون العرب أن هارون الرشيد هو وزوجته زبيدة أديا الحج ذات مرة سيرا على الأقدام من بغداد إلى مكة، وأنهما لم يكونا مرتدين سوى ملابس الإحرام، وأنه فى كل محطة من المحطات كانت هناك قلعة فيها سكن مؤثث تأثيثا جيدا، وأن الطريق كله كان مفروشا بالسجاد الذى كانا يسيران عليه.

(**) وقد حرمه الله وهو ما يسمى "النسىء" قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾. (المراجع)

الشخص الذى يرتدى ملابس الإحرام، أو إن شئت فقل المحرم ، لا يضطر إلى الامتناع عن أطعمة بعينها، مثلما كان يفعل سكان الجزيرة العربية القدامى، الذين كانوا لا يأكلون الزبد هو وبعض الأطعمة الأخرى أثناء ارتداء ملابس الإحرام، لكن المحرم مطلوب منه أن يتحشم، ولا يسب أو يلعن، أو يتشاجر، وألا يقتل أى نوع من الحيوانات، ولا حتى ذبابة عندما تحط على جسده، وألا يتصل بالجنس اللطيف. إحرام النساء عبارة عن عباءة تلفها المرأة حول جسمها، وقناع لا يظهر منه سوى عينيها، وطبقا للشرع فإن أيادى النساء وأرجلهن تكون مغطاة، لكنهن يهملن هذا الشرط.

على الرغم من أن رفاقى، أو بالأحرى الجنود الأرناءوط، كانوا مثلى يقصدون مكة، فإنهم رأوا أن مسألة ارتداء ملابس الإحرام تعد أمرا غير ضرورى، على الرغم من أن الشرع، كما سبق أن أوضحت، يحتم على كل من يقصد المدينة المقدسة فى أى وقت من الأوقات أن يكون مرتديا ملابس الإحرام(*).

بقينا مدة ساعة فوق قمة جبل قورة ، ثم نزلنا من فوق الجبل فى المساء. اضطرتنا زخة من زخات المطر إلى اللجوء إلى كهف واسع على جانب الطريق، وهذا الكهف يلجأ إليه رعاة الغنم فى مثل هذه الظروف، وهؤلاء الرعاة هم من قبيلة هذيل، ووصلنا بعد غروب الشمس إلى كهوف القهوة، سالفة الذكر، الموجودة على جانب الجبل، وهذا المكان تحط فيه قوافل مكة رحالها. شببنا نارا كبيرة، واستأجرنا من العرب إناء فخاريا سلقنا فيه شيئا من الأرز لتناول العشاء. أدى السير الطويل، والمطر، وكذلك الغطاء الخفيف الذى أرتديه، إلى إصابتى بحمى خفيفة، لكنى أحسنت تغطية نفسى أثناء الليل وكنت فى صحة جيدة، فى صباح اليوم التالى. أدى تغيير الهواء، أثناء رحلتى إلى الطائف، هو والمناخ البارد نسبيا فى ذلك المكان، كل ذلك أدى

(*) هو رأى جانبه الصواب لأن الإحرام مقصور فقط على كل من قصد الحج أو العمرة لكن دخول مكة بدون نية الحج أوالعمرة لا يستوجب الإحرام . (المراجع)

إلى شفائى من آثار المرض الشديد الذى أصابنى فى جدة. أثناء الليل وصل قاضى مكة قادما من الطائف.

اليوم الثامن من شهر سبتمبر. مع طلوع النهار ذهبت لزيارة القاضى، وكان يدخن الشيشة ويشرب القهوة، وكان الرجل بذلك يأتى الرخصة الخاصة بإفطار المسافر فى رمضان، وبناء على الاتفاق الذى تم بيننا فى الطائف، تقرر لى أن أصحبه وهو فى طريقه إلى مكة، وهنا وجدتنى مضطرا إلى الانضمام إليه ومرافقته، لكنى كنت معارضاً تماما للاستمرار معه، وسبب ذلك هو خوفى من أن يصطحبنى الرجل معه إلى منزله فى مكة، لأضع نفسى من جديد فى موقف شبيه بذلك الموقف الذى تعرضت له فى الطائف والذى لم يكن مريحا. بدا أيضاً على القاضى أنه لم يكن على استعداد لتحمل مشاق ومصاريف ضيف يحل عليه، والسبب فى ذلك أننى عندما أعربت عن مخاوفى التى مفادها أن حمارى المتعب لن يستطيع مسايرة بغله المتين، بادرنى الرجل برده الذى يقول: إنه يتطلع إلى لقائى فى مكة تحت أى ظرف من الظروف. وهنا رحلت بصحبة الجنود الأرناءوط، تاركا القاضى ينال قسطاً أكبر من الراحة. أمضينا ساعات الظهيرة فى كوخ القهوة الذى يسمونه شداد ، حيث كان بعض البدو يسلون أنفسهم بالرماية على هدف سبق أن حددوه، كشف هؤلاء البدو عن مهارة كبيرة فى الرماية، فقد كانوا قادرين على إصابة القرش، الذى وضعته أمامهم على مسافة أربعين ياردة. أكواخ القهوة هذه لا يحصل المرء منها على شىء سوى القهوة والماء . القهوة هنا لا تقدم فى أكواب منفردة، كما هو الحال فى معظم بلدان الليفانت (الشرق)، لكن كل من يطلب القهوة يحصل على وعاء فخارى صغير ملىء بالقهوة الساخنة يجرى وضعه أمامه، ويحتوى على ما يتردد بين خمسة عشر كوبا وعشرين كوبا من القهوة، هذه الكمية يشربها المسافر ثلاث مرات أو أربع مرات يوميا. هذه الأوانى الفخارية يسمونها هنا مشربه (انظر شكل هذه المشارب فى المخطط التوضيحى).

يحشر صاحب المقهى فى فوهة هذا الإناء قبضة من العشب الجاف، يجرى من خلالها رشف السائل أو صب السائل. لقد سبق أن شربتها بإفراط فى هذا الجزء من

الجزيرة العربية، ويقال إنه أشد من ذلك فى الجنوب، وفى المناطق القريبة من مناطق إنتاج البن.

على الطريق الذى يبدأ من شداد، والذى يمتد بطول السهول المنخفضة، فيما بين الجبال الحارة، فاجأتنا زخة من زخات المطر العاتية والمصحوبة بالبرد، الأمر الذى أجبرنا على التوقف، وما هى إلا فترة قصيرة حتى انهمر الماء نازلا على شكل سيول من الجبال، وعندما توقف سقوط المطر، بعد حوالى ساعة تقريبا، اكتشفنا أن المطر الذى كان لا يزال مستمرا، كان قد غطى وادى النومان بصفحة من الماء عمقها ثلاثة أقدام، فى حين كانت هناك أنهار تعذر معها عبور الطريق فى بعض مواقعه. فى مواجهة المواقف التى من هذا القبيل كان يتعذر علينا التقدم أو التراجع، إدراكا منا أن تيارات ومجارٍ مماثلة قد تكونت من خلفنا، وهنا اتخذنا لأنفسنا موقعا على جانب الجبل، إيمانا منا بأن الماء لن يجرفنا من هذا المكان، كما نستطيع البقاء فيه إلى أن تمر العاصفة. ومع ذلك، بدأت المياه تتساقط من كل جوانب الجبال ووصل الأمر إلى حد حدوث فيضان عام، كل ذلك والمطر المصحوب بالرعد والبرق مستمر بعنف لا ينتهى. شاهدت القاضى، الذى غادر شداد بعدنا، من على بعد، يفصله عن جماعتنا سيل عميق، فى حين اضطرت بعض نسائه اللاتى كن يركبن البغال إلى البقاء بعيدات عنه بمسافة كبيرة. بقينا فى ذلك الوضع السيئ مدة ثلاث ساعات، توقف المطر بعدها وسرعان ما انحسرت السيول، لكن كان من الصعب على حميرنا المشى فى أرض زلقة يغطيها الماء، الأمر الذى اضطرنا إلى النزول من فوق الحمير ورحنا نسوقها أمامنا، إلى أن وصلنا أرضا أكثر ارتفاعا. كان القاضى وجماعته مضطرين على فعل الشىء نفسه. عندئذ دخل علينا الليل، وغلفتنا السماء الملبدة بالسحب بظلام دامس، لكنه بعد مسير مغامر استمر ثلاث ساعات أو أربع ، كنا خلالها نتعثر فى كل خطوة، وصلنا أخيرا إلى مقاهى عرفات، الأمر الذى جعل رفاقى يتنفسون الصعداء، هؤلاء الجنود الذين كانوا يخشون على أكياس نقودهم من السطو واللصوص. أنا بنفسى لم أكن أقل منهم سعادة، إذ كنت بحاجة إلى إشعال النار بعد أن تشبعت ملابسى بالماء بفعل

المطر، وبخاصة أنى لم أكن أرتدى سوى ملابس الإحرام. من سوء الطالع أن المقاهى كان الفيضان قد جرفها، ولم نجد فى تلك المقاهى مكانا جافا نجلس فيه، وبصعوبة استطعنا إشعال نار فى واحد من تلك الأكواخ المضادة للحريق، ودخل القاضى هو وبعض رجاله وأنا معهم إلى ذلك الكوخ، وشربنا شيئا من القهوة، وفى كوخ من الأكواخ الأخرى كانت نساء القاضى يصحن من قسوة البرد وشدته. ولما كان القاضى لا يريد لنسائه أن تعانين من شدة البرد، فقد آثر الركوب من جديد، بعد استراحة دامت نصف الساعة، وواصل سيره فى اتجاه مكة تاركا إياى أنا وأصحابى حول النار، التى حاولنا، بعد مضى شىء من الوقت، أن ننال قسطا من الراحة حولها.

اليوم التاسع من شهر سبتمبر. بدأنا التحرك فى ساعة مبكرة، واكتشفنا أن عاصفة الأمس لم تمتد إلى ما هو أبعد من جبل عرفات، العواصف والفيضانات والسيول التى من هذا القبيل أمر متكرر الحدوث فى هذه الأماكن، التى تبدو فصول العام فيها غير منتظمة، على العكس منها فى أماكن أخرى تقع فى نفس دوائر العرض . بلغنى أن موسم الأمطار فى الجبال العليا هو أكثر انتظاما منه فى الأراضى المنخفضة فى كل من مكة وجدة، اللتان تكون السماء فيهما فى منتصف فصل الصيف ملبدة بالغيوم فى معظم الأحيان بفعل العواصف والأمطار. سجل مؤرخو مكة سيولا وفيضانات مخيفة فى مدينة مكة، وأخطر تلك الفيضانات والسيول حدث فى الأعوام الهجرية ٨٠، ١٨٤، ٢٠٢، ٢٨٠، ٢٩٧، ٥٤٩، ٦٢٠، ٨٠٢، ٨٢٩ فى بعض تلك الفيضانات والسيول غرقت مكة والكعبة فى الماء الذى لامس ارتفاعه الحجر الأسود، كما دمرت هذه السيول كثيرا من المنازل وأزهقت أرواحاً كثيرة. هذا هو العصمى المؤرخ يورد تفاصيل واحد من تلك السيول الذى دمر مكة فى العام ١٠٣٩ الهجرى، أو فى العام ١٦٢٦، يوم أن تسببت السيول فى إزهاق أرواح خمسمائة نسمة، وأسفرت عن تدمير الكعبة. حدث سيل مخيف آخر فى العام ١٦٧٢.

الوصول إلى مكة :

وصلت إلى مكة فى منتصف النهار تقريبا، وهنا راح رفاقى يبحثون عن معارفهم بين الجنود، وتركونى أتنقل وحدى، دون أن أعرف أى أحد فى البلدة، ولم تكن معى خطابات تقديم لأى أحد أعرفه سوى القاضى، الذى كنت أود تحاشيه مثلما سبق أن قلت.

كل من يدخل مكة سواء أكان حاجا أم غير ذلك، يتحتم عليه شرعا زيارة الكعبة على الفور، وألا يشغل نفسه بأى عمل دنيوى مهما كان قبل قيامه بالطواف حول الكعبة. عبرنا صف الدكاكين والمنازل إلى أن وصلنا إلى بوابات المسجد الحرام، وعندما أخذ الحمَّار أجر حماره وأنزلنى عن الحمار، وهنا أحاط به ستة من المطوفين، أو أن شئت فقل: المرشدين فى الأماكن المقدسة، والذين عرفوا من ملابس الإحرام التى كنت أرتديها أنى قادم لزيارة الكعبة. أخذت واحدا منهم ليكون لى مطوفا ومرشدا، وبعد أن أودعت أمتعتى فى دكان مجاور للمسجد، دخلت المسجد من باب السلام، الذى يوصَى الزائر بالدخول منه . طقوس زيارة المسجد الحرام على النحو التالى :

١- طقوس دينية محددة يجرى إتيانها داخل المسجد.

٢- السعى بين الصفا والمروة.

٣- مناسك العمرة.

هذه الطقوس يتعين أن يأتيها كل مسلم يدخل الكعبة [حاجًا أو معتمرًا] بعد رحلة تزيد على يومين من المسير، كما يتعين إتيان هذه الطقوس نفسها فى فريضة الحج. وسوف أصف هنا هذه الطقوس وصفا موجزا قدر المستطاع، وأنا إذا ما أوردت تفاصيل الشريعة الإسلامية وشروحها هنا فسوف يكون ذلك عملا مضنيًا، واقع الأمر أن هناك كتبا متبحرة حول هذا الموضوع باللغة العربية، وهى لا تعنى بشىء غير هذه الطقوس وتفاصيلها.

١- طقوس يجب أداؤها داخل المسجد الحرام

عند المدخل، وتحت بهو من الأعمدة يجرى ترديد دعاء معين عند رؤية الكعبة لأول مرة، ثم يصلى الزائر ركعتين، أو أربع سجدات لله (شكرا على الوصول إلى البيت الحرام، وتحية للمسجد نفسه)(*)، ثم يقترب الحاج بعد ذلك من الكعبة، عن طريق أحد الطرق الممهدة المؤدية إلى الكعبة، وذلك انطلاقا من المكان الذى يكون فيه الحاج. وعندما يمر أمام العقد المعزول أمام الكعبة، والمسمى باب السلام، يدعو بدعاء محدد. هناك بعض الأدعية الأخرى التى يرددها الحاج بصوت خفيض، ثم يضع الزائر نفسه فى مواجهة الحجر الأسود أو لمسه فى الكعبة، ويصلى ركعتين، وبعد الانتهاء من الركعتين يجرى تقبيل الحجر الأسود ولمسه باليد اليمنى، إذا لم يكن هناك زحام. ويواصل الزائر الطواف حول الكعبة، بحيث تكون الكعبة على يساره. هذا الطقس أو الركن يجرى تكراره سبع مرات، بحيث تكون الأشواط الثلاثة الأولى بالخطوة السريعة، تأسيا بالنبىﷺ ، الذى قال عنه أعداؤه إنه كان مريضا مرضا خطيرا، ولكنه اعترض عليهم وراح يطوف جريا حول الكعبة فى الأشواط الثلاثة الأولى. كل دورة يجب أن تكون مصحوبة بأدعية معينة، يجرى الدعاء بها بصوت خفيض، وبحيث تكون موزعة على أجزاء المبنى المختلفة التى يتجاوزها الزائر، ويجرى تقبيل الحجر الأسود أو لمسه فى نهاية كل شوط، فضلاً عن الحجر الآخر الموضوع عند ركن من أركان الحجر الأسود(**)، وعندما ينتهى الزائر من الدورات أو الأشواط السبعة، يقترب بعد ذلك من الكعبة، فى المسافة ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وهو المكان الذى يسمونه

(*) المعروف أن تحية المسجد الحرام بالطواف حوله طواف القدوم، خلاف غيره من المساجد التى تؤدى فيها ركعتان تحية المسجد، وللزائر أن يصلى ما يشاء تنفلا لا تحيةً للمسجد .

(**) ليس فى بناء الكعبة حجر آخر يجرى تقبيله غير الحجر الأسود ، الذى ورد فيه قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) "لولا أنى رأيت رسول الله يقبِّلك ما قبَّلتُك" أما الموضع الآخر الذى يستحب لمسه أو الإشارة إليه فهو "الركن اليمانى" الذى يسبق الحجر الأسود فى طواف الطائف .

الملـتزم، وعند الملـتزم وبأذرع مـفـتوحة وصدر مـوضـوع بحيث يضـغط على جدار الكعبة، يدعو الله العفو والمغفرة وأن يغفر له خطاياه. ثم يرجع إلى الخلف قليلا حيث مقام إبراهـيم ويصلى ركعتـين، تسميان سنة الطواف، وبعدها يعود إلى بئر زمزم، وبعد دعـاء دينى قصـير لتشـريف البئـر، يشـرب مـن مـائها بغـيته، أو فى مناسـبات عندما لا يكون هناك زحام على البئر، وبذلك تنتهى الطقـوس التى ينبغى أداؤها داخل المسجد الحرام.

يمكن أن أضيف هنا، أن الطواف عبارة عن طقس إسلامى ليس مقصورا كلية على المسـجـد الحـرام فى مكة. فى صـيف العـام ١٨١٨ الميـلادى كنت أحـضـر مـولد سيدى عبد الرحيم القنائى، فى الوجه القبلى فى مصر، وهم فى قنا يسمونه سيدى عبد الرحيم القناوى . شاهدت آلافًا كثيرة من الناس متجمعين فى السـهل، الذى يوجد فيه قبر الشيخ القنائى، والذى يبعد مسافة ميل تقريبا عن بلدة قنا. كل من كان يفد على المكان كان يدور سبع مرات حول المسجد الصـغير الذى يحتوى على القبر، يضـاف إلى ذلك أن الكسوة الجديدة التى أحضرت للقبر فى ذلك العام، جرى جلبها فى موكب مـهيب، وطاف الحـاضـرون كلـهم سبع مـرات حـول المبنى، جرى بعـدها وضـع الكسـوة الجديدة على القبر.

٢- السعى بين الصفا والمروة

اقتادنى مطوفى أو مرشدى، الذى كان شـديد القرب منى طوال الطقوس سـالفة الذكـر، وكـان يتـمـتم بالدعـاء الذى كنت أردده وراءه، اقـتـادنى هذا الرجل إلى خـارج المسجد الحرام من باب الصـفا - على بعد مسـافة حوالى خمسين ياردة من الجانب الجنوبى الشـرقى من المسـجد، على أرض هينة الارتـفـا ع - لأجد ثلاثة عـقـود صـغـيرة مـفتوحة تربط بينها عـارضة علوية، توجد أسفلها ثلاث درجات عريضة، تؤدى إلى تلك العقود الثلاثة.

هذا المكان يسميه الناس هنا جبل الصفا، هنا يقف الزائر ويوجه وجهه شطر المسجد الذى تحجب رؤيته بعض المنازل التى تتوسط هذه المسافة، ويرفع يديه إلى السماء، ويدعو الله بدعاء قصير، ويطلب عونه له فى السعى كما يسميه الناس هنا، ثم ينزل الحاج بعد ذلك، ليبدأ السير فى شارع مستوٍ يبلغ طوله ستمائة خطوة، يطلق عليه مؤرخو الجزيرة العربية اسم وادى الصفا، الذى يفضى إلى المروة، الموجودة فى نهاية ذلك الوادى، حيث توجد حلبة من الحجر، يصل ارتفاعها حوالى ستة أقدام أو ثمانية فوق مستوى ارتفاع الشارع، وفيها بعض الدرج الذى يمكن من الصعود إليها. يتعين على الزائر الهرولة بين الصفا والمروة، ولمسافة قصيرة، موضحة بأربعة أحجار، يطلقون عليها اسم الميلين الأخضرين ، هذه الأحجار مبنية فى جدران المنازل التى على الجانبين، يتعين على الزائر أن يهرول فى هذه المسافة. اثنان من هذه الأحجار الأربعة يميل لونها إلى الاخضرار، هذه الأحجار تحمل نقوشا عديدة، لكن هذين الحجرين على مسافة عالية فى الجدار، بحيث يصعب قراءة هذه النقوش، وأثناء هذا السعى يجرى ترديد الدعاء بصورة مستمرة وبلا انقطاع. الاشخاص الذين لا تساعدهم ظروفهم الصحية، يمكنهم الركوب أو يجرى حملهم فى صناديق، والحاج عندما يصل إلى المروة يصعد الدرج، ويرفع يديه، ويردد دعاءً مثل الدعاء الذى يقوله فى الصفا، والذى ينبغى أن يعود إليها. السعى بين الصفا والمروة يتكرر سبع مرات تنتهى بالمروة، أربع مرات من الصفا إلى المروة، وثلاث مرات من المروة إلى الصفا.

٣- أداء العمرة

بالقرب من المروة هناك عدد كبير من دكاكين الحلاقين، يدخل الحاج واحدا من تلك الدكاكين، بعد الانتهاء من السعى، ويحلق الحلاق شعر رأس الحاج، وهو يدعو بدعاء معين، يردده الحاج بعده. المذهب الحنفى، أحد المذاهب الأربعة يقول بحلق ربع الرأس، أما بقية الرأس فتظل بدون حلق إلى أن يعود الحاج من العمرة. بعد الانتهاء

من الحلق أو التقصير يصبح الحاج حرا ويحق له التحرر من ملابس الإحرام، ويرتدى ملابسه العادية، أو يظل مرتديا ملابس الإحرام، لحين الانتهاء من أداء العمرة ويكتفى فقط بأداء ركعتين عندما يشرع فى العمرة. ومع ذلك فهذا أمر نادر الحدوث، نظرا لأن الطواف والسعى مرهقان إلى حد أن المرء يكون بحاجة إلى الراحة بعد الانتهاء منهما، وهنا يرتدى الزائر ملابسه العادية، لكنه يستطيع فى اليوم التالى أو فى أى يوم بعده (والتعجيل أفضل) ارتداء ملابس الإحرام، واتباع الطقوس نفسها عند ارتداء ملابس الإحرام لأول مرة ثم يبدأ بعد ذلك فى أداء العمرة، بأن يذهب إلى مكان يبعد عن مكة مسير ساعة واحدة. فى هذا المكان يصلى الزائر ركعتين فى مسجد صغير موجود هناك، ثم يعود إلى مكة وهو يردد نداء التلبية قائلا "لبيك، اللهم لبيك"، ويتعين عليه بعد ذلك الطواف من جديد، ثم السعى، ويحلق شعر رأسه تماما، ويتحلل، وبذلك تنتهى طقوس العمرة. أداء العمرة أمر ضرورى من الناحية الشرعية(*)، لكن كثيرا من الناس يتجاهلون هذا الشرط. وأنا شخصيا ذهبت إلى العمرة، فى اليوم الثالث بعد وصولى إلى (مكة)، وقد قطعت هذه المسافة سيرا على الأقدام أثناء الليل، وتلك عادة درج الناس عليها هنا فى فصل الصيف والحرارة.

فى موسم الحج يتعين تكرار كل هذه الطقوس بعد العودة من وادى منى، وأيضا عند مغادرة مكة. الطواف حول الكعبة أمر مستحب كلما استطاع المرء إلى ذلك سبيلا، هناك قلة قليلة من الأجانب الذين يعيشون فى مكة، لا يجدون أى مانع من الطواف بالكعبة مرتين كل يوم، مرة فى المساء وأخرى قبل طلوع النهار.

قبل عصر محمد ﷺ ، وعندما كان الناس يعبدون الأصنام فى الجزيرة العربية، كانت الكعبة تعد شيئا مقدسا، وتحظى زيارتها بالوقار الدينى من قبل أشخاص كانوا يؤدون الطواف بطريقة مماثلة إلى حد بعيد لما يفعل خلفهم فى الوقت الراهن. كان الحرم، فى ذلك الزمان، مزينا بثلاثمائة وستين صنمًا، وكان هناك فارق

(*) العمرة ليست فريضة واجبة الأداء مثل الحج، ويجوز للحاج أن يفرده بالأداء دون العمرة ويكون حجه فى هذه الحالة "مفرداً".

كبير فى الطقوس، ذلك أن الرجال والنساء كانوا مجبرين على الظهور فى حال من العرى الكامل(*) حتى يمكن لهم التخلص من ذنوبهم مع التخلص من ملابسهم. كان سكان الجزيرة العربية القدماء يمجدون الصفا والمروة باعتبارهما مكانين مقدسين، يحتويان على صور ذهنية للإلهين مطعم ونهيك ، وفى هذين المكانين كان من عادة عبدة الأوثان السير من مكان إلى آخر، بعد عودتهما من الحج . هنا، إذا كان علينا أن نصدق الحديث الشريف، نجد أن هاجر، أم سيدنا إسماعيل عليه السلام راحت تتجول فى الصحراء، بعد أن طردت من بيت (سيدنا) إبراهيم، حتى لا تشهد وفاة طفلها الصغير، الذى وضعته، وهى تكاد تموت ظمأ، وعندما ظهر جبريل (ضرب الأرض بقدمه، الأمر الذى جعل عين زمزم تنفجر على الفور. وتأبينا لتجوال (ستنا) هاجر، التى قطعت فى كربها سبعة أشواط بين الصفا والمروة، ويقال إن المشى من مكان إلى الآخر أدرج ضمن الطقوس.

يروى المؤرخ الأزرقى ، أن العرب فى الجاهلية بعد أن ينتهوا من الحج إلى عرفات، كانت كل القبائل المختلفة الموجودة تتجمع عند العودة إلى مكة فى المكان المقدس المسمى الصفا ، ليتغنوا بصوت عال مشحون بالعاطفة، يمجدون أسلافهم، ويتذكرون أمجادهم ويذيعون صيت أمتهم. كان ينبرى من كل قبيلة من القبائل شاعر يروح يخاطب الجماهير، قائلا: "إلى قبيلتنا ينتمى المحاربون الأشاوس فلان وعلان وينتمى إليها أيضا الكرام من أمثال زيد وعبيد، ونحن الآن نفتخر بآخرين غير هؤلاء وأولئك". ثم يبدأ الشاعر بعد ذلك فى سرد الأسماء، ويتغنى بأمجادهم ومناقبهم، ويختم قصيدته بمقطوعة من الشعر البطولى، مناشدا القبائل الأخرى مستخدما عبارات من قبيل: "هذا الذى ينكر حقيقة ما أقول، أو من يتساءل عن مثل هذا المجد والشرف

(*) لم يكن العرى واجبا على كل الحجيج فى الجاهلية، وإنما طائفة من العرب أطلق عليهم اسم "الحمس"، وكانوا قلة.

والفضيلة حسبما نراها، عليه أن يتقدم ليثبت ويدلل على صدق ما يقول. " وينهض شاعر آخر، ويروح يتغنى بلغة مماثلة للغة السابقة، وجزلة أو أفضل منها، بأمجاد قبيلته محاولا فى ذات الوقت التقليل من شأن ادعاءات غريمه أو السخرية منها.

لتقليل العداوة والبغضاء الناتجة عن مثل هذه الحالة، أو ربما لكسر روح الاستقلال عند البدو، ألغيت هذه العادة بنص من القرآن ، تقول الآية القرآنية: ﴿ "فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ .

والأرجح أن محمداً ﷺ قضى بذلك على السبب الرئيسى لكثير من المعارك والمشاجرات .

زيارة العمرة هى الأخرى عادة قديمة. وقد أبقى محمد ﷺ على تلك العادة، ويروى أن محمداً ﷺ كان يصلى العشاء فى ذلك المكان.

بعد أن انتهيت من طقوس الطواف والسعى المرهقة، حلقت جزءا من رأسى، ومكثت فى دكان الحلاق، لأنى لم أكن أعرف أى مكان آخر من أماكن الراحة. رحت أسأل عن السكن والمساكن، ولكنى عرفت أن المدينة كانت تغص بالناس فعلا وبخاصة الحجاج، فضلا عن أناس آخرين كثيرين، كان يتوقع وصولهم، وأن كل هؤلاء كانوا قد حجزوا مساكن لأنفسهم فى المدينة. ومع ذلك، وبعد فترة قصيرة عثرت على رجل عرض علىَّ غرفة مؤثثة، استأجرتها ، ولما كنت بلا خادم، فقد عشت وأقمت مع مالك الغرفة. كانت أسرة ذلك الرجل مكونة من زوجة وطفلين، وقد انسحبت لتعيش فى فناء (حوش) صغير مكشوف، بجوار الغرفة التى أقيم فيها. كان صاحب الغرفة واحدا من فقراء المدينة المنورة، وكان يعمل مطوفا، على الرغم من أن حياة ذلك الرجل وأسلوب معيشته أدنى من مستوى الطبقة الثانية من المكيين، فإنها كانت تكلفنى خمسة عشر قرشا يوميا، واكتشفت بعد الرحيل، ضياع قطع من ملابسى ، جرى أخذها من جوال سفرى، لم يكن ذلك هو كل ما حدث. فقد دعانى ذلك الرجل فى يوم العيد على عشاء فخم، بصحبة ستة من أصدقائه، فى الغرفة التى كنت أقيم فيها، وفى صبيحة اليوم التالى قدم الرجل لى فاتورة فيها كل تكاليف هذه العزومة.

آلاف المصابيح التى يجرى إشعالها فى شهر رمضـان فى المسجد الحرام، جعلت منه ملاذا ليليا لكل الأجانب الموجودين فى مكة، كانوا يتمشون فى المسجد أو يجلسون يتسامرون إلى ما بعد منتصف الليل. كان المشهد يشكل منظرا فريدا يشبه (باستثناء غياب النساء) تجمعات منتصف الليل الأوروبية، إن المسجد الحرام ينبغى أن يكون الحرم المقدس للدين الإسلامى، هذه الليلة الأخيرة من رمضـان، لا تعكس تلك المباهج الاحتفائية التى نشاهدها فى أجزاء أخرى من الشرق، يزاد على ذلك أن الأيام الثلاثة التى تلى هذه الليلة تخلو من المتع العامة. هذه هى قلة قليلة من الأرجوحات الصغيرة جرى وضعها فى الشوارع ليتسلى بها الأطفال، وهؤلاء هم بعض الحواة المصريين يعرضون ألاعيبهم على الجموع التى فى الشوارع، ولم يكن هناك أى شىء آخر غير ذلك للاحتفاء بالعيد، لكن يستثنى من ذلك الملابس غامقة الألوان التى يتفوق فيها أهل الجزيرة العربية على كل من السوريين والمصريين.

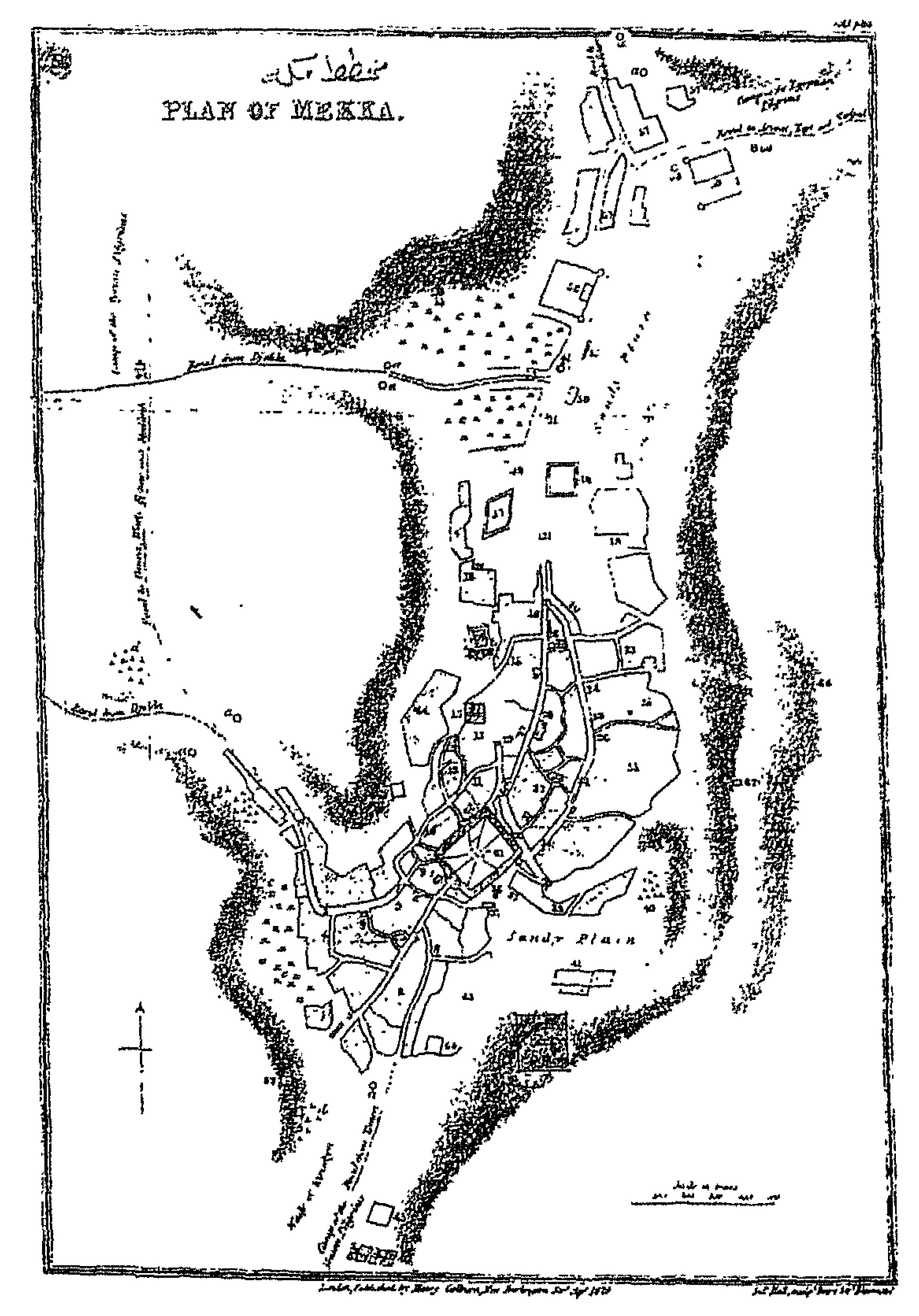
قمت بالزيارة المعتادة فى مثل هذه الظروف، فقد ذهبت لزيارة القاضى بمناسبة العيد، وبعد انتهاء اليوم الثالث (المصادف للخامس عشر من شهر سبتمبر) توجهت إلى جدة لاستكمال معدات سفرى، التى يسهل الحصول عليها فى جدة عن مكة. وبينما كنت فى طريقى إلى الشاطئ، جرى أسرى بواسطة جماعة عابرة من الوهابيين، وطال مقامى فى جدة مدة ثلاثة أسابيع، وكان السبب الرئيسى وراء ذلك المقام الطويل هو تورم قدمىّ، وهذا مرض شائع فى هذا الساحل غير الصحى، الذى تتحول فيه عضة النملة الواحدة، إذا ما أهملت، إلى جرح خطير.

عدت إلى مكة فى حوالى منتصف شهر أكتوبر، ومعى عبد كنت قد اشتريته من جدة. هذا الصبى كان من بين القافلة التى ذهبت معها من السودان إلى سواكن، وقد اندهش هذا الصبى أيما اندهاش عندما رآنى على حال غير الحال التى رآنى عليها من قبل، أخذت معى حمل جمل من المؤن والتموينات، القسم الأكبر منها عبارة عن

دقيق، وبسكويت، وزبد، حصلت عليها من جدة بثلث الثمن الذى تباع به فى مكة، وعقب وصولى إلى مكة مباشرة استأجرت سكنا لائقا فى حى من أحياء المدينة غير المطروقة، ويسمونه حارة المسفلة . فى هذا الحى تمتعت بميزة وجود بعض الأشجار الكبيرة التى كانت أمام نافذتى، كان منظر هذه الأشجار، بين هذه الصخور القاحلة التى أحرقتها الشمس، يدخل السرور إلى نفسى أكثر من أى منظر طبيعى آخر من المناظر التى يمكن أن أراها فى ظروف مختلفة عن الظرف الذى أنا فيه حاليا. فى هذا المكان كنت أتمتع بحرية واستقلال أحسد عليهما، ترددت على أماكن كثيرة، ورأيت الكثير من المجتمع بالطريقة التى تعجبنى، واختلطت بكثير من الحجاج الأجانب من كل أنحاء الدنيا، ولم أكن محطا للملاحظات البذيئة أو الاستفسارات المستفزة. وعندما كان أحد يسأل عن أصلى (وهذا أمر نادر الحدوث فى مكان يعج بالغرباء والأجانب)، كنت أقول إنى واحد من فيلق المماليك الذين جرى تجريدهم من سلطتهم فى مصر، وكان سهلا على تحاشى أولئك الأشخاص الذين ربما أدت معرفتهم الوثيقة بالبلاد إلى اكتشاف كذبى وتنكرى، لكن لم يكن هناك ما يخيفنى من النتائج التى يمكن أن تترتب على أكتشاف أمرى، ذلك أن مسألة التنكر أمر سائغ بين الرحالة الشرقيين كلهم، وبخاصة فى مكة، التى يدعى كل رحال فيها الفقر هربا من تكلفته ما لا يطيق أو تكبيده نفقات أو مصروفات كبيرة. طوال رحلاتى كلها فى الشرق، لم أتمتع بمثل حرية الحركة التى نعمت بها فى مكة، وسوف أحتفظ دوما بذكرى طيبة لمقامى فى ذلك البلد، وذلك على الرغم من أن حالى الصحى لم يسمح لى بالاستفادة من المزايا كلها التى هيأها لى الموقف الذى كنت فيه، وسوف أبدأ الآن فى وصف المدينة، وسكانها، والحج، ثم أستأنف بعد ذلك قصة أسفارى.

وصف مكة(*)

خريطة



خريطة مكة

(*) شرح المخطط :

١ - حى جرول.

٢- حى الباب.

٣ - شبيكة.

٤ - حى الخندريه.

٥ - حى هجلة.

٦- منزل من منازل الشرى.

٧ - الحى المسمى السوق الصغيرة.

٨ - الحى المسمى المسفلة.

٩ - الحى المسمى العمرة.

١٠- الحى المسمى الشامية.

١١ - الحى المسمى السويقة.

١٢ - الحى المسمى قاران.

١٣ - منزل أسرة الجيلانى.

١٤ - حى شبه مهدم يسكنه الفقراء.

١٥ - الحى المسمى رقوبة .

١٦ - وادى الناقه.

١٧ - القصور الرئيسية للشريف.

١٨ - الحى المسمى السليمانية.

١٩ - الحى المسمى عامر.

٢٠ - شارع الحدادين.

٢١ - الحى المسمى المعالة.

٢٢ - مسجد صغير.

٢٣ - الحى المسمى معمولة.

٢٤ - الحى المسمى غزة.

٢٥ - الحى المسمى شعب المولد.

٢٦ - الحى المسمى سوق لويل .

٢٧ - الحى المسمى المدعة.

٢٨ - مخزنان من مخازن الغلال.

٢٩ - المروة.

٣٠ - المسعى.

٣١ - الحى المسمى زقاق الحجر.

٣٢ - مولد ستنا فاطمة.

٣٣ - الشارع المسمى الدرب الصينى.

٣٤ - الشارع المسمى القشاشية.

٣٥ - الحى المسمى شعب على.

٣٦ - الصفا.

٣٧ - منازل الشريف.

٣٨ - آبار مالحة الماء فى أجزاء مختلفة من المدينة.

٣٩ - الحى المسمى جياد.

٤٠ - أكواخ يعيش فيها عبيد الشريف.

٤١ - قصر الشريف المسمى بيت السادة.

٤٢ - القلعة الكبيرة.

٣٢ - حى مهدم.

٤٤- خان مهدم تابع للحج اليمنى.

٤٥ - بركة ماجن، خزان ماء للحجاج اليمنيين .

٤٦ - بعض الحقول المزرعة.

٤٧ - بركة الشامى.

٤٨ - بركة المصرى.

٤٩ - حقول منزرعة.

مكة ، مكرمة بين العرب بألقاب كثيرة جزلة ومدوية، وأشهر هذه الألقاب هى أم القرى، والمشرفة، والبلد الأمين. وقد ألف الفيروز أبادى صاحب القاموس مقالا كاملا عن أسماء مكة. هذه المدينة تقع فى واد ضيق ورملى فى آن واحد، والاتجاه الرئيسى لذلك الوادى من الشمال للجنوب، لكن هذا الوادى يغلب عليه الاتجاه ناحية الشمال الغربى فى اتجاه الطرف الجنوبى من المدينة. من حيث العرض نجد أن اتساع ذلك الوادى يتردد بين مائة خطوة وسبعمائة خطوة، والقسم الأكبر من المدينة يوجد فى المنطقة التى يزداد فيها عرض الوادى أو اتساعه . فى الجزء الضيق من الوادى توجد صفوف من المنازل فقط، أو الدكاكين المنفصلة. ومدينة مكة نفسها تغطى مساحة تقدر بحوالى ألف وخمسمائة خطوة من حيث الطول، وذلك بدءا من الحى الذى يسمونه

---

٥٠ – منزل من منازل الشريف.

٥١ – مقام ابن طالب .

٥٢ – غدران حجرية كبيرة مليئة بالماء.

٥٣ – طريق محمد مؤدى إلى الشيخ محمود.

٥٤ – الشيخ محمود فى مكان تخييم الحج السورى.

٥٥ – قبر خديجة زوجة محمد ﷺ .

٥٦ – قصر كبير من قصور الشريف يستخدم ثكنات للجنود.

٥٧ – ضواحى تسمى معابدة .

٥٨ – سبيل عام يجرى إمداده بالماء من القناة.

٥٩ – منتجعات صيفية للشريف.

٦٠ – بئر.

٦١ – المسجد الكبير الذى يسمى الحرم.

٦٢ – منزل القاضى الملحق بالمسجد .

٦٣ – قبر سيد عقيل ، التاجر الكبير والملحق بالمسجد.

٦٤ – مساكن تابعة لإحدى المدارس العامة يسكن الباشا الذى يجىء إلى مكة .

٦٥ – الجبل المسمى جبل هندى.

٦٦ – الجبل المسمى جبل ليلا أو جبل كوكخان،

٦٧ – جبل أبو قبيس .

٦٨ – أعلى قسم جبال مكة المسمى خندامه .

٦٩ – جبل عمر .

(أ) أبراج مراقبة دائرية فى أجزاء مختلفة .

(ب) بطحاء فى أجزاء مختلفة.

(جـ) مدافن ، الأول منها هو قبور شبيكة والثانى قبور المعالة .

(د) مخيم بدوى صغير.

(هـ) أسبلة عامة يجرى إمدادها بالماء من القناة.

الشبيكة إلى نهاية المعالة ، لكن الطول الكلى للأرض التى تندرج تحت مسمى مكة، والتى تبدأ من الضاحية التى يسمونها جرول (حيث يوجد المدخل القادم من جدة) وتنتهى عند الضاحية التى يسمونها المعابدة (على طريق الطائف)، تقدر بحوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة.

الجبال التى تحيط بهذا الوادى (التى أطلق العرب عليها، قبل بناء المدينة، اسم وادى مكة أو بكة) يتردد ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة قدم، وهى جبال قاحلة جرداء خالية من الأشجار. والسلسلة الرئيسية من هذه الجبال تقع فى الجانب الشرقى من المدينة، وينحدر الوادى انحدارا هينًا ناحية الجنوب، حيث يوجد الحى الذى يسمونه المسفلة (بمعنى المكان المنخفض)، ومياه المطر التى تفقدها المدينة تتجه صوب جنوب المسفلة حيث الوادى المفتوح المسمى وادى الطرافين. القسم الأكبر من المدينة يقع فى هذا الوادى نفسه، لكن هناك أجزاء أخرى مبنية على جوانب الجبال، وبخاصة السلسلة الشرقية، التى يوجد فيها مساكن القرشيين، والتى يبدو أن المدينة القديمة كانت مقامة عليها.

يمكن القول إن مكة بلد جميل: شوارعها أوسع بشكل عام من شوارع المدن الشرقية الأخرى، ومنازلها مرتفعة، ومبنية من الحجر، ونوافذها المتعددة التى تطل على الشارع تضفى على هذه المنازل المزيد من الحياة والحيوية وتضفى عليها مسحة أوروبية ، وذلك على العكس من المنازل المصرية والسورية التى ليس فيها سوى عدد قليل جدا من النوافذ التى تفتح على الشارع. مكة (شأنها شأن جدة) تحتوى على كثير من المنازل المكونة من ثلاثة طوابق، لكن اللون الرمادى الغامق للحجر هو اللون المفضل فى مكة، بعكس اللون شديد البياض الذى يؤذى العيون فى جدة. فى السواد الأعظم من مدن الليفانت، نجد أن ضيق الشوارع يسهم فى برودتها، وفى البلدان التى لا تستخدم فيها العربات ذات العجلات، نجد أن الفراغ الذى يسمح بمرور جملين إلى

جوار بعضهما يعد مساحة كافية لعرض الشارع. ومع هذا كان من الضرورى فى مكة أن يكون المرور واسعا وحرا، تحسبا للجماهير الغفيرة التى تتجمع فى هذا البلد، يضاف إلى ذلك أن من الضرورى أن تكون النوافذ على هذا النحو فى المنازل المعدة لاستقبال هذه الأعداد الكبيرة من الحجاج والمسافرين.

مكة، مدينة مفتوحة من الجوانب كلها، والجبال القريبة منها إذا ما أحسن الدفاع عنها يمكن أن تكون حاجزا قويا ومانعا قويا أيضا فى وجه العدو. كان لمكة فى الأزمان السابقة ثلاثة أسوار لحماية أطراف المدينة، واحد من تلك الأسوار الثلاثة جرى بناؤه عبر (الوادى) عند شارع المعالة، والثانى جرى بناؤه فى حى الشبيكة، والثالث فى الوادى المفتوح على المسفلة. هذه الأسوار الثلاثة جرى ترميمها فى العامين الهجريين ٨١٨ و ٨٢٨، وفى القرن الماضى كانت لا تزال هناك بعض من آثار هذه الأسوار(*).

المكان العام الوحيد فى المدينة كلها هو الميدان الفسيح الخاص بالحرم، ليس فى المدينة أشجار أو بساتين تسر الناظرين، والمشهد لا يعج بالحيوية والحياة إلا فى موسم الحج؛ نظرا للأعداد الكبيرة من الدكاكين المليئة بالبضائع التى توجد فى سائر أحياء المدينة، وإذا ما استثنينا أربعة منازل أو خمسة مملوكة للشريف غالب، نجد أن هناك مدرستين (تحولتا إلى مخازن للغلال فى الوقت الراهن)، ونجد أيضا الجوامع هى والمبانى والمتنزهات الملحقة بها. مكة ليس فيها من المبانى العامة ما يمكن أن تتفاخر أو تتباهى به، ولذلك فهى فى هذا الصدد تعانى عجزا أكثر من أية مدينة شرقية أخرى لها حجم مكة. والمدينة خالية من الخانات، المطلوبة لإقامة المسافرين، أو لتخزين البضاعة، وليس فيها قصور لعلية القوم والأعيان، أو مساجد

(*) راجع الأزرقى، والفاسى وقطب الدين.

تزين كل حي من أحياء المدينة كما هو الحال في مدن الشرق الأخرى، ونحن قد نعزى افتقار مكة إلى المباني الفخمة، إلى التوقير والتقدير اللذان يسبغهما أهل مكة على المسجد الحرام، هذا يمنع أهل مكة من إنشاء أي مبنى يمكن أن يكون منافسا للحرم.

طريقة البناء في مكة هي أيضا الطريقة المتبعة في جدة، إضافة إلى أن نوافذ منازل مكة تطل على الشارع، عدد كبير من النوافذ في مكة تبرز من الحائط، لكن إحدى هذه النوافذ محفورة حفرا جيداً، أو مدهونة دهانا جيدا، ومن أمام هذه النوافذ تتدلى بعض الستائر المصنوعة من البوص الرفيع، وهذه الستائر تمنع الذباب والنمل في الوقت الذي تسمح فيه هذه النوافذ بتجدد الهواء. كل منزل من منازل مكة له شرفته الخاصة، وأرضية هذه الشرفة (المكونة من خلطة من الحجر الحجري) مبنية بميل خفيف، حتى يمكن لمياه الامطار أن تندفع من خلال الميازيب إلى الشارع، وسبب ذلك أن المطر شحيح في مكة، على نحو لا يساوي مشقة تجميع مثل هذا الماء في خزانات، مثلما يحدث في سوريا. شرفات المنازل هنا بجدران خفيفة على شكل حاجز، وسبب ذلك هو أن أهل الشرق كلهم، يعتبرون ظهور الرجل في شرفة المنزل شيئا سيئا، إذ يمكن اتهام الرجل الذي يرتكب مثل هذا العمل بأنه يتلصص على النساء في البيوت المجاورة؛ نظرا لأن النساء يقضين القسم الأكبر من وقتهن في شرفات المنازل، وهن يؤدين الأعمال المنزلية التي من قبيل تجفيف القمح، ونشر الغسيل إلخ. الأوروبيون الذين في حلب هم وحدهم الذين يتمتعون بميزة الوقوف في شرف المنازل، التي تبنى من الحجر وبطريقة جميلة، هؤلاء الأوروبيون يلجأون إلى شرف المنازل في فصل الصيف وبخاصة في المساء، ويصل الأمر بهم إلى حد تناول العشاء والنوم في تلك الشرف. كل مباني المكيين، فيما عدا منازل الأثرياء والأعيان، يجرى إنشاؤها لإقامة المستأجرين إذ يجرى تقسيم المنزل إلى شقق عدة، منفصلة عن بعضها البعض، ويتكون كل منها من غرفة جلوس ومطبخ صغير. ومنذ أن بدأ الحج ينحسر، (حدث ذلك

قبل الغزو الوهابى) لم يعد كثير من المكيين يجنون فائدة من وراء منازلهم، وبالتالى وجدوا أنفسهم عاجزين عن القيام بأعمال الصيانة المطلوبة لهذه المنازل، الأمر الذى أدى إلى انهيار كثير من هذه المنازل فى الضواحى البعيدة وتحولت إلى أنقاض، فضلا عن ظهور كثير من المبانى المتحللة فى المدينة نفسها. شاهدت واحدا من تلك المبانى التى جرى تشييدها مؤخرا، كان ذلك المنزل فى حى الشبيكة، وهو من المنازل المملوكة للشريف غالب، وقد تكلف ذلك المنزل، على حد قول أحد التقارير، مائة وخمسين كيسا من أكياس النقود. المنزل الذى من هذا النوع فى القاهرة يتكلف بناؤه ستين كيسا فقط.

شوارع مكة كلها غير ممهدة، وفى فصل الصيف يشكل الرمل والغبار مصدرا كبيرا للقلق فى هذه الشوارع، كما يشكل الوحل مصدرا للقلق أيضاً فى هذه الشوارع فى موسم الأمطار، يتعذر تجاوز تلك الشوارع بعد سقوط المطر؛ وسبب ذلك أن المطر الذى يسقط داخل المدينة لا ينصرف ماؤه، وإنما يبقى إلى أن يجف. وبذلك يمكن أن نعزى سقوط المساكن القديمة فى مكة وانهيارها إلى الأمطار المدمرة رغم عدم استمرارها مدة طويلة، كما هو الحال فى المناطق الاستوائية الأخرى، الكعبة نفسها جرت صيانتها مرات عدة، فى عهود عدد كبير من السلاطين، إلى حد أننا يمكن أن نقول إن المسجد الحرام حديث البناء، وفيما يتعلق بالمنازل، فأنا لا أظن أن هناك منزلا واحدا يزيد عمره على أربعة قرون، وهذا ليس هو المجال الذى يتعين على الرحال البحث فيه عن عينات ونماذج معمارية مهمة، أو بقايا المنشآت الإسلامية الجميلة مثل تلك التى فى سوريا، ومصر، وباربارى، وإسبانيا. فى هذا المجال بالذات نجد أن مكة صاحبة الشهرة العريقة تتفوق عليها أصغر البلدان فى كل من سوريا ومصر. الشىء نفسه يمكن أن يقال، مع احترامى أيضا للمدينة المنورة، كما أشك أيضا فى أن تكون بلدان اليمن تفتقر إلى الآثار المعمارية.

مكة تفتقر أيضا إلى القواعد المنظمة للشرطة التى تسود المدن الشرقية الأخرى. شوارع مكة شديدة الظلمة أثناء الليل، ولا يجرى إضاءة أية مصابيح فى شوارع هذا البلد أثناء الليل، مختلف أحياء مكة ليس لها بوابات وبذلك فهى تختلف فى ذلك عن سائر السواد الأعظم من المدن الشرقية، التى لكل حى من أحيائها بوابته الخاصة التى يجرى إغلاقها بعد صلاة العشاء. هذا يعنى أن المدينة يمكن التنقل خلالها فى أية ساعة من ساعات الليل، والشىء نفسه ينسحب على عدم تأمين التجار والزراع (الذين تغلق البوابات بسببهم ومن أجل الحفاظ عليهم) مثلما يحدث فى كل من مدن سوريا ومصر. المخلفات، ونفايات الكنس يجرى وضعها أمام المنازل فى الشوارع، وبذلك تتحول تلك النفايات إلى تراب أو وحل حسب الطقس السائد. يبدو أن هذه العادة كانت سائدة أيضا فى الأزمان القديمة، وسبب ذلك أنى لم ألاحظ على حدود البلدة الخارجية أكوام النفايات التى غالبا ما توضع بالقرب من المدن الكبيرة فى تركيا.

لا يوجد فى مكة سوى قلة قليلة من الخزانات التى تستخدم فى تجميع مياه المطر، ونجد أيضا أن مياه آبار مكة مالحة المذاق، وهى لا تستخدم إلا فى أغراض الطهى والتنظيف، فيما عدا موسم الحج الذى يضطر الحجاج من الطبقات المتدنية إلى شرب ذلك الماء المالح. بئر زمزم الشهيرة، الموجودة فى المسجد الحرام، غزيرة المياه على نحو يكفى لإمداد المدينة كلها بالماء، لكن بغض النظر عن قداستها فإن ماءها ثقيل المذاق ويقاوم عسر الهضم، الطبقات الفقيرة المحيطة بالبئر ليس لديها تصريح أو إذن بملء قرابها من هذا المكان حسبما يشاءون. أعذب ماء فى مكة هو الذى يجلب عن طريق قناة من المنطقة المجاورة لعرفات، الذى يبعد عنها مسير ست ساعات أو سبع . الحكومة الحالية بدلا من إنشاء أعمال جديدة مماثلة لتلك القناة، تهمل حتى صيانة المجرى المائى الحالى وتنظيفه. هذا المجرى المائى مبنى كله من الحجر، والأجزاء

المكشوفة منه على سطح الأرض، مغطاة بطبقة سميكة من الحجر والأسمنت، وقد بلغنى أن هذه القناة لم يجر تطهيرها أو تنظيفها طوال الخمسين سنة الماضية، والنتيجة المترتبة على هذا الإهمال هو ضياع القسم الأكبر من الماء أثناء مروره إلى المدينة خلال الفتحات، أو من خلال شق طريق عنوة خلال الرسوبيات التى تعترض طريقه، على الرغم من اندفاع الماء على شكل نهر قوى عند بداية ذلك المجرى المائى فى عرفات. كمية الماء التى ترد عن طريق القناة فى الظروف المعتادة تكفى للوفاء باحتياجات السكان ليس إلا، وأثناء موسم الحج يصبح الماء العذب شيئا نادرا، والقربة الصغيرة (التى يحمل الرجل اثنين منها) تباع فى معظم الأحيان بشلن واحد ، وهذا سعر مرتفع جدا بين العرب.

هناك مكانان داخل مكة تجرى قناة الماء منهما فوق سطح الأرض، وفى هذين المكانين يؤخذ الماء من خلال قنوات فرعية أو أسبلة يقيم بجوارها بعض عبيد الشريف غالب، لكى يحصلوا منها على إتاوة من الأشخاص الذين يقومون بملء قرابهم من هذه القنوات أو الأسبلة. فى موسم الحج، تحاط هذه الأسبلة بجموع من الناس أناء الليل وأطراف النهار، الذين يتشاجرون ويتضاربون على الوصول إلى الماء، خلال الحصار الأخير قطع الوهابيون الماء عن مكة وذلك عن طريق سد المجرى المائى، وقد استغرق إصلاح هذا الضرر وقتا طويلا بعد ذلك.

تاريخ هذا المجرى المائى، الذى استغرق عملا كبيرا وجهدا فائقا، أتى على ذكره باستفاضة مؤرخو الجزيرة العربية. هذه هى زبيدة، زوجة هارون الرشيد، هى أول من بنَت السبيل المسمى عين النومان ، من منبعه فى جبل قورة إلى أن أوصلته إلى مكة، وعين عرف التى تنبع من سفح جبل شامخ الذى يقع إلى الشمال من جبل قورة، والتى كانت تروى الوادى الخصيب المسمى وادى حنين جرى توصيله بعدُ إلى عين النومان، كما جرى مؤخرا إضافة أربع عيون أخرى إلى مجرى النومان المائى وهذه العيون هى: البرود ، وزفران ، وميمون ، وعين مشاش. ويبدو أن ذلك المجرى المائىُ جرت عرقلته مؤخرا، كان قد جرى فى العام الهجرى ٦٤٣ إصلاح وترميم ذلك المجرى

المائى بواسطة كوكبورى kokeboury، ملك أربيلا، وفى العام ٧٦٢ هـ، وبناء على أوامر من السلطان سيد Sayd خادا بيده khadanbede جرى ترميم ذلك المجرى من جديد، وحدث الإصلاح الثالث ولم يكن كاملا فى عهد الشريف حسن بن عجلان فى العام ٨١١ الهجرى عندما كان فى سدة الحكم. وهذا هو قايتباى، سلطان مصر، ينفق مبلغا كبيرا على ذلك المجرى المائى فى العام ٨٧٩ الهجرى، وفى العام ٩١٦ الهجرى يساهم قنصوه الغورى، آخر سلاطين الدولة المملوكية ، مساهمة كبيرة فى إصلاح ذلك المجرى المائى، ومع ذلك ظل المجرى مسدودا، وكلما حدث ذلك أدى إلى تعريض الحجاج والمكيين إلى الموت عطشا. فى العام ٩٣١ هـ حاول السلطان العثمانى سليم إصلاح ذلك المجرى المائى من جديد، لكن الخطة لم تكتمل. أخيراً قام ابنه سليمان بن سليم، (سليمان القانونى) بعد سنوات من العمل، وبعد مصاريف باهظة، قام بحفر ممر فى الصخر الموجود خلف عرفة، وأحدث مجرى مائيا جديدا وهو الموجود إلى الآن، ونجح المشروع فى جلب الماء الوفير إلى مدينة مكة فى العام ٩٧٩ هـ. يصل إجمالى طول المجرى المائى نحو مسير حوالى ثمانى ساعات.

هناك عين صغيرة تنساب من تحت الصخور الموجودة خلف القصر العظيم الذى بناه الشريف، والذى يطلقون عليه اسم بيت السعد، يقال إن هذه العين تعطى ماءً عذبا أو أن شئت فقل: أعذب ماء فى هذا البلد، لكن كميته قليلة جدا. هذه العين مغلقة ومخصصة لاستعمال الشريف وحده هو وأسرته.

الشحاذون، وكذلك الحجاج الفقراء أو الضعاف يطاردون المسافرين ويلاحقونهم فى شوارع مكة طلبا لشربة من الماء العذب، هؤلاء الشحاذون يتحلقون حول طاولات الماء، التى توجد فى كل ركن من أركان المدينة، حيث يباع الماء فى موسم الحج بواقع بارتين للجرة الواحدة وبارة واحدة للجرة فى غير موسم الحج.

سوف أواصل وصفى لمختلف أحياء مكة، وسوف أؤجل وصف المسجد الحرام إلى المرحلة الأخيرة، ثم أضيف بعد ذلك بعض الملاحظات عن السلطان وعن الحكومة.

أحياء مكة

عند المدخل القادم من ناحية جدة، وعندما ندور حول زاوية واد من الزلط والرمل، نشاهد برجين مستديرين من أبراج المراقبة، هذان البرجان أنشأهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته. المسافر يشاهد أبراجا أخرى من هذا القبيل عند مداخل المدينة الأخرى، وهذه الأبراج تتسع لحوالى عشرين شخصا، وعندما تقترب التلال بعضها من بعض عند مدخل المدينة، نجد أن هذه الأبراج هى التى تتحكم فى الممر. يبدو أنه كانت هناك من قبل بوابة فى هذا المكان، ولم يعد يتبقى منها سوى عتبتها، بالقرب من مبنى صغير، يتجمع عنده موظفو الشريف غالب لتحصيل الرسوم على البضائع، إلخ الداخلة إلى المدينة. هنا أيضا صف من الدكاكين، والمنازل السكنية الخفيضة المدمرة، التى يطلق الناس هنا عليها اسم الحارة ، أو إن شئت فقل: حى الجرول، هذه الحارة تشتمل على مخيم فى الجهة اليمنى، يعيش فيه البدو الذين يعملون فى نقل التجارة بين مكة وجدة، وهؤلاء البدو من قبيلة حرب، والمطرفى واللهاوى أيضا.

يتغير فى المنطقة الواقعة خلف جرول اسم الشارع إلى حارة الباب ، حارة الباب هذه عبارة عن شارع واسع، فيه العديد من المنازل الجيدة، وهو يؤدى إلى حى الشبيكة، الذى يمتد فى اتجاه الناحية اليمنى، وهو يسمى بهذا الاسم لأن أتباع محمد ﷺ جرى الهجوم عليهم من قبل أعدائهم ، هناك كثير من المنازل الجيدة فى الشبيكة، التى تعد واحدة من أنظف الأحياء وأصحها فى المدينة كلها. كثيرون من أهل جدة يعيشون فى حى الشبيكة، وفى الشبيكة أيضا نجد منزلا جميلا من ممتلكات الشريف غالب، عاشت فيه أسرته المكونة من عدد كبير من الأطفال الصغار، والبنات الكبار، بعد عزل الرجل من منصبه. الشارع الرئيسى فيه بعض المقاهى، التى ينطلق البريد منها كل يوم فى المساء، على ظهور الحمير، التى تحمل الرسائل المرسلة إلى جدة. هذا هو المكان الوحيد الخاص بالرسائل الذى شاهدته فى الشرق، علاوة على ذلك المكان الذى أنشأه الأوروبيون فيما بينهم فى القاهرة، ليعمل على نقل

الرسائل فيما بين القاهرة والإسكندرية، لكن توصيل الرسائل بين القاهرة والإسكندرية أقل انتظاما منه بين جدة ومكة، حيث يجرى نقل الرسائل بينهما بصورة منتظمة، وبتكلفة صغيرة لا تتجاوز بارتين للرسالة الواحدة، وبارتين للشخص الذى يقوم بتوزيع الرسائل الواردة من جدة.

فى المقاهى سالفة الذكر يعيش أيضا سماسرة القوافل، الذين يؤجر البدو من خلالهم إبلهم التى تستعمل فى الرحلات المتجهة إلى كل من جدة والمدينة المنورة.

فى الجانب الغربى من الشبيكة وفى اتجاه الجبل، يوجد مدفن كبير، تتناثر فيه أكواخ البدو وخيامهم، وبعض المساكن البائسة التى تعيش فيها أحط النساء ، وهذا المكان يسميه الناس هنا الخندريه. وعلى الرغم من أن الموروث يقول إن أعدادا كبيرة من أصدقاء محمد ﷺ وأتباعه مدفونون فى هذا المكان، فإنه أصبح من غير اللائق أو المناسب دفن الموتى هنا فى هذا المكان، وهنا نجد أن كل أفراد الطبقة الأولى والثانية من المكيين يستعملون فى دفن موتاهم الجبانات الواسعة الواقعة شمالى المدينة. هناك قلة قليلة من الدكاكين فى الشبيكة، يزاد على ذلك أن الشبيكة لا تضم فى موسم الحج كثيرا من الأجانب، نظرا لأن من يسكنون الشبيكة هم من الميسورين الذين يجدون مهانة فى تأجير مساكنهم.

عندما نتحرك من الشبيكة على امتداد الشارع الواسع فى اتجاه الشمال، نصل إلى الحمام الذى يعد أفضل الحمامات الثلاثة فى مكة، إلا أنه أدنى بكثير من حمامات المدن الآسيوية الأخرى، وسبب ذلك هو ندرة الماء فى ذلك الحمام، هذا الحمام بنى فى العام الهجرى ٩٨٠، وقد بناه محمد باشا، ممثل السلطان سليمان الثانى، ويعد من أحسن مبانى المدينة(*). هذا الحمام يتردد عليه كل من الأجانب بصفة خاصة، والمواطنين العرب غير المعتادين على استعمال هذه الحمامات، ويفضلون الوضوء بطريقتهم الخاصة فى منازلهم.

(*) راجع قطب الدين.

هذا الحمام، هو والشوارع الفرعية المتعددة المؤدية إلى المسجد الحرام، تشكل فى مجملها ذلك الحى الذى يطلقون عليه اسم حارة باب العمرة، الذى يسكنه عدد من المرشدين الذين يسمونهم المطوفين، كما أن هذا الحى يعج بالحجاج، وبخاصة الأتراك منهم. الشوارع هنا ضيقة فى هذا الحى، وشديدة القذارة، لكن الحجاج يفضلون هذا الحى لأنه أرخص الأحياء القريبة من المسجد الحرام الذى يشتاقون إلى السكنى بالقرب منه، وذلك من باب الحرص من جانبهم على ألا تفوتهم الصلاة، أو (على حد قولهم) أن يكونوا، إذا ما اضطرب منامهم، قريبين من المسجد الحرام على نحو يبعد عنهم تلك الأحلام السيئة. الرجال هنا، نراهم وهم يجرون عند منتصف الليل متجهين إلى المسجد الحرام مرتدين ثياب النوم، ويقومون بالطواف حول الكعبة، ويقبلون الحجر الأسود، ويدعون بدعاء قصير، ويشربون من ماء زمزم، ثم يعودون إلى فراشهم بعد ذلك. بالقرب من بوابة المسجد الحرام المسماة باب العمرة، الذى يشتق الحى اسمه منه، يوجد مبنى واسع كبير، هو فى الأصل مدرسة عامة، لكن يقيم فيه حاليا حسان باشا، والى مكة. والأرجح أن يكون ذلك المبنى هو المدرسة التى أتى الفاسى على ذكرها، وأنها بنيت بالقرب من باب العمرة فى العام ٨١٤ الهجرى، بأوامر من منصور غيث الدين آثام شاه، حاكم البنغال. فى العام ٥١٩ الهجرى، أمر والى عدن ببناء مدرسة أخرى فى هذا الحى ، وهى التى أطلق عليها اسم دار السلسالة، فى هذا الحى توجد إحدى عيون الماء العذب الذى يجلب من المجرى المائى، كما توجد أيضا آبار عدة مالحة الماء.

عندما نعود من هذا الحى إلى الشبيكة، ثم نتجه جنوبا نحو مختلف الشوارع، المكونة من بنايات جيدة، لكنها سرعان ما تبلى وتتحلل، نجد أنفسنا نصعد صعودا هينًا لنصل إلى الشارع الذى يسمونه السوق الصغير ، الذى ينتهى عند بوابة المسجد الحرام، المسماة باب إبراهيم. المنازل منخفضة على جانبى الشارع، وتسكنها الطبقات الدنيا من البشر ، وهناك سلسلة متصلة من الدكاكين التى تباع فيها كل أنواع المؤن والتموينات، والحبوب بصفة خاصة، والزبد والتمر. يباع الجراد فى بعض الدكاكين

بالمكيال. هذا السوق يتردد عليه البدو بصفة خاصة، وبخاصة بدو جنوب الجزيرة العربية الذين يجلبون الفحم النباتى إلى هذا المكان. بعض فقراء الحجاج من الزنوج الأفارقة يتخذون من الأكواخ البائسة هنا مساكن لهم، كما يسكنون أيضًا فى المنازل المهدمة فى هذا الجزء من المدينة، وقد أقاموا هنا سوقًا للحطب الذى يجمعونه من الجبال المحيطة بالمكان.

الناس هنا يطلقون على نهاية السوق الصغير من ناحية الجبل اسم حارة الحجلة أو حجلة تكية صادق، حيث توجد بعض المنازل الجيدة، التى يسكنها أولئك الطواشية الذين يحرسون المسجد الحرام، والذين يعيشون مع زوجاتهم فى ذلك المكان، نظرا لأنهم كلهم متزوجون من (إماء) سوداوات. هذا هو أدنى أجزاء مكة، وعندما تجىء السيول الكبيرة فى موسم الأمطار فإنها تغرق الوادى، كما يتدفع الماء خلال هذا الشارع متجها صوب الأرض الفضاء. وأنا أرى هنا بعض بقايا المجرى المائى القديم، وسبب ذلك أنه طوال صيانة ذلك المجرى كان ماؤه الزائد عن حاجة المدينة يتجه من هذا الطريق إلى الوادى الجنوبى، ليجرى استخدامه فى رى بعض الحقول.

فى بعض الأحيان يدخل السوق الصغير ضمن المسفلة، أو إن شئت فقل "المكان المنخفض"، والمسفلة هو اسم الحى الواقع على الجانبين الشرقى والجنوبى من السوق، لكن هذا الاسم ينطبق بصورة أو بأخرى على الحى الأخير. حى المسفلة مبنى بطريقة جيدة، وهو مثل حى الشبيكة، يحتوى على قلة قليلة من المنازل الجديدة، لكن ذلك الجزء من حى المسفلة الذى يقع فى اتجاه قلعة التل الكبيرة، يكاد يكون كله مخربا فى الوقت الحالى. هذا الجزء يسكنه التجار العرب والتجار البدو، الذين يسافرون إلى اليمن فى زمن السلم، وإلى المخواه بصفة خاصة، التى يجلبون منها الحبوب والبن والأعناب المجففة. هذا المكان يقيم فيه أيضا عدد من فقراء الهنود المقيمين فى مكة، هؤلاء الهنود الفقراء يؤجرون منازلهم لأبناء بلدهم، الذين يأتون إلى مكة فى موسم الحج لأداء الفريضة. ونجد الحجاج الزنوج يتخذون من المنازل المهدَّمة بيوتا لهم، بعض

هؤلاء الزنوج يقيمون فى مكة، ونساؤهم يقمن بعمل مشروب مُسْكر يصنعنه من الذرة، ويسمونه البوظة، التى يغرم بها أحط سكان المدينة، وكما سبق أن قلت: فقد اتخذت من المسفلة سكنا لى عندما عدت من جدة، سكنت فى بداية الأمر فى منزل واحد من المغربين، ثم انتقلت بعد ذلك إلى منزل أحد التجار اليمنيين القريب من المنزل السابق. كان التاجر الذى استأجرت منه السكن من أهل صنعاء فى بلاد اليمن، وكان يتخذ من الطوافة مهنة له، وكان يسكن فى الطابق الأول من المنزل، الذى انتقل فيه، أثناء مقامى، وفى ركن من أركان الطابق الأرضى، كانت الأجزاء الأخرى من المبنى مأهولة بالسكان الذين جاءوا لأداء فريضة الحج، كما كان يسكن فى المنزل أيضا أحد فقراء بلاد الأفغان، أو بالأحرى منطقة السليمانية، مثلما يسميها الناس فى الوقت الراهن، كما كان فى المنزل أيضا ساكن أو حاج من الجزر اليونانية. فى منزل التاجر اليمنى، وجدت نفسى بين جماعة من الحجاج المغربيين الذين من أمة البربر، أو إن شئت فقل: من الشلهى، الذين جاءوا إلى مصر عن طريق البحر. توجد فى هذا الجزء من المدينة قلة قليلة من المنازل التى لا يمكن الالتقاء فيها بذلك الخليط البشرى.

يوجد فى الناحية الجنوبية من المسفلة خان كبير مدمر، لابد أنه كان حقيرا حتى عندما كان جديدا، كان ذلك الخان مخصصا لإعاشة قوافل الحجاج وإقامتها، التى كانت تصل من قبل من اليمن عن طريق البر، بالسير بمحاذاة ساحل البحر، وجاءت قافلة حجاج يمنية أخرى قادمة إلينا من الجبال.

عند الخروج من مكة من هذا الجانب، نجد برجا من أبراج المراقبة مقاما فى السهل وشبيها بتلك الأبراج المقامة عند مدخل جرول، ونجد هنا أيضا واديا واسعا يفضى معه هنا، وفى اتجاه الجنوب، إلى قرية الحسينية، التى تبعد مسير ساعتين أو ثلاث ساعات، والتى يوجد فيها بعض من النخيل. الشريف غالب له فى هذه المنطقة استراحة صغيرة فيها بيت ريفى، وله أيضا فى هذا المكان قطيع من الجاموس جرى جلبه من مصر، لكن حال هذا القطيع ليس على ما يرام. وهنا طريق

يصل بين الحسينية وعرفات، وهذا الطريق يتجه جنوبا ثم يتجه نحو الجنوب الشرقى وصولا إلى مكة، وعلى بعد مسيرة ساعتين أو ثلاث ساعات من مكة، وعلى هذا الطريق، يوجد وادٍ صغير خصيب ومستوطنة العابدية العربية الصغيرة. الوادى سالف الذكر يطلقون عليه هنا اسم وادى الترافين ، وعلى بعد مسافة ميل واحد خلف حدود المدينة الحالية يمكن اقتفاء أثر حطام منازل سابقة، بين هذه الآثار والأنقاض توجد خزانات عدة كبيرة وعميقة وجيدة البناء، والتى بشىء من الترميم يمكن أن تعود إلى سيرتها الأولى لتفى بالغرض الذى بنيت من أجله، وهو حفظ ماء المطر أو تجميعه، وعلى بعد ميل ونصف الميل من المدينة يوجد خزان حجرى كبير، يسمونه بركة ماجن جرى بناؤه لتزويد قافلة اليمن بالماء. وجدت فى ذلك الخزان شيئا من الماء، لكنه يتحلل ويبلى بشكل سريع. خلف هذا الخزان يزرع أهل المسفلة بعضا من حقول الخيار ومختلف الخضراوات، عقب سقوط المطر مباشرة، بعد أن تكون الأرض قد تشبعت بالماء. وتنتشر فى هذا الوادى أكواخ كثيرة وخيام كثيرة من أكواخ وخيام بدو قبائل الفهاموالجهادلة، سكان هذه الأكواخ والخيام يكسبون عيشهم عن طريق جمع الحشائش والأعشاب من الجبال وبيعها فى سوق مكة عندما تجف، ملفوفة على شكل حزم. والناس يستخدمون تلك الأعشاب والحشائش الجافة غذاء للخيول والإبل والحمير، ولكن هذه الأعشاب والحشائش جد نادرة، إلى حد أن العلف اليومى للحصان يتكلف ما بين قرش واحد وثلاثة قروش. هؤلاء البدو يربون أيضا الأغنام، لكنهم على الرغم من فقرهم، يحافظون على تميزهم عن الطبقات الفقيرة من المكيين، الذين يحتقرونهم ويربأون بأنفسهم أن يقلدوهم فى عاداتهم الاستجدائية. بعض هؤلاء البدو يعملون سقائين فى المدينة.

توجد على قمة من قمم السلسلة الغربية من وادى الترافين، وأمام المسفلة مباشرة، ومن قبل الغزو الوهابى، بناية صغيرة عليها قبة تكريما (لسيدنا) عمر أحد الصحابة الأربعة، ولذلك يطلق الناس هنا على هذه البناية اسم مقام سيدنا عمر. وقد دمر الوهابيون ذلك المقام تدميرا كاملا.

وعلى قمة الجبل المقابل توجد قلعة كبيرة، عبارة عن هيكل ضخم وكبير، تحيط به جدران سميكة وأبراج صلبة. هذه القلعة تتحكم فى القسم الأكبر من مكة، لكن يمكن التحكم فيها من القمم المتعددة الأعلى منها. بلغنى أن هذه القرية ترجع إلى زمن الشريف سرور، سلف الشريف غالب، لكنى أرى أنها أقدم من ذلك من الناحية التاريخية. وقد أتى العصمى مرارا على ذكرها، فى تاريخه، فى مطلع القرن الرابع عشر، لكنه لم يحدد من هو بانى هذه القلعة، وغير مسموح لأى إنسان بدخول هذه القلعة بدون إذن أو تصريح من والى مكة، وأنا لا أرى أن من الحكمة جر المتاعب، والتقدم بطلب لدخول هذه القلعة. قام الشريف غالب بتقوية تلك القلعة تقوية كبيرة وترميمها ترميما كاملا، وزودها بالمدافع الثقيلة. يقال إن الشريف غالب جعل مخازن هذه القلعة مضادة للقنابل، وإنها يمكن أن تأوى حامية مقدارها ألف رجل. العرب يرون أن هذه القلعة يصعب اختراقها، وتلك هى نظرة المكيين إلى هذه القلعة، هذه القلعة يمكن أن تشكل مقاومة كبيرة أمام الأوروبيين، والدخول إلى هذه القلعة يكون عن طريق ممر ضيق .

خلف تل القلعة، وفى سهل صغير يقع بين الجبل وجبل قورة، يوجد القصر الكبير، المملوك للشريف الحاكم، والناس يطلقون على هذا اسم بيت السادة .يقال أيضا إن الذى بنى هذا القصر هو الشريف سرور، لكنى اكتشفت أن العصمى أتى على ذكر هذا القصر فى روايته عن المعاملات التى حدثت قبل مائتى عام. جدران هذا القصر عالية جدا وصلبة، ويبدو أن هذا القصر قصد به أن يكون تكملة للقلعة التى فوقه، والتى يوجد بينها وبين القصر اتصال عن طريق خندق أو نفق تحت الأرض. القصر عبارة عن بناية غير منتظمة الأبعاد، ويضم أفنية كثيرة فسيحة، وغرف كئيبة، لم يسكنها أحد منذ هروب الشريف غالب أمام العدو إلى جدة، ثم حاول الشريف غالب تدمير هذا القصر بعد ذلك عن طريق النار، لكن البناية كانت أقوى من النار بكثير. حول الأتراك، فى زمن محمد على باشا، هذا القصر إلى مخزن للغلال. فى السهل المجاور، الذى كان من قبل ميدانا لتدريب قوات الشريف، عثرت على قطيع من الإبل،

ومخيم لجمّالة ذلك القطيع، الذين يقومون برحلة كل أسبوع إلى جدة أو الطائف. يوجد هنا أيضا كثير من الحجاج الفقراء، الذين لا يستطيعون دفع إيجار المسكن، ونصبوا خيامهم البائسة، المكونة من مجموعة من الخرق البالية المفرودة على بعض العصى. كان الجنود مشغولين فى تدمير الأسقف المتبقية كلها من القصر وذلك بحثا أو طلبا للحطب.

فى مدخل ضيق فى الجبل، وإلى الشمال من القصر، وبالقرب من السهل سالف الذكر يوجد عدد كبير من الأكواخ المنخفضة المبنية من خشب الأراك، هذه الأكواخ كانت من قبل مساكن لعبيد الشريف غالب، الذين كانوا يعملون جنودا فى حرس الشريف. وقد هرب الكثيرون من هؤلاء الجنود عقب أسر الشريف غالب، هذه الثكنات هى فى الوقت الراهن مقر لحوالى مائتين من الجنود العرب، فى خدمة الشريف يحيى خلف الشريف غالب.

عند مغادرة هذا المكان إلى المسجد الحرام، على الجانب الأيمن، نصل إلى حى صغير، مبنى عل منحدر الجبل، فيه كثير من المنازل شبه المهدمة، هذا الحى يسمونه حارة الجياد، ويسكنه أناس فقراء، وكثير من الخدم العاملين فى قصور الشريف. يقول العصمى إن هذا الحى يشتق اسمه من كونه المكان الذى كان يحتله الخيالة، الذين رافقوا طوبه ، ملك اليمن، أثناء الحملة التى جردها على مكة، هذا الحادث شهير عند الكتاب العرب المسلمين، نظرا للدمار الشديد الذى أصاب جيش هذا الملك، المؤكد أن هذا الحى واحد من أقدم أحياء مكة.

على مقربة من المسجد الحرام، وعلى جانبى مدخل السهل سالف الذكر يوجد قصر الشريف، القسم الشمالى من هذا القصر مكون من منزلين فخمين متصلين ببعضهما البعض، يعيش فيهما الشريف يحيى، حريم الشريف يعشن فى المبنى الشمالى المقابل، الذى بناه الشريف غالب، الذى أمضى القسم الأكبر من وقته فى هذا المسكن المفضل، الذى يمتاز بالقرب من المسجد، كما يمتاز هذا المسكن أيضا بموقعه المهم، والأرض المفتوحة الواسعة التى يطل عليها.

إذا ما واصلنا المسير من هذا المكان وفى اتجاه الشمال، وبمحاذاة المسجد الحرام ندخل شارعا طويلا اسمه المساسة. الشوارع الفرعية الموجودة على اليمين، عند الاقتراب من المساسة هى التى تكوّن حى الصفا، الذى اشتق اسمه من جبل الصفا الذى سبق أن وصفناه. المنازل المحيطة بهذا المكان عبارة عن مبان أنيقة، كما أن الأجانب الأثرياء ينزلون ويقيمون فى هذا الحى فى موسم الحج. يسكن فى هذا الحى أيضا أغا طواشى المسجد الحرام، إضافة أيضا إلى الصبية الطواشيّة الذين يتلقون العلم هنا، إلى أن يبلغوا السن الذى يسمح لهم بالعيش فى مساكن خاصة بهم.

نتحول الآن إلى المسعى ، أول شوارع مكة وأكثرها استقامة، ومن أحسن الشوارع من حيث البناء. هذا الشارع أخذ اسمه من طقس السعى، الذى يجرى تنفيذه فى هذا الشارع، والذى سبق أن تناولته بالوصف، بسبب هذا الظرف من ناحية، وامتلاء هذا الشارع بالدكاكين من ناحية أخرى، نجد أن هذا الشارع هو أكثر أماكن المدينة ضوضاء وحركة. الدكاكين هنا لها الوصف نفسه الذى أوردناه عن دكاكين جدة، بالإضافة إلى حوالى اثنى عشر دكانا من دكاكين السمكرة، الذين يصنعون القوارير مختلفة الأنواع من الصفيح والقصدير التى يستعملها الحجاج فى نقل ماء زمزم إلى بيوتهم أثناء عودتهم إلى أوطانهم. الدكاكين هنا عبارة عن مخازن فى الأدوار الأرضية من المنازل، وأمام كل دكان توجد مصطبة من الحجر، فوق هذه المصطبة يجلس التاجر تحت مظلة هزيلة مصنوعة من الحصير المثبت فى أعمدة طويلة، هذه العادة سائدة فى سائر أنحاء الحجاز. كل منازل المسعى مستأجرة من الحجاج الأتراك. عند وصول جماعة من الحجاج من جدة، وهذا هو ما يحدث صباح كل يوم تقريبا طوال أربعة أشهر أو خمسة من العام، يقومون بوضع أمتعتهم فى شارع المسعى، ليذهبوا بعد ذلك لزيارة المسجد الحرام، ثم يبدءون بعد ذلك فى البحث عن السكن، وعلى هذا النحو كنت أجد الشارع كل يوم، وهو عامر بالزائرين الجدد، وحملة الأخبار، وكذلك المرشدين أو إن شئت فقل المطوفين.

خلال مقامي في مكة كان المسعى شبيها بسوق من أسواق إسطنبول. هذه دكاكين كثيرة يملكها أتراك جاءوا من أوروبا أو من آسيا الصغرى، هذه الدكاكين تبيع أنواعا مختلفة من الألبسة التركية، التى كان الحجاج الأتراك يرتدونها إلى أن وافتهم المنية، أو ملابس هؤلاء الأشخاص الذين حدث لهم عجز فى النقود فاضطروا إلى بيع ملابسهم. المحلات هنا تبيع السيوف، والساعات الإنجليزية الجيدة، ونسخا جميلة من القرآن، هذا يعنى أن أقيم ثلاثة أشياء فى أمتعة الحاج التركى، كان يجرى عرضها للبيع فى هذه الدكاكين، تباع فى هذه الدكاكين أيضا قطع الفطير الإسطنبولى كما تباع الحلوى أيضا فى الصباح، هذه الدكاكين تبيع أيضا الكباب الضانى، فى فترة العصر، كما تبيع فى فترة المساء نوعا من البالوظة يسمونه مهلبية توجد أيضا فى هذا المكان مقاهٍ كثيرة تزدحم بالناس اعتبارا من الساعة الثالثة صباحا إلى الساعة الحادية عشر ليلا. سوف يندهش القارئ إذا ما علم أن المشروبات المُسْكِرة تباع فى اثنين من هذه الدكاكين، على مرأى من الناس جميعا أثناء الليل، على الرغم من أن ذلك لا يجرى أثناء النهار: مشروب من هذين المشروبين يجرى صنعه من الزبيب المخمر وعلى الرغم من خلط هذا المشروب بمقدار كبير من الماء، فإنه يظل قويا جدا، الأمر الذى يجلب السكْر لمن يتناول كئوسا قليلة من هذا المشروب. المشروب الثانى هو نوع من البوظة ، المخلوطة بالتوابل، ويطلقون عليها اسم سوبيا. هذا المشروب معروف فى القاهرة (على الرغم من أنه ليس بقوة المشروب الذى يصنع فى مكة).

المسعى هو المكان المخصص لتنفيذ القصاص؛ فى هذا المكان يجرى القصاص من المذنبين وإعدامهم. أثناء مقامي فى مكة شاهدت رجلا وهم يقصون عنقه بناء على حكم من القاضى، لأن الرجل سرق من حاج تركى حوالى مائتى جنيه إنجليزى، كانت تلك هى الحالة الوحيدة من حالات القصاص التى شاهدتها، على الرغم من القول بأن اللصوص يكثر وجودهم فى مكة، فى موسم الحج. ومع ذلك فإن تاريخ مكة فيه كثير من الأمثلة على أحكام القصاص: فى العام الميلادى ١٦٢٤م جرى سلخهم فى الشارع

وهم أحياء، في العام ١٦٢٩ م جرى ثقب ذراعي وكتف أحد الرؤساء العسكريين اليمنيين بعد أن أسره الشريف الحاكم، ثم جرى وضع أشرطة مشتعلة في تلك الثقوب (الجراح)، وجرى لف قدمي هذا الرئيس العسكري إلى الأعلى، وتثبيتها في كتفه بواسطة خطاف حديدي، وعلق الرجل على هذا الوضع طوال يومين على شجرة في المعالة ، إلى أن لفظ آخر أنفاسه. مسألة فقأ عيني رجل من الرجال أمر شائع في هذه الأجزاء من الشرق، لكن هذه العقوبة لم يحدث أن لجأ إليها والٍ من ولاة الحجاز.

في المسعى، يقع ذلك المبنى الجميل، الملحق بالمسجد الحرام، الذي أقامه قايتباي سلطان مصر، في العام ٨٨٢ الهجري، والذي أنشأ فيه مدرسة عامة كبيرة تضم اثنتين وسبعين شقة مختلفة، وقد زود قايتباي تلك المدرسة العامة بمكتبة قيمة. وهذا هو المؤرخ قطب الدين، الذي عمل أمينا لتلك المكتبة، بعد ذلك بقرن من الزمان، يشتكي من أن عدد المجلدات التي تبقت إلى عصره كان يقدر بحوالي ثلاثمائة مجلد فقط، أما بقية المجلدات فقد سطا عليها أولئك الذين جاءوا قبله وكانوا عديمي الأخلاق والمبادئ.

يوجد في الطرف الشمالي من المسعى مكان يسمونه المروة، التي هي نهاية المسعى ، كما سبق أن أسلفت، المروة بالشكل التي هي عليه الآن جرى بناؤها في العام ٨٠١ هجري. خلف المروة يوجد منزل كان يسكنه العباس، أحد أعمام محمد ﷺ . بالقرب من المروة توجد دكاكين الحلاقين، التي يحلق فيها الحجاج شعر رءوسهم بعد الانتهاء من السعي. هنا في هذا المكان تعقد المزادات العامة صباح كل يوم، حيث تعرض كل أنواع الملبوسات والبضائع على اختلاف أنواعها لبيعها بأعلى الأسعار، وإرضاء للأتراك يجري استخدام لغتهم في تلك المزادات، وليس هناك صبي من صبية مكة لا يعرف شيئا من التركية، بما في ذلك الأعداد في أضعف الأحوال. بالقرب من المروة يوجد سبيل، وهو من أعمال الإمبراطور العثماني سليمان بين سليم، هذا السبيل يجري إمداده بالماء من مجرى مكة المائي، وهو يزدحم طوال اليوم بالحجاج الذين يأتون لملء قربهم .

فى الناحية الشرقية من المسعى، وبالقرب من نهايته عند المروة، نجد أنه يتفرع منه شارع يسمونه السويقة ، أو إن شئت فقل: السوق الصغير، التى تمتد محاذية للجانب الشرقى من المسجد الحرام. هذه السويقة، على الرغم من ضيقها، تعد أنظف شوارع مكة، حيث يجرى تنظيفها بصورة منتظمة ورشها بالماء، الأمر الذى لا يتاح فى الشوارع الأخرى. فى هذه السويقة يعرض تجار الهند الأثرياء بضاعتهم التى تباع بالقطعة، كما يعرضون أيضا شيلان الكشمير، والموسلين. يوجد فى السويقة حوالى عشرين دكانا، تبيع العطور، والزيوت الحلوة، والبلسم المكى (مغشوش بطبيعة الحال) وبخور العود، وطيب الزباد إلخ. قلة قليلة من الحجاج هم الذين يعودون إلى منازلهم دون أن يحملوا معهم هدايا لعائلاتهم وأصدقائهم، هذه الهدايا عادة ما تكون خرزا، أو عطورا، أو بلسما مكيا، أو طيب العود الذى يستخدم سائلا فى أنحاء الشرق، على شكل قطع صغيرة توضع فوق التبغ المشتعل فى الشيشة، لتنتج رائحة ذكية.

الدكاكين الأخرى تبيع عقود المرجان، وحبات اللؤلؤ غير الحقيقية، والمسابح التى تصنع من خشب العود أو الصندل، أو من خشب الكالمباك ذكى الرائحة، كما تبيع هذه الدكاكين أيضا العقود الجميلة المصنوعة من حبات العقيق الأحمر، كما يستخدم العقيق أيضا فى صناعة الخواتم المنقوشة، وأنواعا مختلفة أخرى من البضائع الصينية. هذه الدكاكين كلها مملوكة للهنود، وبضاعة هذه المحلات كلها من الإنتاج الهندى ومن المصنوعات الهندية. هؤلاء الهنود يقع عليهم نوع من الظلم أو سوء المعاملة فى الجزيرة العربية، جراء فكرة صغيرة مفادها أن هؤلاء الهنود هم من عبدة الأصنام، علما بأن هؤلاء الهنود يلتزمون من حيث المظهر بطقوس الإسلام وتعاليمه: المفروض أن يكون هؤلاء الهنود من الطائفة (المذهب) الإسماعيلية، هؤلاء الأتقياء الذين تحدثت عنهم فى رحلتى إلى لبنان(*) ، والذين يطلق اسمهم فى مكة على هؤلاء الهنود. هنا فى مكة

(*) راجع كتاب أسفار فى سوريا إلخ .

نجد حوالى اثنى عشر رجلا من هؤلاء الهنود، أما الآخرون منهم فيصلون إلى مكة فى موسم الحج، هؤلاء الهنود يشترون الذهب والفضة القديمة، وينقلونها إلى سورات ، التى يأتى منها القسم الأكبر من هؤلاء الهنود. بعض هؤلاء الهنود يعيشون فى مكة منذ عدد سنوات، يؤدون الطقوس الدينية كلها، هؤلاء الهنود يستأجرون بيتا كبيرا، يعيشون فيه مع بعضهم البعض، ولا يسمحون لأى غريب عنهم بالوجود أو الإقامة فى هذا المنزل، حتى وإن كانت بعض غرف هذا المنزل غير مشغولة. وعلى العكس من المسلمين كلهم، نجد أن هؤلاء الهنود لا يحضرون نساءهم مطلقا لأداء فريضة الحج على الرغم من قدرتهم على تحمل النفقات، يزاد على ذلك أن هؤلاء الهنود الذين يقيمون فى مكة منذ زمن بعيد لم يعرف عنهم مطلقا أنهم تزوجوا فى هذه المدينة، وهذا أمر شديد الوضوح، نظرا لأن الهنود الذين يطول مقامهم فى الهند، عادة ما يتخذون لأنفسهم زوجات من هذا البلد، على الرغم من أنهم قد يكونون متزوجين فى بلادهم.

هذه القصص التى تروج عن هذه الطائفة، يجرى ترديدها أيضا عن أفراد الطائفة الإسماعيلية السورية(*)، وقد باءت كل المحاولات التى بذلتها من أجل الوقوف على تعاليمهم السرية بالفشل الذريع هنا فى مكة وفى سوريا من قبل، وقد قيل فى سوريا إن المقر الرئيسى للطائفة الإسماعيلية كان فى الهند، وإن ذلك المقر كانت له مراسلات منتظمة مع سوريا . هناك مذهب من مذاهب "عبدة النار" موجود فى كل من الهند، وبلاد الرافدين، وإن الإسماعيليين فى كل من سوريا، ومكة ربما كانوا ينتمون إلى ذلك المذهب. هؤلاء الذين أراهم فى مكة لهم ملامح الفرس وقسماتهم وليس الهنود، كما أنهم أطول وأمتن من الهنود بشكل عام(**).

(*) راجع كتابى أسفار فى سوريا والأرض المقدسة .

(**) البشر الذين أتى مؤلفنا هنا على ذكرهم ربما كانوا من البارسيين الذين من سورات وبومباى.

في منتصف السويقة تقريبا حيث يصل عرض الشارع إلى أربع خطوات فقط، توجد مقاعد حجرية على جانبى الشارع. فى هذا المكان يُعْرَضُ العبيد الإماء الحبشيات للبيع، ولما كان الجمال شكلا من أشكال الجاذبية الكونية، فقد كان الحجاج، الكبار والشبان منهم، يتحلقون بشكل دائم حول هذه المقاعد، ويتظاهرون بمساومة تجار العبيد، مستهدفين بذلك رؤية الإماء للحظات قليلة فى شقة مجاورة للمكان. كثير من هؤلاء العبيد والإماء ينقلون من مكة، إلى الأجزاء الشمالية من تركيا. كان ثمن أجمل جميلات الإماء يتردد بين مائة وعشرة دولارات، ومائة وعشرين دولارا.

فى نهاية السويقة نجد الشارع مغطى بسقف على شكل قبة من الحجر، مدعومة من الجانبين بالعديد من البنايات الضخمة، التى يستخدمها التجار الأثرياء مخازن لبضاعتهم، هذه البنايات كانت من أعمال شخص يدعى محمد، باشا دمشق، قبل قرون عدة، وهذه البنايات تتبع المسجد الحرام فى الوقت الراهن، ولما كانت هذه المنطقة هى مناطق مكة فى وقت الظهيرة، فقد نجد الحجاج الميسورين يقضون فترة الصباح وفترة المساء فيها، كما يدخنون فيها النرجيلات والشياش أيضا. تعرفت على واحد من باعة العطور وأصبح من بين معارفى، وكنت ساعة بالنهار وأخرى فى فترة العصر، جالسا على مصطبة أمام دكانه، وأنا أدخن النرجيلة، وأقدم له القهوة، فى هذه الجلسة كنت أستمع إلى الأخبار، حول وصول أى أحد من الحجاج الكبار العظام فى الليلة السابقة، كما كنت أستمع أيضا إلى أخبار آخر القضايا التى عرضت على القاضى، كما كنت أعرف أيضا أخبار ذلك الذى يدور فى جيش محمد على باشا، كما كانت تصلنى أيضا أخبار الصفقات التجارية التى أبرمت. فى بعض الأحيان كان يجرى مناقشة الأخبار الأوروبية التى من قبيل آخر الأخبار عن بونابرت وما حدث له، ذلك أن الحجاج الذين كانوا يصلون من إسطنبول واليونان كانوا يحملون معهم دوما أخبارا من أوروبا. كنت أقضى جزءا من الصباح الباكر، والقسم الأخير من المساء، فى التجوال فى مكة، والتردد على المقاهى الموجودة فى أطراف المدينة، على أمل التقاء البدو، وتحيتهم بكوب من القهوة، لأجعلهم يتحدثون بعد ذلك مباشرة عن بلدهم وعن أمتهم. فى ساعات الظهيرة كنت أمكث فى منزلى، وكنت أمضى القسم الأول من الليل فى الميدان الكبير

الموجود أمام المسجد الحرام، الذى يهب عليه نسيم بارد بصفة دائمة، كنت أجلس فى هذا الميدان على سجادة كان عبدى يفردها لى، وأروح أفكر فى أقاليم بعيدة، فى الوقت الذى يكون الحجاج فيه مشغولين بالصلاة والطواف حول الكعبة.

فى الطرف الشرقى من السويقة يتغير اسم الشارع إلى شارع الشامية، الذى ينطبق أيضا على العديد من الشوارع الفرعية على الجانبين، ونجد أن الشوارع الواقعة على الجانب الأيمن تفضى إلى الجبل، أما الشوارع الواقعة على الجانب الأيسر فتفضى إلى المسجد الحرام. عند نهاية شارع الشامية نجد الشارع يفتح على حى الشبيكة وباب العمرة . هذا الجزء من المدينة جيد البناء، ولا يسكنه سوى التجار الأثرياء، أو العلماء الذين تربطهم صلة بالمسجد الحرام. هناك قلة قليلة من الدكاكين فى الشارع الرئيسى، لكن فى موسم الحج يتزايد عدد هذه الدكاكين، التى يعرض فيها التجار السوريون منتجات بلادهم ومصنوعاتها وهذا هو السبب وراء تسمية الشارع باسم شارع الشامية. فى هذه الدكاكين تعرض المنسوجات الحريرية القادمة من دمشق وحلب، كما يباع أيضا قماش الكمبريس الذى يصنع فى حى نابلس ، وتباع أيضا فى هذه الدكاكين الخيوط الذهبية والفضية التى تأتى من حلب، كما تبيع هذه الدكاكين أيضا غتر البدو، التى يسمونها كوفية ، التى تصنع من خامات بغدادية ودمشقية، نجد أيضا فى هذه الدكاكين الحرير اللبنانى، والسجاد الفاخر الذى يأتى من الأناضول ومن البدو التركمان، وتبيع هذه الدكاكين أيضا العباءات التى تأتى من حماه، ونجد أيضا فى هذه الدكاكين الفواكه المجففة وقمر الدين الذى يأتى من دمشق، وتبيع هذه الدكاكين أيضا البستاسيوس الذى يأتى من حلب إلخ. من بين السوريين كلهم، الذين فى مكة، لم أكتشف مطلقا أنى لم أر أى أحد منهم أو أعرفه فى بلده، اللهم باستثناء ولد شيخ (رئيس) تدمر الذى لم يعرفنى، فقد جاء هذا الابن ومعه مائتى جمل أو ثلاثمائة جمل، لكى يقوم بنقل أمتعة باشا دمشق.

أثناء عودتى من حى الشامية فى اتجاه السويقة، أجد على الجانب الأيسر من هذه الشوارع حيا يطلقون عليه اسم قاراره، وهذا هو أشهر أحياء المدينة، وربما كان أفضلها من حيث البناء، وفيه يبنى التجار الأثرياء منازلهم. أول تاجرين من تجار الحجاز وهما: الجيلانى والسقاط ، يمضون فى هذا الحى القسم الأكبر من العام، ولا يذهبان إلى جدة (التى لهم فيها بعض المؤسسات والمنشآت) إلا إذا تطلب وصول الأسطول الهندى حضورهما إلى ذلك المكان. فى حى قاراره ، نجد أن نساء محمد على باشا، ومعهن حاشية من الطواشيَّة الذين يقومون على خدمتهن، يتخذن من حى القاره مكانا لسكناهن. مساكن القاراره كلها مكونة من طابقين أو ثلاثة طوابق، وكثير من تلك المنازل مدهونة بالألوان الغامقة، وفيها شقق فسيحة. بنى الشريف غالب لنفسه قصرا فى هذا المكان، وجاء هذا القصر أحلى وأبهى القصور التى بناها الشريف فى مكة، وكان يقيم فيه بصفة أساسية فى فصل الشتاء، وقسم الشريف غالب وقته بين هذا القصر والقصر الآخر القريب من المسجد الحرام. بعض الرؤساء العسكريين أقاموا لأنفسهم مساكن فى هذا الحى، الأمر الذى سيعجل بتخريبه وتدميره. هذه القصور تتميز عن منازل مكة الأخرى من حيث الحجم، وعدد النوافذ.

بالقرب من القصر، وفوق تل يمكن القول بأنه داخل البلد، قام الشريف غالب ببناء قلعة فيها أبراج قوية على جنباتها، لكنها أصغر من القلعة الرئيسية من حيث الحجم، وعندما تقدم الجيش التركى صوب الحجاز، قام الشريف غالب بتزويد هذه القلعة بالمدافع، كما مدها بالمؤن والتموينات، لكن حامية هذه القلعة الصغيرة شأنها شأن حامية القلعة الكبيرة سرعان ما تفرقت بعد أن جرى أسر الشريف غالب. التل المقام عليه هذه القلعة يتردد اسمه عند كثير من الشعراء العرب. مقابل هذا التل، وفى اتجاه الجنوب الشرقى، وفوق قمة جبل من الجبال يقع خلف حدود المدينة الخارجية، توجد قلعة صغيرة أخرى، كان الشريف غالب قد أصلحها ورممها. هذه القلعة يسمونها جبل هندى، وذلك تيمنًا باسم شيخ أو ولى من أولياء كشمير الذين دفنوا هنا. البرج

لا يسكنه حاليا سوى بعض الأسر الهندية القليلة . هذا الجبل يسميه الناس ، "جبل القيقعان"، هذه التسمية ربما كانت أقدم من مكة نفسها. المؤرخ الأزرقى، يضع جبل قيقعان فى اتجاه الشمال على مسافة بعيدة، ويقول : إن اسم الجبل مشتق من أصوات السلاح وصرخات الجيوش التابعة للجيش المكى، الذى كان متمركزا هنا عندما قام الجيش اليمنى بقيادة طوبا بالاستيلاء على كل الجياد. فيما بين تلال القلعتين، نجد المنطقة مليئة بالفقراء، والمنازل شبه المدمرة، والتى لا تسكنها سوى الطبقات الدنيا من الهنود المقيمين فى مكة.

عندما نتحول شرقا من قاراره، ونتجاوز الحى المسمى ركوبه، نجده يتساوى من حيث البناء مع قاراره مدعة ، التى تعد استمرارا لحى المسعى، ثم نوجه خطانا بعد ذلك عبر حى المسعى لنصل إلى المنطقة المجاورة للصفا، كيما نقوم بمسح للأحياء الشرقية من المدينة.

بالقرب من الصفا يتفرع شارع واسع يمتد موازيا لمدعة ، إلى الشرق منها، ويسميه الناس القشاشية. هنا من بين المبانى الصغيرة الكثيرة، مساكن متعددة جيدة البناء، وبعض البنايات العالية، كما نشاهد أيضا عددا من المقاهى، وبعض محلات صناع البنادق ومصلحوها، كما نشاهد حماما أيضا. هنا فى القشاشية يسكن الحاكم. أو إن شئت فقل المشرف العام على شئون السلطة، الذى هو الضابط الأول بعد شريف مكة مباشرة. جزء من الشارع مبنى على المنحنى المنخفض من الجانب الشرقى من الجبل، الذى يسمونه جبل قبيص، الذى تؤدى إليه بعض الحارات المنحدرة القذرة الضيقة التى فى هذا الجانب. القشاشية من الأحياء التى يفضلها الحجاج، نظرا لاتساع هذا الشارع، وتهويته الجيدة، وتعرضه لهبوب الرياح الشمالية. قضيت الأيام الأخيرة من شهر رمضان فى هذا المكان، وكان ذلك فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٤ الميلادى، عندما وصلت مكة أول مرة قادما إليها من الطائف.

شارع القشاشية هذا، على امتداده كله، يطلق الناس عليه حارة سوق الليل ، التى تضم حيا متراميا فى الناحية الشرقية، يجرى فيه الاحتفال بمولد النبى ، كما يجاور حى سوق الليل هذا المعاملة أو إن شئت فقل: مؤسسة الخزافين أو صناع الأوانى الفخارية. الشوارع الجانبية القريبة من شارع المولد يسميها الناس شعب المولد، أو صخور المولد، لأن الأرض المرتفعة هنا تغطيها الصخور.

تقع المعاملة على جانب جبل قبيص، وهى تضم حوالى اثنى عشر فرنا، إنتاجها الرئيسى كله عبارة عن جرار، وبخاصة تلك الجرار التى تستخدم فى نقل ماء زمزم، هذه الجرار الفخارية على الرغم من سحبها سحبا جيدا فإنها ثقيلة جدا، ولذلك فهى من هذه الناحية أثقل من فخار الصعيد الجميل وكذلك فخار بغداد، وهذان النوعان من الفخار يبلغان من الخفة حدا يمكن معه لأية نسمة من نسمات الهواء الخفيفة أن تلقى الجرة أرضا. المعاملة وحدها هى التى تمد الحجاز كله فى الوقت الراهن بكل أوانى الماء هذه ، يضاف إلى ذلك أن قلة قليلة من الحجاج هم الذين يعودون إلى أوطانهم وليس معهم جرار مليئة بماء زمزم، وكعينة من عينات العبقرية المكية.

هناك منطقة بعيدة عن سوق الليل يسمونها الغزة ، وهذا الاسم يطلق على جانبى الشارع الرئيسى، الذى يشكل فى هذه المنطقة استمرارا للقشاشية. هذا الشارع فيه آبار متعددة مالحة الماء، فى هذا الشارع توجد أيضا دكاكين النجارين، والمنجدين الذين يجيئون من تركيا، وكذلك الحانوتية أو مجهزى دفن الموتى، الذين يصنعون السرر والطاولات التى ينام عليها المكيون، وكذلك النقوش التى يحملون فيها إلى القبور، ونجد فى هذا المكان أيضا تجار الجملة فى الفاكهة والخضراوات التى تجلب من الطائف ومن وادى فاطمة. هؤلاء التجار يعرضون بضاعتهم هنا أمام تجار التجزئة فى ساعة مبكرة من ساعات الصباح ، فى الطرف الشمالى من شارع الغزة حيث يتسع الشارع اتساعًا كبيرا، ينعقد كل يوم سوق الإبل والأبقار، وعلى الجانب الشرقى فى اتجاه الجبل، وفوق منحناه إلى حد ما، نجد الشارع الذى يسمونه

شعب على، الذى يجاور شعب المولد، فى هذا الشعب نجد مسقط رأس (سيدنا) على. هذان الحيان أو الشارعان يطلق عليهما شعب (صنجر)، وهما من بين أهم الأجزاء القديمة في المدينة، التى كان القرشيون يعيشون فيها من قبل، هذان المكانان لا يسكنهما بصفة أساسية سوى الأشراف، وليس فيهما دكاكين. ومنازل هذين الحيين واسعة، وجيدة التهوية.

تنتهى المنازل السكنية خلف سوق الماشية فى الغزة ، ونجد أن الدكاكين المنخفضة هى والحظائر تحتل جانبى الشارع. هذا الجزء يسميه الناس سوق الحدادين ، فى هذه المنطقة يفتح السباكون والحدادون الأتراك دكاكينهم، بعد ذلك بمسافة قصيرة، نجد الشارع يتصل بما يسميه الناس هنا المعاله، التى هى نفسها استمرار المدعة ، ويشكل الشارع هنا حاجزا بين الأجزاء الشرقية والأجزاء الغربية من مكة، ممتدا بذلك فى اتجاه الشمال بطول المطلع الهين الخفيف للوادى. ومدعة هى والمعالة (التى معناها المكان المرتفع، وذلك على النقيض من المسفلة، أو الحى المنخفض)، عامرتان بالدكاكين على الجانبين. هنا نشاهد البقالين، وبائعى العقاقير، وتجار الغلال، وبائعى التبغ، والخردجى(*) ، والغرازين(**)، وعدد كبير من تجار الجملة فى الملابس المستعملة. يوجد فى المدعة مخزن كبير للقمح، كان مدرسة عامة من قبل، وهناك مخزن آخر فى المعالة. من المدعة والمعالة تبدأ قوافل المؤن والتموينات الخاصة بالجيش التركى فى الطائف، وتنعقد المزادات العامة فى هذا المكان صباح كل يوم. يوجد فى نهاية المعالة من ناحية الشمال سوق يجلب البدو إليه من سائر الأنحاء أغنامهم للبيع. فى هذا المكان أيضا توجد دكاكين القصابين التى تباع فيها لحوم

(*) الخردجى : هو بائع السلع الصغيرة كالأرز مثلا . (المترجم)

(**) الغراز : هو الإسكافى أو مصلح الأحذية . (المترجم).

البقر، والضأن، والإبل، وفى الشارع نفسه يوجد مصلى صغير، أو بالأحرى مسجد(*)، يؤدى الناس فيه الصلوات اليومية، نظرا لأن المساحة من هنا إلى المسجد الحرام تعد طويلة جدا، لكن صلاة الجمعة تؤدى دائما فى المسجد الحرام. فى أواخر هذا الطرف الشمالى من المعالة، وبالتحديد فى منطقة التقائها مع سوق Souk الحدادين، تنتهى المنازل المبنية من الحجر، ويتلوها صف واحد من الدكاكين المنخفضة والطاولات المنخفضة على كل جانب من جانبى الشارع، هذه الدكاكين والطاولات المنخفضة تبيع للبدو الشرقيين المؤن والتموينات، هؤلاء البدو يأتون إلى مكة طلبا لشراء الحبوب. هنا أيضا فى هذا المكان مقهى يقولون له قهوة الحشاشين، التى تباع فيها مستحضرات الحشيش، والبنج، التى يجرى خلطها وتدخينها مع التبغ. هذا المقهى يرتاده رعاع المدينة ووضعائها على اختلاف أنواعهم، وقد فرض الشريف غالب ضريبة ثقيلة على بيع الحشيش، وذلك من باب إلغاء عمل يعد انتهاكا للشرع.

يعرف الناس" المعالة "أيضا باسم حارة النقا، وهذا الاسم مشتق من الاسم القديم وادى النقا، الذى أطلق على هذا الجزء من وادى مكة.

يبنى التجار الهنود الأثرياء منازلهم فى شوارع المدعة الفرعية، وهم يستقبلون زبائنهم فى هذا المكان، من باب التباهى بافتتاحهم الدكاكين عامة أو المخازن. من بين سكان هذا الشارع أو الحى، هناك رجل هندى يدعى الشمسى، وهو من سورات، ويعد أغنى أغنياء الحجاز، ومع ذلك كانت بضاعة هذا الرجل وشركاته التجارية أقل بكثير من بضاعة الجيلانى وشركاته. هذا الرجل، على الرغم من امتلاكه لمئات الآلاف من الجنيهات الإنجليزية، راح يساومنى أنا شخصيا، قرابة الساعة ونصف الساعة حول سعر شال موسلينى لا يساوى أكثر من أربعة دولارات!

(*) أعتقد أن هذا هو المسجد الذى ورد ذكره عند المؤرخين على أنه مسجد - رايت. يتكلم الأزرقى عن أربعة مساجد أو خمسة أخرى فى مكة فى ذلك الزمان.

فى المدعة نجد سدا عاليا وعريضا جرى بناؤه عبر الوادى، وله بوابة من الحديد، ويقال إن الذى بنى هذا السد هو (سيدنا) عمر بن الخطاب لمقاومة السيول التى تنساب من هذا الاتجاه صوب المسجد الحرام أثناء سقوط الأمطار الغزيرة. وقد بقيت بعض أنقاض هذا السد إلى القرن الرابع عشر. الحجاج عندما يصلون إلى مكة يتمتعون بمنظر الكعبة من فوق قمة ذلك السد، كان الحجاج يدعون من فوق قمة ذلك السد بدعاء معين، ومن هذا العمل أخذ الشارع اسمه، ذلك أن الاسم "مدعة" معناه "مكان الدعاء".

فيما بين مدعة ومعالة، من جانب، والغزة والقشاشية من جانب آخر توجد أحياء أو شوارع متعددة تضم بنايات سيئة، ولكن الشوارع شديدة الضيق وشديدة القذارة فى هذه المنطقة، التى لا يجرى إزالة النفايات منها مطلقا، ولا يدخلها الهواء الطلق أبدا. هنا وجدنا الزقاق الصينى ، أو إن شئت فقل: "الشارع الصينى"، الذى يفتح فيه صناع الذهب والفضة دكاكينهم. أعمالهم شديدة البدائية وخالية من الذوق، لكن منتجاتهم تستخدم على نطاق كبير، وبخاصة فى عمل الخواتم الفضية التى يلبسها الرجال والنساء ، وتلك زينات يشيع استعمالها بين العرب. إلى اليمين من هذا الحى يوجد ما يسمى بزقاق الحجر (ويسمونه أيضا زقاق المرفق)، أو إن شئت فقل: " شارع الحجر"، وهو يضم مسقط رأس (ستنا) فاطمة - رضى الله عنها- ابنة (نبينا) محمد ﷺ ، ومسقط رأس أبى بكر ﷺ أحد الخلفاء. هذا الشارع يشتق اسمه من كلمة "حجر" الذى اعتاد أن يحييه محمدﷺ بتحية الإسلام "السلام عليك" عندما كان يمر ﷺ من هذا المكان عائدا من الكعبة. هذا الحجر ظل صامتا منذ أيام النبى ﷺ ، لكنه مازال موجودا إلى يومنا هذا، وهو يبرز قليلا من جدار المنزل، الذى جرى طلاؤه باللون الأبيض من باب التكريم.

نتحول الآن ناحية المعالة، وعلى بعد مسافة قليلة، عند نقطة التقاء المعالة بالغزة، هنا تنتهى الدكاكين ويبدأ سهل واسع رملى، لا يوجد فيه سوى بعض المقاهى المتباعدة عن بعضها البعض يمكن القول إن هذه هى نهاية المدينة. أما ذلك الذى يقع على بعد

مسافة كبيرة فى اتجاه الشمال، فلابد من إدخاله ضمن الضواحى. وإذا ما واصلنا السير فى السهل، نشاهد بركا كبيرة على جانبى الطريق، هذه البرك عبارة عن خزانات أو مستودعات للماء المطلوب لإعاشة الحجاج، وبالذات حجاج القوافل، هذه الخزانات يمكن تزويدها بالماء عن طريق المجرى المائى، أو إن شئت فقل: القناة التى تمر من هذا الطريق متجهة إلى المدينة. من بين هذه البرك، هناك بركة خاصة بالقافلة المصرية، وبركة خاصة بالقافلة السورية، وقد جرى بناء هذه البرك فى العام ٨٢١ الهجرى، وهى كلها مبطنة بالحجر، وتجرى صيانتها بصورة مستمرة. هناك آثار مماثلة من آثار السلاطين الأتراك العظام، فى كل محطة من محطات القوافل فى طريق الحج، بدءا من المدينة المنورة ووصولا إلى كل من دمشق وحلب. بعض هذه الآثار التى شاهدتها فى جنوبى دمشق، كانت تبدو متينة من الناحية الإنشائية، وذلك على العكس من برك مكة. البركة المخصصة للحجاج المصريين تصل مساحتها إلى ما يقرب من مائة وستين قدما مربعا، وعمقها يتردد بين ثلاثين قدما وخمسة وثلاثين قدما، هذه البركة عندما يتردد ارتفاع الماء فيها بين ثمانية أقدام وعشرة أقدام تصبح كافية لاستهلاك القافلة. هذه البرك والمستودعات يستحيل أن تمتلئ عن آخرها بالماء. سبب ذلك أن المجرى المائى يزود البركة بالماء بين الحين والآخر، يزاد على ذلك أن هناك بعض الأفدنة بجوار منطقة البركة، ويجرى ريها من بئر من الآبار، وهذه الأرض تنتج الخضراوات. بالقرب من البركة أيضا، يوجد مسجد صغير يسمونه جامع السليمانية ، وهو آيل للسقوط والتحلل، ولا يستخدم فى أداء الصلاة، ولكنه يستخدم حاليا مسكنا لقلة قليلة من الجنود الأتراك. هذا الجامع يتبع الحى الذى يسمونه السليمانية، الذى يمتد من لالا القريب من الجبل الغربى، إلى أن يصل إلى الجبانات الموجودة خلف البرك. حى السليمانية هذا لا يحتوى على منازل جيدة، وقد بلغنى أن هذا الحى يشتق اسمه من كلمة "السليمانية" التى يطلقها المسلمون على أهل قندهار، وأفغانستان، وكشمير، وبلاد أخرى متعددة على هذا الجانب من شبه القارة الهندية. يقال إن بعض أحفاد هؤلاء الناس، الذين كانوا أول من استوطنوا هذا الجزء من مكة، لا يزالون يسكنون هذه المنطقة مختلطين بكثير من الهنود. ومع ذلك،

يكشف تاريخ قطب الدين أن السلطان سليمان أنشأ فى العام ٩٨٠ الهجرى مسجدا فى هذا الحى، والمفترض أن يأخذ المسجد اسمه من اسم منشئه أو مؤسسه. سكان السليمانية مسلمون من أتباع المذهب الحنفى أول المذاهب الأربعة، وليسوا أتباعا لعلى ﷺ مثل الفرس، الذين يأتى الكثيرون منهم لأداء فريضة الحج فى مكة، إما عن طريق البحر قادمين من بومباى أو باسورة، أو عن طريق البر متنقلين على شكل دراويش، على طول المقاطعات الفارسية الجنوبية قاصدين بغداد، ثم يعبرون كلا من بلاد الرافدين وسوريا وصولا إلى مصر. وأنا شاهدت ورأيت الكثيرين الذين جاءوا من هذا الطريق، وقد رأيت فيهم أناسا ذوى شخصيات قوية مفعمة بالحيوية عن بقية الهنود.

مقابل حى السليمانية وعلى الجبل الشرقى، وبجوار كل من الغزة وشعب على، يوجد حى شبه مهدم، يسمونه شعب عامر ، يسكنه الباعة الجائلون من البدو من كل من ثقيف وقريش، كما تسكنه أيضا بعض الأسر الشريفية الفقيرة. توجد فى هذا الحى أو الشارع مجموعة من الطواحين التى تعمل باستعمال الخيول، لحساب الوالى التركى. المدينة، على حد تقديرى، ليس فيها طواحين أخرى أكبر من هذه الطواحين. جرت العادة أن يستعمل الناس فيها الطواحين (الرحى) اليدوية، التى عادة ما يقوم بتشغيلها عبيد الأسرة، أو قد تقوم النساء فى الأسر الفقيرة بتشغيلها هنا أيضا، وليس فى أى مكان آخر من مكة. توجد الأماكن التى تجرى فيها صناعة الأقمشة الكتانية والقطنية المصبوغة باللون الأزرق واللون الأصفر، أما الأقمشة الصوفية فلا تجرى صباغتها فى هذا المكان.

ولما كانت أعداد من النساء الشعبيات يسكن هنا فى شعب عامر، فإن هذا الحى لا يندرج ضمن الأحياء المحترمة فى مكة. فرض الشريف غالب ضريبة منتظمة على تلك النساء، كما طالب كل واحدة منهن بدفع مبالغ إضافية، لأنهن فى موسم الحج كن يتبعن الحجاج إلى جبل عرفات. هناك ضريبة مماثلة مفروضة فى القاهرة، بل وعلى المدن والبلدان الإقليمية كلها فى مصر. ومكة تعج براغبى الانقياد نحو الجنس، والمعروف أن ذلك يتزايد فى موسم الحج عن طريق المغامرات اللاتى يأتين من بلاد

أجنبية. عضوات هذه الإخوانيات أكثر زينة من النساء الشعبيات فى مصر، ولا تظهرن فى الشارع بلا حجاب، من بين عضوات تلك الإخوانيات أعداد كبيرة من الحبشيات الإماء، اللاتى يشارك أسيادهن السابقون فى الأرباح التى تحققها هذه الإماء من هذه المهنة، بعض هذه العضوات الإماء مملوكات لبعض المكيين.

شعراء الجزيرة العربية يشيرون فى كثير من الأحيان إلى شعب عامر، وهذا هو ابن الفارض يقول:

هل شعب عامر، ما يزال مأهولا منذ أن غادرناه؟

وهل ما يزال إلى يومنا هذا مكانا للقاء العشاق؟(*)

إذا ما تحركنا من حى البرك شمالا عبر السهل، نصل إلى منزل منعزل كبير الحجم والإنشاء، مملوك للشريف وكان يسكنه بعض أهل الحظوة عند الشريف غالب ذات يوم. مقابل هذا المنزل يوجد طريق معبد يؤدى إلى التلال الغربية، التى فيها فتحة تبدو كأنها اصطناعية. الأزرقى يسمى هذا الجزء باسم جبل الحزنة ، ويقول إن الطريق جرى شقه خلال الصخور بواسطة يحيى بن خلد بعد برمك ، على الجانب الآخر من الفتحة، ينزل الطريق إلى سهل الشيخ محمود، الذى سمى بذلك الاسم نظرا لوجود قبر أحد الأولياء، الذى يخيم حوله الحجاج السوريون. وقد أقام الشريف غالب على التل، أو بالأحرى على جانبى الطريق الضيق الذى جرى شقه على شكل درج السلم، (سواء أكان طبيعيا أم اصطناعيا، هذا أمر لا يمكن البت فيه). أنشأ برجين من أبراج المراقبة، شبيهين بتلك الأبراج والتى سبق أن أتينا على وصفها. على جانبى هذا الطريق المعبد، وفى وادى مكة، توجد المدافن والجبانات التى فيها مقابر السواد الأعظم من سكان مدينة مكة.

(*) راجع تعليق السير وليام جونز، على قصيدة من قصائد ابن الفارض العامرة بكثير من الإشارات إلى مكة.

بعد مسافة قصيرة من منزل الشريف سالف الذكر، وعند نهاية حى المعالة، نجد قبر أبى طالب، أحد أعمام محمد ﷺ ، ووالد على ﵁. قام الوهابيون بدك المبنى الذى كان يغطى القبر وحولوه إلى كومة من الركام، ولم يفكر محمد على باشا فى إعادة بناء هذا المبنى. أبو طالب هو الراعى الأكبر للمدينة، وهناك أشخاص كثيرون فى مكة، يخشون الحنث فى اليمين الذى أقسموه أمام الله ولا يودون إقحام اسم أبى طالب فى تأكيد حلف كاذب أو زائف. والقسم الذى من قبيل: "أقسم بالمسجد الحرام" ، " أقسم بالكعبة"، هى أيمان يلجأ إليها المكيون بصورة دائمة لتوليد انطباعات معينة لدى الغرباء، لكن القسم بأبى طالب يعد قسما خطيرا، ويندر سماعه فى المناسبات التى من هذا القبيل. مقابل هذا القبر المهدم يوجد سبيل عام، عبارة عن غدير مبنى من الحجر طوله حوالى خمسين قدما أو ستين ، يجرى يوميا ملؤه من المجرى المائى، وبالقرب من هذا السبيل تنمو مجموعة صغيرة من الأشجار.

أنا لم أشاهد مبانى خلف السبيل، إلى أن وصلت إلى قصر كبير من قصور الشريف، تحيط به أسوار عالية تتخللها أبراج للمراقبة، ويشتمل القصر فى داخل المسور على فناء فسيح. هذا القصر كانت له حامية كبيرة فى زمن الشريف غالب، وأثناء حروبه مع الوهابيين كان يقيم فى هذا القصر، إذ بوسعه القيام من هذا المكان بهجمات سرية دون أن تعلم المدينة أى شىء عن ذلك. هذا المبنى يستخدم حاليا ثكنة للجنود الأتراك.

شمالى هذا القصر يقع حى أو ضاحية المعابدة، التى تتكون فى بعض أجزائها من منازل منخفضة سيئة البناء مبنية من الحجر، والجزء الآخر عبارة عن أكواخ أنشأها أصحابها من خشب أشجار الأراك، هذا الحى كله لا يسكنه سوى البدو، الذين تحولوا إلى سكان مستقرين فى هذا المكان، وهم الذين يقومون بخدمات النقل، وبخاصة القمح والتمر والشاى، فيما بين مكة والقبائل المحلية. لقد رأيت بين هؤلاء البدو عربا من قبل قريش، وثقيف، وهذيل، وعتيبة، وقد قيل إن أقرارا من القبائل الكبيرة فى الصحراء، ومن نجد يوجدون بين الحين والآخر فى هذا المكان. هؤلاء البدو

يعيشون كما سبق أن لاحظت عندما كنت أتحدث عن أولئك الذين يحتلون جزءا آخر من مكة، معيشتهم كما لو كانوا في الصحراء. منازل هؤلاء البدو ليس فيها من الأثاث سوى ذلك الذي يمكن أن نشاهده داخل خيام الأثرياء من البدو. هؤلاء البدو، نظرا لوجودهم على بعد مسافة كبيرة من المسجد الحرام، قاموا بتسوير قطعة أرض مربعة الشكل بأسوار منخفضة، ليؤدوا صلاتهم فيها على الرمل كما هى طبيعة أهل الصحراء. معروف أن البدو يتظاهرون بالمداومة على الصلاة (مع أن ذلك أمر نادر الحدوث بينهم).

توصل والى مكة التركى إلى عدم صلاحية وضع أية قوات أو جنود من جنوده فى هذا الجزء من المدينة، والحى مدين للوالى بهذه المسألة. والمعابدة، بحكم موقعها واهتمامات ساكنيها، المنفصلين انفصالا كبيرا عن المدينة، إلى حد أن أية امرأة من نساء هذا الحى لم تقم بزيارة المدينة على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة، وذلك من واقع كلام واحدة من النساء، وذلك على الرغم من أن نساء البدو يتجولن بحرية فى سائر أنحاء الوادى.

وادى مكة له مخرجان: مخرج على الجانب الشمالى وهو عبارة عن ممر ضيق، يحميه برجان من أبراج المراقبة، هذا المخرج يؤدى إلى وادى فاطمة. فى الناحية الشرقية ينتهى وادى المعابدة بحديقة ومنزل من منازل الشريف غالب، الذى يمضى فيه ساعات الظهيرة . الحديقة مسورة بأسوار عالية، وأبراج عالية، وتشكل موقعا حصينا أمام المدينة. هذه الحديقة تحتوى على نخيل وأشجار النبق، والقليل من أشجار الفاكهة التى تعطى خضرة وفيرة وظلا ظليلا. فى زمن الشريف غالب، كان المدخل مفتوحا دوما أمام أهل مكة، المنزل مبنى بطريقة سيئة، لقد تمكن الوهابيون من الاستيلاء على هذا المنزل عقب حرب خاضوها ضد قوات الشريف غالب، الذين كانوا يتمركزون فى القصر المجاور أو إن شئت فقل: الثكنة التى فى الناحية اليمنى، والذين بثوا لغما وفجروه لنسف جزء من الأسوار، الأمر الذى اضطر الوهابيين وأجبرهم على التراجع. قام الشريف غالب بعد ذلك بإصلاح التلف. بعض الجنود الأتراك يعيشون حاليا فى

ذلك المنزل، بعد أن خربوا نصفه بأيديهم. فى جانب من جوانب الحديقة يوجد سبيل من أسبلة الماء العذب، هذا السبيل لم يعد يستعمل بعد، وعليه قبة جميلة من فوقه. على الجانب الآخر من الحديقة هناك بئر كبيرة مالحة الماء، وتنتشر فى المعابدة آبار كثيرة من هذا القبيل.

الطريق من مكة والمتجه شرقا ناحية عرفات والطائف يمر على هذا المنزل، على بعد مسافة قصيرة خلف هذا المنزل يبدأ الوادى فى الاتساع، وفى هذا المكان نجد الحج المصرى يقيم مخيمه، وجزء من هذا المخيم يمتد عبر السهل فى اتجاه البركة. فى الماضى، درجت قافلة الحج السورية على التخييم فى هذا المكان. فيما بين المنزل والحديقة والقصر، أو بالأحرى الثكنة العسكرية سالفة الذكر نجد أن مجرى مكة المائى يظهر فوق سطح الأرض إلى مسافة مائة خطوة، فى قناة من الحجر، مبطنة من الداخل، وترتفع حوالى أربعة أقدام فوق السطح، وهذا هو المكان الوحيد فى مكة الذى يظهر فيه مجرى مكة المائى فوق سطح الأرض.

بعد تجاوزنا لهذه الأطراف الخارجية لمدينة مكة، نجد الصحراء أمامنا، الشوارع المؤدية إلى المدينة ليس فيها حدائق أو أشجار، أو استراحات، ومدينة مكة محاطة من جميع الجوانب بوديان رملية قاحلة وجرداء، وتلال جرداء أيضا. الغريب الذى يوجد على الطريق الكبير المؤدى إلى الطائف، وعند منعطف التل، القريب جدا من استراحة الشريف، سرعان ما يحسب نفسه بعيدا عن المجتمع البشرى كما لو كان فى وسط الصحراء النوبية، لكن هذا كله يمكن أن يعزى إلى فتور السكان وعدم مبالاتهم، وعدم اهتمامهم أيضا بالمسائل الزراعية. انتشار العديد من الآبار فى سائر أنحاء المدينة يثبت أن الماء يمكن جلبه بسهولة من أعماق تصل إلى ثلاثين قدما تحت سطح الأرض.

فى الجزيرة العربية، وحيثما توفر الماء لرى الأرض نجد الرمال تتحول إلى حقول منتجة ، هذا يعنى أن الجهد الذى يمكن أن يبذل خلال سنوات قلائل يمكن أن يحول مكة والمناطق المحيطة بها إلى مكان شهير بالحدائق والمزارع، وذلك على العكس من

الجدب والقحولة التى هى عليها الآن. الأزرقى المؤرخ يتحدث عن حدائق فى هذا الوادى، كما يصف الرجل عيونا مائية عدة، وآبارا لم يعد لها وجود، وربما تكون السيول هى التى ردمت تلك الآبار والعيون. الفاسى هو الآخر يؤكد أن المدينة فى أيامه كانت تحتوى على مالا يقل عن ثمانية وخمسين بئرا. لكن فى المراحل المبكرة من تاريخ الجزيرة العربية، نجد أن هذا المكان كان قاحلا تماما، والقرآن يؤكد هذا الوصف عندما يقول: "واد غير ذى زرع" يقول الأزرقى أيضا إنه قبل إنشاء المنازل هنا بواسطة القوصاى ، كان الوادى عامرا بأشجار السنط ومختلف الأشجار الشوكية.

لا شيء أشق وأصعب من مسألة إحصاء سكان مدينة من مدن الشرق إحصاء دقيقا، نظرا لأن هذه المدن لا تملك سجلات، هذا فى الوقت الذى لا يمكن فيه التأكد من عدد المنازل. الحكم بالمظهر، وعن طريق المقارنة مع المدن والبلدان الأوروبية، التى تعرف فيها أعداد السكان معرفة دقيقة، قد يكون من باب الخيال. المنازل الخاصة فى الشرق (مع استثناء الحجاز من هذه القاعدة) كلها تتكون من طابق واحد، ومن ثم فهى تشتمل على عدد قليل من الساكنين، وذلك على العكس من المساكن الأوروبية. من ناحية أخرى، نجد أن شوارع المدن الشرقية ضيقة جدا، وليس فيها ميادين أو أسواق كبيرة، إضافة إلى أن ضواحى هذه المدن تعد أماكن شديدة البؤس ومع ذلك فيها من السكان أعداد أكبر من المدن نفسها، وبخاصة الشوارع الرئيسنية والمفضلة. والرحالة عندما يمرون مرورا سريعا عبر هذه المدن، قد ينخدعوا، لأنهم لا يرون أو يشاهدون سوى الأسواق وبعض الشوارع التى يتجمع فيها العدد الأكبر من السكان الذكور أثناء النهار. من هنا يتصادف أن تعلن السلطات الحديثة المحترمة أن عدد سكان حلب يقدر بحوالى مائتين وخمسين ألف نسمة، وأن عدد سكان دمشق، يقدر بحوالى أربعمائة ألف نسمة، وأن سكان القاهرة يقدرون بحوالى ثلاثمائة ألف نسمة. وأنا أقدر سكان المدن السورية الثلاث على النحو التالى: دمشق، مائتين وخمسين ألف نسمة، حماه (التى يجب أن أتحدث عنها بحرص بالغ) من ستين ألف نسمة إلى مائة ألف نسمة، وحلب، الآخذة فى التدهور والتحلل بصورة يومية، أقدر عدد سكانها بما يتردد بين

ثمانين ألف نسمة وتسعين ألف نسمة. وأقدر سكان القاهرة بما لا يزيد على مائتى ألف نسمة. أما مكة التى شاهدتها قبل الحج وبعده، وأعرفها معرفة جيدة خلافًا لسائر مدن الشرق كلها، فإن نتائج أبحاثى وتدقيقى تجعلنى أقدر عدد سكانها بما يتردد بين خمسة وعشرين ألف نسمة وثلاثين ألف نسمة للسكان المقيمين فى كل أحياء المدينة وضواحيها ، هذا بالإضافة إلى ما يتراوح بين ثلاثة آلاف حبشى وعبد أسود إلى أربعة آلاف ، ومساكن مكة كافية لاستيعاب ضعف هذا العدد ثلاث مرات. فى زمن السلطان سليم الأول (وذلك نقلا عن قطب الدين فى العام ٩٢٣ الهجرى) جرى عمل إحصاء للسكان فى مكة، وذلك قبل توزيع منحة من القمح عليهم، ووجدوا أن عدد السكان حوالى اثنى عشر ألف نسمة، رجالا، ونساء، وأطفالا. قطب الدين يوضح أيضا أن عدد السكان فى الأزمان المبكرة كان أكبر من ذلك بكثير، والسبب فى ذلك أن أبو ظاهر ، زعيم القرامطة (مذهب مهرطق من المذاهب الإسلامية) عندما هاجم مكة وسلبها فى العام ٣١٤ الهجرى جرى قتل ثلاثين ألفا من سكان المدينة على أيدى جنوده المتوحشين الطغاة.

وصف بيت الله فى مكة

يقع المسجد الحرام فى ذلك الجزء من الوادى الذى يتسع على نحو أكبر من سائر أنحاء الوادى الداخلية فى مدينة مكة، هذا المسجد الحرام يسميه الناس أيضا بيت الله أو الحرم، الذى هو مبنى شهير فقط بسبب الكعبة الموجودة داخله، مع أن هناك مساجد أخرى متعددة فى أماكن أخرى تتساوى مع بيت الله فقط من ناحية الحجم، وتفوقه من حيث الجمال.

تقع الكعبة فى ميدان بيضاوى الشكل، طوله حوالى مائتين وخمسين خطوة وعرضه حوالى مائتى خطوة، وأضلاعه ليس فيه ضلع واحد مستقيم، على الرغم من أن الموقع يبدو للوهلة الأولى وكأنه شكل منتظم. هذا الميدان المكشوف محاط من الجانب الشرقى ببهو من الأعمدة: الأعمدة الحاملة فيها تقف على شكل صف من مجموعات رباعية، هذا الصف من الأعمدة الحاملة مكون على الجانب الآخر من مجموعات ثلاثية،

وترتبط تلك الأعمدة الحاملة ببعضها البعض عن طريق عقود بارزة، يحمل كل أربعة منها قبة صغيرة، مكسوة ومدهونة باللون الأبيض من الخارج. هذه القباب، فى رأى قطب الدين، يصل عددها إلى مائة واثنين وخمسين قبة. على امتداد بهو الأعمدة، من الجوانب الأربعة تتدلى المصابيح من العقود. بعض هذه المصابيح يضاء يوميا أثناء الليل، أما المصابيح كلها فلا تضاء إلا فى ليالى رمضان. الأعمدة الحاملة يزيد ارتفاع الواحد فيها على عشرين قدما، يتراوح قطر الواحد منها بين قدم ونصف القدم ، وقدم وثلاثة أربا ع القدم، لكن مسألة الانتظام بين هذه الأعمدة لم تؤخذ تماما بعين الاعتبار. بعض هذه الأعمدة من الرخام الأبيض، أو الجرانيت أو من أحجار أخرى، لكن السواد الأعظم من هذه الاعمدة مصنوع من الأحجار المعتادة التى فى جبال مكة. يقول الفاسى إن عدد هذه الأعمدة يقدر بخمسمائة وتسعة وثمانين عمودا، ويقول: إن كل هذه الأعمدة من الرخام فيما عدا مائة وستة وعشرين عمودا، هى المصنوعة من الحجر الشائع فى مكة، وثلاثة أعمدة فقط عبارة عن تركيب. يقول قطب الدين إن عدد الأعمدة هو خمسمائة وخمسة وخمسين عمودا، منها على حد قوله، ثلاثمائة وأحد عشر عمودا من الرخام، وبقية الأعمدة من الحجر الذى يجرى جلبه من الجبال المجاورة لجدة، لكن أيا من هؤلاء المؤلفين لم يمتد به العمر ليرى الإصلاحات التى طرأت على المسجد، بعد الدمار الذى أصابه بسبب سيل من السيول الجارفة فى العام الميلادى ١٦٢٦ ، فيما بين كل ثلاثة أعمدة أو أربعة يوجد عمود مثمن (ذو ثمان زوايا) يصل سمكه إلى حوالى أربعة أقدام. وعلى الجانب الشرقى يوجد عمودان صغيران من الجرانيت الذى يميل لونه إلى الاحمرار، على شكل قطعة واحدة، وعمود آخر فيه قراميد من الحجر الأبيض. وعلى الجانب الأيسر يوجد عمود واحد من الجرانيت الأحمر وعمود آخر من حجر فيه بعض الحبيبات الحمراء، هذه الأعمدة ربما تكون الأعمدة التى يقول قطب الدين عنها، إنها جرى جلبها من مصر وبالذات من منطقة أخميم ، عندما قام الرئيس المهدى بتوسيع الحرم فى العام ١٦٣ الهجرى. من بين الأربعمائة وخمسين عمودا، والخمسمائة عمود، التى تشكل المسور بكامله، لم أجد عرفين متماثلين من أعراف هذه الأعمدة أو قاعدتين متماثلتين من قواعد هذه الأعمدة: أعراف، أو إن شئت

فقل: رءوس الأعمدة كلها من الطراز الإسلامى الجاف، بعض هذه الأعمدة التى خدمت واستعملت فى مبانى سابقة، تسبب جهل العمال فى تركيب هـذه الأعمدة مقلوبة رأسا على عقب. لاحظت حوالى سته قواعد رخامية جرى تركيبها بمصنعية يونانية جيدة. قلة قليلة من الأعمدة هى المزينة بنقوش عربية أو كوفية، قرأت بها التاريخ الموافق للعام ٨٦٣ الهجرى، والعام ٧٦٢ الهجرى أيضا. وهذا عمود على الجانب الشرقى يحمل نصا كوفيا قديما، غير واضح إلى حد ما، ولم أستطع قراءة هذا النص أو تدوينه. الأعمدة المصنوعة من الأحجار المكية الشائعة، التى جرى قطعها بصفة أساسية من جانب الجبل القريب من حى الشبيكة، مكونة من ثلاث قطع، لكن الأعمدة الرخامية مكونة من قطعة واحدة. بعض الأعمدة جرت تقويتها بحلقات حديدية، أو أحزمة حديدية، كما هو الحال فى المبانى الإسلامية الأخرى فى سائر أنحاء الشرق. هذه الحلقات أو الأحزمة الحديدية استعملت هنا لأول مرة بواسطة الظاهر برقوق ملك مصر، عندما أعاد بناء المسجد الحرام، بعد أن دمره الحريق الذى شب فى العام ٨٠٢ الهجرى.

دمر المسجد الحرام فى أحيان كثيرة وجرى إصلاحه وترميمه إلى حد أنه لا يمكن الوقوف حاليا على البقايا الوترية القديمة فيه. على الجانب الداخلى من السور الكبير الذى يحيط ببهو الأعمدة يوجد نقش عربى واحد، مدون بحروف كبيرة، كله لا يحتوى سوى على اسم محمد ﷺ وصحابته: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، واسم الجلالة المدون بأحرف كبيرة، مكتوب فى أماكن عدة. على الجانب الخارجى، وفوق البوابات، التى تحدث عنها باستفاضة وبالتفصيل كل مؤرخى مكة. النقش الموجود على الجانب الأيمن، فوق باب إبراهيم ، شديد الوضوح، هذا الجانب كله أعاد بناءه السلطان الغورى، سلطان مصر فى العام ٩٠٦ الهجرى. فوق باب على وباب عباس يوجد نقش طويل، مكتوب أيضا بالخط الثلث، وقد وضعه السلطان مراد بن سليمان فى العام ٩٨٤ الهجرى بعد أن أعاد ترميم المبنى كله. وقد أورد قطب الدين هذا النقش بكامله، هذا النقش يشغل صفحات عدة من تاريخ قطب الدين، وهو يعد أثرا من الآثار

التى يتباهى بها السلطان. هذا الجانب من المسجد بعد أن نجا من الدمار فى العام ١٦٢٦ الميلادى، لا يزال باقيا إلى يومنا هذا ولم يصبه التلف.

الجدران فى بعض أجزائها مدهونة بالألوان البهيجة على شكل خطوط بيضاء وحمراء، وزرقاء، وهذا هو أيضا حال مآذن الحرم. الرسوم التى على شكل زهور، فى الفن الإسلامى المعتاد، لا وجود لها فى أى مكان من الحرم، أرضية أبهاء الأعمدة ممهدة باستخدام الأحجار الكبيرة الملصقة إلى بعضها البعض باستعمال الأسمنت وبطريقة سيئة للغاية.

هناك سبع طرقات ممهدة تؤدى من أبهاء الأعمدة إلى الكعبة، أو البيت الحرام فى المنتصف. هذه الطرقات تكفى الواحدة منها لمرور أربعة أشخاص جنبا إلى جنب، وهم على ارتفاع يقدر بحوالى تسع بوصات فوق سطح الأرض. فيما بين هذه الطرقات الممهدة، المفروشة بالرمل والزلط، تظهر الحشائش التى تنمو فى أماكن عدة بفعل ماء زمزم التى تأتى من تسرب الماء من جرار ماء زمزم الموضوعة على أرضية المسجد على شكل صفوف طويلة طوال اليوم. المنطقة المقام عليها الحرم تنخفض عن مستوى سائر الشوارع المحيطة بالمسجد. هناك منحدر يقدر بحوالى ثمانى درجات أو عشر عن مستوى بوابات المسجد الحرام فى الناحية الشمالية حيث يوجد بهو الأعمدة، وهناك منحدر أيضا يقدر بحوالى ثلاث درجات أو أربع عن مستوى بوابات المسجد الحرام فى الناحية الجنوبية.

تقع الكعبة فى منتصف هذه المساحة، وهى تبعد مسافة مائة وخمس عشرة خطوة من ناحية بهو الأعمدة الشمالى، وثمانية وثمانين خطوة من ناحية بهو الأعمدة الجنوبى. الافتقار إلى التوازى هنا مرده إلى أن الكعبة سابقة الوجود على المسجد نفسه، بمعنى أن الكعبة وجدت قبل المسجد، هذا يعنى أن المسجد بنى حول الكعبة، وجرى توسعته وتكبيره فى فترات مختلفة. الكعبة عبارة عن هيكل بيضاوى ضخم طوله حوالى ثمانى عشرة خطوة، وعرضه أربع عشرة خطوة، وارتفاع هذا الهيكل يتردد بين خمسة وثلاثين قدما وأربعين قدما. حاولت تحديد سطح الارتكاز

لجانب من جوانب المسجد الطويلة ووجدته شمال شمال غرب ١/٢ غرب. هذا الجانب مبنى من الحجر المكى رمادى اللون، مختلف الأحجام ، والملصقة إلى بعضها البعض بطريقة غشيمة جدا، وباستعمال نوع سيئ من الأسمنت. هذا المسجد الحرام أعيد بناؤه بالشكل الذى كان عليه فى العام ١٦٢٧ الميلادى: كان السيل فى العام السابق لذلك العام، قد هدم ثلاثة جوانب من المسجد الحرام، وأثناء التحضير لإعادة بناء تلك الجوانب ونقلا عن العصمى المؤرخ جرى هدم الجانب الرابع، بعد التشاور مع العلماء فى هذه المسألة، ألا وهى السماح للبشر الفانين بتدمير أى جزء من المبنى المقدس دون أن يكون ذلك انتهاكا لحرمة المسجد الحرام.

الكعبة مبنية على قاعدة ارتفاعها حوالى قدمين، تمثل مستوى مائلا ميلا حادا، ولما كان سطح الكعبة مستويا، فإنه يظهر من بعد وكأنه مكعب. والباب الوحيد، الذى يشكل مدخلا للكعبة ولا يفتح سوى مرتين أو ثلاث مرات فى العام، موجود فى الجانب الشمالى من الكعبة، ويرتفع عن الأرض حوالى سبعة أقدام. عند الدخول إلى الكعبة، يجرى استعمال سلم من الخشب. سوف أتحدث عنه فيما بعد. ومع ذلك، وفى عصور الإسلام الأولى، عندما أعيد بناء الكعبة فى العام ٦٤ الهجرى، بواسطة ابن الزبير، رئيس مكة، وابن أخ السيدة عائشة - رضى الله عنها -، كان لها بابين عند مستوى الدور الأرضى من المسجد. أما الباب الحالى الذى جُلب على حد قول الأزرقى، من إسطنبول فى العام ١٦٣٣ (الميلادى) فهو مغطى بقشرة من الفضة، وفيه كثير من الزينات الذهبية. وعلى عتبة ذلك الباب، يجرى كل ليلة إشعال مجموعة متباينة من الشموع المضاءة، وأوعية العطور، المليئة بعطر المسك، وكذلك بخور العود إلخ.

فى الركن الشمالى الشرقى من الكعبة المشرفة، وبالقرب من بابها، يوجد "الحجر الأسود" الشهير، هذا الحجر يشكل جزءا من الزاوية الحادة للمبنى، على ارتفاع يتردد بين أربعة أقدام وخمسة أقدام فوق سطح الأرض. هذا الحجر الأسود عبارة عن شكل بيضوى غير منتظم، قطره حوالى سبع بوصات، وسطح غير مستو، مكون من حوالى اثنى عشر حجرا من الأحجار الصغيرة مختلفة الأحجام والأشكال، ملتصقة ببعضها

البعض بكمية صغيرة من الأسمنت، والحجر شديد النعومة، يبدو الحجر كما لو كان مكسرا إلى قطع صغيرة بفعل ضربة قوية، ثم جرى توحيد هذه القطع مرة ثانية. من الصعوبة بمكان أن تحدد تحديدا دقيقا نوعية هذا الحجر، الذى تآكل إلى سطحه الحالى بفعل لمسات ملايين الأيدى وملايين القبل التى انهمرت عليه. بدا الحجر لى وكأنه حجر بركانى، يحتوى على جسيمات غريبة صغيرة ومتعددة، من مادة تميل إلى البياض ومادة أخرى تميل إلى الاصفرار. لون الحجر الأسود حاليا بنى غامق يميل إلى الاحمرار، ويميل إلى السمرة، هذا الحجر محاط من جميع الجوانب بإطار مصنوع من مادة أرى أنها خليط من الأسمنت والزفت والزلط، الذى هو من مادة مشابهة، لكنها ليست اللون المائل إلى اللون البنى. هذا الإطار يساعد على تقوية الأجزاء المنفصلة، عرض الإطار يتراوح بين بوصتين وثلاث بوصات، وهو يرتفع قليلا عن مستوى سطح الحجر. كل من الحجر والإطار محاط بحزام معدنى، أوسع من الأسفل عن الأعلى، ومن الجانبين، مع وجود انتفاخ من الخلف، كما لو كان جزء من الحجر جرى إخفاؤه تحت الحجر، الجزء السفلى من الإطار مثبت بمسامير من الفضة.

الركن الجنوبى الشرقى من الكعبة المشرفة ، أو ما يسميه العرب، بالركن اليمانى، فيه حجر آخر، يرتفع عن الأرض حوالى خمسة أقدام، وطوله قدم ونصف القدم وعرضه حوالى بوصتين، مبنى متجها نحو الأعلى، وهو من الحجر العادى فى مكة. هذا الحجر يلمسه الطائفون حول الكعبة باليد اليمنى، ولا يقبلونه.

على الجانب الشمالى من الكعبة المشرفة، وبالقرب من بابها، وعلى مقربة أيضا من الجدار يوجد تجويف خفيف فى الأرض، مبطن بالرخام، ويسمح بجلوس ثلاثة أشخاص فيه. ومن الخير أن يصلى الطائف في هذا المكان. هذا التجويف يطلقون عليه اسم المعجن ، وهو المكان الذى عجن فيه (سيدنا) إبراهيم وولده إسماعيل الحجر الجيرى والطين اللذين استخدماهما فى بناء الكعبة، بالقرب من هذا المعجن، يقال إن (سيدنا) إبراهيم وضع الحجر الكبير الذى وقف عليه عندما كان يقوم بعملية البناء.

وعلى أساس الكعبة المشرفة، وفوق المعجن مباشرة، يوجد نقش كوفى قديم، لكنى لم أستطع قراءة ذلك النص، ولم تتهيأ لى فرصة تدوينه. ولم يأت أحد من المؤرخين على ذكر هذا النقش.

على الجانب الغربى من الكعبة المشرفة وعلى بعد حوالى قدمين من قمتها نحو الأسفل، يوجد ميزاب شهير، ينصرف من خلاله ماء المطر الذى يتجمع فوق سطح الكعبة، لكى يسقط على الأرض، طول هذا الميزاب يقدر بحوالى أربعة أقدام، وعرضه حوالى ست بوصات، وهذا على حد رؤيتى له من الأسفل، وحواف هذا الميزاب تتساوى مع عرض الميزاب من حيث الارتفاع. عند مقدمة الميزاب، يتدلى جزء يسمونه ذقن الميزاب، وهو عبارة عن لوح يسقط عليه الماء. هذا الميزاب أرسل من إسطنبول إلى هنا فى العام ٩٨١ الهجرى، ويقال إنه من الذهب الخالص. الرصيف الموجود حول الكعبة المشرفة، أسفل الميزاب، جرى بناؤه فى العام ٨٢٦ الهجرى، وهو مكون من أحجار مختلفة الألوان، تكون فى مجملها نوعا رائعا من المنمنمات. هناك بلاطتان من الرخام المعرق فى الوسط، هاتان البلاطتان على حد قول المقريزى(*)، أرسلتا إلى هنا على شكل هدية من القاهرة فى العام ٤٢١ الهجرى. هذا هو المكان الذى يقول الحديث الشريف، إنه دفن فيه إسماعيل، ولد (سيدنا) إبراهيم ويصح فيه أيضا إبراهام، وأمه هاجر، وهنا من الخير للحاج أن يصلى ركعتين. هذا الجانب الغربى فيه جدار شبه دائرى، طرفاه على خط واحد من جانبى الكعبة المشرفة، ويبعدان عنها مسافة ثلاثة أقدام أو أربعة ، ويتركان فتحة تؤدى إلى المكان الذى دفن فيه (سيدنا) إسماعيل. الحائط هنا يسميه الناس الحطيم ، والمساحة التى يضمها هذا الحطيم، يسمونها الحجْر، أو بالأحرى حجْر إسماعيل، من منطلق انفصالها عن بناء الكعبة المشرفة، الجدار نفسه يطلق عليه هذا الاسم فى بعض الأحيان ، أما الاسم الحطيم فيطلقه

(*) راجع كتاب المقريزى، الفصل المعنون "امتيازات مصر".

المؤرخون على الأرض الفضاء التى بين الكعبة والجدار من ناحية، وبير زمزم ومقام إبراهيم من ناحية أخرى. المكيون الحاليون يطلقون الاسم "الحطيم" على الجدار فقط.

يروى فى التراث أن الكعبة (المشرفة) كانت تمتد فى يوم من الأيام إلى الحطيم، وأن هذا الجانب بعد أن سقط فى موسم الحج، طلبت نفقات ترميمه من الحجاج، تحت زعم أن إيرادات الحكومة لم يحصل عليها من حلال خالص يسمح باستخدامها فى غرض مقدس من هذا القبيل، فى حين إن نقود الحجاج تحقق الطهارة والنقاء. ثبت أن المبلغ الذى جرى جمعه من الحجاج لم يكن كافيا، وكل ما أمكن عمله فى ذلك الوقت هو مجرد إقامة جدار، هو بمثابة علامة على المساحة التى كانت عليها الكعبة من قبل. هذا الموروث الشائع بين المطوفين لا يتطابق مع التاريخ، الذى يقول: إن الحجر جرى بناؤه بواسطة بنى قريش، الذين قلصوا أبعاد الكعبة، وإن الحَجَّاج هو الذى ضم الحِجْر إلى الكعبة، وإن ابن الزبير هو الذى فصل الحجر من جديد عن الكعبة. والفاسى يؤكد أن جزءا من الحجر، بالشكل الذى هو عليه حاليا، لم يحدث أن ضم إلى الكعبة مطلقا. والشرع يعد الحجر جزءا من الكعبة، من منطلق أن من الخير للطائف وغيره الصلاة فى الحجر وفى الكعبة نفسها، والحجاج الذين لا تتهيأ لهم فرصة دخول الكعبة، يسمح لهم بالحلف بأنهم صلوا فى الكعبة، على الرغم من أنهم قد يكونون قد ركعوا فقط داخل مسور الحطيم. الجدار مبنى من الحجر الصلد، الذى يصل ارتفاعه إلى حوالى خمسة أقدام، وسمكه أربعة أقدام ومجلد من الخارج بالرخام الأبيض، ومنقوش عليه دعاء وتوسلات، منحوتة نحتا أنيقا على الحجر بأحرف حديثة. هذه النقوش هى والتجليد الرخامى من أعمال الغورى، سلطان مصر، فى العام ٩١٧ الهجرى، وذلك طبقا لما ورد عند قطب الدين. الطواف حول الكعبة يكون من خارج جدار الحطيم، وكلما اقترب الطائف منه كان ذلك أفضل.

الأركان الأربعة للكعبة مغطاة بجريد أسود اللون، يتدلى نحو الأسفل تاركا سطح الكعبة عاريا(*)، هذه الستارة، أو الغطاء يسمونه كسوة ، ويجرى تجديد هذه الكسوة كل عام فى موسم الحج، إذ يجرى إحضارها من القاهرة، التى يجرى صنعها فيها لحساب الباب العالى(**)، الكسوة مطرز عليها أدعية عدة من لون القماش نفسه، وبالتالى يصبح من الصعب جدا قراءة تلك الأدعية. فوق منتصف الكسوة، ومن حول المبنى كله يوجد خط مماثل من النقوش، المصنوعة من الخيوط الذهبية. ذلك الجزء من الكسوة الذى يغطى الباب مطرز بالفضة تطريزا كثيفا. يوجد فى الكسوة فتحات للحجر الأسود والحجر اليمانى الموجود فى الركن الجنوبى الشرقى، الذى يظل مكشوفا. شكل الكسوة ثابت دوما من حيث الشكل والطراز، الكسوة التى رأيتها على الكعبة عند زيارتى الأولى للمسجد الحرام، كانت متحللة ومليئة بالثقوب. فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة يجرى رفع الكسوة القديمة، وتظل الكعبة بلا كسوة طوال خمسة عشر يوما. ويقال بعد ذلك إن الكعبة تحرم "بمعنى أن الكعبة ترتدى ملابس الإحرام، ويستمر ذلك إلى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة، يوم عودة الحجاج من عرفة إلى وادى منى، وهو اليوم الذى يجرى فيه وضع الكسوة الجديدة على الكعبة، فى الأيام الأولى، يجرى رفع الغطاء الجديد بواسطة حبال مثبتة فى السقف، حتى يظل الجزء الأسفل من المبنى مكشوفا: وبعد أن تظل الكعبة مكشوفة هكذا بضعة أيام، يجرى إنزال الكسوة لتغطى البناية كلها، إذ يجرى ربط الكسوة إلى حلقات من النحاس الأخضر مثبتة فى الأرض. رفع الكسوة القديمة عن الكعبة كان يجرى بطريقة غير لائقة، وكان الحجاج يتصارعون هم وأهل مكة حول هذا الموضوع،

(*) كان الوهابيون خلال عامهم الأول فى مكة قد غطوا الكعبة بكسوة حمراء جرى صنعها فى الأحساء من القماش نفسه الذى تصنع منه العباءات العربية الفاخرة.

(**) فى القرن الأول الإسلامى لم يكن يجرى رفع الكسوة القديمة مطلقا، وإنما كان يجرى وضع الكسوة الجديدة فوق القديمة لكن المكيين بدءوا يخشون من أن تنوء الكعبة بحمل هذه الأثقال من الكسوة، وقام الخليفة المهدى أبو عبدالله بإزالة هذه الاغطية فى العام ١٦٠ الهجرى. (راجع المقريزى).

هذا الصراع نفسه كان يدور بين الكبار والصغار، من أجل الحصول على مجرد قطع صغيرة من تلك الكسوة. الحجاج يجمعون أيضا التراب والغبار الذى يعلق بجدران الكعبة، من تحت الكسوة، ويبيعونه، عند عودتهم إلى بلادهم باعتبار ذلك تذكارا مقدسا. فى اللحظة التى يجرى فيها تغطية الكعبة، وعندما تكون عارية تماما (عريان Ureyan على حد قولهم)، تتجمع مجموعة من النساء حول الكعبة، وهن "يزغردن".

اللون ايلأسود للكسوة التى تغطى هذا المكعب الكبير الذى يقع فى منتصف ميدان واسع، يضفى على الكعبة، منذ الوهلة الأولى، مظهرا فريدا وجليلا، ونظرا لعدم تثبيث ذلك الغطاء من الأسفل تثبيتا محكما، فإن أقل حبات النسيم تجعل الغطاء يتحرك على شكل تموجات بطيئة، يحييها الجمهور المصلين المتجمعين حول المبنى بالدعاء والابتهال، باعتبار أن ذلك الاهتزاز دليل على وجود الملائكة، الذين تتسبب حركة أجنحتهم فى اهتزاز غطاء (كسوة) الكعبة. هناك سبعون ألف ملك يحرسون الكعبة، وهم مأمورون بنقلها إلى الجنة، يوم أن ينفخ فى الصور.

مسألة كسوة الكعبة عادة قديمة منذ أيام العرب الوثنيين. يقول الأزرقى: إن الكسوة الأولى قام بوضعها على الكعبة أسد توبا ، أحد ملوك حمير فى اليمن. قبل مجيء الإسلام كان للكعبة غطاءان أو كسوتان إن صح التعبير، إحداهما للشتاء والثانية للصيف. فى عصور الإسلام الأولى، كانت الكسوة بيضاء فى بعض الأحيان وحمراء فى أحيان أخرى، وكانت تصنع من أفضل الأقمشة المقصبة أو المطرزة. فى الأزمان التى تلت ذلك كان سلاطين بغداد، أو مصر، أو اليمن هم الذين يقدمون الكسوة فى ضوء نفوذهم على مكة، ذلك أن كسوة الكعبة كانت تعد دوما إشارة إلى السيادة على الحجاز، وقد استأثر قلاوون، سلطان مصر، هو ومن جاءوا بعده بذلك الحق، وورثه عنهم سلاطين إسطنبول، وقد خصص قلاوون ريع القريتين

الكبيرتين بيسوس وساندبير ، فى الوجه البحرى للصرف على كسوة الكعبة، وقد أضاف السلطان سليمان بن سليم كسوات أخرى كثيرة، ومع ذلك حرمت الكعبة من هذا المصدر زمنا طويلا(*).

يوجد حول الكعبة رصيف جيد من الرخام، ينخفض حوالى ثمانى بوصات عن مستوى الميدان الكبير، هذا الرصيف جرى بناؤه فى العام ٩٨١ الهجرى، بناء على أوامر من السلطان، وهذا الرصيف عبارة عن شكل بيضوى غير منتظم، هذا الرصيف محاط باثنين وثلاثين عمودا مستدق ومجلد، ويتدلى من كل عمود من هذه الأعمدة مصباح زجاجى يجرى إضاءته بعد غروب الشمس. خلف هذه الأعمدة يوجد رصيف آخر، عرضه يصل إلى حوالى ثمانى خطوات، ويرتفع إلى مستوى أعلى قليلا عن مستوى الرصيف الأول، لكن مصنعية هذا الرصيف ليست جيدة، ثم يجىء بعد ذلك رصيف ثالث، ارتفاعه حوالى ست بوصات، وعرضه حوالى ثمانى عشرة بوصة، وفوق هذا الرصيف توجد مبانٍ صغيرة متجددة، خلف هذا الرصيف توجد أرض زلطية، حتى يمكن القول إن هناك سلمين عظيمين وعريضين يؤديان من الميدان إلى الكعبة. والمبانى الصغيرة التى سبق الإشارة إليها، والتى تحيط بالكعبة، هى المقامات الخمسة، مع بئر زمزم، والعقد الذى يسمونه باب السلام، وكذلك المنبر.

مقابل جوانب الكعبة الأربعة نجد أربعة مبانٍ صغيرة أخرى يجلس فيها أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة، الحنفى، والشافعى، والحنبلى، والمالكى، الذين يؤمون الصلاة. المقام المالكى يوجد فى الجنوب، والحنبلى يوجد مقابل الحجر الأسود، هذان المقامان عبارة عن مقصورتين صغيرتين، مفتوحتين من جميع الأجناب ومحمولتين على أربعة أعمدة رفيعة، ولهما سقف منحدر قليلا ينتهى عند نقطة من طراز الباغودات(**) الهندية . المقام الحنفى وهو أكبر المقامات، الذى يصل طوله إلى خمس

(*) راجع قطب الدين والعصمى.

(**) الباغودة: هيكل أو معبد (هندى أو صينى أو بابلى) متعدد الأدوار. (المترجم)

عشرة خطوة وعرضه ثماني خطوات، مفتوح من جميع الجوانب، ويحمله اثنا عشر عمودا، والمقام الحنبلي له دور علوى، وهو الآخر مفتوح من جميع الجوانب ، يقف فيه المؤذن الذى يرفع أذان الصلاة. هذا المقام الحنفي بنى لأول مرة فى العام ٩٢٣ الهجرى، وقد بناه أو أنشأه السلطان سليم الأول، ثم بناه بعد ذلك خو شجلدين حاكم جدة فى العام ٩٤٧، لكن المقامات الأربعة، بالشكل التى هى عليه الآن، بنيت كلها فى العام ١٠٧٤ الهجرى.(*) المقام الشافعى موجود فوق بئر زمزم، ويعد بمثابة غرفة علوية فوق البئر.

أتباع هذه المقامات الأربعة يجلسون بالقرب منها لأداء الصلاة. أثناء مقامى فى مكة كان الأحناف هم الذين يبدأون بالصلاة، لكن حسب الأعراف والتقاليد الإسلامية يتعين أن يبدأ الشافعية بالصلاة فى الحرم المكى، ثم يتلوهم الحنفية، فالمالكية وأخيرا الحنابلة. صلاة المغرب تعد استثناء من هذا العرف؛ إذ تؤديها المقامات الأربعة مع بعضهم بعضًا فى آن واحد(**) ، المقام الحنبلى هو المكان الذى يجلس فيه ضباط الحكومة وموظفيها، والأعيان الآخرون أثناء الصلاة، فى هذا المكان يجلس كل من الباشا والشريف، ويجلس فيه الطواشيَّة أثناء غيابهما عن المسجد الحرام. هؤلاء الطواشيَّة يملأون الفراغ الموجود تحت المقام عند المقدمة، والفراغ الموجود خلف المقام مخصص للحاجَّات، اللاتى يزرن المسجد الحرام لأداء صلاة المغرب وصلاة العشاء، وقلة قليلة من هؤلاء الحاجات هن اللاتى يشاهدن أثناء الصلوات الثلاث الأخرى فى المسجد. هؤلاء الحاجات يقمن أيضا بالطواف حول الكعبة، أو بالسير حولها، لكن جرت العادة أن يكون ذلك أثناء الليل، على الرغم من أنهن يشيع رؤيتهن ماشيات بين الرجال أثناء النهار.

المبنى الحالى الذى يضم بئر زمزم يقع بالقرب من المقام الحنبلى، وقد أقيم فى العام ١٠٧٢ الهجرى(***) . المبنى مربع الشكل، وهو منشأ كبير الحجم له مدخل من

(*) راجع قطب الدين والعصمى.

(**) راجع الفاسى.

(***) راجع العصمى.

جهة الشمال، يفتح على الغرفة التى تحتوى على بئر زمزم. هذه الغرفة مزينة بزينات جميلة مصنوعة من رخام متنوع الألوان، وبجوار هذه الغرفة، توجد غرفة صغيرة، لها باب منفصل، هذه الغرفة فيها مستودع أو خزان مصنوع من الحجر، يظل ممتلئا بالماء بصورة مستمرة، يفد على هذا الحوض الحجاج ليشربوا من ماء زمزم، عن طريق تمرير أيديهم بكوب من خلال فتحة فى مُصَبَّع من الحديد، على شكل شباك لذلك الحوض، دون الدخول إلى الغرفة. فوهة بئر زمزم محاطة بجدار ارتفاعه خمسة أقدام، وقطره حوالى عشرة أقدام. فوق هذه الفتحة يقف أولئك الرجال الذين يجلبون الماء من البئر، فى دلاء من الجلد، وتوجد شبكة من القضبان الحديدية لمنع سقوط الدلاء فى البئر. فى زمن الفاسى كانت هناك ثمانية أوعية رخامية فى تلك الغرفة، لأغراض الوضوء.

تظل غرفة البئر مليئة بالزائرين من قبل طلوع الفجر إلى منتصف الليل تقريبا. وكل واحد من هؤلاء الزوار يكون حرا فى جلب الماء لنفسه، لكن العمل يقوم به عادة أشخاص جرى وضعهم عند البئر للقيام بهذا العمل، والمسجد هو الذى يدفع لهم أجورهم، هؤلاء العمال يحصلون على مبالغ هزيلة من أولئك الذين يأتون للشرب من ماء زمزم، على الرغم من أن هؤلاء العمال لا يجرءون على طلب هذه المبالغ الهزيلة. وأنا شخصيا دخلت هذه الغرفة أكثر من مرة، وبقيت فيها قرابة ربع ساعة قبل أن أتمكن من الحصول على شربة ماء، كان فى الغرفة جمع كبير من الناس. الحجاج شديدى القدمين قد يقفون فى بعض الأحيان على الجدار ويروحون يجلبون الماء عن طريق سحب الدلو، وعلى امتداد ساعات عدة، أملا فى التكفير عن خطاياهم.

قبل الغزو الوهابى كانت بئر زمزم تابعة للشريف، وبذلك يعد ماؤها محتكرا، وكان يجرى شراؤه بثمن غال. لكن من بين الأوامر التى أصدرها سعود بعد أن وصل إلى مكة، هو منع هذا الاحتكار وهذا الاتجار، وأصبح الماء المقدس يعطى للناس مجانا. الأتراك ينظرون إلى عدم تناقص مياه زمزم على أنه من قبيل المعجزات، وذلك على الرغم من استمرار الشرب من هذا الماء ، المؤكد فعلا أن عمق البئر لا يقل أو يتناقص،

فقد اكتشفت عن طريق البحث الدقيق والتفتيش على الحبل المستخدم فى سحب الدلاء إلى أعلى، اكتشفت أن الطول نفسه لا يتغير فى الصباح أو المساء، هذا يعنى أن طول الحبل إلى أن يصل إلى سطح الماء كان واحداً فى الصباح وفى المساء أيضا. وعندما تحريت ذلك الأمر عرفت من رجل نزل البئر فى زمن الوهابيين لإصلاح البطانة الداخلية، أن الماء كان ينساب من قاع البئر، ومن ثم فإن البئر يجرى مدها بالماء عن طريق نهر تحت الأرض. ماء زمزم ثقيل المذاق، ويشبه الحليب فى لونه فى بعض الأحيان، لكنه عذب فرات تماما، ويختلف اختلافا تاما عن مياه الآبار المالحة التى تنتشر فى سائر أنحاء المدينة. ماء زمزم عندما يسحب إلى أعلى للمرة الأولى، يكون فاترا وهو فى ذلك يشبه مياه كثير من العيون التى فى الحجاز.

زمزم تمد مكة كلها بالماء، وليست هناك عائلة واحدة لا تملأ حتى ولو جرة واحدة من ماء زمزم كل يوم، هذا الماء لا يستخدم إلا للشرب أو الوضوء، ذلك أن الناس هنا يعتقدون أن استعمال الماء المقدس فى غير هذين الغرضين ليس من الدين. كل حاج من الحجاج الذين يذهبون إلى المسجد الحرام لصلاة العشاء توضع أمامه جرة من ماء زمزم، بواسطة هؤلاء الذين يكسبون عيشهم من خلال تقديم هذه الخدمة. يجرى توزيع ماء زمزم فى المسجد على كل من يشعر بالعطش، وذلك نظير مبلغ جد تافه، وذلك عن طريق السقائين، الذين يحملون جرارا كبيرة على ظهورهم، هؤلاء السقائين يعطيهم الحجاج المحسنون شيئا من النقود، نظير تقديم ماء زمزم قبل الصلاة أو عقبها.

ماء زمزم يعد شفاء للأمراض كلها، والمؤمنون يعتقدون أنهم كلما أكثروا من شرب ماء زمزم تحسنت صحتهم، وقبلت دعواتهم عند الله سبحانه وتعالى. لقد رأيت كثيرا من المؤمنين الأتقياء عند بئر زمزم وهم يشربون من مائها كميات لا يصدقها العقل. هذا رجل كان يقيم معى فى منزل واحد، وكان يعانى من حمى متقطعة أو إن شئت فقل حمى رجعية، كان يذهب كل مساء إلى بئر زمزم، ويشرب من مائها إلى أن يشرف على الإغماء، وعقبها كان يرقد على ظهره ساعات بسبب هذه الفعلة، أقنع نفسه

تماما بأن زيادة مرضه إنما جاءت نتيجة لعجز الرجل عن شرب كمية كافية من ماء زمزم! بعض الحجاج الذين لا يرضون بمجرد شرب ماء زمزم، يتجردون من ملابسهم في الغرفة، ويطلبون إلقاء دلاء من الماء عليهم، وهم يعتقدون أنهم عندما يفعلون ذلك أن القلب ينقى مثلما ينقى الجسم من الخارج. قلة قليلة من الحجاج هم الذين يغادرون مكة ولا يحملون معهم شيئا من ماء زمزم فى قوارير من النحاس الأحمر أو القصدير، إما بغرض تقديمها هدية، أو لاستعمال هذا الماء عندما يصيبهم المرض، أو لوضوئهم بعد وفاتهم. حملت معى أربع قوارير صغيرة، على أمل تقديمها على سبيل الهدايا للملوك المسلمين فى بلاد السودان(*). لقد شاهدت ماء زمزم يباع فى السويس بواسطة الحجاج العائدين من مكة بسعر قرش واحد للكمية التى تملأ كوبا واحدا من أكواب القهوة.

ريس زمزم هو واحد من كبار علماء مكة. وأنا لست بحاجة إلى تذكير القارئ بأن زمزم هى العين التى عثرت عليها هاجر فى الصحراء فى اللحظة التى كان طفلها إسماعيل يوشك على الموت عطشا. يبدو أن مدينة مكة يرجع أصلها إلى هذه البئر، سبب ذلك أن هذه البئر لا يوجد حولها ماء عذب فى أى اتجاه ولمسافات بعيدة، إضافة إلى أنه لا يوجد ماء بكميات وفيرة على هذا النحو فى المنطقة المجاورة لمكة والمحيطة بها.

على الجانب الشمالى الشرقى من زمزم يوجد مبنيان صغيران، أحدهما خلف الآخر، يسميان القبتين، هذان المكانان مغطيان بقبتين مدهونتين من دهان المسجد الحرام نفسه، وموضوع فيهما جرار للماء، ومصابيح وسجاد وحصير ومكانس، وأدوات أخرى تستخدم فى المسجد نفسه. هذان المبنيان الكئيبان يؤذيان المنظر الداخلى للمبنى، شكلهما الثقيل وهيكلهما متنافر تماما مع شكل المقامات الخفيفة متجددة الهواء. استمعت إلى بعض الحجاج اليونانيين، وهم أصحاب ذوق أرقى من

(*) المقصود بالسودان هنا هو عكس "البيضان" أى البلاد التى يعيش فيها السود. (المترجم)

ذوق العرب، وهم يقولون إن القبتين تشوهان منظر المسجد. محتويات هاتين القبتين يمكن تخزينها فى بعض المنازل المجاورة للمسجد الحرام، والتى لا تشكل جزءا من المسجد، وليس لها أهمية دينية. هاتان القبتان أنشأهما خوشجلدى ، والى جدة فى العام ٩٤٧ الهجرى. إحدى هاتين القبتين تسمى قبة العباس، نظرا لأن مكانها يقع فى مكان يقال إن العباس عم محمد ﷺ بنى فيه خزانًا صغيرا.

على بعد خطوات قليلة فى الناحية الغربية من زمزم، وفى مقابل باب الكعبة تماما، يوجد سُلَّم نقال، يجرى تحريكه ونقله على جدار الكعبة، فى الأيام التى يجرى فيها فتح الكعبة، والزوار يستخدمون هذا السلم النقال فى الصعود إلى باب الكعبة، هذا السلم مصنوع من الخشب، وفيه بعض الزينات المحفورة فيه، والسلم يتحرك على عجلات منخفضة، وعرضه يسمح بصعود أربعة أشخاص فى وقت واحد. أول سلم من هذا النوع جاء من القاهرة فى العام ٨١٨ الهجرى من قبل مؤيد أبو الناصر ، ملك مصر، وسبب ذلك أن الحجاز كان يفتقر افتقارا شديدا إلى الحرفيين، إلى حد أن المسجد الحرام عندما كان يحتاج إلى أى عمل من الأعمال، كان لابد من إحضار ميكانيكيين من مصر ومن إسطنبول فى بعض الأحيان.

على خط واحد مع السلم النقال وبالقرب منه، يوجد عقد دائرى معزول وخفيف البناء، عرضه حوالى خمسة عشر قدما وارتفاعه حوالى ثمانية عشر قدما، يسمونه باب السلام، ويجب عدم الخلط بين هذا الباب والبوابة الكبيرة من بوابات المسجد التى تحمل هذا الاسم. هؤلاء الذين يدخلون بيت الله أول مرة، يتحتم عليهم الدخول من خلال باب السلام الخارجى والداخلى، أثناء المرور من باب السلام الداخلى يدعو الداخل قائلا: "يا رب، اجعل هذا مدخلا سعيدا" وأنا لا أعرف ذلك الذى بنى هذا العقد، لكن يبدو أن هذا الباب الداخلى جرى بناؤه مؤخرا.

يقع مقام إبراهيم بالقرب من باب السلام من الأمام وهو أقرب إلى الكعبة منه إلى أى مبنى من المبانى المحيطة بها. مقام إبراهيم عبارة عن بناية صغيرة، وهو محمول

على ستة أعمدة ارتفاع الواحد منها حوالى ثمانية أقدام، أربعة منها محاطة من أعلى إلى أسفل بقضبان حديدية جميلة، بحيث تترك الفراغ الموجود بين العمودين الخلفيين مفتوحا، يوجد داخل المُصَبَّع الحديدى إطار يقدر بحوالى خمسة أقدام مربع الشكل، ينتهى بقمة هرمية الشكل، ويقال إنه يحتوى على الصخرة المقدسة التى وقف عليها (سيدنا) إبراهيم عندما كان يبنى الكعبة، والذى قام بمساعدة من ولده إسماعيل، بنقل هذا الحجر إلى المكان المسمى المعجن الذى سبق الإشارة إليه. يقال إن الحجر لان من وزن أحد الأنبياء، وأنه لا يزال يحتفظ بأثر قدم سيدنا إبراهيم، لكن أحداً من الحجاج لم ير هذا الأثر، نظرا لأن الإطار مغطى كله وبصورة رائعة بغطاء من الحرير أحمر اللون المطرز تطريزا كثيفا. كثير من الأشخاص يقفون دوما أمام هذا المصبع الحديدى، وهم يتذكرون مكانة إبراهيم عليه السلام، وهنا يدعو الحاج بدعاء قصير وهو واقف بجوار المقام بعد أن يكمل الحاج طوافه حول الكعبة. يقال إن عدداً كبيراً من صحابة محمد ﷺ أقاموا فى هذا المكان المفتوح الواقع فيما بين هذا المقام وبئر زمزم، وإن هذا هو السبب وراء اعتبار هذا المكان من أحسن الأماكن المفضلة فى الصلاة فى المسجد الحرام. فى هذا الجزء من مساحة المسجد بنى الخليفة سليمان بن عبدالملك، أخو الوليد ، خزانا جميلا فى العام ٩٧ الهجرى، وأن ذلك الخزان هدم بعد وفاة سليمان بن عبد الملك، من منطلق أن ماء زمزم هو الأفضل(*).

على جانب مقام إبراهيم، وفى مواجهة الجزء الأوسط من مقدمة الكعبة، يوجد المنبر الخاص بالمسجد الحرام، هذا المنبر مكون من الرخام الأبيض الجميل الذى عليه عدد من الزينات المحفورة، وجرى إرساله على سبيل الهدية للمسجد فى العام ٩٦٩ الهجرى، من قبل السلطان سليمان بن سليم(**)، وهناك سلم مستقيم ضيق

(*) راجع مقال المقريزى. "منهج من الخلفاء".

(**) أرسل أول منبر من القاهرة فى العام ٨١٨ الهجرى، ومعه السلم سالف الذكر، من قبل المؤيد ملك مصر. راجع العصمى.

يؤدى إلى مكان الخطيب المركب عليه برج مدبب كثير الأضلاع، شبيه بالمسلة. من هنا تلقى خطبة الجمعة، وبعض الأعياد، وهذه الخطب شبيهة بخطب الجمعة التى تلقى فى سائر المساجد فى البلاد الإسلامية، وكلها خطب شبه موحدة من حيث المضمون فيما عدا بعض التغييرات الطفيفة فى بعض الظروف غير العادية. قبل استيلاء الوهابيين على مكة، كان يجرى فى نهاية الصلاة الدعاء للسلطان والشريف، ولكن سعود منع ذلك. ومع الغزو التركى، جرى استئناف تلك العادة القديمة، وفى أيام الجمع، وفى نهاية صلاة المغرب كل يوم كان يجرى الدعاء لكل من السلطان، ومحمد على باشا، والشريف يحيى، وأصبح حق اعتلاء المنبر لإلقاء خطبة الجمعة مقصورا على كبار علماء مكة، هؤلاء العلماء كانوا رجالا متقدمين فى السن. فى الأزمان القديمة كان محمد ﷺ نفسه، ومن جاءوا بعده، وكذلك الخلفاء الراشدون، عندما يصلون إلى مكة يعتلى الواحد منهم المنبر ليخطب فى الناس.

كان الخطيب، أو الواعظ، يصعد المنبر وهو يلبس عباءة بيضاء اللون. تغطى رأسه وجسمه، ويمسك عصا فى يده، وهذا الأمر كانت تجرى مراعاته فى مصر وسوريا، من باب إحياء ذكرى زمن الإسلام الأول، عندما كان الخطباء والوعاظ يتحتم عليهم التسلح تحسبا لأن يداهمهم أحد. وكما هو الحال فى المساجد الأخرى يجرى وضع علمين أخضرين على جانبى الخطيب.

يضع زوار الكعبة أحذيتهم حول المنبر، وسبب ذلك أنه غير مسموح الطواف حول الكعبة والقدمان مغطيان، وليس من الأدب حمل الأحذية فى الأيدى، مثلما يفعل الناس فى المساجد الأخرى. هناك أناس متعددون يحرسون هذه الأحذية، انتظاراً لهدية صغيرة، لكن القرب من المسجد الحرام لا يخيف اللصوص، نظرا لأنى فقدت فى هذا المكان ثلاث مرات متتالية ثلاثة أزواج جديدة من الأحذية، والشىء نفسه يحدث لكثير من الحجاج.

بذلك أكون قد وصفت كل البنايات الموجودة داخل مسور المسجد الحرام(*).

الأرض الزلطية، هى وجزء من الرصيف الخارجى المجاور للكعبة، تجرى تغطيتها، عند صلاة المغرب، بسجاد يصل طول الواحدة منه حوالى ستين قدما أو ثمانين، وعرض الواحدة منه حوالى أربعة أقدام، مصنوع فى مصر، ويجرى طى ذلك السجاد بعد أداء الصلاة. القسم الأكبر من الحجاج يحضرون معهم سجاجيدهم الخاصة. أما الأجزاء البعيدة من المسجد الحرام، وكذلك أرضية بهو الأعمدة فيجرى فرشها بالحصير الذى يجرى جلبه من سواكن، هذا الجزء سالف الذكر من المسجد الحرام هو المكان الذى تؤدى فيه صلاة الظهر وصلاة العصر. عدد كبير من ذلك الحصير يقدم للمسجد على شكل هدايا بواسطة الحجاج، ومقابل ذلك يرى هؤلاء الحجاج أسماءهم مكتوبة بأحرف كبيرة على ذلك الحصير.

عند غروب الشمس، تتجمع أعداد كبيرة من الناس لأداء صلاة المغرب، وهم يتشكلون على هيئة دوائر متعددة، يصل عددها فى بعض الأحيان إلى عشرين دائرة حول الكعبة، باعتبارها مركزا عاما يتعين على كل إنسان أن يركع أمامها، وعلى حد قول فقهاء الدين الإسلامى وعلمائه ، فإن مكة تعد المكان الوحيد فى الدنيا كلها، الذى يستطيع المؤمن الحق فيه، أن يتجه فى صلاته إلى أية نقطة من نقاط البوصلة. الهندى يمكن أن يتخذ لنفسه مكانا عند بوابة الكعبة، وهنا يقوم الجمع الموجود كله بتقليد ومحاكاة انحناءات أو بالأحرى ركوع وسجود هذا الآدمى. التأثير الناتج عن الركوع

(*) مخطط الأرض الخاص باستخدام المسجد الحرام، والذى ورد عند على بك العباسى صحيح تماما، ونحن لا يمكن أن نقول ذلك عن المخطط الذى أورده لمكة، ولا نوافقه على آرائه عن الحجاز، ومن يقارن وصفى بوصفه يستطيع الوصول إلى نقاط الخلاف فيما يتعلق بالحرم وبالمدينة وبسكانها، وقد وصل كتابه إلىّ بعد عودتى من الجزيرة العربية. الرأى الذى أورده "دى أوهسون" فى كتابه القيم، رأى شائع ومقبول فيما عدا قوله إن الكعبة كبيرة جدا قياسا على بقية المبنى. رأيه فى مدينة مكة، على العكس من ذلك يعد رأيا غير صادق أو أمين. والمنظر الخاص بالمدينة، والذى ورد عند نيبور، الذى أخذه من رسم عربى قديم، أقل دقة من ذلك المنظر الذى وصفه "دى أوهسون" يبدو أن المنظر الأصلى قد جرى وصفه قبل التغييرات الأخيرة التى جرت فى البنايات الخاصة بالمسجد الحرام.

والسجود هو وتذكر المسافات البعيدة التى يأتى منها الحجاج والذين يقدر عددهم بما يتردد بين ستة آلاف شخص وثمانية آلاف، وكذلك الغرض الذى جاءوا من أجله، كل ذلك لابد أن يترك انطباعا فى نفس ذلك المتفرج بارد الذهن، وأن ذلك الانطباع يكون مصحوبا بشىء من الرهبة والخوف. عندما يرخى الليل سدوله، وبعد أن تضاء المصابيح، وأثناء قيام أعداد من المؤمنين بالطواف حول الكعبة، وكذلك منظر الجماهير المنشغلة وأصوات المطوفين، الذين يصرون على إثبات وجودهم من خلال أولئك الذين يرددون الدعاء الذى يدعو به هؤلاء المطوفون، جرى الصبية، ولعبهم، وضحكهم يضفى على ذلك كله مظهرا مختلفا تماما، يشبه منظر أولئك الذين يتمتعون بمتعة عامة بريئة. هذا الجمع من البشر يغادر المسجد الحرام عند الساعة التاسعة مساء، التى يتحول المسجد عندها إلى مكان صامت ومساكن للتأمل والدعاء، عند قلة قليلة من الزائرين الذين يذهبون إلى ذلك المسجد من منطلق الورع والتقوى الخالصة، وليس بدافع من الأمور الدنيوية أو المحاكاة.

هناك رأى سائد فى مكة، قائم على حديث شريف، مفاده أن المسجد الحرام سوف يضم أعدادا من المؤمنين مهما كثر ذلك العدد، وإن قدر للمسلمين كلهم الدخول إلى المسجد الحرام فسوف يتسع لهم جميعا ويؤدون فيه الصلاة. يقال إن الملائكة الحراس سوف يمددون أبعاد المبنى، ويقللون من أحجام البشر. هناك حقيقة مفادها أن المسجد الحرام فى أشد مواسم الحج ازدحاما، الذى لا يمكن أن يتسع لحوالى خمسة وثلاثين ألف مصل لا يمكن أن يمتلئ بالمصلين مطلقا. حتى فى أيام الجمع، فإن العدد الكبير من المكيين، وذلك على العكس من تعليمات الشريعة، يصلون فى منازلهم، هذا إن لم يصلوا على الأطلاق، كما أن كثيرا من الحجاج يحذون حذو المكيين أيضا. أنا لم أحص فى المسجد مطلقا أكثر من عشرة آلاف مصل فى آن واحد، حتى بعد العودة من عرفات، عندما يتجمع القسم الأكبر من الحجاج، لأيام قلائل، فى المدينة وحولها.

فى أية ساعة من ساعات اليوم يمكن أن نرى الناس فى بهو الأعمدة مشغولين بقراءة القرآن والكتب الدينية الأخرى، وهنا نرى كثيرا من الهنود الفقراء، أو الزنوج يفردون حصيرهم، ويمضون فترة مقامهم فى مكة. هنا، فى الحرم، تراهم يأكلون وينامون، لكن الطبخ غير مسموح به، وفى ساعات الظهيرة، يأتى أشخاص كثيرون لنيل قسط من الراحة فى ظلال ذلك القسم الذى تعلوه القباب فى بهو الأعمدة، هذه العادة لا تفسر فقط طريقة الإنشاء المتبعة فى المساجد الإسلامية القديمة فى كل من مصر والجزيرة العربية، وإنما تفسر أيضا طريقة بناء الأبهاء المعمدة، فى المعابد المصرية القديمة، التى ربما تركت مفتوحة للمواطنين عُبَّاد الأصنام، الذين لم توفر لهم بيوتهم المبنية من الطين سوى ملجأ بسيط جدا يحميهم من حرارة الظهيرة الشديدة.

المساجد الكبيرة فى هذه البلدان، تشارك فى مواعيد الصلاة، فى هذا العمل المقدس، هذه المساجد تعد هى الأخرى أماكن طاهرة مخصصة للصلاة. فى الأزهر، أول مساجد القاهرة وأهمها شاهدت صبية صغار يحملون فطيرا يعرضونه للبيع، ورأيت حلاقين يحلقون لزبائنهم، وشاهدت أيضا كثيرا من أفراد الطبقات الدنيا يتناولون غذائهم، فى حين نجد الناس أثناء الصلاة لا يتحركون أو يهمسون مركزين انتباههم فى الصلاة، ولا يسمحون لأى شىء أن يصرفهم عنها. أثناء الصلاة لا تسمع أى صوت سوى صوت الإمام فى المسجد الحرام فى مكة، الذى يستخدم فى غير أوقات الصلاة مكانا لاجتماع التجار ورجال الأعمال الذين يناقشون شئونهم وأمورهم، وفى بعض الأحيان الأخرى قد يمتلئ الحرم المكى بالحجاج الفقراء، أو المرضى الذين يفترشون الأرض فى أنحاء مختلفة من بهو الأعمدة، وسط أمتعتهم البائسة، الأمر الذى يجعل المسجد الحرام شبيها بالمستشفى وليس مسجدا. الصبية يلعبون فى الميدان الكبير، وخدم المسجد ينقلون الأمتعة عبر هذا الميدان، من باب اختصار الطريق بين أطراف المدينة المختلفة. والمسجد الحرام فى مكة يصبح شبيها بالمساجد الشرقية الكبيرة فى هذه الأمور. ومع ذلك فإن الكعبة المشرفة تعد مسرحا لكثير من التجاوزات

والأعمال الإجرامية، التى ينبغى مراقبتها مراقبة لصيقة وعناية كبيرة. هؤلاء الصبية ليسوا متمرسين على الإفلات من العقاب، وإنما يمكن القول إن ذلك الإفلات يكاد يكون على المستوى العام كله، لقد تسبب هؤلاء الصبية فى استيائى فى أحيان كثيرة، عندما كنت أرى بعينىّ تلك الأعمال الكريهة، التى لم تستنفر فى المرء شيئا أكثر من مجرد ضحكة أو مجرد تفريغ صغير.

تنعقد فى البهو المعمد كثير من المدارس العامة، التى يجرى فيها تعليم الأطفال الصغار فى أجزاء متعددة من ذلك البهو المعمد، والأطفال يتعلمون فى هذه المدارس العامة القراءة والكتابة، هذه المدارس تشكل جماعات شديدة الغوغائية والضوضاء، وعصى ناظر المدرسة دائمة الحركة. بعض علماء مكة يلقون محاضرات عن الموضوعات الدينية عصر كل يوم فى منطقة البهو المعمد، ولكن من يحضرون تلك المحاضرات يكونون جد قليلين. فى أيام الجمعة، وبعد الصلاة، يقوم بعض العلماء الأتراك بتفسير بعض سور القرآن لإخوانهم المواطنين الذين يتجمعون حول هؤلاء العلماء. وبعد انتهاء درس التفسير يقوم كل واحد من الحاضرين بتقبيل يد المفسر، ويضع شيئا من النقود فى غطاء رأس المفسر. وأنا شخصيا أعجبتنى جدا طلاقة واحد من هؤلاء العلماء، على الرغم من أنى لم أفهم منه أى شىء، نظرا لأن الرجل كان يلقى المحاضرة باللغة التركية. كانت مخارج ألفاظ الرجل ونغمات صوته مؤثرة للغاية، لكن الرجل، مثل الممثلين عندما يكونون على المسرح، كان يضحك ويصرخ فى آن واحد، ويكيف ملامحه مع الهدف الذى يبتغيه بمهارة فائقة. كان ذلك العالم من مواطنى بروسا **Brusa**، وجمع مبلغا كبيرا من المال.

بالقرب من بوابة المسجد الحرام التى يسمونها باب السلام ، يجلس بعض الشيوخ العرب يوميا، ومعهم محبرة وبعض الأوراق، مستعدين لكتابة الخطابات، والتواريخ، والعقود أو أية مستندات أخرى لمن يطلب ذلك. هم أيضا يعملون فى الرقى والتعازيم المكتوبة، مثل تلك التعاويذ والرقى السائدة فى بلاد السودان، مثل الأحجبة، وأعمال (تعاويز) الحب، التى يسمونها . كتب محبة القبول. هؤلاء

الشيوخ يلجأ إليهم البدو بصفة أساسية، وهم يطلبون تعويضات كبيرة عما يقومون به من أعمال الدجل.

يزاد على ذلك أن الأكفان ، والمفروشات الأخرى التى يجرى غسلها بماء زمزم يراها الناس بصفة مستمرة معلقة لتجف بين الأعمدة. كثير من الحجاج يشترون من مكة أكفانهم التى يريدون أن يدفنوا فيها، ويقومون هم أنفسهم بغسلها بماء زمزم، معتقدين أن الجثمان إذا ما جرى تكفينه فى كفن مغسول أو مبلل بماء زمزم سيكون فى مأمن أكثر. بعض الحجاج يتاجرون فى مسألة الأكفان هذه.

مكة بصفة عامة، والمسجد الحرام بصفة خاصة، يعجان بأسراب الحمام البرى، الذى يعد من المحرمات فى الحرم المكى، ويطلق الناس على هذه الأسراب اسم حمام بيت الله، ولا يجرؤ إنسان على قتل حمامة واحدة من ذلك الحمام، حتى وإن دخل منازل الناس الخاصة. فى ساحة المسجد توجد أوعية صخرية متعددة يجرى ملؤها دوما بالماء ليشرب منها ذلك الحمام، هنا أيضًا النساء العربيات تعرض للبيع على حصير مصنوع من القش، أما القمح والذرة اللذان يشتريهما الحجاج، فهم يرمونهما للحمام. لقد شاهدت بعض النساء الشعبيات (الساقطات) وهن يعرضن أنفسهن، ويساومن الحجاج تحت ستار بيع القمح لإلقائه للحمام المقدس.

بوابات المسجد الحرام تسع عشرة بوابة، وهى موزعة على محيط المسجد، بلا نظام أو توازٍ، وأنا أورد هنا أسماء تلك البوابات لأن المطوفين يكتبون هذه الأسماء على بطاقات ورقية صغيرة. فى بهو من الأبهاء المعمدة الأخرى توجد الأسماء التى كانت تطلق على تلك البوابات فى الأزمان القديمة، وقد اعتمدت على الأزرقى بصفة رئيسية فى مسألة أسماء البوابات هذه، كما اعتمدت أيضا على القطبى.

الاسم الحديث	الاسم القديم
باب السلام: مكون من ثمانية بوابات أو عقود	باب بنى شيبة
باب النبى ٢	باب الجنيز البـاب الذى تدخل منه جـثث الموتى للصلاة عليها
باب العباس ٣ يقع مقابل هذا الباب بيت العباس الذى أقام فيه ذات يوم	باب سرتكات
باب على ٣	باب بنى هاشم
باب الزيت	باب بازان
باب العشرة ٢	
باب البغلة ٢	
باب الصفا ٥	باب بنى مخزوم
باب الشريف	باب الجياد
باب مجاهد	باب الدخماسة
باب زليخة	باب شريف عجلان (الذى بناه)
باب أم هانئ ٢ سمى بهذا الاسم الذى كانت تحمله ابنة أبى طالب	
باب الوداع ٢ سمى بهذا الاسم لأنه الباب الذى يخرج منه الحاج عند مغادرة المسجد نهائيا.	باب الحاصورة
باب إبراهيم (*) ١	باب الخياطين أو باب الجمعة

(*) سمى بهذا الاسم ليس تيمنا باسم إبراهيم، وإنما باسم خياط كان له دكان بالقرب من الباب.

باب العمرة ١
الذى يخرج الحجاج منه لزيارة العمرة
ويسمى أيضا بنى سهام

الباب العتيق ١	باب عمرو بن العاص أو باب السدرة
باب الباسطية ١	باب العجالة
باب الكتبى(*) ١	باب زياد دار الندوة
باب زيادة ٣	
باب دريبة ١	باب المدرسة

إجمالى العقود ٢٩

البوابات الرئيسية من بين هذه البوابات هى: فى الناحية الشمالية، نرى باب السلام، الذى يدخل الحجاج القادمون كلهم منه إلى المسجد الحرام، باب عباس، باب النبى، الذى يقال إن محمداً ﷺ كان يدخل منه بصفة مستمرة، باب على. على الجانب (الشرقى) يوجد باب الزيت أو باب العشرة، وهو الباب الذى اعتاد صحابة النبى العشرة الأول، الدخول من خلاله، باب الصفا، وهناك بوابتان تسميان ببيبان الشريف، وهما مقابلان لقصور الشريف. فى الجهة الجنوبية، يوجد باب إبراهيم، الذى يبرز فيه البهو المعمد إلى ما وراء الخط المستقيم الذى تشكله الأعمدة، مكونا بذل ساحة صغيرة مربعة الشكل، باب العمرة، الذى يتعين المرور منه عند زيارة العمرة. على الجانب الغربى، يوجد باب زياد، الذى يشكل ساحة بارزة مشابهة لساحة باب إبراهيم، لكنها أكبر منها. السواد الأعظم من هذه البوابات له عقود عالية ومدببة، لكن هناك بعض العقود المستديرة التى نراها بين هذه العقود

(*) هذا الاسم مأخوذ عن اسم مؤلف شهير لتاريخ مكة، كان يعيش فى الحارة المجاورة، ثم فتح هذه البوابة الصغيرة على المسجد الحرام.

العالية المدببة، هذه العقود شبيهة بالعقود المماثلة لها فى سائر أنحاء الحجاز، وهذه العقود كلها شبيهة بالدائرة. هذه العقود خالية من الزينات، فيما عدا النقش الموجود على واجهة العقد من الخارج، الذى يؤبن ذكرى منشئ ذلك الباب، وكل هذه العقود، يرجع تاريخها إلى ما بعد القرن الرابع عشر. ونظرًا لأن كل بوابة تتكون من عقدين أو ثلاثة عقود أو أقسام تفصلها عن بعضها جدران ضيقة، فإن هذه الأقسام تدخل ضمن تعداد البوابات المؤدية إلى الكعبة، وبذلك يصل عدد هذه البوابات إلى تسع وثلاثين بوابة. ولما كانت تلك البوابات بلا أبواب، ترتب على ذلك أن يكون المسجد مفتوحا فى الأوقات كلها. لقد مررت على المسجد الحرام مرارا أثناء الليل، وقد كنت أجد فيه بشرا بصورة مستمرة، يصلون أو يطوفون.

الجدران الخارجية للمسجد الحرام هى عبارة عن جدران المنازل المحيطة بالمسجد من جميع الجوانب هذه المنازل كانت فى الأصل تنتمى إلى المسجد، والقسم الأكبر من هذه المنازل ملك لأفراد بعينهم، هؤلاء الأفراد اشتروا هذه المنازل، وهم يؤجرون هذه المنازل لكبار أغنياء الحجاج بأسعار عالية جدا، قد تصل إلى خمسمائة قرش، أثناء موسم الحج، للسكن الجيد، الذى له نوافذ تطل على الحرم. وبناء عليه جرى فتح نوافذ فى أجزاء كثيرة من الجدران، بحيث تكون تلك النوافذ على مستوى واحد مع الشارع، وترتفع قليلاً عن مستوى الأبهاء المعمدة. الحجاج الذين يستأجرون تلك الشقق للإقامة فيها، يصح لهم أداء صلاة الجمعة وهم داخل هذه المساكن، لأن رؤية هؤلاء الناس للكعبة وهم فى منازلهم تدخلهم ضمن الموجودين فى المسجد نفسه. على مستوى أرضية الأبهاء المعمدة، ويطل عليها، نجد تلك الشقق السكنية الصغيرة، التى جرى إنشاؤها فى الجدران، على شكل زنازين أو أبراج، هذه الزنازين لا تزال ملكا للمسجد، ولكن المنازل المبنية فوقها مملوكة لبعض الأفراد. ويجرى تأجير هذه المنازل للسقائين، الذين يحتفظون فى تلك الزنازين بجرار ماء زمزم، أو قد تؤجر تلك المنازل للحجاج الفقراء الذين يودون العيش فى الحرم. بعض المنازل المحيطة بالحرم مازالت تابعة

للحـرم، وكـان الهـدف منهـا أن تكون مـدارس عـامـة، لأن الاسم الذى يطلق على هذه المنازل هو المدارس : هذه الأماكن يجرى حاليا تأجيرها كلها للحجاج. كان محمد على باشا يعيش فى واحد من هذه المنازل الكبيرة، وكان حسان باشا يعيش فى منزل آخر من هذه المنازل(*).

توجد بالقرب من باب إبراهيم مدرسة كبيرة، هى حاليا من ممتلكات سيد عقيل، أحد كبار تجار مكة، الذى يفتح متجره على المسجد. هذا الشخص كبير السن يتمتع بسمعة طيبة وطاهرة، ويقال إن يد الشريف حينما حاولت أن تمتد إليه بالأذى، عندما رفض ذات مرة تقديم شىء من المال للشريف، يقال إن تلك اليد أصيبت بشلل مؤقت. هذا الرجل تنعقد فى بيته كل مساء جمعيات يقوم أفرادها بمناقشة الموضوعات الدينية وقراءة الكتب الدينية أيضا(**).

المحكام من بين البنايات الأخرى التى تشكل مسور المسجد الحرام، والمقصود

(*) من بين هذه المنازل منزل جميل (مدرسة) فى مكة جرى بناؤه بأوامر من قايتباى ، سلطان مصر فى العام ٨٨٨ الهجرى، فى جانب الحرم المواجه لشارع المسعى، هذا المنزل تحول هو الآخر إلى منزل خاص بعد أن جرى تجديد ذلك المنزل من عوائده بواسطة الأوصياء عليه. كانت هناك علاوة على المدارس بنايات أخرى صغيرة أقامها سلاطين مصر الآخرين هم وسلاطين إسطنبول لأغراض مشابهة، يسمونها الرباط ، الذى يمكن أن يقيم فيه الحجاج الفقراء الذين يودون الدراسة فى المسجد الحرام، ولكن هذه البنايات آلت إلى ما آلت إليه المدارس، وأصبحت حاليا ملكا للمكيين، أو تؤجر بعقود طويلة الأجل لأشخاص من قبل المسجد، وتستخدم مساكن عامة.

(**) ابن عم هذا الرجل هو القرصان الشهير المدعو سيد محمد العقيل، هذا القرصان ارتكب كثيرا من العدوان الصارخ على سفن أوروبية فى البحر الأحمر، بل وصل به الحد إلى لعن العلم الإنجليزى. فى بداية العام ١٨١٤ الميلادى كان سيد محمد العقيل قد استدعى إلى جدة، وعرضوا عليه الدخول فى خدمة محمد على باشا، الذى يقال إنه فى ذلك الوقت كان يضمر شرا لليمن. قدم الباشا لسيد محمد عقيل هدايا قيمة، إما على أمل ضمه إلى خدمته، أو تقربا منه لنيل صداقته، لكن القرصان رفض عروض الباشا. كان الرجل قد جمع ثروة طائلة، كانت للرجل منشآت فى كل ميناء من الموانئ فى البحر الأحمر، وكان بحارته وجنوده معجبين به لسخائه وكرمه. سيد محمد عقيل هذا استطاع مثل ولد عمه فى مكة، أن يجعل الناس يصدقون أنه موهوب بقوى خارقة وغير طبيعية.

بالمحاكم هنا هو بيت العدالة، وهو يقع بالقرب من باب زيادة، هذا البيت عبارة عن مبنى جيد البناء، من داخله عقود مرتفعة، وله صف من النوافذ العالية التى تطل على المسجد الحرام. بيت العدالة هذا يقيم فيه القاضى. بجوار بيت العدالة توجد مدرسة كبيرة، ثم ميدانا أو ساحة، هذه المدرسة تعرف باسم مدرسة السليمانية، والذى بناها هو السلطان سليمان وولده سليم الثانى، فى العام ٩٧٣ الهجرى. هذه المدرسة تكون دوما مليئة بالحجاج الأتراك، اصدقاء القاضى الذى يملك حق التصرف فى المساكن.

المسجد من الخارج مزين بسبع مآذن، موزعة بطريقة غير منتظمة : مئذنة واحدة لباب العمرة، ومئذنة واحدة أيضا لباب السلام، ثم مئذنة واحدة لباب على ، ومئذنة لباب الوداع، ومئذنة لمدرسة قايتباى ، ومئذنة لباب الزيادة، ثم مئذنة لمدرسة السلطان سليمان. هذه المآذن رباعية الأضلاع، ولا تختلف عن المآذن الأخرى مطلقا. المدخل إلى هذه المآذن يكون من مبانٍ مختلفة فى سائر أنحاء المسجد، الذى تجاوره تلك المآذن. من يصعد المئذنة التى فى أقصى الشمال يرى منظراً جميلا لهذا الجمع الكبير الذى فى الأسفل.

يتضح من الوصف السابق أن المسجد الحرام فى مكة، يختلف بعض الشىء فى إنشائه عن كثير من المساجد الأخرى التى لها الطابع نفسه فى آسيا. مسجد زكريا فى حلب، والمسجد الأموى فى دمشق، والعدد الكبير من المساجد الأكبر من هذين المسجدين فى القاهرة، جرى إنشاؤها طبقا للمخطط نفسه، بحيث تكون عبارة عن مُعَمَّد ذى عقود من حوله ساحة كبيرة مفتوحة. وأكثر المساجد شبها بالمسجد الحرام هو جامع بن طولون فى القاهرة، الذى بنى فى العام ٢٦٣ الهجرى، وجامع عمرو بن العاص، الذى يقع بين القاهرة والقاهرة القديمة، فى المنطقة التى كان الفسطاط مقاما عليها فى يوم من الأيام، هذا الجامع بناه عمرو بن العاص، فى السنوات الأولى من فتحه مصر، هذا المسجد فيه فى منتصفه سبيل معقد، أما فى مكة فالكعبة هى التى تتوسط المسجد، لكن مسجد(جامع) عمرو بن العاص يصل إلى ثلث المسجد الحرام من

حيث المساحة. تاريخ بيت الله أتى عليه كثير من العلماء العرب، ولم تجر توسعة المسجد الحرام إلا فى فترة متأخرة، كانت هناك أشجار كثيرة فى ساحة المسجد، والمؤسف أن تلك الأشجار لم تعقبها أشجار أخرى.

خدمة المسجد يقوم بها عدد من الأفراد. الخطباء، والأئمة، والمفتون، والعاملون فى زمزم، والمؤذنون، وأعداد من العلماء، الذين يلقون محاضرات، ووقادى المصابيح، وجمع كبير من خدم الأعمال اليدوية الصغيرة، كل هؤلاء يعملون فى خدمة بيت الله. هؤلاء الناس يتقاضون أجورا بصفة منتظمة من المسجد، فضلا عن أنصبتهم من الهدايا التى يقدمها الحجاج للمسجد؛ بغية توزيعها على من يخدمونه، أما التبرعات التى ليست لهذا الغرض فيجرى الاحتفاظ بها لصيانة المسجد. مداخيل المسجد الحرام كبيرة جدا، على الرغم من حرمانه من أفضل مصادر دخله.

هناك بعض المدن والبلدان القليلة أو بالأحرى مناطق من الإمبراطورية التركية، التى للمسجد الحرام فيها أوقاف، لكن الدخل السنوى من تلك الأوقاف، عادة ما يحتجزه الحكام (الولاة) المحليون، أو تنقصه الأيدى التى تتداوله ليتحول إلى مبلغ، مجرد مبلغ ضئيل. الإسحاقى، فى كتابه، تاريخ مصر، يروى أنه فى زمن السلطان أشمد، ولد السلطان محمد، الذى توفى فى العام ١٠٢٧ الهجرى،) كانت مصر ترسل إلى مكة كل عام مائتين وخمسة وتسعين كيسا (صرة)، مخصصة للمسجد الحرام، كما كانت ترسل أيضا ثمانية وأربعين ألف إردب وثمانية أرادب من القمح. (وفى العام ٩١٢) حدد بايازيد ولد السلطان محمد خان الدخل الذى يرسل إلى مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) من إسطنبول بحوالى أربع عشرة ألف دوكات(*) فى العام الواحد، هذا علاوة على ذلك الذى أمر به أولئك الذين جاءوا قبله، وقام السلطان سليمان بن سليم الأول بزيادة الدخل السنوى المكى الذى كان يرسل من اسطنبول، والذى سبق أن

(*) االدوكات: عملة ذهبية أوروبية. (المترجم)

حدده والده سليم بسبعة آلاف إردب من القمح، زاد الرجل هذا الدخل إلى عشرة آلاف إردب من القمح ، وخمسة آلاف إردب لسكان المدينة المنورة (*). هذا السلطان سليمان بن سليم الأول حدد أيضا الصرة التى كانت ترسل من اسطنبول، أو الصرة اليونانية، كما كانوا يسمونها، بحوالى واحد وثلاثين ألف دوكات فى العام(**). وقد قام المماليك بمصادرة كل المداخيل التى كانت تأتى من مصر، ثم استولى محمد على باشا على البقية الباقية بعد ذلك. هناك شىء من الدخل يأتى من اليمن، يطلقون عليه اسم وقف الحمام، ولا يصل منه سوى مبلغ ضئيل مع قافلة الحج. فى الوقت الراهن يمكن القول إن المسجد المكى فقير بالقياس إلى ما كان عليه من قبل(***). وإذا ما استثنينا تلك القلة القليلة من المصابيح الذهبية الوجودة فى الكعبة، وعلى الرغم من القصص الرائجة التى تقول عكس ذلك، نجد أن المسجد ليس فيه أى شىء من الكنوز، ولقد عرفت من قاضى مكة نفسه، أن السلطان، ابتغاء منه للمحافظة على هذا المنشأ، يرسل فى الوقت الراهن أربعمائة كيس كل عام، على سبيل الهدية للكعبة المشرفة، هذا المبلغ يجرى صرفه فى خدمة المسجد، ويوزع منه جزء على العاملين فى خدمة المسجد أيضا.

يجب عدم الخلط بين دخل المسجد الحرام ودخل بعض المكيين، الذين يدخل ضمنهم كثير من الخدم، الذين يحصلون عليه من مؤسسات دينية أخرى فى الإمبراطورية التركية، والذى يعرف باسم الصرة ، والذى لا يزال القسم الأكبر منه بلا مساس. يزاد على ذلك أن تبرعات الحجاج، تكفى لإعاشة أعداد كبيرة من الأشخاص العاملين فى سائر أنحاء المسجد الحرام، ومادام الحج عملية مستمرة،

(*) راجع قطب الدين.

(**) راجع العصمى. هذه الأكياس جرى تحديدها فى البداية بواسطة محمد والد السلطان يالدريم فى العام ٨١٦ الهجرى.

(***) قدم الأمراء الهنود فى أحيان كثيرة دليلاً على سخائهم على المسجد المكى. فى العام ٧٩٨ الهجرى، جرى إرسال هدايا مالية كبيرة وأشياء قيمة من قبل أمير البنغال وأمير كمباى، والعصمى يأتى على ذكر أمراء البنغال ويصفهم بالكرم والإحسان.

فلن يكون هؤلاء العاملون والخدم فى ضيق من افتقارهم إلى ضروريات الحياة أو مباهجها.

المسئول الأول فى الحرم هو ما يسمونه نائب الحرم، أو حارس الحرم، وهو الذى يحمل مفاتيح الكعبة. ويجرى وضع المبالغ التى تهدى للمبنى بين يدى هذا الحارس وهو الذى يقوم بتوزيع المبالغ هذه مع القاضى. وتجرى صيانة المسجد الحرام وإصلاحاته تحت إشراف حارس الحرم.(*) لقد أكدوا لى، لكنى لا أعرف مدى صدق ذلك، أن حسابات حارس الحرم السنوية، التى يحصيها كل من الشريف والقاضى، والتى كانت ترسل إلى إسطنبول، تقدر بحوالى ثلاثمائة صرة كل عام، للصرف منها على الإصلاحات الضرورية، والإضاءة، والسجاد، إلخ، وإعاشة الطواشيّة. المنتسبين إلى المسجد. حارس الحرم هذا تصادف فى هذه الأيام أن يكون واحدا من عمداء الأسر الرئيسية الثلاث المنحدرة عن قريش القديمة، والذى لا يزال مقيما فى مكة. بعد حارس الحرم فى المنزلة، يجىء أغا الطواشى، أو كما يسمونه أغا الطواشية هؤلاء الطواشية يقومون بأعمال ضباط الشرطة فى المسجد(**) ، كما أنهم مسئولون عن منع الإخلال بالنظام، وعن مسائل الكنس والتنظيف اليومى، باستخدام مقشات كبيرة، وتنظيف الرصيف المحيط بالكعبة وكنسه. وقد شاهدت مياه المطر، فى موسم سقوط الأمطار متجمعة فوق الرصيف إلى ارتفاع قدم تقريبا، وفى المناسبات التى من هذا القبيل يساهم حجاج كثيرون فى إزالة هذا الماء عن طريق فتحات متعددة موجودة فى الرصيف، يقال إنها تؤدى إلى تجاويف كبيرة أسفل الكعبة، وذلك على الرغم من أن مؤرخى مكة ومؤرخى المسجد الحرام لا يأتون على ذكر هذه التجاويف.

(*) شرف الاحتفاظ بمفاتيح الكعبة، والأرباح الناتجة عن ذلك، كان دوما محلا للصراع بين القبائل العربية القديمة.

(**) استخدام العبيد أو الطواشيّة فى هذا المسجد له تاريخ قديم؛ معاوية بن أبى سفيان، بعد وفاة محمد ﷺ بوقت قصير أمر باستخدام العبيد فى الكعبة. راجع الفاسى.

هؤلاء الطواشية يرتدون الكاوك الاسطنبولى، ومن فوقه روب واسع، مربوط بحزام، ويحمل كل واحد منهم عصا طويلة فى يده. الوصف الذى أورده "د. أوهون" عن هؤلاء الطواشية صحيح تماما، وقد قارنت ما كتبته عن هذا الموضوع مع ما أورده هذا الرحال(*). عدد الطواشية فى المسجد الحرام حاليا يزيد على أربعين طواشيا. وهؤلاء الطواشية يجرى إرسالهم إلى المسجد الحرام بواسطة الباشاوات والأعيان الآخرين، وهم يرسلون هؤلاء الطواشية، على سبيل الهدية، إلى المسجد الحرام، عندما يكونون صبية صغارا، ويرسل مع كل طواشىّ من هؤلاء الطواشية مبلغ مائة دولار على سبيل التجهيز. وقد قدم محمد على باشا عشرة طواشية للمسجد الحرام. فى الوقت الراهن يوجد عشرة طواشية كبار، وعشرين طواشيا من الصبية الصغار، هؤلاء الصبية الصغار يعيشون سويا فى بيت واحد إلى أن يجرى تدريبهم وتعليمهم على نحو يسمح لهم بأن يصبحوا تحت رعاية إخوانهم الكبار، الذين يبقون معهم مدة سنوات قليلة، ثم يقومون بعد ذلك بتأسيس منشأتهم الخاصة. على الرغم من أن الأمر قد يبدو شاذا وغريبا فإن الطواشية الكبار يتزوجون من إماء سوداوات، ويحتفظون فى منازلهم بكثير من العبيد والإماء على سبيل الخدم فى منازلهم. هؤلاء الطواشية يشكلون أهمية كبيرة، وفى حال حدوث مشاجرات أو اضطرابات، يقوم هؤلاء الطواشية بتطويق المتشاجرين أو مثيرى الشغب ويتعاملون معهم بعصيهم. كثير من أفراد الطبقات الدنيا فى مكة يقبلون أيدى هؤلاء الطواشية عندما يقتربون منهم. رئيس، أو أغما الطواشية يجرى اختياره من بينهم، هذا الرئيس عبارة عن شخصية قوية، ومن حقه أن يكون موجودا فى حضرة الباشا والشريف. الطواشية لهم دخل كبير يأتيهم من مداخيل المسجد الحرام، ومن التبرعات الخاصة التى تأتى من الحجاج، هؤلاء الطواشية يتلقون أيضا

(*) هذا الكتاب الممتاز هو المصدر الكامل الوحيد للمعلومات الخاصة بقوانين الإمبراطورية التركية ودستورها، لكن يجب ألا يغيب عن البال أن الممارسات التى كانت سارية فى المقاطعات كانت تتضارب، من سوء الطالع، تضاربا شديدا مع نص القانون وروحه، على حد تفسير المؤلف.

حوافز دورية من إسطنبول، كما يحصلون أيضا على ربح من الأعمال التجارية، وسبب ذلك، أن الطواشية شأنهم شأن بقية أفراد الشعب المكى، بل ومثل كبار رجال الدين، يعملون بالتجارة بشكل أو بآخر، يزاد على ذلك أن الجهد الذى يبذلونه سعيا إلى الكسب التجارى، أكبر بكثير من الجهد الذى يبذلونه فى القيام بأعمالهم الرسمية، هذا الجهد الذى يبذلونه من أجل الكسب التجارى يتساوى تماما مع الجهد الذى يبذلونه سعيا إلى اكتساب صداقة الحجاج الأثرياء.

السواد الأعظم من هؤلاء الطواشية من الزنوج، قلة قليلة منهم من الهنود الذين لبشرتهم لون النحاس. يجرى فى بعض الأحيان إرسال واحد من الطواشية السود، إلى بلاد السودان لجمع الهدايا للكعبة، وقد حكى بروس Brouc فى كتابه عن المصير الذى آل إليه واحد من هؤلاء الطواشية. قبل سنوات عدة حصل أحد الطواشية على إذن بالعودة إلى السودان، بعد أن قدم شخصا آخر بدلا عن نفسه للمسجد الحرام. وعاد الرجل إلى برجو ، غربى دارفور، وهو حاليا الحاكم القوى لهذه المنطقة.

عندما يأتى الحجاج الزنوج إلى مكة، لا ينسون مطلقا زيارة الطواشية وتقديم فريضة الطاعة والولاء لهم، والطواشىُّ بعد أن يلحق بخدمة الكعبة، التى تسبغ عليه لقب طواشى النبى ، لا يمكن أن يلتحق بأى عمل آخر.

فى شهر رمضان، (أمضيت الأيام الأخيرة منه فى مكة وكان ذلك فى العام ١٨١٤ الميلادى) يتلألأ المسجد الحرام تلألؤا فريدا . كان الحجاج فى ذلك الوقت، (المصادف لأشد أوقات العام حرارة)، يؤدون الصلوات الثلاث اليومية الأولى فى منازلهم، لكنهم يتجمعون بأعداد كبيرة فى المسجد الحرام، لأداء صلاة المغرب والعشاء. كل واحد من هؤلاء الحجاج يحمل معه فى غترته قليلا من التمر، وشيئا من الخبز والجبن، أو شيئا من العنب، يضعه أمامه انتظارا لانطلاق أذان المغرب، ثم يبدأ فى فك صيامه. طوال فترة الانتظار هذه يتبادلون فى أدب مع جيرانهم جزءا من وجبتهم ويأخذون جزءا مثيلا. بعض الحجاج، ومن منطلق ذيوع صيتهم فى الإحسان،

يتنقلون من رجل إلى رجل، ويضعون أمام كل واحد منهم قطعا قليلة من اللحم، ومن خلفهم الشحاذون، الذى يقومون بدورهم، بتلقى هذه القطع من أولئك الحجاج الذين وضعت أمامهم. وعقب نداء الإمام الموجود أعلى بئر زمزم قائلا: "الله أكبر"، يسارع الجميع إلى الشرب من جرار ماء زمزم، على أن يشرب كل واحد من جرته الخاصة به، ويأكل شيئا مما أمامه قبل أداء صلاة المغرب، وبعد صلاة المغرب يعود الجميع إلى بيوتهم لتناول العشاء، ثم يعودون بعد ذلك إلى المسجد لأداء صلاة العشاء. فى ذلك الوقت تكون الساحة، هى والأبهاء المعمدة قد أضيئت بآلاف المصابيح، يضاف إلى ذلك أن كل حاج يأتى ومعه فانوسه الخاص ليضعه أمامه. روعة هذا المنظر، والنسيم العليل الذى يعم صحن المسجد أو ساحته، يغرى جموعا كبيرة بالبقاء فى المسجد طوال الليل. هذه الساحة هى الساحة الوحيدة الواسعة والمكشوفة فى المدينة كلها، وهى تسمح للنسيم العليل بالاندفاع قادما من بواباتها، هذا النسيم العليل يعزوه المكيون إلى حفيف أجنحة الملائكة الذين يحرسون المسجد الحرام. شاهدت حماس حاج من دارفور، وصل إلى مكة فى الليلة الأخيرة من رمضان بعد أن قطع ذلك الرجل رحلة طويلة عبر صحارٍ جرداء قاحلة، هذا الحاج عندما دخل إلى المسجد المضاء، اندهش كثيرا لمنظر المسجد، وانبهر أيضا بالكعبة السوداء، إلى حد أنه خر ساجدا بالقرب من المكان الذى كنت أجلس فيه، وبقى على هذه الحال فترة طويلة، ثم نهض الرجل بعد ذلك، وانهمرت دموعه، وفى ذروة انفعاله، وبدلا من أن يدعو بالدعاء المعتاد راح يقول متوسلا: "يا رب، اقبض روحى، لأن هذا جنة!"

انتهاء موسم الحج يضفى على المسجد الحرام مظهرا مختلفا تماما. الأمراض والوفيات التى تنتج عن هذه الرحلة المضنية، أو الناتجة عن ملابس الإحرام الخفيفة، وكذلك السكن غير الصحى فى مكة، وكذلك الطعام السيئ، والفقر والحاجة فى بعض الأحيان، كل ذلك يؤدى إلى امتلاء المسجد الحرام بجثث الموتى، التى تحمل إلى داخل الحرم للصلاة عليها، أو المرضى الذين إذا ما اشتد مرضهم ودنا أجلهم يجرى إحضارهم إلى الأبهاء المعمدة، على أمل أن يشفوا بسبب النظر إلى الكعبة، أو الرضا

– فى أضعف الأحوال – بأن يموتوا فى المكان المقدس. الحجاج الفقراء الذين أرهقهم المرض والجوع، تراهم يجرجرون أجسادهم الواهنة على امتداد الأعمدة، وعندما يعجزون عن مد أيديهم طلبا للإحسان، يقومون بوضع إناء يتلقون فيه الصدقات بالقرب من الحصير الذى يرقدون عليه، وعندما يحسون اقتراب لحظاتهم الأخيرة، تراهم يغطون أنفسهم بخرقهم المهلهلة، وقد يمضى يوم كامل قبل أن يكتشف الناس أنهم قد فارقوا الحياة. وعلى امتداد شهر كامل بعد انتهاء موسم الحج، كنت أشاهد كل يوم تقريبا، جثث الحجاج الذين فارقوا الحياة ممددة على الأرض فى المسجد، وقد قمت أنا وحاج يونانى، ساقته المصادفة إلى هذا المكان، قمنا بإغماض عينى حاج مغربى فقير، الذى زحف إلى أن أصبح على مقربة من الكعبة، ليلفظ نفسه الأخير، على حد قول المسلمين "بين يدى الرسول والملائكة الحارسين للمسجد" وأشار لنا أنه يرغب فى نثر بعض من ماء زمزم على وجهه، وبينما كنا نفعل ذلك صعدت روح الرجل إلى بارئها، وبعدها بنصف ساعة جرى دفن جثته. هناك العديد من الأشخاص الذين يعملون فى خدمة المسجد، وبخاصة غسل تلك الأماكن التى يلفظ فيها مثل هؤلاء الناس أنفاسهم الأخيرة، كما يقومون أيضا بدفن الفقراء، ومن لا أصدقاء لهم وتوافيهم المنية فى مكة.

ملاحظات تاريخية

فيما يتعلق بالكعبة، المسجد الحرام، أورد هنا بعض المقتطفات من أعمال الأزرقى، والفاسى، وقطب الدين، والعصمى، نظرا لأن هؤلاء المؤلفين هم الذين أتيت على ذكرهم فى مقدمة الكتاب.

يؤكد الدين الإسلامى أن الكعبة أنشئت فى السماء قبل أن يخلق الله الكون بألفى عام، وأن الملائكة كانوا يتعبدون فيها، عندما أمرهم الله بالطواف أو السير حولها. آدم أول المؤمنين، هو الذى أقام الكعبة على الأرض، فى موقعها الحالى، الذى يقع

أسفل المكان الذى كانت تشغله فى السماء. جمع آدم - عليه السلام - الأحجار التى استعملها فى بناء الكعبة من الجبال الخمسة الشريفة، جبل لبنان، طور سيناء (جبل سيناء)، والجودى (الاسم الذى يطلقه المسلمون على الجبل الذى رست عليه سفينة نوح بعد انحسار الطوفان)، وجبل الحرة ، أو بالأحرى جبل النور، وجبل طور زيت (ذلك الجبل الذى ورد ذكره فى السورة الخامسة والتسعين من القرآن). جرى تعيين عشرة آلاف ملك لحماية بيت الله الحرام من الأحداث، لكن يبدو أن هؤلاء الملائكة، من واقع تاريخ الحرم نفسه، كانوا غير متقنين لعملهم. أبناء آدم رمموا الكعبة، وبعد الطوفان، أُمِر (سيدنا) إبراهيم - عليه السلام - بعد أن تخلى عن عبادة الأصنام التى كان عليها أسلافه، من قبل المولى عز وجل بإعادة إنشاء الكعبة. وكان ولده (سيدنا) إسماعيل - عليه السلام -، الذى كان يسكن بالقرب من مكة منذ طفولته، يساعد والده الذى جاء من سوريا من باب الطاعة لله سبحانه وتعالى وعندما بدأ الحفر عثرا على الأساس الذى وضعه آدم عليه السلام. ولما كانا بحاجة إلى حجر يضعانه فى زاوية المبنى ليكون بمثابة إشارة لبدء الطواف حول الكعبة، فقد ذهب (سيدنا) إسماعيل يبحث عن حجر. وأثناء مسيره فى اتجاه جبل قبيص، التقى (سيدنا) جبريل، وقد أمسك بيده حجرا أسود. كان لون الحجر فى ذلك الوقت براقا ولامعا، لكنه تحول إلى اللون الأسود، على حد قول الأزرقى، نظرا لتعرض ذلك الحجر مرارا، قبل ظهور الإسلام وبعده. يقول بعض آخر من المؤرخين إن لون الحجر تغير بفعل خطايا أولئك الذين لمسوه، وفى يوم القيامة سيشهد ذلك الحجر لصالح كل أولئك الذين لمسوه بقلوب صافية وسوف يرى ويتحدث ذلك الحجر.

بعد حدوث بئر زمزم على سبيل المعجزة، وقبل أن يبدأ (سيدنا) إبراهيم بناء الكعبة، كانت قبيلة بنى جرهم ، الذين هم فرع من الأمالكة ، تقيم فى هذه المنطقة، بإذن من (سيدنا) إسماعيل وأمه، اللذين كانا يعيشان بين أفراد هذه القبيلة، كان (سيدنا) إسماعيل يعتبر بئر زمزم ملكا له، لكنه بعد أن تزوج من قبيلة جرهم، قام بنو

جرهم، بعد وفاة (سيدنا) إسماعيل باغتصاب ملكية كل من بئر زمزم والكعبة. أثناء مقامهم فى هذا الوادى، قاموا بترميم الكعبة أو إعادة بنائها لكن بئر زمزم انسدت بفعل السيول العاتية، واستمر ذلك الانسداد على امتداد ألف عام، ثم قامت قبيلة خزاعة بعد ذلك بالاستيلاء على الكعبة لمدة ثلاثمائة عام، ثم قام هؤلاء الذين جاءوا بعد خزاعة، وهم من قبيلة قصى بن كلاب ، بإعادة بناء الكعبة، ونظرا لأن الكعبة كانت معرضة دوما للدمار من قبل السيول، فقد كانت دوما بحاجة إلى الترميم والإصلاح. كانت الكعبة فى ذلك الزمان مكشوفة من أعلى، ولكن بنى قصى قاموا بسقف الكعبة، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت الكعبة غير معرضة لمخاطر الهدم.

هناك عربى من بنى قصى ، يدعى عمر بن لاهاى ، أول من أدخل عبادة الأوثان بين إخوانه المواطنين، وهو الذى أحضر الصنم المدعو هبل من حيث فى بلاد الرافدين(*) ووضعه فى الكعبة. وهنا بدأت عبادة الأوثان تنتشر انتشارا سريعا، ويبدو أن كل قبيلة عربية اختارت إلاهها الخاص بها، أو صنمها الخاص بها، ولما كانت الكعبة تعد بانثيونا(**) عاما لهذه الأصنام كلها، فقد راح الناس يترددون عليها فى موسم الحج. يقول الأزرقى إن النخلة التى يسمونها عزًا كانت تعبدها قبيلة خزاعة، أما بنو ثقيف فكانوا يعبدون الصخرة المسماة اللات ، وهناك شجرة كبيرة يسمونها ذات أروات ، كانت قريش تعبدها، يزاد على ذلك أن الأماكن المقدسة مثل منى ، والصفا ، والمروة كلها كانت أشباه آلهة، والمؤرخون يوردون قوائم طويلة بآلهة أخرى كثيرة. وتزايد عدد الأصنام ، إلى حد أن أصبح فى كل بيت صنم، بل فى كل خيمة من الخيام المنصوبة فى هذا الوادى، وكانت الكعبة مزينة بثلاثمائة وستين صنما، بعدد أيام السنة.

(*) راجع الأزرقى.

(**) بانثيون: هيكل عام للآلهة (المترجم).

كانت قبيلة قصى أول من بنى منازل حول الكعبة، كانوا يعيشون فى تلك المنازل فى فترة النهار، لكنهم كانوا يعودون إلى خيامهم فى فترة المساء التى كانوا ينصبونها على الجبال المجاورة. كان بنو قريش الخلف الذين جاءوا بعد بنى قصى إلى مكة، أو بكة (الاسم الذى كانوا يطلقونه على مكة فى ذلك الوقت)، فى ذلك الوقت على وجه التقريب دمرت الكعبة بفعل حريق، وقام القرشيون بإعادة بناء الكعبة من الخشب، ولكن حجمها كان أصغر من الحجم الذى كانت عليه فى زمن بنى قصى، لكنهم جعلوا من حائط أو جدار الحجر (الذى سبق ذكره) حدا من حدودها السابقة، وجرى إسناد السقف من الداخل بواسطة ستة أعمدة، أما تمثال هبل ، المريخ Jupiter، فقد جرى وضعه فوق بئر، كانت موجودة داخل الكعبة فى ذلك الوقت. حدث ذلك يوم أن كان محمد ﷺ فى سنى شبابه، وجرى نقل الأصنام إلى المبنى الجديد، ويورد الأزرقى بشهادة رأى العين لأناس يحظون باحترام كبير، ليثبت حقيقة مهمة (لم يلاحظها أحد فى ذلك الوقت)، مفادها أن شكلا لمريم البتول، وفى حجرها (سيدنا) عيسى عليه السلام - هذه الصورة جرى نحتها بوصفها من الآلهة - على عمود من الأعمدة الستة بالقرب من بوابة الكعبة.

كان عبدالمطلب بن هاشم، جد محمد ﷺ قد أعاد حفر بئر زمزم قبل حرق الكعبة بوقت غير طويل.

عندما دخل محمد ﷺ بلد أجداده منتصرا، دمر كل الصور والتماثيل التى فى الكعبة، وألغى عبادة الأصنام التى كان يمارسها بنو وطنه، وراح مؤذن الرسول، بلال الزنجى يؤذن فى الناس (المسلمين) من فوق الكعبة لأداء الصلاة.

كانت قريش قد بنت بلدة صغيرة حول الكعبة، وقد عبدوا هذه البلدة إلى حد أنهم كانوا يرفضون أن يقوم أى أحد بتعلية سقف بيته عن سقف هذه البلدة المقدسة، وقد أكد الإسلام على الحج إلى ذلك الضريح الشريف، الذى بناه العرب الوثنيون.

كان عمر بن الخطاب أول من بنى مسجدا حول الكعبة فى العام ١٧ الهجرى، وبعد شراء المنازل الصغيرة المحيطة من القرشين، وبعد بناء جدار حول المنطقة، قام

عثمان بن عفان فى العام ٢٧ بتوسعة الميدان، وفى العام ٦٣ الهجرى عندما جرت محاصرة يزيد المهرطق المتمرد فى مكة بواسطة عبدالله بن الزبير، ابن أخت السيدة عائشة، جرى تدمير الكعبة عن طريق الحرق، هناك من يقولون إن ذلك كان من قبيل المصادفة، وهناك أيضا من يقول مؤكدا إن ذلك حدث عن طريق المنجنيق الذى وجهه إليها يزيد من فوق جبل قبيص الذى اتخذ منه موقعا له. بعد طرد يزيد ، قام ابن الزبير بتوسعة محيط السور عن طريق شراء المزيد من المنازل من المكيين، وإضافة أرض هذه المنازل بعد هدمها، إلى السور كما قام ابن الزبير أيضا بإعادة بناء الكعبة على نطاق كبير، وزاد ارتفاعها من ثمانية عشر رمحا (ارتفاع الكعبة فى زمن القرشيين) إلى سبعة وعشرين رمحا، أو إلى ما يقرب من ارتفاعها الذى كانت عليه فى زمن إبن قصى. فتح ابن الزبير بابين فى الكعبة، وكان البابان فى مستوى سطح المنطقة، كما أنشأ للكعبة سقفا مزدوجا، محمولا على ثلاثة أعمدة بدلا من ستة أعمدة. كان طول الكعبة الجديد يقدر بخمسة وعشرين قدما أما عرضها فكان عشرين قدما من أحد الأجناب وإحدى وعشرين قدما من الجانب الآخر. فى داخل الكعبة، كانت البئر الجافة المسماة بير أهسف ، لا تزال موجودة، وكان يجرى فيها الاحتفاظ بالكنوز والهدايا، وبخاصة الأوعية والأوانى الذهبية التى جرى تقديمها للكعبة، الذى يقال إنه مشتق من كعب ، بمعنى مكعب، وهو الشكل الذى عليه الكعبة فى الوقت الحاضر. كان اسم الكعبة قبل ذلك (بيت الله) ، أو البيت العتيق ، وهو لا يزال يطلق على الكعبة.

بعد عشرين عاما من التاريخ سالف الذكر، قام الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى كان حاكما على مكة فى ذلك الزمان، والذى لم تعجبه توسعة الكعبة، بتقليل أبعاد الكعبة إلى ما كانت عليه فى زمن قريش، بأن اقتطع من طولها ستة رماح، كما أعاد الحجاج الجدار الذى يسمونه الحجر، الذى كان ابن الزبير قد أضافه إلى المبنى. كان الحجم الذى عليه المبنى فى ذلك الوقت هو الحجم الذى هو عليه فى الوقت الراهن، وأصبح يجرى الالتزام به فى الإصلاحات والترميمات التى جددت بعد ذلك.

فى أواخر القرن الأول الهجرى، كان الوليد بن عبدالملك أول من أقام أعمدة فى المسجد. وهو الذى أمر بتغطية رءوس الأعمدة بطبقة من الذهب، وهو الذى أنفق كثيرا على زينات المسجد وزخرفاته، ويروى أن الزينات الذهبية كلها، التى أهداها الوليد بن عبدالملك للمسجد جاءت من طليطلة فى إسبانيا، وجرى نقلها على ظهور البغال عبر كل من إفريقيا والجزيرة العربية.

فى العام ١٣٩ الهجرى، قام أبو جعفر المنصور بتوسعة الجانبين الشمالى والجنوبى من المسجد الحرام، وجعله ضعف الحجم الذى كان عليه من قبل، الأمر الذى جعل المسجد يشغل حاليا مساحة طول ضلعها سبعة وأربعين رمحا ونصف الرمح. كما أمر أبو جعفر المنصور برصف الأرض المجاورة لبئر زمزم بالرخام.

أضاف الخليفة المهدى إلى حجم المسجد فى فترتين مختلفتين، كانت الإضافة الأخيرة فى العام ١٦٣ الهجرى، وقد اشترى الخليفة المهدى الأرض اللازمة لهاتين الإضافتين، أو إن شئت فقل: التوسعتين من المكيين، بأن دفع لهم خمسة وعشرين دينارا عن كل رمح مربع. والخليفة المهدى هو الذى جلب الأعمدة من مصر، كما سبق أن قلت. هذه التحسينات التى بدأها الخليفة المهدى، أكملها ولده الهادى، وجرى عمل السقف الخاص بالبهو المعمد من الخشب الهندى، وجرى إنزال الأعمدة التى جلبت من مصر على بعد مسافة مسير يوم واحد عن جدة من ناحية الشمال، لكن بسبب بعض المشكلات التى ثارت لم يجر نقل الأعمدة كلها إلى مكة، فقد جرى ترك بعض من هذه الأعمدة على الرمل على شاطئ البحر. وأنا أشير إلى ذلك لتنوير الرحالة المستقبليين، الذين إذا ما وجدوا هذه الأعمدة، لا يحسبونها بقايا مستوطنة أو مستعمرة مصرية أو يونانية قديمة.

يبدى مؤرخو مكة ملاحظة، وفى شىء من الاندهاش، مفادها أن الخليفة هارون الرشيد، على الرغم من زيارته الكعبة مرات عدة، فإنه لم يضف أى شىء إلى المسجد الحرام، اللهم باستثناء منبر جديد.

في العام ٢٢٦ الهجرى، وأثناء حكم الخليفة المعتصم بالله جرى تغطية بئر زمزم من أعلى، كانت البئر من قبل قد جرى إقامة سور من حولها، لكن لم يجر تغطية ذلك السور أو سقفه.

فى العام ٢٤١ الهجرى جرى رصف المنطقة فيما بين حجر إسماعيل والكعبة بالرخام الجميل. فى ذلك الوقت كانت هناك بوابة تفضى إلى المساحة الموجودة داخل مسور الحجر.

فى العام ٢٨١ الهجرى، قام الخليفة المعتضد بترميم المسجد الحرام كله؛ فقد أعاد بناء جدران المسجد كله، وأنشأ بوابات جديدة، وأطلق عليها أسماء جديدة ، كما وسع المبنى من الجانب الغربى بأن أضاف إليه المساحة التى كانت تشغلها من قبل دار الندوة، ودار الندوة هذه واحدة من البنايات القديمة فى مكة، والشهيرة فى تاريخ العرب الوثنيين، من منطلق أن دار الندوة هذه كانت المجلس العام لشيوخ مكة، ويقال إن دار الندوة تقع بالقرب من المقام الحنفى الحالى.

فى العام ٣١٤ الهجرى، أو العام ٣٠١ الهجرى، على حد قول مؤرخين آخرين لقيت مكة والمسجد الحرام هزائم كثيرة؛ فقد قام جيش القرامطة المهرطقين، بقيادة رئيسهم أبو طاهر القرمطى بغزو الحجاز، واستولوا على مكة، وجرى قتل خمسين ألفا من سكان مكة أثناء السطو على مكة وسلبها ونهبها، وجرى تجديد الكعبة هى والمسجد الحرام من الزينات الثمينة كلها. وبعد البقاء فى مكة مدة واحد وعشرين يوما، رحل العدو عنها حاملا معه جوهرة مكة الثمينة، ألا وهو الحجر الأسود الموجود فى الكعبة، وخلال الحريق الذى أضرم فى الكعبة فى زمن ابن الزبير كانت النار قد قسمت الحجر الأسود إلى ثلاثة أجزاء، جرى ضمها إلى بعضها البعض فيما بعد، ووضعت فى مكانها السابق وأحيطت بإطار من الفضة، وقام هارون الرشيد بتجديد هذا الأطار وتقويته.

حمل القرامطة الحجر إلى الحجر(*)، التى هى بقعة خصبة فى الصحراء، على طريق الحج السورى، شمالى المدينة المنورة التى اختارها القرامطة لتكون موطنا من مواطن إقامتهم. كان القرامطة يأملون أن يأتى المسلمون كلهم لزيارة ذلك الحجر، وبالتالى يصبح من حقهم الحصول على الثروة التى يجلبها الحجاج معهم من سائر أنحاء الأرض إلى مكة، فى ظل هذا الانطباع، رفض أبو طاهر القرموطى عرضا مقداره خمسين ألف دينار فدية للحجر الأسود، لكن بعد وفاة أبو طاهر القرموطى، أعاد القرامطة فى العام ٣٣٩ الهجرى عن طيب خاطر، الحجر الأسود، اقتناعا من خبرة مفادها أن توقعاتهم للثروة، من وراء امتلاك الحجر، لم تكن قائمة على أساس سليم، وأن قلة قليلة من المسلمين هم الذين جاءوا إلى الحجر بغية تقبيل الحجر. فى ذلك الوقت كان الحجر الأسود قطعتين، إذ انقسم الحجر جراء ضربة أصابته من أحد القرامطة يوم أن كانوا يسلبون مكة وينهبونها.

بعد سبعين عاماً من إعادة الحجر الأسود إلى مكانه القديم، كابد الحجر انتهاكا آخر، فقد أوفد الحاكم بأمر الله، ملك مصر المجنون، وصاحب النوايا السيئة فى إعادة بعض الأمجاد السماوية لنفسه، أوفد فى العام ٤١٣ الهجرى مصريا مع قافلة الحج إلى مكة لتدمير الحجر الأسود. واستعمل ذلك المصرى عكازا حديديا خبأه فى طيات ملابسه، واقترب الرجل من الحجر الأسود، وقال متعجبا: " إلى متى سيظل الناس يعبدون الحجر ويقبلونه؟" وليس هناك محمد ﷺ أو على ﷺ حتى يمنعانى من القيام بذلك، وأنا اليوم سوف أدمر هذا المبنى!" ثم ضرب ذلك المصرى الحجر ثلاث مرات بعكازه الحديد. كانت هناك مجموعة من الخيالة، من ضمن القافلة التى سافر معها إلى مكة، وكانت تلك المجموعة من الخيالة مستعدة لتقديم يد العون والمساعدة

(*) يقول العصمى إن الحجر تم نقله إلى الأحساء، بالقرب من الخليج الفارسى، وهى مدينة بناها مؤخرا أبو طاهر القرموطى. وقد عثرت فى رحلات ابن بطوطة على بلدة فى منطقة الأحساء يسمونها الحجر.

لذلك المارق، فور الانتهاء من مهمته، لكن هذه المجموعة لم تستطع حماية ذلك المصرى من غضب السكان. وجرى قتله بخنجر أحد المواطنين اليمنيين، وجرى مطاردة الخيالة، وجرى سلب القافلة المصرية ونهبها فى تلك المناسبة.

بعد تفحص الحجر، وجد أن ثلاث قطع فى حجم ظفر الرجل، قد قطعت من الحجر الأسود بفعل الضربات، هذه القطع الثلاث جرى طحنها وأخذ الرماد الناتج عنها، وتم عجنه بالأسمنت ثم جرى ملء الكسور بتلك العجينة. واعتبارا من ذلك التاريخ، لم يواجه الحجر بعد ذلك أية مساوئ اللهم باستثناء العام ١٦٧٤ الميلادى، حيث اكتشف الناس فى صباح أحد الأيام تلطيخ الحجر الأسود بالأقذار، هو وباب الكعبة، الأمر الذى جعل هؤلاء الذين يقبلون على تقبيله بالتراجع اشمئزازا، مؤلف هذه النكتة المدنسة للمقدسات، جرى البحث عنه دون جدوى، وحامت الشكوك حول بعض الفارسيين، لكن لم يتم إثبات ذلك الاتهام الموجه إلى الفارسيين(*).

مسألة قداسة الحجر الأسود تبدو كأنها محل نقاش كبير من جانب واحد من أهم دعائم الإسلام. وها هو الأزرقى يورد شهادة كثير من الشهود، الذين سمعوا عمر بن الخطاب وهو يقول متعجبا عندما كان يقف أمام الحجر الأسود: " أنا أعرف أنك حجر ليس إلا، وأنك لا يمكنك أن تضرنى أو تنفعنى، ولا ينبغى أن أقبلك، لولا أنى رأيت محمدا ﷺ وهو يفعل الشىء نفسه".

فى العام ٣٥٤ الهجرى، بنى الخليفة المقتدر مدخلا بالقرب من باب المسجد، الذى يسمونه باب إبراهيم، هذا المدخل يبرز إلى ما وراء الخط المستقيم المكون من الأعمدة، وضم إلى هذا المدخل بوابتين قديمتين هما باب بنى جومة ، وباب الخياطين. واعتبارا من ذلك الوقت لم تحدث أية تحسينات على امتداد قرون عدة.

(*) راجع العصمى للمزيد عن هذه التفاصيل.

في العام ٨٠٢ الهجرى، دمر حريق الجانبين الشمالى والغربى من المسجد الحرام، وبعد ذلك بعامين، أعيد بناء هذين الجانبين على حساب الناصر الفراج ابن الظاهر برقوق، سلطان مصر، وجرى نقل الخشب المطلوب لهذا الغرض من مصر ومن الطائف إلى حد ما، حيث يوجد شجر العرار، الذى هو نوع من الصنوبر، الذى يعد من الأخشاب الجيدة.

فى العام ٩٠٦ الهجرى، أعاد قنصوه الغورى، سلطان مصر، بناء القسم الأكبر من الجانب المسمى باب إبراهيم. والحجاز مدين لقنصوه الغورى بإنشاء مبانٍ عامة أخرى متعددة.

فى العام ٩٥٩ الهجرى، أثناء حكم سليمان بن سليم الأول، سلطان اسطنبول، جرى تجديد سقف الكعبة.

فى العام ٩٨٠ الهجرى، أعاد السلطان نفسه بناء ذلك الجانب من المسجد الحرام فى اتجاه شارع المسعى، كما أمر أيضا ببناء القباب التى تغطى سقف البهو المعمد. أمر سليمان بن سليم الأول بوضع الرصيف الموجود حاليا حول الكعبة، كما جرى أيضا عمل رصيف حول الأبهاء المعمدة.

فى العام ٩٨٤ الهجرى، قام مراد ولد سليمان بن سليم الأول بترميم وإعادة بعض أجزاء الجوانب الثلاثة، التى لم يرممها والده.

فى العام ١٠٣٩، (أو المصادف للعام ١٦٢٦ من زمننا) انهمر سيل قادم من جبل النور إلى المدينة، وسرعان ما غمر المسجد الحرام، مما أدى إلى غرق كل هؤلاء الذين كانوا فى المسجد فى ذلك الوقت، وقد أدى ذلك إلى تدمير كل الكتب، والنسخ الفاخرة من القرآن، التى تركت فى الشقق السكنية الموجودة فى أسوار المبنى ، كما جرف السيل أيضا جزءا من الجدار الموجود أمام الكعبة، المسمى حجر إسماعيل، كما جرف أيضا ثلاثة جوانب من جوانب الكعبة نفسها، وتسبب ذلك السيل فى وفاة خمسمائة نفس من الأنفس التى كانت تعيش فى المدينة. وفى العام التالى جرى

إصلاح تلك الأضرار، وأعيد بناء الكعبة بعد انهيار ذلك الجانب الذى كان قد نجا من السيل.

فى العام ١٠٧٢، جرى إقامة المبنى الذى فوق بئر زمزم، بالشكل الذى هو عليه حاليا، وفى العام ١٠٧٤ جرى بناء المقامات الأربعة من جديد.

لم يأت المؤرخون على ذكر أية إصلاحات أو ترميمات تمت بعد هذا التاريخ فى المسجد الحرام، ومبلغ علمى أنه لم تحدث أية إصلاحات أو ترميمات فى القرن الثامن عشر. من هنا يمكن القول: إن المسجد الحرام بالشكل الذى هو عليه حاليا، يمكن أن يعزى كلية إلى رعاية سلاطين مصر المتأخرين وعنايتهم، ومن جاءوا بعدهم، وإلى سلاطين إسطنبول العثمانيين، اعتبارا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

فى خريف العام ١٨١٦ الميلادى جرى استخدام حرفيين، وعمال متعددين جاءوا من إسطنبول، إلى الحجاز، فى إصلاح كل الأضرار التى نتجت عن الوهابيين فى مساجد الأولياء الذين فى هذا البلد، وفى القيام بالترميمات والإصلاحات الضرورية فى مساجد كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة).

وصف أماكن أخرى مشرفة متعددة يزورها الحجاج في كل من مكة والمنطقة المجاورة لها

فى زمن الوهابيين لم يجرؤ أحد على زيارة هذه الأماكن دون تعريض نفسه لعداء هؤلاء الناس، وقد قام الوهابيون بتدمير المبانى كلها التى جرى إنشاؤها فى هذه الأماكن، أو بالأحرى دمروا القباب فى أضعف الأحوال.

فى مدينة مكة كان يجرى ما يلى:

مولد النبى ، مسقط رأس محمد ﷺ، فى الحى الذى سمى بهذا الاسم. فى زمن الفاسى كان هناك مسجد مقاما بالقرب من هذا المكان، وكان يسمى مسجد

المخطبة . أثناء مقامى فى مكة، كان العمال مشغولين بإنشاء المبنى المقام فوق المولد فى موقعه السابق نفسه، كان المبنى يتكون من مبنى مستدير تعلوه قبة، وكانت أرضية ذلك المبنى تنخفض بحوالى خمسة وعشرين قدما عن مستوى الشارع، وكان هناك درج (سلم) يؤدى إلى المبنى. وهناك حفرة صغيرة واضحة فى أرضية المبنى، كانت والدة محمد ﷺ تجلس فيها أثناء ولادته، ويقال إن ذلك كان منزل عبدالله والد محمد ﷺ .

مولد ستنا فاطمة، أو مسقط رأس فاطمة، ابنة محمد ﷺ ، هو عبارة عن مبنى جيد من الحجر، ويقال إنه كان منزل والدتها خديجة فى الشارع المسمى زقاق الحجر. وهناك درج (سلم) يؤدى إلى أرضية هذا المبنى، الذى هو أيضا تحت مستوى الشارع مثل المولد السابق. هذا المبنى الصغير يشتمل على مكانين مشرفين: فى أحدهما حفرة شبيهة بالحفرة التى فى المولد السابق، أو بالأحرى فى مولد النبى، هذه الحفرة تبين المكان الذى ولدت فيه (ستنا) فاطمة، وبجوار هذه الحفرة توجد حفرة أخرى، أقل عمقا من الحفرة الأولى، تحدد المكان الذى كانت تدير فيه رحاها ، بعد أن شبت عن الطوق. وفى مسكن قريب من هذا المكان، توجد خلوة ضيقة، كان من عادة محمد ﷺ الجلوس فيها وهو يتلقى من جبريل سور القرآن المنزل من السماء. هذا المكان يسميه الناس هنا قبة الوحى .

مولد الإمام على، فى الحى المسمى شعب على رضي الله عنه . هذا المولد عبارة عن مصلى صغير توجد فى أرضيته حفرة تحدد مسقط رأس على، ابن عم محمد ﷺ ، على حد قول الناس.

مولد سيدنا أبو بكر ، عبارة عن مصلى صغير مقابل الصخرة التى سلمت على محمد ﷺ قائلة " سلام عليكم" كلما كان ﷺ يمر عليها. هذا المكان خلو من الأماكن المقدسة، لكن أرضية هذا المكان مفروشة بسجاجيد فارسية فاخرة.

هذه الموالد كلها جرى ترميمها ترميما كاملا بعد انسحاب الوهابيين، فيما عدا مولد محمد ﷺ، الذى كان العمال لا يزالون مشغولين بالعمل فى ترميمه واصلاحه . هناك عائلات متعددة تقوم على رعاية هذه الأماكن، وبخاصة الأشراف، الذين يرعون هذه الأماكن بالتناوب هم ومجموعة من الخدم المرافقين لهم. فى كل ركن من أركان هذه الأماكن المشرفة تفرش المناديل البيضاء، أو السجاجيد الصغيرة، التى ينتظر من الزائرين أن يلقوا عليها ببعض النقود، يزاد على ذلك أن النساء يجلسن على أجناب البوابات، انتظارا لأن يعطيهن الحجاج شيئا من النقود. توزيع ما قيمته شلن واحد من البارات فى كل مولد من تلك الموالد، يعد استجابة كاملة لمطالب هؤلاء النساء الجشعات المعوزات.

مولد أبى طالب، فى معالة، قد دُمِّر تدميرا كاملا، كما سبق أن قلت، والأرجح أنه لن يعاد بناؤه.

قبر ستنا خديجة – قبر خديجة – زوج محمد ﷺ ، وقد هدم الوهابيون قبة ذلك القبر، ولم يجر بعد بناء هذه القبة، هذا القبر يزوره الحجاج بصورة منتظمة، وبخاصة أيام الجمعة فى الصباح. هذا القبر يقع فى منطقة مدافن المعالة، عند منحنى السلسلة الغربية، ويحيط بهذا القبور سور مربع الشكل، وليس فيه أى شيء غريب أو مثير للفضول سوى شاهد القبر، الذى يحمل نقشا بالخط الكوفى، مكون من بعض الآيات القرآنية، مأخوذة من سورة الكرسى. ونظرا لأن أحرف النقش ليست أحرف كوفية قديمة، فأنا يراودنى شك مفاده أن هذا الشاهد، لم يكن مقصودا له تغطية هذا القبر: النقش خالٍ من التواريخ. كان الشريف سرور، الذى خلف الشريف غالب، متباهيا، فقد أصدر أوامر بدفنه بعد وفاته بالقرب من قبر السيدة خديجة، فى المسور نفسه الموجود حاليا. وعلى مقربة من هنا يوجد قبر آمنة أم محمد ﷺ . هذا القبر جرت تغطيته بلوح من الرخام، عليه نقش كوفى، بأحرف أقدم من أحرف النقش سالف الذكر. كسَّر الوهابيون ذلك النقش، وأزالوا القطعتين، تعبيرا عن استيائهم من الزيارات التى يقوم بها الناس (الحجاج) إلى مستودعات عظام الأموات، الأمر الذى يعده الوهابيون شكلا من أشكال عبادة الأوثان. عند هذه القبور أيضا وجدت نساء سمح لهن بفرد مناديلهن استجداء لصدقات الزائرين.

عندما تجولت بين هذه الجبانات الواسعة، عثرت على كثير من شواهد القبور الأخرى التى تحمل نقوشا كوفية، لكنها ليست بأحرف كوفية قديمة. لم أستطع فك شفرة أى تاريخ سابق للقرن الساس الهجرى (المصادف للقرن الثانى عشر الميلادى)، لكن السواد الأعظم من هذه النقوش عبارة عن مجرد دعوات وأدعية، دون ذكر اسم المتوفى أو التاريخ. القبور هنا، تتكون بشكل عام من أربعة أحجار كبيرة موضوعة على شكل مستطيل، مع وجود حجر عريض عمودى على نهاية القبر يحمل نقشا. لم أشاهد قبورا ضخمة، أو محفورة فى الحجر، أو أية زينة من الزينات المستخدمة فى أجزاء أخرى من آسيا. قامت الأسر المكية الأولى بإحداث بعض البنايات الصغيرة القليلة، وقد أحدثوا تلك البنايات بغية تسوير قبور أقاربهم، هذه المسورات مرصوفة أو ممهدة من الداخل، لكنها بلا سقف، كما أنها عبارة عن إنشاءات بسيطة للغاية. فى اثنين أو ثلاثة من هذه المسورات عثرت على بعض الأشجار المزروعة، والتى يجرى ريها من خزانات موجودة داخل المسور لاستقبال مياه المطر، هنا يقضى أصحاب هذه المسورات جزءا من نهار اليوم. قام الوهابيون أيضا بتدمير مبانٍ متعددة عليها قباب، وتحتوى على رفات رجال اشتهروا بعلمهم. هؤلاء الوهابيون المتشددون لم يلمسوا القبور نفسها، كما احترموا أيضا رفات الموتى فى كل مكان، من بين هذه القبور نجد قبورا أيضا لباشوات متعددين من سوريا ومن مصر، شيدت بلا زينة أو بهرجة.

عند نهاية كل قبر، ومقابل شاهد القبر نفسه، وجدت عشبا منخفضا، نوع من أنواع الصبار، جرى زرعه فى الأرض، هذا النوع من الصبار دائم الخضرة، ولا يحتاج إلا إلى القليل من الماء، شأنه شأن اسمه العربى "الصبار"، وقد جرى اختيار هذا النبات لاسمه ولأنه يشير إلى الصبر الذى يتحتم الصبر عليه إلى يوم الحشر. على كل حال، هذه الجبانة مخربة، ويقال إن التخريب الذى طالها جاء من الوهابيين، لكنى أرى أن ذلك ناتج عن اقتحام المكيين القليل للقبور.

المزارات الموجودة خارج المدينة هى التى تحتوى على رفات أقاربهم وأصدقائهم.

جبل أبو قبيص؛ هذا واحد من أعلى الجبال القريبة من مدينة مكة، ويشرف على المدينة من ناحية الشرق. والحديث (الشريف) يقول: إن جبل أبو قبيص هو أول جبل خلق على سطح الأرض، هذا الاسم موجود فى كتب التاريخ العربى كلها وعند معظم الشعراء، الحجاج يزورون مكانين مختلفين على قمة هذا الجبل؛ المكان الأول يسمونه مكان الحجر الذى اعتاد (سيدنا) عمر بعد أن تولى الخلافة، أن يدعو الناس منه إلى أداء الصلاة، خلال سنوات الإسلام الأولى، يوم أن كان السواد الأعظم من القرشيين، أو إن شئت فقل: سكان مكة، يعبدون الأصنام، هنا فى هذا المكان يوجد تجويف محفور فى إحدى الصخور، يشبه قبرا صغيرا، يقال إن الله سبحانه وتعالى أمر ملائكته، أثناء الطوفان، أن يضعوا الحجر الأسود فى ذلك التجويف، ذلك الحجر الذى كانوا يوقرونه ويجلونه قبل أن يبنى (سيدنا) إبراهيم الكعبة بزمن طويل، وإن الله سبحانه وتعالى جعل الصخرة تنطبق على ذلك الحجر، حتى لا يمسه الماء، وإن جبريل بعد انحسار الطوفان فلق الصخرة، وأعاد الحجر ثانية إلى موقع الكعبة. المزار الثانى، يوجد عبر واد ضيق، على بعد مسافة قريبة من المزار الأول، وعلى قمة جبل أبو قبيص أيضا، هذا المزار يسمونه شق القمر المكى، أو إن شئت فقل المكان الذى انشق فيه القمر- إحدى معجزات محمد ﷺ - ومع ذلك، نجد أن قصة انشقاق القمر هذه يرويها المكيون بطريقة مختلفة، وهم يقولون: إنه عندما كان محمد ﷺ يصلى هنا فى وقت الظهيرة، جاءه القرشيون الأوائل الكفار وطلبوا إليه أن يقنعهم على الفور ببعض معجزاته(*)، التى تثبت فعلا أنه نبى الله . رد عليهم قائلا: "ماذا تريدوننى أن أفعل كى اجعلكم مؤمنين صادقين؟ قالوا: اجعل الشمس تغرب، واجعل القمر والنجوم تظهر، اجعل القمر يهبط إلى الأرض، ويجيء إلى هذا الجبل، ويدخل فى كم من أكمام جلبابك، ويخرج من الكم الآخر، ثم يعود إلى السماء، ثم اجعل ضوء النهار يطلع

(*) يسجل المؤرخون أن محمدا ﷺ بناء على رغبة بعض القرشيين الكفار، جعل البدر يظهر كما لو كان منشقا، لدرجة أن نصف القمر كان مرئيا خلف جبل أبو قبيص، والنصف الثانى مرئيا فى الجانب المقابل من العالم (الكون) فوق جبل قيقعان.

علينا من جديد". وهجع محمد ﷺ ، ودعا الله سبحانه وتعالى بدعاء قصير، وحدثت المعجزة كلها، وعلى أثرها تحول القرشيون كلهم إلى الإسلام ودخلوا فيه. هذه الحكاية وحكايات أخرى يرويها الرواة لا تؤيدها أو تساندها الأحاديث المتواترة عن النبى ﷺ . أهل مكة يجيئون إلى هذا المكان، لاستطلاع هلال شهر رمضان، وهلال شهر شوال. بين هذين المزارين، وعلى مقربة منهما من ناحية الشرق، توجد أنقاض بناية قديمة، لم يتبق منها سوى بعض الجدران، ويقال إن هذا المكان كان من قبل سجنا رسميا من سجون أشراف مكة. فى هذا المكان توجد بعض الأبراج الشبيهة بالزنازين، وربما كان قلعة بناها على جبل أبو قبيص، مقذر الهاشمى، أحد رؤساء مكة فى العام ٥٣٠ الهجرى أو العام ٥٤٠، أو قد يكون هذا المزار مسجدا سمى باسم مسجد إبراهيم، الذى وجد، على حد قول الأزرقى، فى هذا المكان فى القرن السابع الميلادى. يظن العامة من أهل مكة، أن من يأكل رأس خروف مطهو فوق جبل أبى قبيص لا تصيبه أوجاع الرأس مدى الحياة.

جبل النور – يقع فى شمال مكة (المكرمة) – المار على منزل الشريف وحديقته على الطريق المؤدى إلى عرفات، يدخل بعد مسافة قصيرة من منزل الشريف، واديا يمتد فى اتجاه الشمال الشرقى ثم الشمال ، وينتهى ذلك الوادى بالجبل مخروطى الشكل. كان قد جرى من قبل نحت درج فى ذلك المطلع الجبلى المنحدر، لكن هذا الدرج لم يعد له وجود حاليا، واستغرق وصولنا إلى قمة ذلك الجبل ثلاثة أرباع الساعة وجهدا مضنيا. هنا فى أرضية أحد المنازل الصغيرة الذى دمره الوهابيون، يوجد شق فى أرضية المنزل الصخرية، طول هذا الشق أو الفلق يساوى طول الرجل المعتاد وعرضه يساوى أيضا عرض الرجل المعتاد. يقال إن محمدا ﷺ بعد أن ضاق، وحزن لتأكيدات أعدائه، هم وأتباعه من المكيين المتشككين، بعد أن أشاعوا أن الرب (الله) قد تخلى عن محمد ﷺ ، تراجع إلى هذا الجبل، ومدد نفسه فى ذلك الفلق أو الشق طالبا العون والمساعدة من أعلى، وأرسل إليه جبريل حاملا إليه تلك السورة القصيرة

من سور القرآن، التى نسميها السورة الرابعة والتسعين التى تبدأ بقوله سبحانه وتعالى: "ألم نشرح لك صدرك؟"- السورة السابقة تشير أيضا إلى حال حزنه . يوجد على مقربة من هذا المكان تجويف صغير فى حجر الصوان أحمر اللون، الذى يشكل الطبقة العليا من هذا الجبل، هذا التجويف يطلقون عليه اسم مغارة الحيرة (*). يقال أيضا إن أجزاء أخرى عدة من القرآن نزلت على محمد ﷺ فى هذا المكان المرتفع الذى كان يأوى إليه رسول الله ﷺ ، لكن أحدا من الموجودين لم يستطع أن يحدد لى تلك الأجزاء. خدم هذين المكانين من بدو قبيلة اللهيان.

كنت قد غادرت مكة مشيا على الأقدام بصحبة مجموعة كبيرة من الحجاج، لزيارة هذا المكان الذى جرت العادة أن تكون فى أيام السبت، ووصلنا قمة الجبل قبل طلوع الفجر، وعندما طلعت الشمس، كشف منظر مترام عن نفسه أمامنا، وكان يمتد شمالا وغربا، أما النقاط الأخرى فكانت تحدها الجبال. منظر المنطقة التى أمامنا موحش وقفر، وليس فيه من الخضرة شيء، تلال قاحلة جرداء سوداء اللون ورمادية اللون أيضا، ووديان رملية بيضاء اللون، هذا كله هو ما تراه عيناى، فوق منحدر الجبل، وعلى مقربة من قمته، يوجد خزان حجرى صغير، جرى إنشاؤه لتزويد الزائرين بالماء. كان ذلك الخزان جافا عندما رأيته ولم يكن مصانا صيانة جيدة.

جبل ثور. على بعد ساعة ونصف الساعة من مكة (المكرمة)، وعلى يسار الطريق المؤدية إلى قرية الحسينية، يوجد جبل عالٍ يحمل هذا الاسم، ويقال إن هذا الجبل أعلى من جبل النور، على قمة هذا الجبل يوجد تجويف أو غار لجأ إليه محمد ﷺ هو وصديقه أبو بكر هربا من المكيين قبل فراره ﷺ إلى المدينة (المنورة) كان العنكبوت

(*) فى زمن العرب الوثنيين كان الناس يطلقون على هذا الجبل اسم جبل الحيرة، وأنا أضيف هنا أن كثيرا من جبال الحجاز ووديانها فقدت أسماءها القديمة. وهذا ما تؤكده الملاحظات الطبوغرافية الكثيرة التى أوردها الأزرقى، وهو من مؤرخى المدينة المنورة، وكذلك الملاحظات الطبوغرافية التى وردت أيضا عند الزمخشرى، فى كتابه القيم المعنون الميات أو الجبال.

قد نسج عشه على باب ذلك الغار، وعندما رأى مطاردوه ذلك العش تأكدوا أن الهاربين لا يمكن أن يكونا داخل هذا الغار. القرآن يشير إلى هذا الظرف فى السورة رقم ٩ لكنى لم أزر هذا المكان.

العمرة. تحدثت عن ذلك المبنى سلفا، والعمرة عبارة عن مصلى صغير فيه صف واحد من الأعمدة على الطريق المؤدية إلى وادى فاطمة، لكن ذلك المصلى يقع فى الجانب الأيسر بالنسبة إلى الأماكن سالفة الذكر. العمرة تحيط بها أنقاض مساكن كثيرة مدمرة ، وتوجد بئر غزيرة الماء بالقرب من العمرة، كما نشاهد أيضا آثاراً لزراعة قديمة فى الوادى. وأنا أرى أن هذه البئر هى تلك البئر التى أسماها المؤرخون المكيون "بئر تنايم". tenaym، واستنادا إلى الفاسى Fasy نجد أن مسجد أهليلجة فى عصور الإسلام الأولى كان مقاما فى هذا المكان، وسوف أنهى وصفى لمكة بوصف افتتاح الكعبة الذى أجلته منعا لمقاطعة وصفى للمسجد.

تفتح الكعبة ثلاث مرات فقط فى العام الواحد: فى اليوم العشرين من شهر رمضان، وفى اليوم الخامس عشر من شهر ذى القعدة، وفى اليوم العاشر من شهر المحرم (العاشور كما يسميه العرب) تفتح الكعبة، بعد ساعة واحدة من طلوع الشمس، وعندها يجرى دفع السلم ذى العجلات إلى باب الكعبة، وما إن يلامس السلم بوابة الكعبة حتى تتدافع جماهير كبيرة على السلم، وسرعان ما تمتلئ الكعبة بالبشر من الداخل. يكون السلم محاطا بطواشيَّة المسجد الحرام على جانبيه، والذين يحاولون حفظ النظام، وتهوى عصيهم ثقيلة على أولئك الذين لا يضعون هبة أو عطية مالية فى أيديهم، يجرى دهس عدد كبير من الناس بلا رحمة أو هوادة بسبب التدافع والاندفاع داخل الكعبة، مطلوب من الزائر أن يصلى ثمانى ركعات أو ست عشرة سجدة، بحيث يصلى الزائر ركعتين فى كل ركن من أركان الكعبة الأربعة، لكن بوسعنا أن نتخيل طريقة أداء تلك الركعات، وأنه فى الوقت الذى ينحنى زائر نازلا إلى الأسفل، يعبر من فوقه زائر آخر، بعد الانتهاء من الصلاة، يتعين على الزائر الاتكاء على أى جانب من

جوانب الكعبة ويدعو بدعاءين دينيين. وهكذا تمتلئ الغرفة بالبكاء والعواء ، وأنا أعتقد أني شاهدت ولاحظت كثيرا من العواطف الجياشة والتوبة الصادقة من جانب عدد كبير من الزائرين، والدعوات التالية هي ودعوات أخرى سمعتها تتردد داخل الكعبة، وشاهدت وجوها كثيرة مبللة بالدموع، "يارب البيت، يا رب سامحني، واغفر لوالدي، ولأولادي! يارب، أدخلني جنتك! يا الله، أعتق رقابنا من نار جهنم، يارب البيت العتيق. " لم أستطع البقاء داخل الكعبة سوى خمس دقائق، كانت درجة الحرارة مرتفعة إلى حد أني كاد يغمى علي، بل إن كثيرا من الأشخاص جرى حملهم إلى خارج الكعبة وهم فاقدي الوعي تماما. يجلس عند مدخل الكعبة واحد من الأشراف، حامل مفتاح الكعبة الفضي في يده، والذي يقدمه لكي يقبله الحاج، الذي يدفع مبلغا نظير ذلك، بعد الخروج من الكعبة، تعطى النقود أيضا لواحد من الطواشيَّة يجلس بجوار الشريف حامل المفتاح الفضي. هناك أيضا بعض آخر من الطواشيَّة يقفون على السلم، والعديد أيضا من العمال الذين يقومون بالأعمال الحقيرة وبعض الخدم الذين ينتقدون هذا العمل المشين انتقادا شديدا، ويقولون: إن أقدس بقاع الأرض لا يمكن أن تكون مسرحا للجشع والطمع، لكن المكيين لا يعيرون تلك الإهانات أي اهتمام.

تظل الكعبة مفتوحة إلى حوالي الساعة الحادية عشرة، وفي اليوم التالي يجري فتحها للنساء فقط. بعد زيارة الكعبة، من الضروري الطواف حولها.،

الكعبة من الداخل مكونة من غرفة واحدة، سقفها محمول على عمودين، وليس بها أي مصدر للضوء سوى بابها. سقف الكعبة، النصف العلوي من العمودين، وكذلك الحوائط الجانبية وعلى ارتفاع خمسة أقدام من أرضية الكعبة، مغطى بنوع من الحديد السميك أحمر اللون، المشغول بالفضة، والجزء السفلي من كل عمود من الأعمدة مبطن بخشب العود المحفور، أما الجزء من الجدران الواقع أسفل الستائر الحديدية، فهو مبطن برخام فاخر أبيض اللون، مزين بنقوش بارزة، والأرابيسك الجميل، وكل شيء مصنوع بمصنعية غاية في الروعة، وأرضية الكعبة التي هي على مستوى واحد مع الباب، وبالتالي يصبح على ارتفاع حوالي سبعة أقدام فوق مستوى ساحة المسجد،

مرصوف بالرخام مختلف الألوان، فيما بين الأعمدة، توجد مصابيح عدة، كلها من عطايا المؤمنين وتبرعاتهم، ويقال إنها من الذهب الخالص، لم يقرب الوهابيون تلك المصابيح(*). فى الركن الشمالى الغربى من غرفة الكعبة توجد بوابة صغيرة، تؤدى إلى سطح المبنى المنبسط. لم ألاحظ شيئا آخر جديراً بالملاحظة غير ذلك الذى تحدثت عنه، لكن الغرفة شديدة الظلمة، إلى الحد الذى يحتاج إلى شيء من الوقت كى تتكيف الأعين مع رؤية الأشياء الموجودة داخل الكعبة. الزينات الداخلية، تتفق مع إعادة بناء الكعبة فى العام ١٦٢٧ الميلادى، وأنا أعرف شيئا عن مسألة غسل الكعبة، على النحو الذى ورد عليه فى أسفار على بك العباسى؛ لقد شاهدت الطواشية وهم يقومون بهذه العملية، التى تتم بالطريقة نفسها التى يجرى بها غسل الرصيف المحيط بالكعبة، على الرغم من أن تاريخ العصمى يوضح أن أرضية الكعبة يجرى غسلها فى بعض الأحيان بواسطة كبار الشخصيات.

زيارة الكعبة من الداخل لا تعد جزءا من أركان الحج، كما أن عددا كبيرا من الحجاج يغادرون مكة دون مشاهدة الكعبة من الداخل، أما أنا فقد شاهدت الكعبة من الداخل مرتين، مرة فى اليوم الخامس عشر من شهر ذى القعدة، والمرة الثانية فى اليوم العاشر من شهر المحرم. وفى المرة الثانية كانت الستائر الجديدة، التى جرى جلبها من القاهرة بواسطة محمد على باشا، قد علقت داخل الكعبة، كانت تلك الستائر من قماش فاخر جدا، أفخم وأقيم من حيث الخامة من الغطاء الخارجى أسود اللون الذى يغطى الكعبة، وجرى بعد ذلك بيع الستائر القديمة التى مضى عليها عشرون عاما أو أكثر للمؤمنين بسعر دولار واحد للقطعة التى تصل مساحتها إلى ست بوصات مربعة. كان حق بيع هذه الستائر حكرا على الشخص الذى قدم الكسوة الخارجية، على الرغم من حدوث استثناءات فى بعض الأحيان، وخير مثال على ذلك هو ما حدث

(*) يروى قطب الدين أن شيوخ مكة سرقوا المصابيح الذهبية المعلقة فى الكعبة، وهربوا بها وهم يخفونها بين طيات ملابسهم الفضفاضة، وقد أرسل السلطان سليمان كثيرا من المصابيح الذهبية إلى الكعبة.

فى العام ٨٦٥ الهجرى عندما أرسل شاه روخ ملك فارس كسوة فاخرة للكعبة من الداخل(*).

أمام باب السلام يوجد دكان يبيع قطعا من الكسوة الخارجية والكسوة الداخلية الكعبة، هذه القطع معروضة للبيع بصورة دائمة، قطع الكسوة الداخلية هى المفضلة والمطلوبة دوما. شاهدت صدريات مصنوعة من قماش الكسوة الداخلية، وهذا يعد شيئا ثمينا إذا ما لبسه أحد المؤمنين، تباع فى هذا الدكان نفسه رسومات لكل من مكة والمدينة المنورة، هذه الرسوم معدة بطريقة بدائية على الورق أو قطع من القماش، كما توجد أيضا رسومات لأدعية صغيرة، كما أن هناك أيضا أدعية محفورة على قطع من الخشب. اشتريت بعضا من هذه الرسوم وبعضا من هذه الأدعية، لاستعمالها فى الأغراض نفسها التى يستعملها فيها الحجاج، وكنت قد اشتريت أيضا بعض القوارير المملوءة بماء زمزم.

ملاحظات عن سكان مكة وسكان جدة

مكة وجدة تسكنهما طبقة واحدة من السكان، وطابع المدينتين وعاداتهما واحدة أيضا. لقد ذكرت بالفعل أن أثرياء المكيين لهم بيوت فى جدة، كما أشرت أيضا إلى أن الأعمال التجارية فى المدينتين متشابهة.

يمكن القول إن سكان مكة كلهم من الأجانب، أو من نسل الأجانب، باستثناء بعض بدو الحجاز أو أحفادهم، الذين استقروا فى هذه المدينة وجعلوها لهم موطنا. قبيلة قريش الجائلة، التى انقسمت إلى فرعين أحدهما جائل والآخر مستقر، تكاد تكون انقرضت. لا يزال هناك بعض من بدو قريش فى المنطقة المجاورة لمكة، لكن القرشيين المستقرين، الذين كانوا يسكنون مكة فى زمن محمد ﷺ ، كان قد جرى القضاء

(*) راجع قطب الدين.

عليهم، أو نزحوا عن المدينة نتيجة الحروب المتكررة. حاليا لا يوجد فى مكة سوى ثلاث عائلات فقط، هم أحفاد تلك القبيلة العريقة التى كانت تحمل هذا الاسم، وعميد عائلة من تلك العائلات الثلاث هو ما يسمونه "النائب" ، أو راعى المسجد، أما العائلتين الأخريين فهما من الفقراء، والعائلتان أيضا مرتبطتان بخدمة المسجد. المنطقة المجاورة لسوق جدة الكبير، المحطة السنوية التى تجىء إليها القوافل الضخمة كل عام، هى والبيت العتيق، انضم إليها أو التحق بها عدد كبير من الغرباء ليقوموا بالدور الذى كان الفرنسيون يقومون به. فى كل موسم من مواسم الحج يتخلف بعض الحجاج ، والمسلم إذا ما أقام واستقر بصورة دائمة فى مكان من الأماكن يجد نفسه مقتنعًا بالزواج، ويتخذ لنفسه زوجا من المكان الذى يقيم فيه، الأمر الذى يجعله يرتبط بذلك المكان ويقيم فيه إقامة دائمة. من هنا نجد أن السواد الأعظم من المكيين هم أحفاد الأجانب جاءوا إلى مكة من مختلف أصناف الأرض، ونجد أيضا أن هؤلاء الأحفاد اكتسبوا السلوكيات العربية، وعن طريق الزواج من المواطنات المكيات أنجبوا عرقا لا يمكن تمييزه عن سكان الجزيرة العربية الأصليين. ونحن عندما سألنا أصحاب الدكاكين، والتجار، والعلماء، والمطوفين، بل وأناسا آخرين مختلفى المشارب، وجدنا أنهم أبناء الأجانب أو أحفادهم أو من نسلهم، والنسبة الكبيرة من هؤلاء السكان تنحدر عن أولئك الآباء الذين جاءوا من اليمن وحضرموت، يلى ذلك هؤلاء الذين هم أحفاد للهنود والمصريين والمغاربة والأتراك، هناك أيضا مكيون من أصل فارسى، وهناك أيضا مكيون من أصل تاتارى، وبخارى، وكردى، وأفغانى، أو من كل أنحاء البلاد الإسلامية إذا ما أردنا اختصار القول . والمكى يحرص أشد الحرص على المحافظة على معارفه التى اكتسبها من بلده الأصلى. مطوفى أو مرشدى أرجع إلىَّ أصله إلى تاتارى أوزبكى، من المنطقة المجاورة لبخارى ، وعندما كان حاج يجىء من هذه المنطقة، كان لا يفشل مطلقا فى جعل نفسه مرشدا لمثل هؤلاء الحجاج، على الرغم من أنه يجهل تماما لغة هؤلاء القوم.

مع ذلك، هناك فرع من سكان الجزيرة العربية القدامى لا يزال باقيا فى مكة، هذا الفرع يتمثل فى الأشراف ، (باعتبارهم مجموعة مميزة عن أولئك الأشراف الذين

انحدروا عن الأشراف الأجانب الذين استوطنوا مكة) هؤلاء الأشراف يرجع نسبهم إلى الحسن والحسين، ولدى فاطمة الزهراء - رضى الله عنها -، ابنة محمد ﷺ ، هذا النسب يدعيه بعض آخر من الأشراف، الذين تعد صفاتهم النسبية أقل أصالة. أشراف مكة يكونون طبقة كبيرة من البشر، لا تسمح بانضمام الأجانب إليها، وهى تنتشر فى أنحاء أخرى من الجزيرة العربية. أنا لست على معرفة جيدة بالتاريخ الخاص بهؤلاء الأشراف، أو حتى الفترة التى بدأوا يتفرقون خلالها إلى قبائل بعينها، وما أستطيع قوله هو أن الأشراف يشملون أنواعا كثيرة، لكن أشراف اليمن لا يدخلون كلهم ضمن الأشراف ، كما أن هناك أشرافا آخرين فى الحجاز يمتون بصلة قرابة بعيدة إلى الأشراف الأصليين . ينقسم الأشراف فى الوقت الراهن إلى قبائل عدة، التى ينبغى اختيار الشريف الحاكم حاليا من بين أفرادها. وهذا هو ما سوف أوضحه هنا. فى مكة يمكننا ملاحظة فارق فى الاسم الذى يعطى للأشراف، وذلك من منطلق المهنة التى يمتهنها هؤلاء الأشراف، الأشراف الذين يعملون أو يمتهنون الدراسة والبحث والشريعة، ويشغلون أنفسهم بالمسجد وملحقاته هم الذين يطلق عليهم لقب سيد، أما أولئك الذين يعملون بالجندية، ويختلطون بشئون الدولة منهم لا يطلق عليهم سوى لقب شريف ؛ الأسياد هم أتباع الدين وأنصاره (وهم ما يمكن أن نسميهم المكيون)، أما الأشراف فهم الجنود. من هنا نجد أن الابن يخلف والده فى مهنته. هؤلاء الأشراف المواطنون هم رؤساء المدينة، أو كانوا كذلك، فى أضعف الأحوال، قبل تحطيم كبريائهم عن طريق الغزو التركى.

على الرغم من أن سكان مكة يعدون خليطا بشريا، فإنهم يلبسون لباسا واحدا، ولهم تقاليد واحدة، وعلى الرغم أيضا من أنهم من أصول مختلفة، فهم يتشبثون بلباسهم الوطنى وسلوكياتهم الوطنية فى هذه المدينة المقدسة، أكثر منها فى أى مكان آخر. فى مصر وفى سوريا، نجد أن الغرباء والأجانب الوافدين على هذين البلدين من سائر أنحاء آسيا يحافظون تماما على لباسهم الوطنى وأسلوب حياتهم الوطنى، على الرغم من استقرارهم وإقامتهم الدائمة فى مكة، هذا الظرف هو الذى يضفى على

منظر السوق الشرقية أهمية كبيرة، وذلك على العكس تماما من أى تجمع من التجمعات البشرية فى أوروبا. وعلى العكس من ذلك، نجد أن السواد الأعظم من الزائرين الأجانب للحجاز يغيرون زيهم الوطنى بالزى الذى يرتديه المواطنون الأصليون، كما أن أطفالهم الذين يولدون فى مكة يربون ويرتدون الثياب التى يرتديها المكيون. الهنود، كما سبق أن أسلفت أثناء الحديث عن جدة، يعدون استثناء من هذه القاعدة العامة، وهم يشكلون جالية متميزة، ويحتفظون بلغتهم الوطنية، التى غالبا ما ينساها أطفال الأجانب الآخرين، نظرا لأن أمهاتهم غالبا ما يكن عربيات، أى مواطنات مكيات.

تميل بشرة المكى والجداوى إلى الاصفرار المشوب باللون البنى الذى يوحى بالمرض، ويزداد لون البشرة أو يقل غماقة طبقا لأصل الأم، التى غالبا ما تكون أمة حبشية. وملامح المكيين والجداويين تقترب من ملامح البدو أكثر مما لاحظته فى سكان مدن أخرى كثيرة من مدن الشرق، وهذا يلاحظ بصفة خاصة فى الأشراف، الذين وهبهم الله وجوها شديدة النضارة، فعيونهم، ووجوههم وأنوفهم مثل عيون ووجوه وأنوف البدو لكنها بضة. الطبقة الأدنى من ذلك من المكيين تميل إلى البنية القوية، وأطراف مفتولة العضلات، فى حين تكون الطبقات الأعلى من ذلك متميزة بأشكالها الضعيفة الهزيلة، كما هو حال أولئك الذين يجيئون من أصول هندية أو يمانية. على الرغم من أن البدو المحيطين بمكة، أقوى بنية من بدو داخل الصحراء الأكثر منهم ثراء، فإن عادات هؤلاء البدو أقل انتشارا، وربما كان ذلك أيضا راجع إلى أن هؤلاء البدو أقل تعرضا لمصاعب الرحلات الطويلة. يمكن القول بشكل عام، إن المكى أقل قوة وحجما من السورى أو المصرى، لكنه يفضلهما من حيث الملامح المعبرة، وبخاصة حيوية الأعين ولمعانها وبريقها.

كل المواطنين المكيين والجداويين الذكور معلَّمون بعلامة معينة، أو إن شئت فقل بوشم محدد، هذا الوشم يجريه الآباء لأطفالهم عندما يبلغ الواحد منهم من العمر أربعين يوما. هذا الوشم يتكون من ثلاثة شلوخ أسفل كل خد من خدى الطفل، وشلخين على الصدغ الأيمن، ويصل عرض الشامة الناتجة عن هذين الشلخين إلى

حوالى ثلاثة خطوط أو أربعة ، وأهل مكة يطلقون على هذه العلامة اسم المشالة البدو لا يلجأون إلى هذا الإجراء لكن المكيين يتباهون به لأنه يميزهم عن غيرهم، ويستبعد غيرهم من السكان ويحرمهم من الادعاء فى البلاد الأجنبية بأنهم من مواليد المدينتين المقدستين. هذا الوشم ينطبق فى بعض الأحيان، إن لم يكن نادراً، على البنات (الأطفال) المكيات. أهل برنو فى وسط إفريقيا، عندهم علامة شبيهة بهذه العلامة على الخدين، لكنها أخف من العلامة المكية.

ملابس الطبقات المتوسطة فى فصل الشتاء، عبارة عن بنش من القماش، وهم يسمون هذا البنش العباءة الخارجية، ومن تحت هذا البنش يلبس الرجل الجبة وهى أيضا مصنوعة من القماش، وهى مثل الجبة التى يلبسها الناس فى سائر أنحاء تركيا. كما يلبس الرجل أيضا رداء فاخرا من الحرير له حزام رقيق من الكشمير، كما يلبس الرجل أيضا عمامة من الحرير الموسلينى الأبيض، كما يلبس أيضا مركوبا أصفر اللون، وبذلك يكتمل لبس الرجل. فى فصل الصيف يلبس الرجل بدلا من الساش، أو العباءة الخارجية المصنوعة من القماش، عباءة خارجية أخرى مصنوعة من الحرير الخفيف جدا، من المصنوعات الهندية، ويطلقون عليها اسم مقطر خانة .

ملابس الطبقات الراقية، الذين يحاكون الأزياء التركية فى لباسهم، يلبسون على رؤسهم طواقى بربرية تحت العمامة، أما أفراد الطبقات الأخرى فيلبسون طاقية قطنية فاخرة مطرزة بالحرير، من صنع نساء مكة، تمثل هدية شائعة من المرأة إلى حبيبها، مطرز عليها من أعلى وبأحرف كبيرة بعض الجمل المأخوذة من القرآن.

ملابس المهندمين من الطبقة المتوسطة تصنع عادة من الموسلين الهندى الأبيض، بدون أية بطانة، ويسمونها بدن ، وهى تختلف عن العنترى الشائع فى منطقة الشرق، من حيث إنه يكون قصير جدا، وبلا أكمام، ولأنه أكثر برادا من العنترى ، ويلبس الرجل فوق بدن جبة من القماش الخفيف، أو من الحرير الهندى،

يحملها الرجل على كتفيه إذا ما اشتدت الحرارة. تصنع القمصان من الحرير الهندى أو الكتان المصرى أو الأناضولى، وفى حدود إمكانيات اللبيس الشرائية.

جرت العادة أن يرتدى أفراد الطبقات الدنيا، فى فصل الصيف على الأقل، لا شىء سوى قميص، كما يلبسون بدلا من البنطال (السروال) قطعة من القماش الهندى أصفر اللون أو من الكتان المصرى المقلم يلفونها حول الردفين، وهم يلبسون من فوق هذا الرداء، فى فصل الشتاء، بدن من البفتة الهندية المقلمة، لكن بدون حزام يثبته على الجسم.

الطبقات الدنيا والطبقة المتوسطة يلبسون نعالا بدلا من الأحذية، وهذه عادة تناسب هذا المناخ الحار، نظرا لأن النعال تساعد على برودة القدمين. وأفضل النعال هى تلك التى تأتى من اليمن، التى تزدهر فيها صناعة الجلود.

فى فصل الصيف، يلبس الناس، هم وهنود الطبقات الدنيا، يلبسون غطاء رأس فقط بلا عمامة. العمامة المعتادة تصنع من قماش الكمبريس الهندى، أو من الموسلين، الذى تلفه الطبقات كلها حول الرأس بطريقة معينة. هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بالعلماء، يتركون ذيلا للعمامة يتدلى من الخلف إلى منتصف الظهر. المكيون أنظف لباسا من أهل الشرق الذين شاهدتهم أو التقيتهم. ونظرا لأن الموسلين الأبيض، أو الكمبريس الأبيض، هما اللذان يشكلان القسم الرئيسى من الملابس، فإن هذه الملابس تكون دائما بحاجة إلى الغسل بصورة مستمرة، وهذا هو ما يجرى عمله بصورة منتظمة، إلى حد أن يجرى بصورة دورية تغيير الملابس حتى ولو مرة واحدة كل أسبوع. خلال الأسبوع الواحد. أما الأثرياء فهم يرتدون كل يوم لباسا مختلفا، وليس من الغرابة فى شىء أن يكون لدى كثير من الناس أربعين طاقما أو خمسين من الملابس. أهل الحجاز يفرحون بالملابس أكثر من مسلمى الشمال، يضاف إلى ذلك أن ما تكسبه الطبقات الدنيا ينفق على الملابس. والمكى عندما يعود من دكانه إلى منزله، أو حتى بعد مشوار صغير فى المدينة، يسارع إلى خلع ملابسه، ويعلقها على حبل معلق عبر المجلس، ثم يخلع عمامته، ويغير قميصه، ثم يجلس على سجادة، واضعا على

رأسه طاقية خفيفة، وهم يستقبلون الزائرين وهم على هذا الحال، ومن يريد تحديد من هو المكى، عليه أن يراه وهو جالس بعد أن يخلع ملابسه، بجوار أحد النوافذ، وفى يده مروحة مصنوعة من قصاصات سعف النخيل، يحاول بها طرد الذباب بعيدا عنه، وفى يده الأخرى خرطوم الشيشة الفارسية الطويل.

فى أيام العيد يستعرض المكيون والجداويون حبهم للملابس بدرجة كبيرة، وهم من غنيهم لفقيرهم، بل إن كل واحد منهم يتعين عليه ارتداء طاقم من الملابس الجديدة، وإذا لم يكن قادرا على الشراء، فإنه يستأجر من التجار طاقما من الملابس لمدة يومين أو ثلاثة أيام، وفى مثل هذا الظرف قد يدفع المستأجر مائة قرش فى بعض الأحيان مقابل استئجار مثل هذا الطاقم الذى يبلغ ثمنه حوالى ألف وخمسمائة قرش أو ألفى قرش . وهنا لا نجد أحدا راضيا عن الثوب الذى يناسب مكانته فى الحياة، ولكنه يرتدى ثياب من هم أعلى منه فى سلم الحياة. صاحب الدكان الذى يمضى القسم الأكبر من العام مرتديا لباسه القصير، ومن حول خصره فوطة تستر ردفه وفخذيه، تراه فى أيام مرتديا لباسه بنش بالساتان، وعمامة مطرزة بالذهب، وساش (حزام) من الحرير الخالص، مشغول بخيوط الفضة، وجنبيّة (خنجر) أو سكينا معقوفا، معلق أو مغروس فى الحزام، وجراب هذه الجنبيّة مرصع بالعملات المعدنية الفضية والذهبية، والأطفال يلبسون أيضا ملابس غالية، والشخص يمكن أن يستسلم لإطلاق لقب اللص عليه، بدلا من إعطاء من هم فى منزلته حق التفوق عليه فى مسألة الملبس هذه. الناس يفضلون الألوان الغامقة بشكل عام، والعباءة العلوية لابد أن تكون فى تقابل مع لون الملابس التى تحتها، يرتدى الناس أيضا الشيلان الكشميرية فى أيام العيد، على الرغم من عدم مشاهدة تلك الشيلان فى أحيان أخرى، لكنهم باستثناء النساء، هن والأشراف المحبين للحرب، ومع ذلك فإن كل واحد من المكيين الميسورين لديه فى دولاب ملابسه عدد لا بأس به من هذه الشيلان. بعد العيد يضع المكى طاقم ملابس العيد جانبا، ويعود كل واحد إلى وضعه السابق. كل واحد من المكيين الكبار، يحمل عصا طويلة، هذه العصى تسمى فى الأوساط المتدنية عكاكين، والعالم لا يمكن

أن يراه الناس بلا عصا . قلة قليلة من الناس هم الذين يمشون مسلحين، اللهم باستثناء الطبقات الدنيا، أو الأشراف الذين يحملون خناجر أو سكاكين معقوفة مثبتة في أحزمتهم.

نساء مكة ونساء جدة يلبسن ملابس مصنوعة من الحرير الهندي، كما يلبسن سراويل طويلة زرقاء اللون ومقلمة، تصل إلى كعوبهن، وهي مطرزة من أسفل بخيوط الذهب، وفوق هذه السراويل والثياب يلبسن رداء واسعا يسمونه الحبرة ، وهي ملاية من الحرير المقلم بالأبيض والأسود، وتصنعها بلاد الهند، وهن يغطين وجوههن ببرقع أبيض اللون أو أزرق خفيف، والنساء يلبسن على رءوسهن التي تغطيها الملايات، طواقي مثل طواقي الرجال، وكل طاقية من هذه الطواقي تلف المرأة حولها قطعة من القماش الموسلين الملون، التي تلف لفا جيدا حول الطاقية. يقال إن لباس الرأس أقل زينة من حيث العملات الذهبية واللؤلؤ، والمجوهرات عن لباس الرأس عند النساء المصريات والسوريات، لكن لباس رأس المرأة المكية يشتمل على خيط معلق فيه بعض العملات من فئة السكوين ، مكيات كثيرات لديهن قلادات من الذهب، وأساور من الذهب، وخلاخيل من الفضة، أما النساء فيلبسن القميص المصري أزرق اللون، وبناطيل كبيرة، مثل البناطيل سالفة الذكر ، كما يلبسن أيضا أساور من قرون الحيوانات، أو من الزجاج أو الكهرمان.

أطفال مكة ليسوا مدللين من قبل والديهم مثل أطفال بلدان الشرق الأخرى، والطفل منهم عندما يستطيع المشي يتركه أهله يلعب أمام باب الدار، مرتديا ثيابا خفيفة جدا أو شبه عار، وهم كانوا أقوياء وأحسن صحة لهذا السبب، عن الأطفال السوريين والمصريين الذين يعتني بهم آباؤهم عناية كبيرة والذين يمكن القول عنهم، إنهم يراعَون حتى الممات.

قلة قليلة من العائلات المكية هم الذين ليس عندهم عبيد. وتفتحت عينا محمد ﷺ على استقرار تجارة العبيد في الجزيرة العربية، على نحو لم يحاول إلغاءه، وبذلك يكون محمد ﷺ قد أكد، ووسع هذه التجارة في أنحاء شمالي إفريقيا، بكل

ما تنطوى عليه هذه التجارة من قوة، إضافة أيضا إلى المصاعب التى صاحبت انتشار الإسلام. الخدم والخادمات زنوج، أو بالأحرى نوبيون ، يجرى جلبهم عادة من سواكن ، أما المحظيات فهن عادة من الحبشيات الإماء. لا أحد من المكيين يفضل أمنه وسلامه المنزلى على إشباع احتياجاته العاطفية؛ هذا يعنى أن المكيين لهم محظيات بالإضافة إلى زوجاتهم الشرعية ، لكن الأمة إذا ما أنجبت طفلا فإن سيدها عادة ما يتزوجها، وإذا ما أخفق فى ذلك أصبح محطا لانتقادات المجتمع. مسألة الاحتفاظ بالمحظيات الحبشيات لا تزال أمرا شائعا فى جدة ؛ كثير من المكيين ليس لهم سوى زوجات حبشيات، نظرا لغلو مهور المواطنات العربيات، اللاتى لا يملن إلى التسليم بإرادة الزوج ورغباته. هذا الإجراء يلجأ إليه كثير من الأجانب الذين يقيمون فى الحجاز فترات قصيرة. هؤلاء الأغراب والأجانب يقومون فور وصولهم إلى مكة بشراء رفيقة، برغبة بيعها عندما يرحلون عن المدينة، لكن هؤلاء الأغراب والأجانب قد يطول مقامهم فى مكة، وتحمل الأمة، ويتزوجها الرجل، ويستقر فى مكة. قلة قليلة من الرجال هم الذين من غير المتزوجين أو الذين ليس لهم إماء محظيات. هذه مسألة عامة وشائعة فى الشرق، ولا تشيع فى أى مكان آخر أكثر مما هى عليه فى مكة. الاختلاط بالدم الحبشى هو الذى أعطى المكيين تلك البشرة المائلة إلى الاصفرار، التى تميز المكيين عن سكان الصحراء.

الطبقات الأكثر ثراء من الطبقات السابقة، تعد بيع الأمة أمرا مشينا ومخزيا. والأمة عندما تنجب طفلا، ولا تكون فى عصمة سيدها أربع نساء فإنه يعقد عليها ويتزوجها، وإذا لم تنجب منه فإنها تظل فى منزله مدى الحياة، وفى بعض الأحيان يتزايد عدد المحظيات إلى ما يقرب من اثنتى عشرة محظية من كبار السن ومن الشابات. الطبقات الوسطى والطبقات الدنيا فى مكة ليست على شاكلة الطبقات التى تعلوها ، هذا يعنى أن هذه الطبقات الدنيا والمتوسطة يشترون الحبشيات الصغيرات عن طريق المضاربة، ويقومون بتعليمهن فى الأسرة، ويعلمونهن الطبخ، والحياكة إلخ، ثم يبيعونهن للأجانب والأغراب بأثمان غالية. لقد أبلغنى الأطباء، والحلاقون، وباعة

العقاقير أن مسألة الإجهاض شائعة فى مكة. وأن بذور أشجار البلسم المكى هى الدواء الشائع الاستعمال فى مسألة الإجهاض. المكيون لا يفرقون بين أولادهم من الإماء الحبشيات أو من النساء العربيات الحرائر.

سكان مكة عندهم نوعين من العمالة، التجارة، وخدمة بيت الله، أو إن شئت فقل: المسجد الحرام، ولكن التجارة هى المفضلة عند المكيين، يضاف إلى ذلك قلة قليلة من العلماء هم الذين يعملون فى المسجد الحرام، وحتى هذه القلة القليلة من العلماء لها أيضا شئونها التجارية، على الرغم من اعتزازهم الذى يمنعهم من ممارسة التجارة علانية، ولعل القارئ يكون قد لاحظ فى وصفنا السابق لمكة، كيف أن قلة قليلة من الحرفيين وأصحاب الحرف هم الذين يعيشون فى شوارع مكة، هؤلاء الحرفيون، هم من البنائين، والنجارين، والخياطين، والغرازين، والحدادين، إلخ، وأن هؤلاء الحرفيين، أقل مهارة بكثير عن أمثالهم فى مصر. وإذا ما نحينا جانبا تلك القلة القليلة من صناع الفخار، والمصابغ، نجد أن المكيين ليست لديهم أية صناعات أخرى، لكن المكيين شأنهم شأن أهل جدة يعتمدون على البلدان الأخرى فى الحصول على احتياجاتهم. من هنا، نجد أن مكة فيها قدر كبير من التجارة الأجنبية، التى تجرى خلال موسم الحج، وخلال بضعة أشهر قبل ذلك الموسم، والذى يقوم بهذه التجارة هم الحجاج الأثرياء، الذين يجلبون المنتجات الوطنية من البلاد الإسلامية إلى جدة إما عن طريق البحر وإما عبر الصحراء من دمشق، ويروحون يتبادلون تلك المنتجات فيما بينهم، أو قد يتلقون من تجار مكة البضائع الهندية وبضائع الجزيرة العربية، التى سبق أن خزنها تجار مكة فى مخازنهم. فى هذه الفترة، تتحول مكة إلى واحدة من أكبر أسواق الشرق، بل وأهم هذه الأسواق كلها؛ نظرا لتباين الأمم التى تتوافد على المدينة. على كل حال، فإن قيمة الصادرات من مكة تفوق الواردات، الأمر الذى يتطلب مبالغ كبيرة من الواردات والسكوينات لسداد ذلك العجز وإحداث نوع من التوازن. بعض هذه الصادرات يشق طريقه إلى اليمن والهند، ويتبقى حوالى ربع هذه الصادرات فى أيدى المكيين. هذه التجارة مربحة جدا إلى حد أن البضاعة التى يجرى شراؤها فى جدة، من التجار

الذين يشترونها من على ظهر السفن التى تصل إلى جدة قادمة من الهند، تدر على صاحبها إذا ما بيعت بسعر الجملة، أثناء موسم الحج، ربحا صافيا يتردد بين عشرين فى المائة وثلاثين فى المائة، وتدر إذا ما بيعت بالتجزئة ربحا يقدر بحوالى خمسين فى المائة. من هنا، لا يصبح الأمر مدهشا، إذا ما عرفنا أن أهل مكة كلهم من التجار، وكل من يستطيع توفير بضع مئات من الدولارات يسافر إلى جدة، ويستثمرها فى البضاعة التى يعرضها للبيع خلال موسم الحج. يحقق المكيون أرباحا كثيرة أيضا عن طريق التدليس، معروف أن كثيرا من الحجاج يجهلون اللغة العربية، ولذلك يقعون فى أيدى السماسرة أو المترجمين الذين يجعلونهم يدفعون أثمانًا غالية نظير الخدمات، واقع الأمر أن مكة كلها متحدة فى مسألة غش الحجاج وخداعهم.

فى الماضى، ويوم أن كانت القوافل تتمتع بالأمن الكامل على الطريق، كانت البضائع تنقل إلى مكة بطريق البر ، فى الوقت الراهن نجد قلة قليلة من التجار هم الذين يعرِّضون ممتلكاتهم لمخاطر النقل عبر الصحراء، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء التجار يضحون بميزة استيراد بضاعتهم إلى مكة خالصة الجمارك، وهذه ميزة مقصورة على القوافل، وينقلون بضاعتهم بالبحر إلى جدة، وهذا الطريق يدفع فيه الحجاج القادمون من إفريقيا والحجاج القادمون من تركيا رسوما مضاعفة، ومحمد على باشا يحصل هذه الرسوم الجمركية مرة فى مصر ومرة أخرى فى جدة. فى الوقت الراهن نجد أن الحركة التجارية الصغيرة، لا تقوم بها سوى القوافل، التى لا تبقى سوى أيام قلائل فى مكة. وهنا نجد أن أصحاب الدكاكين وتجار التجزئة فى المدينة يحققون أرباحا كبيرة من هذه البضاعة، هذا يعنى أن أرباح تجار التجزئة فى مثل هذه الظروف تكون أكثر من أرباح تجار الجملة. معروف أن حركة تجار الجملة تروج خلال الأشهر السابقة للحج، وذلك بعد وصول التجار الأجانب إلى مكة عن طريق جدة، ويكون أمامهم متسع من الوقت لتسوية أمورهم قبل دخول موسم الحج.

فى زمن السلم مع المناطق الداخلية تروج التجارة رواجا كبيرا مع البدو وبخاصة مع سكان مدن نجد، الذين يحتاجون إلى البضائع الهندية، والعقاقير الهندية، والملابس أيضا، والتى يحصلون عليها إما من المدينة المنورة، أو بسعر رخيص من مكة. والبن الذى يستخدم على نطاق واسع فى الصحراء يستورده أهل نجد بأنفسهم، إذ يرسلون قوافلهم الخاصة بهم إلى اليمن الذى ينتج البن.

المكيون الذين ليسوا على قدر من الغنى والثراء يمكّنهم من الاتجار فى البضائع الهندية (التى تحتاج إلى مبالغ نقدية كبيرة، والتى قد تبقى لفترات طويلة) يستثمرون رأسمالهم فى موسم الحج، فى تجارة الحبوب والتموينات. كان ذلك الأسلوب أكثر ربحا فى الزمن الماضى عنه حاليا، والسبب فى ذلك أن محمد على بعد أن قام باحتكار هذه السلع، اضطر الناس إلى شراء القمح من جدة بالسعر الذى يحدده الباشا، وأن يكونوا راضين عن تحقيق هامش ربح عندما يعيدون بيع القمح فى مكة. بعد دفع مصاريف النقل، يتبقى لهؤلاء التجار ربح يتردد بين خمسة عشر فى المائة وعشرين فى المائة، وهذا النوع من الاتجار يناسب تماما رءوس الأموال الصغيرة، نظرا لتباين الأسعار، هذا نوع من اليانصيب يمكن أن تؤدى فى بعض الأحيان إلى مضاعفة رأس المال خلال فترة وجيزة.

مع اقتراب موسم الحج، ترتفع أسعار المؤن والتموينات كلها، وبالتالى أيضا أسعار السلع الأخرى. وبذلك يضمن هؤلاء الذين لديهم مخازن عامرة بالقمح، والأرز، والبسكويت حصولهم على أرباح كبيرة. مسألة توفير الأغذية والطعام، طوال مقامهم، لدفق من السكان يصل إلى حوالى ستين ألفًا من البشر، ولحوالى عشرين ألف جمل، إضافة إلى المؤن والتموينات اللازمة لهذه الآلاف المؤلفة عند العودة إلى أوطانهم، تعد مسألة غاية فى الأهمية، ولم يخاطر محمد على باشا بوضع أبعاد كل هذه المسألة بين يديه. والمكى الذى يمتلك حفنة دولارات، يستثمر هذا المبلغ فى شراء نوع من التموينات يقوم بنقله على حماره مع اقتراب موسم الحج، من جدة إلى مكة.

عندما تتفتح المناطق الداخلية من الجزيرة العربية أمام القوافل، يجيء البدو من سائر الأنحاء المحيطة بمكة لشراء مؤنهم السنوية من القمح من مكة، التى تستقبل هى بدورها، فى زمن السلم، كميات كبيرة من القمح من اليمن، وبخاصة المخواه، تلك البلدة التى تبعد مسير عشرة أيام عن مكة، وتقع عند السفح الشرقى لسلسلة الجبال الكبيرة، كما تعد سوقا للعرب الذين يقومون بزراعة هذه الجبال. وعلمت أيضا أن الواردات من المخواه تقدر بنصف احتياجات مكة، لكن هذا أمر تدور من حوله الشكوك، على الرغم من أنى ليست لدىَّ الوسائل التى تمكننى من القيام بتقدير هذه الاحتياجات تقديرا دقيقا، وسبب ذلك أن الطريق فى الوقت الراهن، غير مطروق، كما أن مكة تتلقى مؤنها وتمويناتها كلها من جدة، ويجب أن نلاحظ أن استهلاك الحبوب، فى الجزيرة العربية أكبر بكثير من أى دولة من الدول المجاورة، يزاد على ذلك أن السواد الأعظم من السكان يعتمدون تماما على القمح والشعير، والعدس، أو الأرز، وهم لا يستعملون الخضراوات، وإنما يستعملون مقداراً كبيرا من الزبد.

الشخص نفسه إذا لم يكن من العاملين فى مجال التجارة، أو إذا لم يكن له صديق ألمعى بين تجار الجملة، يصعب، إن لم يستحل عليه، الحصول على تفاصيل دقيقة عن هذه التجارة الواسعة التى تجرى فى مكة. وأنا هنا سوف أتحاشى مسألة إيراد بعض الملاحظات الخاطئة حول هذا الأمر، الذى لست على دراية كاملة به، والذى لم أعثر فى مكة على أحد يمكنه أن يشرح لى تفاصيله.

من الطبيعى أن نسلم أن مكة بلد غنى ، وسوف تزداد مكة غنى على غناها، إذا لم تسارع الطبقات الدنيا إلى إنفاق مكتسباتها فى تلبية المطالب الشخصية. تجار الجملة أثرياء، ونظرا لأن تجار الجملة فى مكة يعملون بنظام الدفع الفورى، فهم بذلك يكونون أقل تعرضا للخسارة عن التجار الشرقيين الآخرين. السواد الأعظم من تجار الجملة المكيين لهم مكاتب ومؤسسات فى جدة، وبذلك نجد أن التجارة فى المدينتين متصلة ببعضها البعض. فى زمن الوهابيين، كانت المناطق الداخلية فى الجزيرة العربية

مفتوحة أمام مكة، لكن الواردات الأجنبية، عن طريق البر والبحر، أصبحت تقتصر على ما هو مطلوب لاستعمال السكان، ونجد أيضا أن سوق الحج الكبيرة لم تعد تنعقد، وعلى الرغم من أن بعض الحجاج الأجانب لا يزالون يزورون مكة، فإنهم لا يعرِّضون بضاعتهم لخطر الاستيلاء عليها بواسطة الوهابيين. مع مثل هذه الظروف نجد أن اهتمام المكيين الذى ينصب على المدن نفسها والبقاء فيها طلبا للأرباح الطائلة لم يعد موجوداً. الذين عجزوا عن أن يكونوا أثرياء ينتظرون تجديد أو استئناف قوافل الحج، لكن كثيرا من الفقراء الذين عجزوا عن كسب عيشهم، تركوا مكة، واستقروا فى جدة، أو فى موانئ أخرى على البحر الأحمر، وتبعهم فى تلك الموانئ عدد كبير من التجار المحترمين.

التجارة هنا تتم عن طريق السماسرة الذين منهم عدد كبير من الهنود ، واقع الأمر أن الجالية الهندية هى أغنى جاليات مكة، وهم على اتصال مباشر بكل موانئ هندوستان، ويستطيعون فى معظم الأحيان منافسة الغير فى الأسعار. الكثيرون منهم، كما سبق أن قلنا، يقيمون فى مكة، فى حين تواصل البقية الباقية من هؤلاء الهنود التنقل جيئة وذهابا بين الحجاز والهند. هؤلاء الهنود جميعهم يحتفظون بلغتهم الوطنية، التى يعلمونها لأبنائهم، كما يعلمونها أيضا لكثير من تجار مكة، إلى حد أن السواد الأعظم من تجار مكة يفهمون أو يعرفون الأعداد الهندية فى أضعف الأحوال، فضلا عن معرفتهم أيضا للعادات الشائعة جدا المستخدمة فى البيع والشراء. الهنود يعملون فى ظل ظروف صعبة جدا يتعلمون خلالها اللغة العربية، ولم يحدث أن رأيت مطلقا أحداً من هؤلاء الهنود، مهما طالت إقامته فى مكة، يتكلم العربية بطريقة سليمة، وهم من هذه الناحية أقل من الأتراك، الذين نعد نطقهم للغة العربية مدعاة للسخرية والتهكم فى معظم الأحيان أمام العرب. أبناء الهنود الذين ولدوا فى مكة يتكلمون العربية كما لو كانت لغتهم الوطنية، وقد درج الهنود على كتابة اللغة العربية بأحرف هندية.

يقال إن الهنود بخلاء تماما، ومن واقع ما رأيته من الهنود فى منازل بعض تجارهم الأول، أرى أنهم يستحقون هذا الوصف. إنهم تجار شديدى الحرص، وطماعين، إلى حد أنهم يفوقون العرب فى ذلك. الناس يحتقرونهم لأنهم يفتقرون إلى الإحسان، لكنهم فيما بينهم تسود بينهم روح تضفى عليهم شيئا من الاحترام، بل وتجعل الناس يخشونهم ويخافونهم فى مكة. كثير من الهنود لهم شركاء فى الهند، وبالتالى فهم يحصلون على البضاعة بأثمان أرخص من الأثمان التى يشترون بها من السفن الهندية فى جدة؛ الأمر الذى يجعل التجار الصغار، وأصحاب الداكاكين يشترون منهم بآجال قصيرة، بدلا من السفر إلى جدة، التى يجرى فيها الشراء بالنقد. وباستثناء منزل أو منزلين، نجد أن تجار مكة كلهم، لا تصلهم البضاعة من الهند مباشرة وإنما يذهبون للشراء مباشرة من الأسطول الهندى، وليس هنا من بين سكان مكة من هم أكثر مداومة ومحافظة على الطقوس الدينية من الهنود.

عندما يتساوم تجار الجملة فى وجود شخص يودون أن يخفوا عنه أمورهم المالية والأعمالية، يضعون أيديهم اليمنى جنبا إلى جنب عند طرف الثوب أو عند أكمام طرف من الأطراف الموجودة، وعن طريق لمس وصلات الأصابع المختلفة، يستطيعون ملاحظة الأعداد وبذلك يبرمون صفقاتهم فى هدوء.

المكيون الذين لا تستهويهم التجارة، يرتبطون بالحكومة، أو بمؤسسة المساجد، ولكن كما سبق أن أسلفت، يشتركون بصورة أو بأخرى فى فرع من أفرع التجارة، فضلا عن أن السكان جميعهم يتطلعون إلى موسم الحج، باعتباره المصدر الرئيسى للدخل.

هؤلاء الذين يعملون فى المسجد الحرام يتلقون رواتب بصفة منتظمة ويشاركون في الهدايا والعطايا العامة التى تقدم لبيت الله، فيما عدا بعض العطايا والهدايا الخاصة التى تأتى من أهل الخير والمحسنين، كما يشاركون أيضا فى التبرعات التى تأتى مع القافلتين السورية والمصرية. هذه التبرعات التى يسمونها الصرة ، (التى سبق

الحديث عنها) تأتى أصلا من سلاطين إسطنبول، الذين يحددون فور وصولهم إلى الحكم مبلغا محددا لعون التبرعات يجرى توزيعها فى المدينتين بواسطة القاضى حسبما يراه مناسبا، لكن إذا ما حصل شخص على جزء من هذه التبرعات، فإنه يداوم الحصول عليه مدى الحياة ، بل إن هذا الحق ينتقل إلى أطفاله. مثل هذا الشخص يحصل على بطاقة موقعة من القاضى، ومن الشريف، ومن كاتب الصرة، كما يجرى إدراج اسم مثل هذا الشخص فى أحد السجلات فى مكة، هذا السجل ترسل منه سنويا نسخة إلى إسطنبول، حيث يجرى إدراج تلك الأسماء ضمن سجل الصرة العام، هذه الصرة يجرى تقسيمها فى إسطنبول إلى مبالغ صغيرة يمثل كل منها اسم الشخص المرسل له مثل هذا المبلغ، وإذا ما أرسل مبلغ إضافى لتوزيعه على المحتاجين، فإن القاضى هو الذى يقوم بتوزيع هذا المبلغ الإضافى، ويقوم القاضى بعد ذلك بإبلاغ مفتش الصرة فى إسطنبول باسم الشخص الذى حصل على المبلغ، وبذلك تجرى فى العام التالى إضافة تلك المبالغ الإضافية إلى المبالغ السابقة. بعض صرر التبرعات تأتى من مصر، لكن القسم الأكبر يأتى من إسطنبول عن طريق سوريا، هذا القسم من التبرعات يجرى الحصول عليه بصورة منتظمة. كل قافلة لها كاتب صرتها الخاصة، وتتمثل مهمة ذلك الكاتب فى توزيع النقود والهبات التى تدفعها القوافل لكل من البدو والعرب وهى فى طريقها إلى مكة.

يجرى توزيع صرة مكة فى المسجد الحرام، من نوافذ منزل القاضى وتحت إشرافه، بعد عودة الحج. هناك من يتسلم مبالغ صغيرة قد تصل إلى قرش واحد، أما القسم الأكبر فيتراوح بين عشرة قروش وعشرين قرشا، لكن هناك عددا قليلا جدا من الأسر التى تتسلم ما يقرب من ألف قرش كل عام. وعلى الرغم من عدم إعطاء هذه المبالغ لمستحقيها، فإن عددا كبيرا من الأسر الفقيرة تحصل على نصيب من هذا الدعم. بطاقات هذه المعونات قابلة للتحويل، لكن تحويل هذه البطاقة لابد أن يكون بموافقة كل من القاضى والشريف وتوقيعهما على هذه البطاقة ، وذلك نظير هدية صغيرة تقدم لكاتب القاضى، يجرى تسجيل الاسم الجديد وإرساله إلى إسطنبول، فى الماضى كان

من الصعب إقناع المكى ببيع نصيبيه من الصرة، التى يعدها نوعا من التشريف فضلا عن كونها أيضا المورد الرئيسى لإعاشة أسرته، ومع ذلك نجد أن قيمة الصرة تغيرت تغيرا كبيرا. هذه البطاقات فقدت قيمتها تماما فى زمن الوهابيين؛ نظرا لأن حمَلة هذه البطاقات لم يحصلوا على شىء طوال ثمانى سنوات. هذه البطاقات بدأت تعود إلى سابق عهدها على استحياء، لكن بعض هذه البطاقات بيعت بقيمة عامين ونصف العام من ثمنها، الأمر الذى يثير التساؤلات حول مدى استقرار الحكم التركى، أو عودة الوهابيين.

أتفه الناس، وأرذلهم، وأكثرهم وقاحة من بين المكيين هم الذين يمتهنون مهنة الإرشاد (مطوف أو دليل)، ونظرا لأن الناس ليسوا بحاجة إلى هذه الصفات، ونظرا أيضا لزيادة الطلب على المرشدين أثناء موسم الحج، نجد أن عدد هؤلاء المطوفين والأدلاء يتزايد فى موسم الحج. وإلى جانب الأماكن التى أتيت على ذكرها فى مدينة مكة، نجد أن المطوفين يرافقون الحجاج إلى أماكن الزيارة الأخرى فى المدينة المقدسة، ونجدهم أيضا على استعداد لتقديم الخدمات على اختلاف أنواعها فى المدينة، لكن فائدة هؤلاء المطوفين الأدلاء لا تتناسب مطلقا مع انتهازيتهم ووقاحتهم، ترى هؤلاء المطوفين وهم يحاصرون غرفة الحاج من طلوع الشمس إلى غروبها، ولا يسمحون له بالقيام بأى عمل من الأعمال دون تدخل منهم واللجوء إليهم ؛ تراهم يجلسون معه فى تناول الإفطار والغداء والعشاء ويدخلونه فى سائر المصروفات والنفقات التى يصيبون منها جزءا، والويل كل الويل للتركى بسيط الحال الذى يتخذ من المطوف مترجما له فى أية مسألة من المسائل التجارية. كان أول دليل معى من المدينة المنورة، وكنت أسكن فى منزل هذا المطوف فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان، وعندما عدت إلى مكة مرة ثانية، التقيت ذلك المطوف فى الشارع، وعلى الرغم من أنى كنت بعيدا تماما عن الترحيب به، إذ كان لدىّ من الأسباب ما يكفى للتشكيك فى أمانته، فإنه قبلنى واحتضننى وجعل من بيته سكنا لى. فى البداية كان يرافقنى كل يوم فى طوافى حول الكعبة، للدعاء بالأدعية المخصصة لمثل هذه المناسبة ، هذه الأدعية سرعان ما حفظتها

عن ظهر قلب، الأمر الذى جعلنى أستغنى عن خدماته فى هذا الشأن. كان الرجل يجلس دوما معى لتناول الغداء، وكان يحضر معه سلة صغيرة كان يطلب إلى خادمى أن يملأها بالبسكويت واللحم، والخضروات أو الفاكهة ويأخذها معه عند الانصراف. وكان يطلب منى كل ثلاثة أيام أو أربعة شيئا من النقود : كان يقول لى : "أنت لم تعطنى شيئا، وإنما الذى أعطانى هو الله سبحانه وتعالى". وعندما وجدت أنى عاجز عن إيجاد طريقة مناسبة للتخلص من هذا المطوف، قلت له بمنتهى الصراحة إنى لا أريد بعد شيئا من خدماته، وتلك لغة لم يعتدها الدليل أو المطوف المكى، وبعد ثلاثة أيام عاد إلىَّ ذلك المطوف وكأن شيئا لم يكن، وطلب منى دولارا. رددت عليه قائلا : "الله لم يحثنى أو يحركنى كى أعطيك شيئا، لو كان الله سبحانه وتعالى يجد ذلك حقا، لرقق قلبى تجاهك ولدفعنى إلى إعطائك حافظة نقودى كلها". قال متعجبًا: " أندف ذقنى، إذا لم يرزقك الله فيما بعد بعشرة أمثال ما ستعطينى إياه حاليا". ورددت عليه أنا بدورى قائلا: "أندف كل شعرة من شعرى إن أعطيتك بارة واحدة دون اقتنا ع منى بأن الله سيجعلها عملا من أعمال إحسانى". وعندما سمع المطوف ذلك منى هب واقفا وانصرف وهو يقول : "نحن نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى من قلوب المتكبرين، ومن أيدى البخلاء والمقترين". هؤلاء المطوفين لا يقولون عشر كلمات دون أن يذكروا اسم الله سبحانه وتعالى أو اسم محمد ﷺ ، تراهم دوما ممسكين بالمسابح فى أيديهم، وتراهم أيضا يتمتمون بالدعاء حتى أثناء الحوار. شخصية المطوف هذه تنطبق على أهل مكة بصفة عامة، إلى حد أنهم عندما يكونون فى القاهرة يستعملون المثل التالى فى التعبير عن انتهازية الشحاذ البذىء: "أنت مثل المكى، تقول : "أعطنى، وأنا سيدك".

كنت بحاجة إلى دليل (مطوف) واضطررت بعد ذلك إلى استخدام رجل مسن من أصل تتارى، توصلت معه، منذ البداية، إلى اتفاق، كنت راضيا عنه تماما. وصل إجمالى ما دفعته فى مكة للمطوفين، وفى أماكن الزيارة ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين قرشا، أى ثلاثين دولارا، لكنى لم أقدم أية هدايا للمسجد أو لأى من العاملين فيه، لأن

مثل هذا العمل لا يتأتى إلا من جانب كبار الحجاج، أو أولئك الذين يودون شهرة على المستوى العام. هناك بعض المطوفين الذين يقيمون دوما بجوار الكعبة، انتظارا لمن يستأجرهم للقيام بعملية الطواف، وإذا ما رأى هؤلاء المطوفين حاجا يمشى بمفرده، فإنهم يتقدمون، دون أن يطلب ذلك أى أحد منهم، بالإمساك بيد هذا الحاج، ويبدأون فى تلاوة الدعاء، والأجر الذى يتقاضاه المطوف نظير هذه العملية يقدر بحوالى نصف قرش، وقد سمعت المطوفين وهم يساومون الحاج عند باب الكعبة، على مسمع ومرأى من كل الحاضرين ، والمطوفون الفقراء يرضون بربع قرش. كثير من أصحاب الدكاكين، ومن أفراد الطبقة الثالثة يوفدون أبناءهم الذين يحفظون هذا الدعاء عن ظهر قلب، يرسلونهم إلى هذا المكان لكى يتعلموا مهنة الطوافة، أما هؤلاء الذين يعرفون اللغة التركية يحصلون على أجور كبيرة، ولما كان الحجاج الأتراك يصلون عن طريق جدة، ويعيشون سويا فى مكة، فإن مطوفا واحدا هو الذى يتولى أمر هذه الجماعة ويتوقع أتعابا من أفراد الجماعة كلهم. يتصادف عند عودة الجماعة إلى أرض الوطن، أن تزكى ذلك المطوف عند جماعة أخرى من إخوانهم المواطنين، الذين يرسلون فى طلب ذلك المطوف، عندما يصلون إلى جدة ويطلبون منه توفير سكن لهم فى جدة، وأن يشرف على رحلتهم القصيرة إلى المدينة المقدسة، وأن يكون مرشدا لهم فى الدعاء الذى يقال عند دخول الحرم أول مرة. بعض هؤلاء المطوفين يوجدون دائما فى جدة طوال الأشهر الثلاثة التى تسبق الحج، ولقد رأيتهم وأنا فى طريقى إلى مكة وهم يتقدمون جماعتهم ويتعاملون معها بمنتهى الأدب والاحترام. التركى الذى يجىء من أوروبا، أو من آسيا الصغرى، والذى لا يعرف كلمة عربية واحدة يفرح فرحا شديدا عندما يعثر على عربى يتكلم لغته، ويعده بكل سبل الراحة فى مكة، والذى لُقِّن على أنها مكان لا ينتظره فيه سوى الخطر والتعب. المطوف الذى يقوم بإرشاد اثنى عشر حاجا تركيا مدة شهر واحد، جرت العادة أن يحقق مكاسب تكفى للوفاء باحتياجات منزله على امتداد عام كامل، إضافة إلى كسوته وكسوة عياله وأطفاله.

بعض هؤلاء المطوفين لهم مهمة فريدة جدا. الشريعة الإسلامية تنص على أن المرأة غير المتزوجة لا يحق لها الحج، كما تنص الشريعة أيضا على أن تكون المرأة

المتزوجة بصحبة زوجها إذا ما أرادت أداء الفريضة، أو وجود محرم معها فى أضعف الأحوال (و المذهب الشافعى لا يقر هذا المحرم)، ولا تزال النساء التركيات يأتين فى بعض الأحيان لأداء فريضة الحج، كما تأتى أيضا الأرامل اللاتى يردن مشاهدة مكة وزيارتها قبل أن توافيهم المنية، كما تأتى إلى مكة أيضًا النساء اللاتى يكنّ بصحبة أزواجهن الذين يموتون وهم فى طريقهم إلى مكة. فى مثل هذا الحال، تجد المرأة التى من هذا القبيل دليلا أو مطوفا (أو ما يسميه أهل هذا البلد بالمحلل) يكون مستعدا لتسهيل تحرك النساء اللاتى من هذا القبيل فى الأراضى، وهنا تقوم المرأة التى بصحبتها المطوف بأداء فريضة الحج فى مكة وعرفات، والأماكن المقدسة كلها. على كل حال، المفهوم ضمنا أن هذا مجرد زواج اسمى، ويقوم المطوف بتطليق المرأة فور عودته إلى جدة : وإذا ما رفض المطوف تطليق المرأة، فإن الشرع لا يجبره على ذلك، ويعد الزواج ملزما فى مثل هذا الحال، لكن مثل هذا الرجل لا يستطيع بعد ذلك ممارسة مهنة المطوف، وقد أبلغنى الراوى عن مثالين لمطوفين رفضا تطليق النساء واستمرا فى لعب دور الزوج. وأنا أرى أنى لا أبالغ عندما أقول إن هناك ثمانمائة مطوف من الشبان، إضافة إلى عدد كبير من الصبية الذين يتعلمون المهنة. وصاحب الدكان الذى يخسر زبائنه، يضاف إلى ذلك أن الرجال المساكين الذين يودون اكتساب المزيد من المال الذى يمكنهم من شراء أمة حبشية يتحولون إلى العمل فى مجال الطوافة. صحيح أن مهنة المطوف من المهن المتواضعة التى لا تحظى بسمعة كبيرة، لكن كثيرا من المكيين ميسورى الحال، كانوا فى وقت من الأوقات يعملون فى مجال الطوافة.

تنهمر على مكة كل عام ثروات طائلة من التجارة، والتبرعات، والعطايا والأرباح؛ الأمر الذى يجعل مكة واحدة من أغنى مدن الشرق، اللهم باستثناء عادات أهلها السيئة، وإذا ما استثنينا تجار الطبقة الأولى، الذين يعيشون أقل من مستواهم، على الرغم من مؤسساتهم الكبيرة، وإذا ما استثنينا أيضا قسما كبيرا من أفراد الطبقة الثانية، الذين يجمعون المال بغية الوصول إلى المرتبة الأولى، نجد أن غالبية المكيين،

على اختلاف مهنهم وأوصافهم هم من المبذرين السائبين غير المنظمين. هذا يعنى أن المكاسب الكبيرة التى يحققها هؤلاء الناس خلال ثلاثة أشهر أو أربعة يجرى إنفاقها على الحياة الطيبة، والملبس الطيب وأعظم الإشباعات، وفى ضوء توقعاتهم لمكاسب العام المقبل، لا يهتمون كثيرا بادخار شىء مما لديهم. فى شهر المحرم، وعقب انتهاء الحج مباشرة، وبعد رحيل القسم الأكبر من الحجاج، يجرى عرف الزواج والختان بحفلاتهما البهيجة. الزواج والختان يجرى الاحتفال بهما فى مكة على نطاق واسع وبطريقة رائعة، والرجل الذى لا يملك سوى ثلاثمائة دولار ينفقها خلال العام، يلقى بنصف هذا المبلغ فى الزواج أو فى ختان طفل من أطفاله. قداسة مكة، والنصوص القرآنية تعجز عن ردع سكان مكة ومنعهم من استعمال المشروبات الروحية (المسكِرة)، والدخول فى المبالغات المعتادة التى تترتب على تعاطى المسكِرات. يجلب الأسطول الهندى كميات كبيرة من الراكى المعبأ فى براميل. هذا المشروب المسكِر، إذا ما خلط بشىء من السكَّر، وقطعة من القرفة، يجرى بيعه تحت اسم ماء القرفة. أشراف مكة، وجدة وكبار التجار، والعلماء، وكذلك كبار الشخصيات كلهم معتادون على شرب هذا المشروب، الذى يقنعون أنفسهم بأنه ليس نبيذا أو من أنواع البراندى، ومن ثم فإن الشرع لا يحرمه. السكان الأقل ثراء لا يقوون على شراء سلعة غالية من هذا القبيل، لكنهم يستعملون مشروبا متخمرا يصنعونه من الزبيب، ويجرى جلبه من الطائف، أما الطبقات الأدنى من ذلك فتستعمل البوظة. أثناء مقامى فى الطائف، قام أحد الأتراك، الذين ينتمون إلى حاشية محمد على باشا بتقطير البراندى من العنب، وراح يبيعه بسعر أربعين قرشا للقارورة الواحدة.

المكيون مغالين فى منازلهم ؛ غرفهم مفروشة بالسجاد وعامرة بالمخاد والأرائك المكسوة بالقماش الفاخر، ووسط هذا الأثاث يرى الناظر أوانٍ جميلة مصنوعة من الخزف، وشياش عدة مزينة بالفضة. وصاحب الدكان البسيط يشعر بالخجل إذا ما استقبل ضيوفه ومعارفه فى بيت أقل من هذا المستوى. موائدهم مجهزة وعامرة على نحو أفضل منه فى أية مدينة أخرى من مدن الشرق، التى تعيش فيها الأسر المحترمة

حياة اقتصادية، المكى من الطبقة الدنيا، لابد من وجود اللحم على مائدته كل يوم، الذى يباع الرطل منه بما يتردد بين قرش ونصف وقرشين، يزاد على ذلك أن دلة قهوته لا ترفع من فوق النار مطلقا، كما أنه هو وزوجاته وأطفاله يستعملون الشيشة بصورة مستمرة، والتبغ الذى يستخدم فى هذه النرجيلة يكلف كثيرا جدا.

استحدثت النساء عادة هى شائعة أيضا فى تركيا، ألا وهى زيارة بعضهن البعض مرة واحدة كل أسبوع فى أضعف الأحوال ومعهن أطفالهن، هذه الزيارة تستمر طوال النهار، وتقدم خلال هذه الزيارة مسليات وفيرة، وهذا يجعل ربة البيت تبذل أقصى ما فى وسعها طلبا للتفوق على الأخريات من حيث الاستعراض والعظمة، وهذا يكلف الأسر مبالغ كبيرة. ويمكن أن ندرج ضمن المصارف العائلية شراء الإماء الحبشيات اللاتى يحتفظ بهن الرجال، أو المبالغ التى تنفق على النساء اللاتى يتردد الرجال عليهن مرارا؛ إنفاق مبالغ كبيرة على الإشباعات الحسية، لا يزال كبيرا ويحط من القدر، لكنه يشيع فى مدن الحجاز مثلما هو شائع فى أجزاء أخرى من آسيا، أو فى مصر أثناء حكم المماليك. لقد لاحظت بالفعل أن المسجد المكى نفسه، هذا المسجد الأشد قداسة من بين المساجد الإسلامية، يجرى تلويثه يوميا بأبشع أنواع الفسوق. هذه الممارسات لا تعد من قبيل العار، ويجرى تشجيع الكبار والصغار على إتيان هذه الممارسات، يزاد على ذلك أن الوالدين يتعين عليهما التغاضى عن ذلك طلبا للمال، ومع ذلك، فإن مخيمات البدو العرب تخلو من هذه الملوثات، على الرغم من أن أسلافهم لم يخلوا منها، أو محصنين ضدها، وهذا من واقع الطُّرف التى يرويها المؤرخون الشرقيون.

كلامى عن الساقطات من النساء، (وهن كثيرات جدا) لابد من استئنافه وتواصله. سبق أن قلت إن ذلك الحى أو الشارع الذى يسمونه شعب عامر تسكنه الطبقة الأكثر فقرا، أما أفراد الطبقة الأعلى من هذه الطبقة فيوزعون على سائر أنحاء المدينة. سلوكهم الظاهرى أكثر احتشاما عن سائر النساء الساقطات فى بلاد الشرق، والأمر هنا يحتاج إلى عين المكى الخبيرة المجربة للتأكد من الحركة المعينة التى تتمثل فى

مشيتها، وأن الأنثى المحجبة التى تمر من أمامه تنتمى إلى القبيلة الفاسدة. وأنا لن أغامر بالكلام عن نساء الحجاز المتزوجات؛ سمعت كثيرا من النكات المتصلة بهذا الموضوع، والتى لا تثنى عليهن، لكن فى الشرق، كما هو الحال فى المدن الأخرى، نجد أن الشبان يتفاخرون فى بعض الأحيان بأشياء لم يتمتعوا بها مطلقا. السلوك والمظهر الخارجى لنساء جدة ومكة يصطبغ بالحشمة ، قلة قليلة من هؤلاء النسوة هن اللاتى يشاهدن يمشين أو راكبات فى الشوارع، وهذا أمر شائع فى القاهرة، على الرغم من تعارضه مع أفكار الشرق عن الحشمة والاحتشام ، لقد عشت فى ثلاثة منازل مختلفة فى مكة دون أن أرى الوجوه غير المحجبة.

كبار تجار مكة يعيشون حياة رغدة ؛ فى بيوت الجيلانى، والسقاط والعجيل والنور توجد مؤسسات تضم ما بين خمسين شخصا وستين . هؤلاء الأشخاص جمعوا ثرواتهم فى زمن حكم الشريف غالب، الذى عمل معه كل من الجيلانى والسقاط جاسوسين على التجار الآخرين. موائد هؤلاء الأشخاص تحفل يوميا بكل المأكولات الوطنية الفاخرة، فضلا عن الأصناف التى يحصلون عليها من الهند ومن مصر. يجلس معهم على مائدة الغداء حوالى عشرين شخصا كل يوم، العبيد الأحباش المقربين، الذين يعملون كتبة أو صيارفة يسمح لهم بالجلوس على مثل هذه الموائد التى يقيمها سادتهم، أما العبيد الأدنى من ذلك هم والخدم فيعيشون على الطحين والزبد. الأطباق المصنوعة من الخزف ومن الزجاج والتى يقدم فيها الطعام، هى من أفضل الأنواع، وماء الورد ينثر على لحى الرجال بعد الغداء، وتمتلئ الغرفة برائحة العود، الذى يجرى حرقه فوق النراجيل والشياش. الأدب جم وبلا رسميات، وليس هناك من يمكن أن يظهر بمظهر محبوب أكثر من المكيين وبخاصة عندما ينقلون كرم الضيافة إلى الضيوف. ومن يتصادف وجوده فى الصالة الخارجية عند تقديم الطعام، يطلب إليه المشاركة فى الطعام، ويشارك الرجل فى الطعام دون إحساس منه بأنه مضطر إلى ذلك بسبب الدعوة، فى الوقت الذى يحس المضيف فيه بأن مشاركة مثل هذا الشخص فى الطعام تعد تشريفًا للمضيف نفسه.

يتناول المكيون وجبتين يوميا، واحدة قبل الظهر والثانية بعد غروب الشمس، الطبقات الدنيا تتناول وجبة الإفطار مع طلوع الشمس، ولا يأكلون بعد ذلك إلا عند غروب الشمس، كما هو الحال فى بلاد الزنوج ليس من اللياقة فى شىء أن ترى رجلا يأكل فى الشارع ؛ الجنود الأتراك، الذين يراعون سلوكياتهم الوطنية ويحافظون عليها يوبخهم الناس وينتقدونهم يوميا لسوء التربية فى هذا الصدد.

قبل الغزو التركى، وقبل الحروب التى خاضها الشريف ضد الوهابيين كان تجار مكة يحيون حياة سعيدة. خلال شهرى مايو ويونيو كان التجار يحضرون مزاد بيع البضاعة الهندية فى جدة، وفى شهرى يوليو وأغسطس (اللهم إلا أن نصادف ذلك مع موسم الحج) كان هؤلاء التجار يلجأون إلى منازلهم فى الطائف، لتمضية موسم الحر الشديد، تاركين وراءهم شركاءهم أو كتبتهم فى كل من جدة ومكة. طوال شهور الحج، يبقى هؤلاء التجار فى مكة، وكانت الأسر المكية الثرية تصاحب الحج إلى عرفات باعتبار ذلك شكلا من أشكال التمتع، وكانت تلك الأسر تخيم أيضا فى وادى منى على امتداد أيام ثلاثة.

فى شهر رجب، الذى هو الشهر السابع بعد الحج، كانت تنطلق قافلة من مكة قاصدة المدينة المنورة، وكانت تلك القافلة تضم مئات عدة، راكبين ذللا. فى ذلك الوقت كانت هناك سوق تنعقد فى المدينة المنورة، وكان كثير من البدو يؤمون تلك السوق فى كثير من الأحيان، كما كان أهل الحجاز وأهل نجد يؤمون هذه السوق أيضا.

كانت البضاعة تصل إلى تلك السوق من مكة عن طريق قوافل كبيرة من الإبل، وكانت تلك القوافل تستأنف مسيرها عقب سفر الحجاج مباشرة، وكان الناس يطلقون على هذه القوافل اسم ركب المدينة(*) المنورة. كان الناس يبقون حوالى عشرين يوما

(*) جرت العادة أن يطلق أهل الحجاز اسم "ركب" على القوافل، وهم عندما يتكلمون عن قافلة بغداد يقولون ركب الشام ، أو ركب العراق .

فى المدينة المنورة يعودون بعدها إلى مكة. هذا التغيير المتكرر المنتظم والمتكرر للمسكن، لابد أن يكون فى مصلحة التجار، وبخاصة فى تلك الأزمان، يوم أن كان هؤلاء التجار يعرفون على وجه الدقة احتمالات الربح من موسم الحج التالى، ولما كانت الطائف والمدينة المنورة شبه مدمرتين فى ذلك الوقت، فقد حدا ذلك بتجار مكة إلى التحول إلى جدة باعتبارها المكان الترفيهى الوحيد، ومع ذلك نجد أن التجار الذين لهم زوجات ومنازل فى جدة، يتحدثون عن مؤسساتهم فى مكة باعتبار أن أوقاتهم طوال العام تكون فى تلك المؤسسات.

سكان كل من مكة وجدة (وإلى حد ما) سكان المدينة المنورة يتميزون بحيوية أكثر من حيوية السوريين أو المصريين. لا أحد من هذه الآلات الصامتة المتجهمة له وجود هنا فى هذا المكان، على الرغم من شيوع هذه الوجوه فى أجزاء أخرى من الشرق، هذه الوجوه ترى فى غبائها، وتبلد إحساسها دليلا على رهافة الإحساس، والحصافة والحكمة.

شخصية المكى تشبه شخصية البدوى من هذه الناحية، هذا يعنى أن الجشع والجرى وراء المكاسب لا يشوه ملامح هذه الشخصية فى كثير من الأحيان، هذا يفيد أن ابتسامة المرح تعلو شفاه هؤلاء الناس بصفة دائمة. فى الشوارع، وفى أسواق العاديات الشرقية، وفى المنازل بل وحتى فى المسجد ترى المكى منبسطا وميالا إلى الضحك والتنكيت. والمكيون عندما يتعاملون مع بعضهم البعض، أو عندما يتحدثون فى أمور خطيرة، تراهم دائما يستعملون الأمثال أو التوريات، أو الإشارات الألمعية، الأمر الذى يولد الظرف ويجلب الضحك. حوارات المكيين مقبولة جدا، وسبب ذلك أن هؤلاء الناس وهبهم الله مزاجا عامرا بالحيوية، ووهبهم أيضا رجاحة العقل، والسلوك الحسن، وهم يعرفون كيف يفيدون من هذه السجايا ويجعلونها تتفق وتتوافق مع دواخلهم، وكل من يعرف هؤلاء المكيين ولو معرفة سطحية، يندر ألا يصيب شيئا من طباعهم الطيبة. المكيون مؤدبون مع بعضهم البعض، ومع الأجانب والغرباء أيضا، وهم فى ذلك يكونون على العكس من المصريين والسوريين، وفيهم أيضا شىء من طبيعة

البدو الحسنة، نظرا لأن أصول المكيين هى أصول بدوية. المكيون عندما يلاقون بعضهم بعضا فى الشارع لأول مرة، ترى الصغير يقبل يد الكبير، أو يقبل الأدنى يد الأعلى من حيث المقام، فى حين يقوم الآخر برد التحية بقبلة يطبعها على جبين من يحييه. الأنداد الذين يكونون من منزلة واحدة ومن سن واحدة، ولا ينتمون إلى الطبقة الأولى يقبلون أيادى بعضهم البعض. (*) وهم يقولون للغرباء والأجانب : "يا مؤمن" أو "يا أخى" ، يضاف إلى ذلك أن القول المأثور "إنما المؤمنون أخوة" يتردد دوما على ألسنتهم. وصاحب الدكان يقول لزبونه الأجنبى "مرحبا وألف مرحبا"، "أنت من غرباء الله سبحانه وتعالى وأنت ضيف فى المدينة المقدسة، كل ممتلكاتى تحت أمرك". والمكى إذا ما أراد خدمة من الخدمات يقول : " إعاشتنا كلها تعتمد، بعد الله سبحانه وتعالى، عليكم أيها الحجاج، ألا يستحق ذلك شكرنا وامتناننا لكم ؟" إذا ما كان الغريب فى المسجد الحرام يجلس فى الشمس فإن المكى يفسح له مكانا فى الظل، وإذا ما كان المكى يسير فى الشارع فإنه يسمع من يناديه لتناول كوب من الشاى أو القهوة، والمكى عندما يتناول الشربة (الجرة) ليشرب منها، فإنه يقدمها قبل أن يشرب منها لمن يكون بجواره، أى أنه يؤثره على نفسه، وفى ظل أقل قدر ممكن من المعرفة ترى المكى يقول لصديقه الجديد: "متى تشرفنى فى منزلى وتتناول معى العشاء ؟" والمكيون عندما يتعاركون فيما بينهم، لا تسمع منهم لعنا أو سبا أو لغة بذيئة، مثل تلك المستخدمة فى مصر وسوريا، تبادل اللكمات لا يحدث مطلقا إلا فى المناسبات الشاذة، ووصول رجل من الرجال المحترمين يضع حدا للنزاع على الفور عندما يقول : "لقد جعلنا الله خطائين كبارا"، ويردان عليه قائلين :"لكنه أعطانا أيضا فضيلة الندم".

(*) عندما يصافح أهل الحجاز بعضهم بعضا يمسك الواحد منهم إبهام الآخر واليد كلها ويروح يضغط عليها، ثم يفتح اليد مرتين أو ثلاث مرات. وهذا هو ما يسمونه المصافحة، ويقال إن المصافحة كانت عادة من عادات (سيدنا) محمد ﷺ.

المكيون يضيفون إلى هذه الصفات الحميدة صفة أخرى، لابد من ذكرها لهم ؛ المكيون جنس أو عرق متباه، على الرغم من أن تباهيهم لا يقوم على قيم داخلية، وهذا التباهي مفضل على العبودية الصارخة التي تتجلى في سكان الشرق الآخرين، الذين يسترجعون إذعانهم العبودي لمن هم أعلى منهم، عن طريق التعالي والتكبر على من هم أقل منهم. المكيون يتباهون بأنهم مواطني المدينة المقدسة، وأنهم أبناء بلد النبي ﷺ ، وأنهم حافظوا، إلى حد ما، على أخلاقه وسلوكياته، وأنهم يتكلمون لغته الصافية، وهم يتفاخرون بأنهم سينعمون بكل المباهج في الحياة الآخرة التي وعد كل أولئك الذين يعيشون بالقرب من الكعبة (المشرفة)، ويتباهون أيضا بأنهم أكثر حرية من أولئك الأجانب الذين يجيئون أفواجا إلى المدينة المنورة. والمكيون يكشفون عن ذلك التباهي أمام كبارهم، الذين لقنوهم أن يتعاملوا معهم بسماحة وحذر وصبر، يضاف إلى ذلك أن المكيين ينظرون إلى الشعوب الإسلامية كلها على أنها أقل منهم، وأن إشفاقهم على هذه الشعوب وتأدبهم معها إنما يرجع إلى انخفاض مستوى هذه الشعوب. هذا التباهي والفخر قد يتمخضا عن نتائج كثيرة لا يمكن لأية أمة بدونها، أن تحتفظ لنفسها بمكانة بين الأمم. هذا التباهي والفخر هو الذي منع شعب (أهل) مكة من الوقوع في إسار العبودية مثلما حدث لبعض جيرانهم، هذا الفخر والتباهي لا يستحثهم على فعل أشياء جديرة بالثناء، في حين تظهر آثار هذا التباهي في احتقارهم للأجانب. هذا الاحتقار، كما سبق أن أوضحت في الحديث عن جدة، يتجلى بصفة أساسية تجاه الأتراك، وفي جهلهم باللغة العربية، وفي لباسهم وسلوكياتهم ووقاحة تصرفاتهم ووضاعتها عندما يعجزون عن الحديث كسادة، هذا الاحتقار للأتراك يتجلى أيضا في الجبن الذي يكونون عليه عندما يجري الهجوم على قافلة الحج وهي في طريقها عبر الصحراء ، كما يتجلى ذلك الاحتقار أيضا في قلة الاحترام من جانب حكام مكة للأتراك في ظل تعاظم قوة الشريف وعدم انكسارها، الأمر الذي كان يسفر عن التقليل من قدر هؤلاء الأتراك في نظر العرب، إلى حد أن الناس في الحجاز كانوا ينظرون إليهم على أنهم أفضل من غير المسلمين ولكن بقدر ضئيل جدا، وعلى الرغم من أن كثيرا من المكيين هم من أصل تركي، فإنهم ينضمون إلى أبناء جلدتهم في الحط

من قدر السلالة أو العرق الذى انحدروا عنه. ينعتون الأتراك فى كثير من الأحيان بأنهم نصارى ، أو يهود، يضاف إلى ذلك أن سلوكيات الأتراك ولغتهم تعدان دوما مصدراً دائما من مصادر السخرية والتقريع. السوريون والمصريون تقع عليهم تأثيرات مباشرة من ذلك التباهى والفخر من جانب أهل الحجاز، ولكن السوريين بصفة خاصة، شأنهم شأن المصريين، خلافا لسائر الأجانب جميعهم، هم الأقرب إلى شعب الجزيرة العربية، من حيث العادات واللغة، كما أنهم يحتفظون بأمتن العلاقات مع أهل الجزيرة العربية. ولكن السورى المسلم المتباهى، الذى يقول إن دمشق أو حلب هى "أم الدنيا" والذى يصدق أنه ليس هناك جنس من البشر يتساوى مع الجنس السورى، والذى يعتقد أيضا أنه ليست هناك لغة أصفى من اللغة السورية، على الرغم من أن اللهجة السورية هى أرود اللهجات بعد اللهجة المغربية، هذا السورى مضطر إلى أن يسلك هنا مسلك المتواضعين والحذرين، وأن يتظاهر بالأدب فى أضعف الأحوال. وعلى الرغم من أن السورى عربى فإنه يُوَبَّخُ للباسه ومعيشته التى يحياها على الطريقة التركية، كما أن كنية "شامى" (سورى) تعنى وغد ثقيل الظل غير متعلم. لو قدر لأهل الجزيرة العربية أن يروا الأتراك فى البلاد التى هم فيها سادة، لزاد استياؤهم من هؤلاء الأتراك، وهنا يتعين علينا القول إن سلوك الأتراك فى المدينة المقدسة بشكل عام، يكون أرق وأكثر التزاما بمفاهيم دينهم، عن سلوكهم فى البلدان التى يجيئون منها.

يرى المكيون أن مدينتهم المقدسة، بكل سكانها هى فى رعاية العناية الإلهية ، وحمايتها، وأنهم مفضلون على سائر الأمم، والمكيون يقولون متعجبين، عندما يستغرب أحد من بقائهم فى المدينة أثناء كساد التجارة وفى غياب الحجاج :"هذه مكة ! هذه مدينة الله" ،"لا أحد هنا يفتقر إلى طعامه اليومى أو قوت يومه"، "لا أحد هنا يخشى من الأعداء أو يخافهم". المكيون ينظرون إلى إنقاذ مكة من السلب والنهب على يدى سعود وإلى عدم حدوث سلب ونهب للمدينة بواسطة الخيالة الأتراك عندما استولى مصطفى بك على مكة من الوهابيين، وإلى استيلاء الشريف غالب على مكة دون وقوع مذابح فى

أى ركن من أركان مكة، ينظر المكيون إلى ذلك كله باعتباره معجزات حقيقية من عند الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المعجزات تؤكد صدق ما ورد فى المقطوعة القرآنية (المأخوذة من السورة رقم ١٠٦) والتى تقول : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (الكعبة) ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾". لكن المكيين ينسون الرجوع إلى تاريخهم، الذى يأتى على ذكر كثير من المجاعات المخيفة والمعارك الطاحنة، التى وقعت فى ذلك المكان المقدس. واقع الأمر أن الحجاز عانى من المجاعات أكثر من أى مكان آخر من البلاد الشرقية. المؤرخون عندهم الكثير من الأوصاف لتلك الأحداث المؤلمة، وسوف آتى على ذكر واحدة من تلك المجاعات، وبخاصة تلك التى وقعت فى العام الميلادى ١٦٦٤، يروى العصمى أن الناس فى ذلك العام باعوا أطفالهم فى مكة نظير مكيال واحد من القمح، وأنه عندما كان فى جدة، كان الناس يتغذون على اللحم البشرى.

حكى لى أحد المكيين، أنه بعد أن قرر أن يغادر مكة، نتيجة لعدم وصول الحجاج الأتراك، ظهر له ملك فى المنام فى الليلة السابقة للرحيل. كان الملك يحمل سيفا مشتعلا فى يده وكان يقف على بوابة مكة، التى كان الحاكم على وشك المرور خلالها مغادرا المدينة، وقال الملك متعجبا : "ابق أيها الكافر ! سيأكل المكيون عسلا فى حين يرضى بقية أهل الأرض بالخبز وحده !" وتأسيسا على هذه الرؤيا، تخلى الرجل عن مشروع الرحيل عن المدينة، وواصل عيشه فيها.

أدب المكيين الظاهرى يتفق مع أمانتهم، مع عقيدتهم وإيمانهم الصادق، والتزامهم بدينهم، واتباعهم لتعاليمه. كثير من أهل مكة، وبخاصة أولئك الذين ليست لهم مصلحة خاصة فى التطفل على الحجاج عن طريق الالتزام الظاهرى الصارم، يتراخون فى اتباع الشكليات الدينية ومراعاتها، اعتقادا منهم أنهم يكفيهم أنهم مكيون، وأنهم ينادون بمفاهيم الدين على الملأ، أو من باب أن الفرض الصارم لأحكام الدين على الزائرين الأجانب ليس أمرا ملزما لأولئك الذين يزورون مكة مرة واحدة فى حياتهم. أهل مكة، شأنهم شأن البدو، لا يداوم الكثيرون منهم على الصلاة، أو لا يصلون على الإطلاق. فى صلاة الجمعة، التى يتعين على كل مسلم مقيم فى مكة أداؤها، ترى

المسجد الحرام يغص فقط بالغرباء والأجانب، فى حين ترى الكثير من المكيين وهم يدخنون فى دكاكينهم فى وقت الصلاة. بعد مغادرة الحجاج للمدينة، يقل الاهتمام بخدمة المسجد الحرام. وأهل مكة لا يخرجون صدقات، متعللين بأن العناية الإلهية هى التى وضعتهم فى هذه المدينة لتلقى الإحسان، وليس لتقديم الإحسان. إنهم يتبعون سلوكيات محمدﷺ حتى فى أصغر الأمور، والمكيون يقصون شواربهم، ويشذبون لحاهم، لأن النبىﷺ كان من عادته أن يفعل ذلك. وبالطريقة نفسها نجد المكيين يتركون طرف العمامة، يتدلى على غطاء الرأس، وهم أيضا يكحلون عيونهم يوما بعد آخر، ويمسكون دوما سواكا فى أيديهم، وهذا السواك يأخذونه من شجيرة الأراك، أو قد يكون سواكا من تلك التى يستوردها أو يجلبها الحجاج الفارسيون. وهم يحفظون عن ظهر قلب كثيرا من سور القرآن والأحاديث النبوية، وهم يشيرون أو يقتبسون تلك الآيات والأحاديث فى كل لحظة، لكنهم ينسون أن هذه الأحكام إنما جاءت لتكون قواعد سلوكية، وليست لمجرد الإعادة والتكرار. المشروبات المسكرة تباع أمام المسجد الحرام ، المطوفون أنفسهم يتصرفون على نحو يتعارض مع الشرع، عندما يروحون يرددون الأدعية بصوت عال فى المسجد الحرام، أمام تلاميذهم من الحجاج، مستهدفين بذلك جذب المزيد من الحجاج إليهم، كما يحمل كل واحد منهم تلك العصا الغليظة التى يملها كل واحد من المكيين. هؤلاء المطوفين يعتدون على الشرع أيضا عندما يرون الحشيش المسكر يجرى تدخينه علانية ، الورق (الميسر) يلعبه الناس فى كل مقهى من المقاهى العربية، (وهم يستعملون ورقا صينيا صغير الحجم) ، على الرغم من أن القرآن يحرم تحريما قاطعا اللعب الخطرة. حماية الحكومة العلنية والصريحة للمتهتكين أو المتهتكات، هى فى حد ذاتها تشجيع لهؤلاء البشر على الاعتداء على مبادئ الشريعة الإسلامية. المكيون يعرفون تماما أن تلك رذائل مخزية ، المطوفون جميعهم يتعجبون من فساد السلوك، لكن أحداً منهم لم يضرب مثلا على الإصلاح، ومع أن هؤلاء المطوفين يتصرفون دوما طبقا لمبادئ هى على العكس تماما من تلك المبادئ التى يؤمنون بها، فإنهم جميعا وبلا استثناء يقولون :

إن هذا هـو حـال الزمن، وذلك من باب تبـرير القـول المأثور : "إن الحـرام في بلاد الحرمين بمعنى "إن المدن المحرمة على الكفار تعج بالمحرمات".

الاضطهاد لا يمكن أن يكشف عن نفسه فى الأماكن التى ليس فيها تباين ملى، وربما كان من السهل تحريض المكيين على ارتكاب التجاوزات مع أولئك الذين يسميهم المكيـون الكفـار، وأنا ألاحظ دومـا فى الشـرق أن المسلمين الذين يهملون فى الالتزام بتعاليم دينهم هم الأعنف فى تطبيق أحكام الدين على الكفار، كما لاحظت أيضا أن الخرافات الكبيرة عادة ما تنتشر بين أولئك الذين يتلاعبون بتعاليم الدين وأحكامه ، أو بالأحرى يحتقرونها ويقللون من شأنها كما يفعل العثمانيون، وينتهجون التفكير الحر. الطبقة الوحيدة من بين الأتراك التى تكن حقدا دفينا وكراهية للمسيحيين، هم أولئك الذين إذا ما دخلوا فى حوار مع المسيحيين يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التخلى، ولو لبرهة قصيرة، عن إساءاتهم الشكلية أو المظهرية. يعيش المغاربة فى سائر أنحاء موانئ البحر الأبيض المتوسط عيشة الكفرة، لكنهم فى وطنهم لا شىء يحثهم على وضع حدود لتشددهم سوى الخوف وحده. هذا أيضًا هو حال الأتراك فى جزر الأرخبيل، وأنا أستطيع أن آتى بأمثلة كثيرة من كل من سوريا ومصر لتأكيد ما أقوله هنا. إذا كان التزمت قد قلَّ بعض الشىء خلال العشرين عاما الماضية فى الإمبراطورية التركية، فإن هذا التناقص، فى رأيى يعزى إلى، التناقض الذى طرأ على طاقة السكان من ناحية وزيادة لا مبالاة هؤلاء السكان بدينهم من ناحية أخرى، وأن ذلك لا يمكن أن يعزى إلى انتشار مبادئ الخير والإحسان. نص الشريعة الإسلامية واضح ودقيق ؛ فهو يحث أتباع هذه الشريعة على المعاداة الدائمة والاحتقار الدائم لكل أولئك الذين يتبعون مللا أخرى. هذه الكراهية لم تتناقص، لكن هذا العداء يختفى وراء أدب مظهرى وشكلى، إذا ما تعلق الأمر بمصلحة من المصالح الإسلامية. هذا يعنى أن حد التسامح مع المسيحيين يعتمد على مصالح الحكومة المحلية التى يعيش فى كنفها هؤلاء المسلمون، وإذا ما كانت هذه المصلحة فى صالح المسلمين، فإنك

تجد المواطن التركى ينحنى للمسيحى. وقد وجدت فى دول الشرق التى زرتها، أن المسيحيين يحصلون بشكل عام على امتيازات أكثر مما تنص عليه الشريعة الإسلامية، لكن حال هؤلاء المسيحيين يعتمد على سلطة الحاكم فى المدينة أو الحى، مثلما حدث لهم قبل حوالى سبع سنوات فى دمشق تحت حكم يوسف باشا، يوم أن أعيد المسيحيون إلى حالهم السيئ الذى كانوا عليه من قبل. قبل عشرين عاما مضت كان حال أقباط مصر على الوتيرة نفسها كما هو حال اليهودى حاليا فى بلاد البربر لكنه فى الوقت الراهن، وفى ظل حكم محمد على باشا، صاحب الفكر الحر، ولكنه ليس ليبراليا بمعنى الكلمة، نجد أن الرجل، يكتشف أن مصلحته تكمن فى التصالح مع المسيحيين، الأمر الذى ترتب عليه أن أصبح اليونانى يضرب التركى بلا خوف من النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك، وأنا أعرف حالة رجل أرمينى (من الأرمن) قتل خادمه المسلم، وهرب من العقاب، بأن دفع غرامة للحكومة، على الرغم من ذيوع خبر هذا القتل على الملأ. وعلى الرغم من اقتناع الأتراك حاليا، فى أنحاء كثيرة من الشرق، بتفوق وسيادة هؤلاء الأوروبيين، الذين لا يمكن أن ينظروا إليهم إلا من منطلق الأخوة، فإن سلوك هؤلاء الأتراك تجاه المسيحيين وتصرفاتهم معهم تتحدد طبقا لمشاعر حكام هؤلاء الأتراك، ومن السهولة بمكان على محمد على باشا فى مصر، أن يقلل من شأن المسيحيين، وبكلمة واحدة، وبإمكانه أيضا أن يرفع من شأنهم، مثلما هم عليه الآن، ولذلك أنا أرى أن المسيحيين فى مصر أسمى بكثير مما هم عليه فى الأجزاء الأخرى من تركيا.

كراهية المسيحيين تكاد تكون واحدة فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية العثمانية، والمسلمون إذا ما تنازلوا عن هذا الإحساس، فلن يكون ذلك بدافع من الإحسان أو الإنسانية، وإنما يكون بدافع ممالأة أصحاب السلطة والقائمين على الأمور، بل تصل الوضاعة إلى حد أنهم اليوم يقبلون أيدى ذلك الذى داسوه بأقدامهم بالأمس. ونحن عندما ندرس قضايا العربدة الشديدة، المسجلة، فى المحاكم العليا للقناصل الأوروبيين فى الشرق، نكتشف بل نجد أن الحكومة كان لها نصيب فى تلك

الصراعات، وأنها كانت تنجح فى سهولة ويسر فى إخماد تلك العربدات والقضايا وإسكاتها. وهذا هو المرحوم السلطان سليم، عندما أدخل هذا النظام من جديد، اضطر إلى محاباة المسيحيين، وأن هذا الأمر لم يلق معارضة من شعبه، ولكن الانكشارية الحاقدين الحاسدين هم الذين كانوا يعارضون هذه المحاباة، ونجد أيضا أن هؤلاء الانكشارية عندما أصبحت لهم اليد العليا غاص أعيان إسطنبول وكبراؤها فى المذهب السنى من جديد. وفى بعض الأحيان كنا نجد متهورا، أو شيخا مجنونا، أو درويشا من الدراويش، يثبت وهو على رأس مجموعة من الأتباع أنه يعد استثناء من الأحكام العامة سالفة الذكر، ويروح يلعن ويسب مسيحيا من أولئك الذين يحظون تماما بمحاباة السلطات العامة لهم، مثلما حدث فى دمشق فى العام ١٨١١ الميلادى، للبطريارك اليونانى بعد خلع يوسف باشا من منصبه ، ولكننا نجد على الرغم من ذلك، أن إخوانه المواطنين الذين يحظون بالمبادئ نفسها، وتفيض أنفسهم بالقسوة، كانوا عاجزين عن التعبير عن مشاعرهم، أو الحذو حذو ذلك الولى. هذا يعنى أننا لا نجد حاليا فى دول الشرق شيئا من تلك الاضطرابات السياسية الشعبية، التى كانت تسود أوروبا فى كثير من الأحيان، عندما كان القائمون على أمر الكنيسة يلاحظون بعض الأفراد الذين يحاولون توسيع نفوذهم. وأيا كانت نظرتنا الأخلاقية إلى مثل هذه الأمور، فإننا يتعين علينا احترام طاقة ذلك الإنسان الذى يدخل على الفور فى صراع حول مسألة غير محددة، وتكون لها آثار سيئة على مصالحه الدنيوية، متخيلا أو معتقدا أن واجبه الدينى هو الذى يتحكم فى وجوده. مسلم الإمبراطورية التركية، على حد معرفتى، يسهل عليه إخفاء مشاعره وسترها، كما يسهل عليه أيضا إخفاء عواطفه وانفعالاته، ويسهل عليه أيضا ستر ما يمليه عليه ضميره، بل وستر وإخفاء كل ما يرى أنه يتفق ومشيئة الله ، كل ذلك من أجل تحقيق مصالحه، أو تمشيا مع السلطة الحاكمة أو تأسيا بها.

أثناء حكم الشريف كان المسيحيون تساء معاملتهم فى جدة ، ولم يكن مسموحا لهم بارتداء الملابس الأوروبية، أو الاقتراب من ذلك الحى الواقع فى اتجاه بوابة مكة.

وبعد وصـول جيش محـمـد على باشـا، أصبح المسـيحيون يتمشـون حيثمـا شـاءوا ويرتدون مـا يشـاءون. فى شـهـر ديسـمـبـر من العـام ١٨١٤ الميـلادى، وعندمـا تجـاوز إنجليزيان بوابة مكة، أثناء تجـوالهمـا فى مدينة جدة (وهمـا أول شـخصين، يرتديان الملابس الأوروبية، حـاولا اجتيـاز الحدود المقدسة) سمع الناس امرأة وهى تتعجب قائلة : "صحيح، لقد اقتربت الدنيـا من نهـايتـهـا، إذا مـا سـمـح للكفـار أن يطأوا هذه الأرض أو يمشوا عليها !" وإلى يومنا هـذا، إذا ما مات مسيحى فى جدة، فإنه لا يسـمـح بدفنه على الشـاطئ وإنما يحـملون جـثمـانه إلى جـزيرة صـغـيـرة فـى الميناء. وعندمـا انتشـر الطاعون فى الحجاز فى العام ١٨١٥ الميلادى، وذاك حادث لم يسبق وقوعه هناك، قام قاضى جدة، ومعه هيئة العلماء، بالتوجه إلى حـاكم المدينة التركى، ليطلبوا منه تدمير طاحـونة هـوائيـة أقـامـهـا بعض اليـونانيـين الذين جـاءوا من القـاهرة، خـارج بوابة من بوابات جدة، بناء على أوامر من محمد على باشا. قال القاضى والعلماء، إنهم متأكدون أن يد الله طالتهم بسبب هذا الانتهاك للأرض المقدسة من قبل المسيحيين. تحطمت منذ سنوات، سـفينة إنجليزية بالقرب من جـدة، وكان من بين المسلوبات من تلك السفـينة خـنزير كـبـيـر، والأرجـح أن هـذا الحـيوان الكبـيـر لم يسـبـق أن رآه أحـد من أهل جدة من قبل. كان ذلك فى زمن حكم الشـريف غـالب وانطلق هذا الحـيوان فى المدينة ومـعه نعامتان، الأمر الذى شكل رعبا كبيرا لكل من باعة الخبـز والخضـراوات، وسبب ذلك أن مـجـرد لمس هذا الحـيوان النجس، حـتى ولو لامسـتـه حـافـة الثـوب، تـصـيب المسلم بالنجـاسة، ويتـعـذر عليه أداء الصـلاة دون الوضـوء من جـديد. وجرى الاحتـفـاظ بذلك الخنزير الكبير طيلة ستة أشهر إلى أن تم بيعه لقبطان أمـريكى مقابل خمسين دولارا، لكنه رفـض دفع هذا الثـمن، أدى بعد ذلك بـفـتـرة قـصـيـرة إلى تقديم تضـحـيـة كـبـيـرة إرضـاء للسكان.

المكيون يؤون داخل جدرانهم وأسوارهم بعض الزنادقة الألداء، وقد تطرقت بالفعل إلى الطائفة الإسماعيلية، ذلك المذهب الوثنى المستورد من الهند، والذى يظهر أتباعه هنا فى ثياب المسلمين. الحجاج الفارسيون باعتبارهم من الشيعة، وشتـامين ولعانين

لمحمدﷺ وأتباعه، لا يجرى إخضاعهم لمضايقات بعينها. كان الشريف غالب يتسامح معهم، لكنه كان يفرض عليهم ضريبة الرءوس. يضاف إلى ذلك أن الأشراف أنفسهم – وهذا ما سوف أشرحه بعد ذلك – معظمهم من أتباع المذهب الزيدى، هذا يعنى أن هؤلاء الزيود يعارضون السنيين المتشددين (معروف أن أهل السنة أعداء ألداء للشيعة الفارسيين) فى كثير من مصطلحاتهم وأحكامهم الدينية.

المكيون عندما تذكر عندهم كلمة مسيحى أو أوروبى تكون مقرونة بأقذع كنى الاحتقار. هذا يعنى أن هؤلاء المكيين يدخلون هاتين الكلمتين ضمن كلمة كافر، دون أن تكون لديهم أفكار واضحة عن الأمم التى تنضوى تحت هذين الاسمين. ومع ذلك ونظرا لأن الإنجليز هم الأكثر اتصالا بالمكيين بحكم ممتلكاتهم فى الهند، فهم يطلقون عليهم اسم "الكافر" أو "الكفار" ، هذا يعنى أن المكيين عندما يستعملون هذه التسمية فإنهم يقصدون بها الإنجليز. معنى ذلك أن المكيين عندما يقولون "الكافر" فى الهند فهم يعنون بها "الكافر (الإنجليزى) فى الهند"، وعندما يقولون مركب الكافر فى جدة" فهم يقصدون بذلك الإنجليز.

عندما غزا الفرنسيون مصر، قام ولى مغربى، يدعى الشيخ الجيلانى، وهو أحد الأقارب غير المباشرين لتاجر مكى ثرى، قام الرجل بالصعود إلى المنبر فى المسجد الحرام، وأعلن قيام الحرب على الكفار الذين استولوا على بوابة الكعبة، باعتبار أن الاسم "بوابة الكعبة" كان يطلق على مصر فى ذلك الوقت. ولما كان ذلك الولى من المتكلمين المفوهين، ولما كان يحظى بتوقير واحترام شديدين، فقد تدافع كثير من العرب وانضووا تحت لوائه، فى حين قدم له الآخرون المال، ويقال إن كثيرا من النساء أحضرن له مصوغاتهن من الذهب والفضة، مشاركة منهن له مشروعه المقدس. سافر الجيلانى وأبحر هو وأتباعه من جدة فى أسطول صغير ونزل هو ورجاله فى القصير. ويبدو أن حكومتى مكة وجدة كان لهما نصيب صغير فى تلك الحملة، على الرغم من أنهما لم تضعا المصاعب أو العقبات أمام هذه الحملة. وكل من يقرأ الوصف الذى

أورده دينون عن المقاومة الشرسة التى قامت بها تلك الحملة ضد الفرنسيين فى الوجه القبلي، يتبين مصير الكثيرين من هؤلاء العرب الذين كان السواد الأعظم منهم من القبائل الوهابية، التى شكلت فيما بعد مقاومة شرسة ضد محمد على باشا. ولقى الشيخ الجيلانى ربه فى تلك الحملة، ولم يعد إلى جدة ومكة سوى عدد قليل من أفراد هذه الحملة. ومبلغ علمى أن دينون يبالغ فى عدد أفراد هذه الحملة ، لأننى لم أسمع مطلقا أن عددهم كان يزيد على ألف وخمسمائة رجل بأى حال من الأحوال.

المكيون، شأنهم شأن السكان الأتراك، لايتسمون باللصوصية أو الاختلاس، ويندر السماع عن السرقات بين هؤلاء الناس، وذلك على الرغم من أن مكة أثناء الحج وفى الشهر السابق والشهر اللاحق للحج تغص بكثير من الأوغاد بفتح الأقفال فى هذا البلد.

فيما مضى كان عبيد الشريف شهيرين بسلوكهم المشين، ومع ذلك استطاع الشريف غالب إعادتهم إلى جادة الصواب، وفى عهد الشريف غالب لم يقع مطلقا أى حادث من حوادث السرقة، دون التوصل إلى مرتكبيه ومعاقبتهم عقابا شديدا.

شوارع مكة عامرة بالشحاذين وفقراء الحجاج، الذين يعيشون على إحسان الغرباء، نظرا لأن المكيين يعدون أنفسهم معفيين من هذا الواجب. من بين هؤلاء الحجاج الفقراء من يمتهنون التسول ويجعلونه حرفة لهم، وبخاصة أثناء موسم الحج، عندما يضطر الحجاج إلى إتيان هذه الفضيلة التى تركز عليها المبادئ المحمدية. الغالبية العظمى من الشحاذين هم من الهنود، وبعض منهم من السوريين، ومن المغاربة، ومن المصريين ، ولكن الزنوج يشكلون قلة قليلة من هؤلاء الشحاذين، نظرا لأن الزنوج يفضلون العمل على التسول، ولكن هناك قسم كبير من المتسولين، يأتون من اليمن. ويتردد فى الشرق أن مكة هى فردوس الشحاذين ، بعض هؤلاء الشحاذين قد يوفرون أو يدخرون شيئا من المال، لكن المنظر المزرى لبعض آخر من الشحاذين يوضح مدى خيبة الأمل التى منيوا بها. الهنود هم أكثر الشحاذين تواضعا، وهم يقتربون من الغريب ويقولون: "يا الله، يا كريم !، وإذا ما رفض المحسن إعطاءهم صدقه، انصرفوا

لحال سبيلهم، دون أن يقولوا شيئا سوى : "يا الله، يا كريم." الشحاذون اليمنيون أو المكيون ليسوا على هذه الشاكلة، وإنما يصيحون قائلين : "أفهم واجب الحاج، الله سبحانه وتعالى لا يحب أصحاب القلوب الباردة، هل ترفض نعم المؤمنين ؟ أعط، وسيعطيك الله، وهكذا يخاطب الشحاذون اليمنيون والشحاذون المكيون الناس بهذه الجمل والعبارات، وبعد أن يحصلوا على الصدقة، مثلما كان يفعل مزورى (دليلى) يقولون : "الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينى وليس أنت". بعض هؤلاء الشحاذين منتهزين للفرص تماما ويطلبون الصدقات كما لو كانت لهم حقا معلوما. عندما كنت فى جدة، كان شحاذ يمنى يصعد المئذنه كل يوم، بعد صلاة الظهر، وينادى بأعلى صوته، لكى يسمعه الناس فى سائر أنحاء السوق وهو يقول : "طالب من الله، خمسين دولارا، وطقم من الملابس ونسخة من القرآن، اسمعونى، يا مؤمنين، أسألكم أن تعطونى خمسين دولارا، راح ذلك الشحاذ اليمنى يكرر هذا الطلب على امتداد أسابيع عدة، عندما استرعى ذلك الرجاء انتباه أحد الحجاج الأتراك، وطلب منه أن يأخذ ثلاثين دولارا، ويتوقف عن تكرار هذا النداء، الذى كان يلحق العار بإحسان الحجاج الموجودين ويسىء إليهم. رد الشحاذ قائلا : "لا، لن آخذ الثلاثين دولارا، لأنى على قناعة أن الله سبحانه وتعالى سيعطينى كل ما أطلبه". وبعد أن راح ذلك الشحاذ اليمنى يكرر نداءه على امتداد بضعة أيام، أعطاه الحاج التركى مبلغ الخمسين دولارا التى كان يطلبها، لكن الشحاذ لم يشكر له هذا المعروف. ولقد سمعت الناس وهم يتعجبون بعد الصلاة فى المسجد الحرام ويقولون : "يا إخوان، يا مؤمنين، اسمعونى ! أطلب من الله عشرين دولارا، أجرة عودتى إلى بلدى، عشرين دولارا لا غير. أنتم تعلمون أن الله كريم، وقادر على أن يعطينى مائة دولار، ولكنى لا أطلب سوى عشرين دولارا فقط. لا تنسوا أن الإحسان هو الطريق الموصل إلى الجنة". وليس هناك من شك فى أن هذه الممارسات تكلل بالنجاح فى بعض الأحيان.

لكن العلم والتعليم لا يمكن أن يزدهر فى مكان الشغل الشاغل للعقول فيه هو المكاسب أو الجنة، وأنا أرى أن لدىَّ من الأسباب الكثير الذى يجعلنى أؤكد أن مكة فى

الوقت الراهن، أقل بكثير فى التعليم الإسلامى، من بلدان أخرى مماثلة لها فى السكان كما هو الحال فى كل من سوريا أو مصر. الأرجح أن مكة لم تكن كذلك عندما جرى فيها بناء الكثير من المدارس العامة، التى حولها الناس حاليا إلى مساكن خاصة للحجاج. يقول الناس : إن مكة، فى زمنه، كانت تحتوى على إحدى عشرة مدرسة إضافة إلى بعض الأربطة ، أو المدارس الأقل قليلا من ذلك، والتى كانت تشتمل هى الأخرى على مساكن لفقراء الحجاج، ولا تزال هناك بعض الأربطة فى المنطقة المجاورة للمسجد الحرام، لكن هذه الأربطة لا تستعمل إلا مجرد مساكن للحجاج. والمدينة ليس فيها مدرسة عامة واحدة، يجرى فيها إلقاء المحاضرات، كما هو الحال فى الأجزاء الأخرى من تركيا، وبيت الله (المسجد الحرام) هو المكان الوحيد الذى يوجد فيه العلماء الشرقيون. يضاف إلى ذلك، أن المدارس التى يجرى فيها تعليم الصبية القراءة والكتابة تنعقد – كما سبق أن قلت – فى المسجد الحرام، حيث يقوم بعض العلماء عقب الصلاة مباشرة بتفسير قلة قليلة من الكتب الدينية وشرحها لجمهور صغير جدا من الناس، يتكون فى أساسه من الهنود، وبعض سكان الملايو، وبعض الزنوج، وقلة قليلة من مواطنى حضرموت واليمن الذين جذبهم وشدهم اسم مكة، فبقوا فيها سنوات قليلة، إلى أن يتمكنوا من العودة إلى بلادهم بعد أن يتسلحوا بالعلم على نحو يتمكنون معه من نشر العلم الذى تعلموه فى بلادهم. والمكيون الذين يودون الاستزادة من العلم يسافرون إلى دمشق أو القاهرة. ونحن نصادف الكثيرين منهم فى القاهرة لأنهم يدرسون فى الأزهر الشريف.

المسجد الحرام ليس له مكتبة عامة، و المكتبات القديمة التى سبق الحديث عنها، اختفت جميعها. كاتب الحرم لديه مجموعة صغيرة من الكتب المملوكة أصلا للمسجد الحرام، لكنها تعد حاليا ملكا خاصا لهذا الكاتب، والكتب لا يمكن استعارتها بسهولة. الأزهر فى القاهرة شىء مختلف تماما. كل رواق من أروقة الأزهر، والمخصصة لمختلف الأمم الإسلامية (وقد بلغ عدد هذه الأروقة فى الوقت الراهن ستة وعشرين رواقا) له أو ملحق به مكتبة خاصة، وأعضاء الرواق لهم مطلق الحرية فى أخذ الكتب من تلك المكتبة لكى يستعينوا بها فى دراساتهم وأبحاثهم. مكة تفتقر أيضا إلى المكتبات

الخاصة، باستثناء مكتبات الأثرياء من التجار، الذين يعرضون بعض الكتب التى تميزهم عن عامة الناس، أو مكتبات العلماء، الذين يمتلك البعض منهم كتبا يرجعون إليها يوميا فيما يتعلق بالأمور الشرعية.

نقلا عن بعض التقارير، قام الوهابيون بنقل أحمال كثيرة من الكتب، لكن يقال إن الوهابيين دفعوا أثمان كل هذه الكتب التى أخذوها ، ومن غير المرجح أن يكون الوهابيون نقلوا مكتبات مكة كلها، وقد حاولت، دون جدوى، اكتشاف أية مجموعة من الكتب. وأنا لم أعثر على محل واحد لبيع الكتب فى مكة، ولم أعثر أيضا على مجلَّد واحد من مجلِّدى الكتب. بعد عودة الحج من عرفة يقوم بعض العلماء بعرض بعض الكتب للبيع فى المسجد الحرام، بالقرب من باب السلام . كل الكتب التى شاهدتها كانت عن الشريعة، ومصاحف وتفاسير وشروح، ومؤلفات أخرى من هذا القبيل مع بعض الكتب الخاصة بالنحو والقواعد، وعلى الرغم من المصاعب التى واجهتها فى هذا الصدد، لم تقع عينى على أى كتاب من كتب التاريخ الخاصة بمكة، على الرغم من عدم معرفة المكيين لأسماء هؤلاء المؤرخين. قالوا لى : إن تجار الكتب كانوا يأتون إلى مكة أثناء موسم الحج قادمين من اليمن، وكانوا يبيعون كتبا قيمة، أحضروها أصلا من صنعاء ولوهيا الكتاب الجيد الوحيد الذى رأيته فى مكة كان نسخة جيدة من المعجم العربى الذى يسمونه القاموس، وقد اشتراه واحد من أهل الملايو نظير ستمائة وعشرين قرشا، فى القاهرة يمكن شراء هذا الكتاب بنصف هذا الثمن. كان هناك عدد كبير من الحجاج يبحثون عن الكتب، وكانوا على استعداد لدفع أثمان مرضية نظير هذه الكتب، وقد كانت مفاجأة لى أن أجد أن المكيين لا يعنون بهذه التجارة، التى لا تبدو لهم رابحة مثل تجارة البن والسلع الهندية. وأنا شخصيا كنت جد آسف على افتقارى إلى الكتب وبخاصة الكتب المتعلقة بتاريخ مكة ومؤرخى مكة، وبخاصة أنى كنت قد تركت هذه الكتب فى القاهرة، لو كانت تلك الكتب بحوزتى لسهلت لى القيام بكثير من التحريات عن النواحى الطبوغرافية، التى تناولها الأزرقى باستفاضة واهتمام كبير.

حجاج فارس وكذلك حجاج الملايو هم الذين يبحثون عن الكتب ، يقال إن الوهابيين بصفة خاصة هم الأكثر بحثا عن الكتب التاريخية، هذه الملاحظة سمعتها تتردد مرارا فى المدينة المنورة. أثناء مقامى فى دمشق، التى تعد أغنى الأسواق من حيث الكتب فى الشرق كله، كما أنها تعد الأرخص من حيث أسعار الكتب نظرا لعدم تردد الأوروبيين عليها بصورة متكررة، وقد بلغنى أن كثيرا من عرب بغداد، الذين جرى تكليفهم سراً من قبل سعود – الرئيس الوهابى – قاموا بشراء الكثير من المؤلفات التاريخية ، وعندما قام أبو نقطة بتخريب موانئ اليمن، قام بنقل عدد كبير من الكتب، التى أرسلها إلى الدرعية.

يمكن أن نعزو ندرة الكتب القيمة فى مكة إلى تواصل شراء الحجاج للكتب، وربما كان ذلك راجعا أيضا إلى ندرة النساخ فى مكة حتى يمكن استعواض الكتب التى يجرى تصديرها(*). مسألة النقص فى عدد النساخ هذه موجودة أيضا فى كل من سوريا ومصر، الأمر الذى يمكن أن يؤدى فى نهاية المطاف إلى عجز كبير فى الكتب فى هذه البلاد، إذا ما استمر تصدير هذه الكتب إلى أوروبا. يوجد فى القاهرة فى الوقت الراهن حوالى ثلاثة آلاف ناسخ أو ما يزيد على ذلك، هؤلاء النساخ ينسخون الكتب بخط جيد، أو لديهم معرفة وجيزة كافية تجنبهم الوقوع فى الأخطاء الجسيمة. فى مكة كان هناك رجل من لاهور، كان يكتب خطا عربيا جميلا، على الرغم من أنه كان لا يتحدث العربية جيدا. كان ذلك اللاهورى يجلس فى مكان قريب من باب السلام، وكان ينسخ للحجاج الأدعية التى يدعون بها أثناء الحج. الخط الحجازى مختلف عن الخط المستعمل فى مصر أو سوريا، لكن الأمر لا يحتاج إلا إلى شىء قليل من الممارسة وبعدها يتمكن المرء من قراءة ذلك الخط. عموما، ليست بلدان الشرق كلها، بل كل منطقة من مناطقه، لها أسلوبها وطريقتها الخاصة فى الكتابة، والممارسة وحدها كفيلة بجعل الناس يميزون هذه الطرق بعضها عن بعض. هناك بعض

(*) شاهدت فى القاهرة كتبا مكتوبة بالخط الحجازى، وقد اشتريت بعضا من هذه الكتب.

الاختلافات الطفيفة فى كتابات أهل حلب، وكتابة أهل دمشق، وكتابة عكا، وفى مصر نجد أن الكتابة القاهرية يسهل تمييزها عن كتابة الوجه القبلى، وكتابة المسلمين تختلف عن كتابة المسيحيين، الذين يتعلمون الكتابة على أيدى القساوسة، وليس على أيدى المدارس أو المدرسين الأتراك. أقباط مصر أيضا تختلف كتابتهم عن كتابة المسيحيين الآخرين المقيمين فى البلاد. الأشخاص الخبيرين، يعرفون من عنوان الخطاب، المنطقة والجنس الذى تنتمى إليه هذه الرسالة. لهجات كتابة الرسائل وأسلوبها يمكن تمييز بعضها عن بعض مثل الخطوط تماما، وهذه الملاحظة تنطبق أيضا على تعبيرات التحية التى عادة ما تعج بها الرسائل. الأسلوب السورى هو أكثر الأساليب توردًا، ونجد هذه اللغة الوردية مستعملة أيضا فى خطابات ورسائل المال والأعمال، أما أسلوب الحجاز فهو أسلوب بسيط، ورجولى ويقترب جدا من صراحة البدو وتلقائيتهم، ولا يرد فى الرسالة قبل الهدف منها سوى كلمات قليلة يسأل فيها مرسل الرسالة عن صحة المرسل إليه وأحواله. يضاف إلى ذلك أن كل بلد له أسلوبه وطريقته الخاصة فى طى الرسالة. فى الحجاز يجرى غلق الرسالة بالصمغ العربى، ويجرى وضع إناء صغير مملوء بالصمغ المخفف بالقرب من بوابة أى منزل من المنازل الكبيرة أو أى خان من الخانات.

لا تزال لغة مكة أكثر نقاء و رونقا بغض النظر عن عدم اهتمام المكيين بالتعليم(*) ، هذا النقاء والرونق يتجلى على مستوى العبارة وعلى مستوى مخارج الألفاظ ونطقها، وذلك على العكس من البلدان الأخرى الناطقة باللغة العربية. لغة مكة هى الأقرب إلى اللغة العربية المدونة القديمة، وهى خالية من تكلفات المعنى الأصلى وتحريفاتها التى تكثر فى البلدان الأخرى، وأنا لا أنظر إلى اللغة العربية باعتبار أنها مصابة بالانحطاط ، صحيح أنه لم يكن هناك شعراء يكتبون ويؤلفون مثل المتنبى، أو أبى

(*) وأنا أشير هنا على سبيل المثال، إلى إهمال التعليم فى مكة، من خلال سؤال طرحته على اثنتى عشرة شخصية من الشخصيات المرموقة فى الحياة، حول المكان الذى كانت تنعقد فيه سوق عكاظ، ولم يعرف أى منهم مكان تلك السوق، وما إذا كانت موجودة أم لا . عكاظ : هى المكان الذى كان الشعراء العرب=

العلاء، أو ابن الفارض، وصحيح أيضا أن العرب لم يكن عندهم نثر جميل منساب. الشعراء المحدثون مكتفون بمحاكاة أساتذتهم القدامى، ويقترضون منهم الاستعارات الجميلة، والأفكار العاطفية الراقية التى فاضت بها صدور هؤلاء الأساتذة القدامى، وذلك بدلا من اقتراضهم عن العلماء الحاليين، لكن العلماء ما زالوا يدرسون اللغة إلى يومنا هذا دراسة عميقة، ودراسة اللغة هى العلم الوحيد الذى يزجى فيه المسلم الحقيقى وقت فراغه، بعد استكشاف متاهة الشريعة، يزاد على ذلك أن دراسة اللغة تعد مطلبا لا غنى عنه فى التعليم الجيد، لا من أجل تدوين اللغة تدوينا نقيا، وإنما بدراسة وقراءة الشعراء القدامى، وحفظ مؤلفاتهم أو قصائدهم الجيدة عن ظهر قلب. الباحثون العرب ينظرون إلى كتابهم العظام نظرة إعزاز وتقدير شأنهم فى ذلك شأن الأوروبيين فى نظرتهم إلى روائعهم القديمة. صحيح أن السواد الأعظم من سكان الشرق لا يكتبون أو يقرءون، لكن من بين هؤلاء العارفين بالأدب، قسم كبير يكتبون كتابات أنيقة ورائعة، وذائعى الصيت على المستوى المحلى، أكثر منه بين الطبقة نفسها فى أوروبا.

المكيون يكادون لا يدرسون شيئا غير اللغة والشريعة. بعض الصبية يتعلمون اللغة التركية بالقدر الذى يمكنهم من غش الحجاج العثمانيين وخداعهم، وعلى النحو الذى يؤهل هؤلاء الصبية – فى عيون الحجاج العثمانيين – أن يكونوا مزورين وأدلة لهم فى موسم الحج. فلكى المسجد الحرام يتعلم التوقيتات الدقيقة لتحرك الشمس، ويشغل نفسه فى بعض الأحيان بالفلك وطوالع النجوم. وهذا طبيب فارسى، هو الوحيد من

= يلتقون فيه، إلى أواخر عصر سيدنا محمد ﷺ ، وكان من عادة هؤلاء الشعراء إلقاء قصائدهم على الجماهير التى كانت تتجمع فى تلك السوق الكبيرة. كان يجرى تعليق القصائد على جدران الكعبة، ومن هنا جاءت تسمية القصائد السبع الشهيرة التى أطلقوا عليها اسم المعلقات السبع. وقد أبلغنى بدوى من هذيل أن عكاظ كانت فى ذلك الوقت مكانا مهدما فى بلاد بنى النصيرة ، التى تبعد سير يومين أو ثلاثة عن بلاد الطائف، لكنى وجدت أن الفاسى يقول : إن عكاظ تبعد مسير يوم واحد عن الطائف، وأنها توقفت عن كونها سوقا شعرية فى العام ١٢٩ الهجرى. والأزرقى يؤيد أنها كانت تبعد مسير يوم واحد عن الطائف، على الطريق المؤدية إلى صنعاء فى اليمن، وأنها كانت تنتمى إلى قبيلة بنى كنانة .

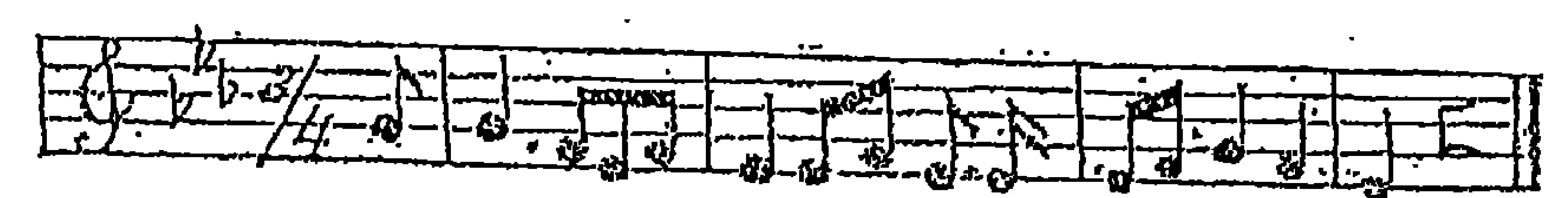
نوعـه، الذى رأيتـه فى مكة، لا يتـعـامل فى شىء سـوى أنواع البلسم التى تحـدث المعجزات والإكسيرات التى تحدث المعجزات أيضا، محاليل هذا الطبيب كلها حلوة المذاق ومقبولة الطعم، وهذا هو بخور العود، وكذلك المسك اللذان ينشران ريحا طيبة فى دكان هذا الطبيب الأمر الذى زاد من شهرته وحسن سمعته. العرب يعشقون الموسيقى بشكل عام، لكنها أقل ممارسة فى مكة عنها فى سوريا ومصر. وهم لا يملكون من الآلات الموسيقية سوى الربابة (التى هى نوع من الجيتار) ولديهم أيضا الناى ، ولديهم أيضا الطمبور ويصبح فيه أيضا الطمبورين . قلة قليلة من الأغانى، هى التى يرددها الناس فى فترة المساء، باستثناء ذلك الذى يحدث عند البدو على أطراف مدينة مكة. والأغنية الكورالية التى يسميها الناس هنا الجوق ، لا يرددها سوى الشبان أثناء الليل فى بعض الأحيان فى المقاهى، ويكون أداء هذا الجوق بمصاحبة التصفيق بالأيدى. أصوات الحجازيين ليست من الأصوات السلسة وليست صافية أيضا ، وأنا لم أستمع إلى صوت من تلك الأصوات الرخيمة والعذبة التى تظهر وتتجلى بشكل واضح فى مصر، وأكثر منها فى سوريا، سواء أكان الغناء للحب، أو التغنى بمدح محمد ﷺ من فوق المآذن، والتى يكون لها تأثير طيب فى جوف الليل. يزاد على ذلك أن أئمة المسجد الحرام، هم أولئك الذين يرددون الكلمات الأخيرة من كلام الإمام، هؤلاء الرجال الذين يجرى اختبارهم فى الأماكن الأخرى، فى ضوء جمال الصوت وعذوبته، يتميزون هنا فى مكة بخشونة الصوت وجشاشته.

الشريف غالب لديه فرقة موسيقى عسكرية، شبيهة بتلك الفرق الموسيقية التى لدى الباشوات، هذه الفرقة مكونة من الطبول الشبيهة بالغلايات، ومن الأبواق، والنايات إلخ، هذه الفرقة تقوم بالعزف مرتين يوميا أمام باب منزل الشريف، كما تقوم بالعزف مدة ساعة تقريبا كل مساء مع ظهور الهلال الجديد.

الأفراح تحييها سيدات محترفات، يغنين ويرقصن ، ويقال إن هؤلاء السيدات لهن أصوات عذبة، وإنهن لا ينتمين إلى تلك الطبقة المنحلة التى تنتمى إليها المغنيات والراقصات الشعبيات فى كل من سوريا ومصر. يقول المكيون إن المغنيات كن يغنين

قبل الغزو الوهابى، فى الشوارع كل مساء، لكن صرامة الوهابيين، المتيمين بأغانيهم البدوية، لا تقر غناء النساء على الملأ، بل إنهم قاموا بتدمير الأعمال الموسيقية كلها، ومع ذلك قد يكون ذلك مجرد فكرة طائشة أو عابرة، التى تسود فى كل من الشرق وأوروبا، والتى مفادها أن الأزمان الماضية كانت أحسن من الأزمان الحاضرة من جميع النواحى.

السقائين sakas، أو بالأحرى جالبى المياه، ومعظمهم من الأجانب، يترنمون بأغنية لها وقع طيب بسبب بساطتها من ناحية والغرض المستخدمة فيه من ناحية أخرى ، وقد جرت العادة أن يقوم الحجاج الأثرياء بشراء الماء الذى فى قربة السقاء، عندما يهم هؤلاء الحجاج بمغادرة المسجد أثناء الليل، ويطلبون إلى السقاء توزيع ذلك الماء مجانا على الفقراء. والسقاء عندما يصب الماء فى ذلك الكوب الخشبى الذى يتزود به كل فقير من الفقراء يقول متعجبا :"سبيل الله ياعطشان ، سبيل "، ثم يبدأ فى التغنى بالأغنية التالية المكونة من ثلاث نغمات لم يسبق أن سمعتها من قبل والتى تقول :



"الجنة والـ مـوى فاذه لى صاحب السبيل" بمعنى "فلتكن الجنة والمغفرة مثوى لمن قدم لك هذا الماء !".

أنا لا يمكننى وصف حفلات الزواج فى مكة، لأنى لم أحضر أيا منها لكنى رأيت العروس وهم ينقلونها إلى منزل زوجها، ويصحبتها، صديقاتها. الناس لا يستخدمون هنا كوشة أو موسيقى كما هو الحال فى مصر، لكن الناس هنا يستعرضون الألبسة الفاخرة والأثاث الفاخر والولائم الفاخرة أيضا، وهى تدوم طيلة أيام ثلاثة أو أربعة.

عند عقد القران يجرى حمل المهر فى موكب من منزل العريس إلى منزل العروس، ويجرى حمل المهر على كرسيين صغيرين بلا ظهر، وملفوفين فى مفارش فاخرة، ومغطيان بقطعة من القماش الحرير المطرز، ويمشى أمام الشخصين اللذين يحملان هذين الكرسيين، رجلان آخران، يحمل كل منهما قارورة ماء ورد فى إحدى يديه، ومبخرة فى اليد الأخرى، يجرى فيها حرق كل أنواع الأخشاب المعطرة. ومن خلف هذين الرجلين يسير رهط كبير من أقارب العريس وأصدقائه ، وهم يرتدون أبهى ملابسهم. ويتردد مهر العذراوات فى الأوساط المكية المحترمة بين أربعين وثلاثمائة دولار، وبين عشرة دولارات وعشرين دولارا فى الطبقات الفقيرة. وعادة ما يدفع نصف هذا المبلغ فقط، ويبقى النصف الثانى فى حوزة الزوج، ليدفعه عندما ينوى تطليق الزوجة.

حفلات الختان شبيهة بتلك التى تجرى فى القاهرة ، والطفل يرتدى بعد عملية الختان أبهى ملابسه، ويجرى إركابه على حصان فخم مزين تزيينا حسنا، ويجرى المرور به على شكل موكب يجوب أنحاء البلدة والطبول تقرع أمامه.

والجنائز هناك لا تختلف فى شىء عما يجرى فى مصر وسوريا.

أهل مكة ليست لديهم خيول كثيرة، وأنا أعتقد أن عدد الخيول لا يزيد على ستين حصانا يقتنيها بعض الأفراد. والشريف لديه ما يتردد بين عشرين حصانا وثلاثين حصانا فى إسطبلاته، لكن الشريف غالب لديه قطيع أكبر من ذلك. الأشراف العسكر لديهم بعض الأفراس، لكن القسم الأكبر من تلك الأفراس كان مع الجيش. البدو المستعربين ضاحية المعابدة، وفى بعض الأجزاء الأخرى من مكة، لهم أيضا خيولهم الخاصة وذلك من باب اهتمام هؤلاء البدو بالشئون العامة، لكن التجار والطبقات الأخرى لا يقتنون الخيول. هؤلاء التجار يخشون من حرمان الشريف لهم من امتلاك أى حصان قيم من هذه الخيول، ولذلك يكتفى هؤلاء التجار باستعمال البغال (أو السلالات المتدنية من الخيول). الحمير هنا شائعة تماما، ولكن أصحاب المقامات الرفيعة لا يركبون الحمير. الخيول القليلة التى يقتنيها الناس فى مكة هى من السلالات الأصيلة، ويجرى شراؤها من البدو ، فى فصل الربيع يجرى إيفاد تلك الخيول إلى مخيم من مخيمات البدو، لكى تتغذى على أعشاب الصحراء الغضة. الشريف يحيى لديه فرس

رمادية اللون، حصل عليها من السلالة التى لدى الشريف غالب، ويبلغ ثمن تلك الفرس حوالى عشرين كيسا، هذه الفرس كانت مخلوقا جميل الشكل، وهى الفرس الجميلة الوحيدة من نوعها التى التقيتها فى الحجاز. بدو البلاد بصفة عامة، والبدو الذين يعيشون حول مكة بصفة خاصة، يفتقرون تماما إلى الخيول، قلة قليلة من الشيوخ هم الذين لديهم خيول، نظرا لندرة المراعى، ونظرا لأن اقتناء حصان واحد يكلف صاحبه ثلاثة قروش كل يوم. فى السهل الشرقى الواقع خلف الطائف، تتزايد أعداد الخيول، ومع ذلك فإن أعداد هذه الخيول أقل منها فى كل من نجد وفى الصحراء السورية، والسبب فى ذلك هو ندرة عليق القمح، وندرة المطر، الذى إذا ما نقص تسبب فى بقاء البدو بلا حياة نباتية أو غطاء نباتى طوال عام كامل، وهذا أمر نادر الحدوث فى أقاصى الصحراء الشمالية التى يندر ألا يسقط المطر فيها فى المواسم المناسبة.

حكومة مكة

مناطق كل من مكة، والطائف، والقنفذة (التى تمتد جنوبا إلى هالى على ساحل البحر)، وكذلك ينبع، كانت كلها، قبل الغزو الوهابى والغزو المصرى، خاضعة لحكم شريف مكة، الذى امتد سلطانه إلى جدة على الرغم من أن هذه البلدة كانت مفصولة عن ممتلكاته من الناحية الاسمية، وكان يحكمها واحد من الباشوات، أرسله الباب العالى إلى هذه البلدة، ليكون سيدا فريدا على جدة، وأن يتقاسم مداخيلها مع الشريف. كان الباشا قد وصل إلى مركزه عن طريق القوة، أو النفوذ الشخصى، وبموافقة من عائلات أشراف مكة، وبذلك يكون الرجل قد استمد سلطته من السيد الكبير، الذى أكد هو الآخر للباشا موافقته على اعتلائه للسلطة.(*) كان الباشا يحصل

(*) كانت حكومة الحجاز موضوع جدل كبير بين خلفاء بغداد، وسلاطين مصر، وأئمة اليمن. كان الشريف المصاحب للسيطرة الاسمية على المدينتين المقدستين، هو الشغل الشاغل للجميع، وبدلا من أن يتسبب هذا الأمر فى زيادة مداخيلهم اضطرهم إلى إنفاق الكثير. كانت الميزة الوحيدة تتمثل فى كسوة الكعبة، والدعاء لهم فى خطبة الجمعة فى المسجد الحرام، ولما كانت السيادة المصرية على مكة قد تأكدت فى بداية القرن الخامس عشر، فقد انتقلت هذه السيادة إلى السلاطين بعد أن غزا السلطان سليم الأول مصر، ثم إلى سلاطين إسطنبول.

كل عام على بليسه يجرى إحضارها من إسطنبول بواسطة القفطانجى باشا، وفى إطار المراسيم والاحتفالات التركية كان يجرى إدراج ذلك الباشا، ضمن الباشوات الأول فى الإمبراطورية، وعندما أصبحت سلطة باشوات جدة مجرد سلطة اسمية، وبعد أن عجز الباب العالى عن إرسال جيوش قوية مع قوافل الحج المسافرة إلى الحجاز، لتأمين حكمه على البلاد، استقل أشراف مكة، وراحوا لا يلقون بالا لأوامر الباب العالى، على الرغم من استمرارهم فى تسمية أنفسهم باسم خدام السلطان، كما كانوا يتسلمون أيضا البليسه السنوية كل عام، كما كانوا يقرون ويعترفون أيضا بالقاضى الموفد من إسطنبول، وكانوا أيضا يدعون للسلطان فى المسجد الحرام. استطاع محمد على باشا إعادة السلطة العثمانية على الحجاز، كما اغتصب لنفسه سلطات الشريف كلها، ولم يبقِ الرجل للشريف يحيى الحالى سوى السلطة الاسمية فقط.

جرى اختيار شريف مكة من بين أفراد واحدة من قبائل الأشراف الكثيرة، أو من أحفاد النبى ﷺ الذين استوطنوا الحجاز، هؤلاء الأحفاد كانت أعدادهم كبيرة فى يوم من الأيام لكنهم فى الوقت الراهن أصبحوا يقتصرون على قلة قليلة من الأسر والعائلات المكية. فى أواخر القرن الماضى، كان حق الولاية مقصورا على ذوى(*) بركات ، الذين سموا بهذا الاسم، تيمنا باسم بركات ولد السيد حسان العجلان ، الذى خلف والده فى العام ٨٢٩ الهجرى، كان الرجل ينتمى إلى قبيلة الأشراف المسماة قتادة التى استقرت أو استوطنت وادى القامية مشكلة بذلك جزءا من ينبع النخل، وكانت ترتبط من ناحية الإناث، بقرابة مع بنى هاشم، الذين جرى تجريدهم من حكم مكة فى العام ٦٠٠ الهجرى، بعد وفاة آخر الهاشميين، المدعو مقزر . طوال القرن الماضى تعين على دوى (ذوى) بركات خوض حروب كثيرة مع القبائل المنافسة لهم، ثم

(*) المقصود بـ"دوى" (ذوى) بركات هم : أهل أو "عائلة" بركات.

استسلموا فى نهاية المطاف لذوى زيد الذين يفوقونهم عددا، والذين ينتمى إليهم الشريف الحالى، والذين يكونون مع قتادة جزءا من قبيلة أبو نيمة الكبيرة. وقد نزع القسم الأكبر من ذوى بركات، واستقرالكثيرون منهم فى وديان الحجاز الخصبة، كما استقر البعض منهم فى اليمن. وقد ذكر الناس لى من الأشراف الحاليين الموجودين فى مكة وحولها خمسة أشخاص هم؛ العبادلة ، وأهل سرور، والحرازى ، وذوى حمود والسواملة (*).

مسألة تولى الحكم فى مكة، شأنها شأن تولى المشيخة بين البدوى، لم تكن وراثية، على الرغم من بقاء المشيخة فى القبيلة نفسها مادامت القبيلة قوية. فى حال وفاة الشريف يصبح أحد أقربائه خلفا له سواء أكان ولده، أو ابن عمه، ما دام ذلك الشخص هو صاحب الطرف القوى، أو صاحب الصوت المسموع بين أفراد قبيلته. لم تكن هناك حفلات أو مراسيم تنصيب أو قسم للولاء. كان الشريف الجديد يتلقى التهانى من المكيين على شكل زيارات يقومون بها لمنزل الشريف، وكانت الفرقة الموسيقية تقوم بالعزف أمام باب المنزل ، الأمر الذى يبدو إشارة من إشارات السيادة، مثلما هو الحال فى بلاد السودان، ومن ثم يجرى الدعاء لاسم الشريف فى الصلاة العامة.

على الرغم من أن اعتلاء المنصب لم يكن يحدث بلا صراع، فإن مسألة سفك الدماء كانت قليلة إلى حد كبير ، وعلى الرغم من حدوث بعض مظاهر القسوة فى بعض الأحيان فإن مبادئ الشرف وحسن النية التى تميز حروب قبائل الصحراء كانت

(*) يزاد على هؤلاء، تلك الأسماء التى وردت عند العصمى، مثل ذوى مسعود، وذوى شمير، وذوى الحارث، وذوى ثقابة، وذوى جازان، وذوى باز. مسألة تأليف تاريخ لمكة من المصادر السابقة يحتاج إلى المزيد من الوقت. لقد أورد دهسون ملاحظة تاريخية عن الأشراف فى مكة، وهذه الملاحظة فيها أخطاء عدة. أشجار الأنساب الطويلة التى يتعين تتبعها، ابتغاء الوصول إلى فكرة واضحة عن حكام أى جزء من أجزاء الجزيرة العربية يجعل من تاريخ هذا البلد أمرا متشابكا وبالغ التعقيد.

تجرى مراعاتها والالتزام بها. هذا يعنى أن المتمردين والغرماء كانوا يستسلمون، وعادة ما كانوا يبقون فى المدينة، ولا يحضرون استقبالات الأصيل التى يقيمها قريبهم المنتصر، ولا يخشون غضبه أو استياءه، بعد إقرار السلام بينهم. أثناء الحرب، كانت حقوق الضيافة والكرم تعد أمورا مقدسة كما هو الحال فى الصحراء، كان حق الدخيل يحترم احتراما كاملا، كما كان يجرى تسوية مسألة سفك الدماء على الجانبين عن طريق دفع الغرامات (الدية) لأهالى القتلى، وكان الناس أيضا يعملون طبقا لقوانين الثأر السائدة بين البدو. كان هناك دوما طرف معارض للسلطة الحاكمة، وكانت تلك المعارضة تتجلى بصورة أوضح فى الحماية التى كان الرئيس يوفرها للأشخاص المضطهدين، وليس للمحاولات العلنية التى تستهدف الخروج على سلطته. كانت الحروب، تحدث فى كثير من الأحيان، وكان لكل طرف مؤيدين من بين البدو المجاورين له، ولكن هذه الحروب كانت تجرى طبقا لمنظومة الصراعات البدوية، ولم تكن تلك الحروب تستمر زمنا طويلا.

على الرغم من أن العادات التى من هذا القبيل يغلب عليها القضاء على سلطة الشريف الحاكم، فإنها كانت تسفر عن نتائج سيئة للجماعة، هذا يعنى أن كل فرد من الأفراد يتعين عليه الانضمام إلى هذا الجانب أو ذاك، وأن يخضع لحام ، يعامل أتباعه بنفس الظلم والاستبداد الذى يقع عليه هو نفسه من رئيسه، أو من هو أعلى منه. وقد أدى سرور إلى التقليل من سلطة الأشراف إلى حد بعيد، هذا السرور تولى الحكم فى الفترة من ١٧٧٣ إلى ١٧٨٠، والأدهى من ذلك، أنه غالبا فى الأزمات الأخيرة، كان دائم الشجار والصراع مع أقاربه، على الرغم من أن سلطته وسلطانه كانا أوسع وأكبر من سلطات أولئك الذين جاءوا قبله.

هذه المشاجرات الحادة والمستمرة، وكذلك الحروب والصراعات التى دارت بين مختلف الأطراف، إضافة إلى عثرات الحظ التى صاحبت كل ذلك، علاوة على الفنون والحيل التى كان الرؤساء يلجأون إليها لزيادة شعبيتهم، كل ذلك أضفى على حكم الحجاز طابعا مختلفا عن طابع السواد الأعظم من حكومات الشرق الأخرى، هذا

الطابع المميز لحكم الحجاز، أبقى على شكله الظاهرى إلى ما بعد اعتلاء الشريف غالب لسدة الحكم المستبد. لم يجر مراعاة مراسم الحكم ، التى تمثل حدا فاصلا بين الحكام الشرقيين ونوابهم من ناحية، وبينهم وبين الشعب من ناحية أخرى. هذا يعنى أن بلاط الشريف كان صغير العدد، وخاليا من العظمة والأبهة. لم يكن لقب ذلك الحاكم سلطانا أو سلطانا شريفا، أو حتى "منشئ" على حد قول على بك العباسى. كان رعاياه يستخدمون لقب "سيدنا"، فى حوارهم معه، أو قد يقولون له "سادتكم" ، وهو اللقب الذى يعطى للباشوات جميعهم. هذا يعنى أن المسافة بين الرعايا والحاكم لم تكن كبيرة، بحيث تحول بين الرعايا،فى حالة الحاجة، وبين تعبيرهم عن أحزانهم الشخصية، ويطالبون مطالبة جريئة بالإصلاح، فى إطار لغة وأسلوب مؤدبَين.

الشريف الحالى ليس لديه هيئة كبيرة من القوات النظامية، لكنه كان يستدعى أعوانه من بين الأشراف، وأتباعهم، إذا ما احتدم الأمر ودقت أجراس الحرب. هؤلاء الأشراف كان يجرى ربطهم بشخص الشريف غالب، وذلك عن طريق احترامه لمنزلتهم ونفوذهم، هؤلاء الأشراف بدورهم كانوا يبادلون الرجل المعاملة نفسها إذ كانوا ينظرون إليه باعتباره الأول بين المتساويين والأنداد.

مسألة سرد تاريخ للأحداث التى وقعت فى مكة اعتبارا من الفترة التى توقف عندها المؤرخون العرب (حوالى منتصف القرن السابع عشر على حد تقديرى) ، سوف تتحول إلى عمل مضنٍ؛ إذ يتطلب الأمر استخلاص تلك الأحداث من بين الروايات الشفهية، هذا البلد ليس فيه أحد، ممن يفكرون فى تدوين الأحداث التى وقعت فى أزمانهم، يزاد على ذلك أن الظروف التى زرت البلد فى ظلها، كان يمكن أن تحول بينى وبين الحصول على المعلومات الوافية والدقيقة عن الوضع السياسى لهذه البلاد، حتى وإن توفر لى الوقت اللازم لذلك، نظراً لأن التحريات والاستقصاءات التى من هذا القبيل ربما تضطرنى إلى الاختلاط بالناس، وبخاصة أصحاب المناصب والمقامات، والاختلاط أيضا بأهل الحل والربط، وهذه الطبقة من المجتمع هى التى حاولت جاهدا

تحاشيها دوما لأسباب واضحة. وفيما يلى أورد المعلومات التى استطعت جمعها فيما يتصل بتاريخ مكة الحديث.

فى العام ١٧٥٠ الميلادى عين الشريف مسعد حاكما لمكة، وشغل هذا المنصب مدة عشرين عاما. أدت قوة الأشراف إلى دخول الرجل فى حروب ضدهم فى كثير من الأحيان، وقد أدى عدم نجاح الرجل فى حروبه ضد الأشراف إلى استمرار نفوذهم، بعد أن كشف مسعد عن دلائل عدائه تجاه على بك ، حاكم مصر فى ذلك الزمان، قام على بك بإيفاد أبى الدهب ، عبده القوى المفضل، بعد أن منحه لقب بك، على رأس مجموعة كبيرة من الجنود، بصفته رئيسًا لقافلة الحج المسافرة إلى مكة، لطرد مسعد، لكن الشريف مسعد وافته المنية قبل أيام قلائل من وصول أبى الدهب.

فى العام ١٧٦٩ أو ١٧٧٠ بعد أن لقى مسعد ربه، قامت جماعة حسين، الذى كان من القبيلة نفسها التى ينتمى إليها مسعد، بتوصيل حسين العدو اللدود لمسعد فى كل المناسبات إلى سدة الحكم، وأيدهم فى ذلك أبو الدهب. وبقى حسين فى الحكم إلى العام ١٧٧٣ أو ١٧٧٤.

فى العام ١٧٧٣ أو ١٧٧٤ قتل حسين فى الحرب التى دارت بينه وبين سرور ولد مسعد. هذا الاسم سرور الذى حكم مدة ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر ، لا يزال يحظى بالتقدير والاحترام من قبل المكيين ؛ كان سرور أول من كسر كبرياء الأشراف وقوتهم، وأول من أقام العدل فى المدينة. قبل عهد الشريف سرور كان كل شريف من الأشراف يحتفظ فى منزله بمؤسسة مكونة مما يتردد بين ثلاثين عبداً وأربعين عبداً مسلحًا، ومن الخدم، والأقارب، فضلاً عن أصدقائه الأقوياء من بين البدو. ونظرا لأن كل هؤلاء الأشراف لم يكونوا يعرفون من المهن سوى صناعة السلاح راحوا يعيشون على الماشية التى كانوا يحفظونها عند البدو، وفى أجزاء مختلفة من الحجاز، وكانوا يعتمدون أيضا على الصرة التى كانت تأتيهم من إسطنبول مع الحج، كما كانوا يعتمدون أيضا على الهدايا التى كانوا يحصلون عليها من الحجاج، من أتباعهم فى

البلد. كان بعض هؤلاء الأشراف يحصلون إلى جانب هذه المصادر، على بعض الرسوم الجمركية المفروضة على السفن، أو بعض السلع التجارية، كما كانوا يحصلون على دخل أيضا من رسوم المرور التى كانوا يحصلونها على بوابات جدة، كما كانوا يحصلون أيضا على دخل من ضريبة الرءوس التى كانوا يفرضونها على الحجاج الفارسيين إلخ إلخ. يضاف إلى ذلك أن سلوك هؤلاء الناس فى مكة كان سلوكا بريا وغير متحضر أو منظم، يزاد على ذلك أن أوامر كبير الأشراف كان يجرى إهمالها والتغاضى عنها، كان كل واحد من هؤلاء الأشراف يستغل نفوذه الشخصى لزيادة ثروته، كانت المشادات والصراعات العائلية تجرى فى كثير من الأحيان، وفى زمن الحج كان أولئك الأشراف يضللون جماعات صغيرة من الحجاج وهم قادمون من المدينة المنورة أو من جدة إلى مكة، ويقومون بسلب ما معهم ونهبه، ويقتلون الذين يعترضون أو يمانعون ذلك السلب والنهب.

نجح سرور، بعد نضال طويل، فى إلجام الأشراف وإجبارهم على الطاعة وذلك عن طريق كسب الرأى العام لعامة المكيين إلى جانبه، وعن طريق كسب البدو أيضا إلى جانبه، عن طريق تبسطه معهم فى السلوك، وعن طريق بشاشته وبشره الشخصى وعن طريق كرمه مع أصدقائه، فضلاً عن ذيوع صيت شجاعته المفرطة، ورجاحة عقله. كان الرجل يؤثر دوما مسالمة أعدائه، ومع ذلك كانت الحروب تنشب بينه وبين أعدائه فى كثير من الأحيان. يروى أن الرجل اكتشف ذات مرة مؤامرة كانت تهدف إلى اغتياله، أثناء طوافه فى الليل حول الكعبة، ومع ذلك عفا عن المتآمرين ، واكتفى فقط بنفيهم من مكة، كان لدى سرور مجموعة كبيرة من العبيد المسلحين، والبدو الذين كانوا يعملون دوما لخدمته، وأنه كان يدفع تكاليف هذه المجموعة الكبيرة ومصروفاتها من أرباحه التجارية؛ نظرا لأنه كان يمارس تجارة نشطة مع اليمن، واستطاع الرجل، فى نهاية المطاف، إجبار أسر الأشراف الأقوياء على نفى أنفسهم بأنفسهم، ويبحثون لأنفسهم عن ملجأ فى اليمن، فى حين أجهز الرجل على عدد كبير من الأشراف فى إحدى المعارك، ووقع بعض آخر من هؤلاء الأشراف فى قبضة الجلاد (عشماوى). بعد

كل ذلك آلى سرور على نفسه إقامة العدل بين الناس، وهناك أشياء كثيرة يرويها الناس عن الشريف سرور وحبه للعدل والحكمة، وقد قام الشريف سرور بطرد اليهود من جدة، التى جمعوا فيها ثروات طائلة عن طريق المسرة والتدليس، وحمى الرجل الحجاج أثناء تجوالهم فى الحجاز، ونظم تحصيل الرسوم الجمركية والضرائب التى سبق فرضها بطريقة عرفية تماما. وبعد أن لقى الرجل ربه، قام سكان مكة كلهم بتشييع جنازته إلى مثواه الأخير. ولا يزال المكيون ينظرون إلى الشريف سرور باعتباره وليا، بل إن الوهابيين يوقرون أيضا اسمه ويحترمونه.

العام ١٧٨٥ أو ١٧٨٦ بعد وفاة الشريف سرور خلفه عبد المعين ، أحد إخوانه، لمدة أربع سنوات أو خمس، فى حين قام أخوه غالب الأصغر منه سنا، مستفيدا من مهارته فى التآمر، ومستفيداً أيضا من ذيوع شجاعته وقدرته على الفهم، وأقبل على تجريد شقيقه عبد المعين من سلطته وأجبره على التقاعد. كان الشريف غالب، طوال سنى حكمه الأولى، أداة فى أيدى عبيد الشريف سرور وطواشيِّه، الذين كانت لهم سلطة كاملة على مكة، وراحوا يسلكون السلوك المستهتر نفسه، ويمارسون الظلم والقمع الذى تميز به حكم الأشراف من قبل. ومع ذلك، سارع غالب إلى تحرير نفسه من نفوذ هؤلاء العبيد، وأصبحت له، فى نهاية الأمر، سلطة قابضة على الحجاز، وكانت تلك السلطة أكثر حزما وأكثر قوة من سلطات أولئك الذين سبقوه أو جاءوا قبله، وأفلح غالب فى الإبقاء على هذه السلطة إلى أن وضعت الحروب الوهابية، وخيانة غالب لمحمد على باشا، حدا لحكم هذا الرجل (الشريف غالب). كان حكم الشريف غالب أسلس وأعدل من حكم الشريف سرور، على الرغم من ابتعاد حكم الشريف غالب ابتعادا كبيرا عن إقامة العدل وتحقيق العدالة. صحيح أن الذين أعدموا بأوامر منه كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة، لكن الرجل أصبح جشعا، وكان يسمح فى كثير من الأحيان للمجرمين بافتداء حياتهم عن طريق دفع أثمان كبيرة، أو بالأحرى غرامات باهظة. وتحقيقا لهذا الهدف راح الرجل يملأ سجونه بالمجرمين لكن الدماء كانت تسيل فى تعامل الرجل مع الوهابيين. وأثناء حروب الشريف غالب مع الوهابيين حاول ولدا

الشريف سرور الصغيرين: عبدالله بن سرور وسيد بن سرور، اغتصاب الحكم من عمهما لكنهما فشلا فى ذلك، وبعد أن تصالحا مع غالب، سمح لهما أن يعودا هادئين إلى مكة، وأقام الابنان فى مكة عندما وصل إليها محمد على باشا. أرسل محمد على باشا عبد الله مع الشريف غالب إلى القاهرة، ولكن الباب العالى أصدر أوامره لمحمد على بإطلاق سراح عبد الله بن سرور. كان عبد الله قد سافر ذات مرة إلى إسطنبول ليطلب عون السلطان له فى مواجهة غالب. تهور عبد الله وطيشه أكسبه كثيرا من المعجبين منهم أصدقاء فى مكة، لكن من المرجح أنه إذا ما تحتم على الأتراك التخلى عن الحجاز من جديد، فإن عبد الله بن سرور سوف يحل محل أخيه يحيى، الشريف الحالى لمكة، الذى تسلم حكم المدينة من محمد على باشا فى العام ١٨١٣ الميلادى، والذى تتوافق سمعته ونفوذه فى مكة مع منصبه المشرف. بعد أن استولى الباب على مداخيل مكة، حدد الشريف راتبا شهريا مقداره خمسين كيسا (صرة)، أى ما يقرب من ثمانمائة جنيه إنجليزى، كما يعول قواته وأهل بيته. أهل البيت هؤلاء كانوا هم أهل البيت نفسه قبل الغزو التركى، ويشملون بعض الأشراف، وبعض المكيين، وبعض الأحباش، أو العبيد السود، المعينين فى وظائف محددة ومعينة خاصة بالشريف والمأخوذة أسماؤها من الكتاب الأحمر الخاص بالمحكمة التركية. كان غالب يحتفظ فى كل من ينبع، والطائف، ومكة وجدة بنائب له، كانوا يطلقون عليه اسم الحاكم فى مكة والطائف. هذا الحاكم كان له خازندار، أى وزيراً للخزانة، كما كان له أيضا سلحدار، أو حامل السيف، كما كان له أيضا موهردار، أى حامل الأختام، كما كان معه أيضا قلة قليلة من الموظفين الذين كانوا بعيدين كل البعد عن مراعاة مراسم الإتيكيت والذوق العام المعمول بها فى البلاط التركى. كان إجمالى مؤسسة الشريف غالب عبارة عن خمسين خادما وموظفا أو ستين، وعدد كبير من العبيد والطواشى. كان الشريف غالب يحتفظ بحوالى أربع وعشرين أمة حبشية إلى جانب زوجاته، فضلا عن ضعف هذا العدد من الإماء اللاتى يقمن على رعاية أمور النساء وتربية الأطفال. كان عدد الخيول التى فى إسطبلات الشريف غالب يتردد بين ثلاثين حصانا وأربعين حصانا من أحسن السلالات العربية، وحوالى ستة بغال، التى كان يركبها فى بعض

الأحيان، وكان هناك عدد كبير أيضا من الإبل. أبلغني واحد من كبار خدم الشريف غالب الطاعنين فى السن، أن المخزن كان يصرف يوميا إردبا واحدا (حوالى خمسة عشر بوشل) للاستهلاك المنزلي كل يوم، كان يصرف مع هذا الإردب حوالى خمسين وزنة من الزبد، وخروفين ، وهذا بحد ذاته يشكل الإنفاق الرئيسى اليومى على المؤن والتموينات. هذا الإردب هو والزبد كان يجرى استهلاكه يوميا بواسطة البدو، الذين كانوا يفدون على مكة لإنجاز بعض الأعمال، والذين اعتادوا على التردد على منزل الشريف، طلبا فى كرمه كما لو كانوا ينزلون عند خيمة شيخ من الشيوخ فى مخيم من مخيمات الصحراء. هؤلاء البدو عندما كانوا يرحلون كانت خُرُجهم تُملأ بالمؤن والتموينات تحسبا للطريق، وهذه عادة من عادات العرب، يضاف إلى ذلك أن أشراف مكة كانوا يكشفون دوما عن استعدادهم للتعامل مع البدو تعاملا يقوم على الكرم والحنان.

ملابس الشريف لا تختلف عن ملابس عملاء أسر الأشراف فى مكة، وعادة ما تتكون هذه الملابس من رداء من الحرير الهندى، ومن فوقه عباءة بيضاء اللون، مصنوعة فى الأحساء، على الخليج الفارسى، وشال كشمير يضعه الشريف على رأسه، ومركوب أصفر اللون، أو قد يلبس بُلغة فى رجليه فى بعض الأحيان. لم أر أحدا من أشراف مكة يلبس عمامة خضراء اللون. النوعيات التى من هذا القبيل إما تلتحق بخدمة الحكومة أو تعمل بالجندية، وهنا نجد المكيين يطلقون عليهم اسم "الأشراف"وعادة ما يضعون على رءوسهم شيلانا كشميرية ملونة، النوعية الأخرى من الأشراف الذين يحيون حياة خاصة، أو يعملون فى مجال الشريعة والمسجد الحرام، يلفون شالا أبيض صغيرا من الموسلين حول طواقيهم. الأشراف عادة ما تكون لهم علامة مميزة فى لباسهم، هذه العلامة عبارة عن طاقية صوفية عالية خضراء اللون، يلفون حولها شالا أبيض من الموسلين أو الكشمير، ويبرز غطاء الرأس من هذا الشال لكى يحجب الشمس عن وجه لابس ذلك الشال، بعض كبار السن يستعملون الشال فى هذا الغرض، لكن هذه المسألة ليست تقليدا عاما بين الجميع.

عندما يخرج الشريف في موكب ويكون راكبا دابته فإنه يحمل في يده عصا قصيرة مستدقة يسمونها المطرق ، شبيهة بالعصا التي يستعملها البدو في سياقه الإبل، الخيال الذي يكون قريبا من الشريف، يحمل في يده مظلة، صينية الصنع، لها شراريب من الحرير، ليظلل بها رأس الشريف من أشعة الشمس. وهذه هي العلامة الوحيدة من علامات الملكية التي تميز الشريف عندما يكون بين رعاياه، هذه المظلة لا تستعمل عندما يمشي الشريف في الشارع. وقد أجبر الوهابيون الشريف غالب على التخلي عن المظلة وأن يذهب إلى المسجد سيرا على قدميه، بدعوى أن ذلك يتعارض مع التواضع، إذا ما وصل الرجل الكعبة المشرفة راكبا على ظهر حصان. لكن غالب عندما كانت له السلطة كلها في مكة، كان يجبر الباشوات المصاحبين للحج على أن تكون له الأولوية في المناسبات كلها، كما أذاع الرجل في سائر أنحاء الحجاز زعما مفاده أن مرتبته أرقى من أية مرتبة أخرى بين العاملين في خدمة الباب العالي،كما أشاع الرجل أيضا أنه عندما يكون في إسطنبول فإن الباب العالي، من باب اللياقة يقف لتحية الشريف غالب. يزاد على ذلك، أني أتيت على ذكر مسألة الزي الذي يحصل الشريف عليه سنويا من القفطانجي. جرت العادة من حيث المراسم أن يقوم الشريف بالزيارة الأولى لباشا الحج فور وصول القافلة، وباشا الحج هذا يسمونه أيضا أمير إلخ. وعندما يقوم باشا الحج برد الزيارة، يقبل من الشريف حصانا على سبيل الهدية. وبعد عودة الحج من وادي منى، يقوم الباشا بإهداء الشريف في اليوم الأول، حصانا أيضا، ويقوم الاثنان بتبادل الزيارات في خيمتيهما في منى. وعندما تستعد القافلة لمغادرة مكة، عائدة إلى الوطن، يقوم الشريف بزيارة أمير الحج مرة ثانية، في مخيمه خارج المدينة، حيث يجري إهداؤه حصانا آخر.

المفترض أن تكون قبائل الحجاز البدوية كلها تحت إمرة الشريف من منطلق أن هذه القبائل مدونة في سجل كل من الباب العالي وسجلات الشريف أيضا. عندما كان الشريف غالب في أوج قوته، كان له نفوذ كبير على القبائل، لكنه لم تكن له سلطة مباشرة على تلك القبائل. كانت القبائل تنظر إلى الشريف وجنوده كأنه شيخ من

شيوخهم، وأتباعه، يضاف إلى ذلك أن الشريف كان يلتزم التزاما صارما بقوانين الحرب السارية فى الصحراء. كان برفقة الشريف غالب حوالى ستة آلاف بدوى أو ثمانية آلاف ، انضموا إليه، كما لو كانوا ينضمون إلى شيخ آخر، ووقفوا إلى جانبه فى حملاته الأخيرة التى جردها على الوهابيين، ولم ينتظر هؤلاء البدو من الشريف أجرا على الخدمات التى قدموها له، سوى أتباعهم لشيوخهم الذين اشترى الشريف غالب ولاءهم واهتمامهم عن طريق تقديم الهدايا.

تشكل حكومة مكة من هؤلاء الذين ليست لهم دراية بسياسة الصحراء، مجموعة من الأشياء الفريدة، لكن الأمور يسهل شرحها والوقوف عليها إذا أخذنا بعين اعتبارنا أن الشريف غالب ليس سوى شيخ بدوى، سمحت له الثروة والسلطة أن يكون له صولجان عرفى، هذا الشريف هو حاكم عثمانى فى ظاهره، لكنه ملتزم التزاما تاما بعاداته وتقاليده القديمة. فى الماضى كان عمداء عائلات الأشراف فى مكة، يمارسون السلطة والنفوذ الذى كان الآباء يمارسونه فى المخيمات البدوية، ولكن سلطة الشيخ الكبير هى التى أصبح لها الغلبة فى النهاية، الأمر الذى اضطر الآخرين إلى الخضوع لهذه السلطة، لكنهم ظلوا، فى كثير من الأحوال، يحتفظون بحقوق آبائهم. كانت الأطراف المتصارعة تنظر إلى المكيين من غير البدو، على أنهم مستوطنون خاضعون لسيطرتهم وهيمنتهم، تماما مثل القبائل البدوية التى تحارب من أجل القرى التى تدفع لها إتاوة، والتى تنظر إلى سكان هذه القرى باعتبارهم من منزلة أدنى من منزلة هذه القبائل البدوية. ومع ذلك لم يُكْتَب للمكيين أن يعاملَوا معاملة بلدان مقاطعات شمالى تركيا، كان المكيون يشاركون فى الصراعات التى كانت تجرى بين الأشراف، كما كانوا يشاركون أيضا فى النفوذ والسلطة التى كانت تتحقق لرعاياهم. عندما أصبح لكل من غالب وسرور سلطة واسعة وغير محدودة، وذلك على العكس ممن جاءوا قبلهم، راح بقية الأشراف يتوحدون بصورة أوثق مع المكيين، وظلوا إلى وقت قريب يشكلون هيئة محترمة تتسم بالطابع الحربى، وهذا هو ما وقفنا عليه فى المشاجرات والمنازعات المستمرة التى دارت بين الأشراف ، ووقفنا على ذلك أيضا فى مقاومة هذه الهيئة

للحكومة، عندما أثرت إجراءاتها على حياة أفراد هذه الهيئة أو أعضائها ، وذلك على الرغم من تقليم أظافر هذه الهيئة على نحو يجعلها لا تثور أو تتمرد إلا عندما يجرى الهجوم أو الاعتداء على أموالها وممتلكاتها.

كانت حكومة الشريف غالب حكومة متساهلة وحريصة على الرغم من الابتزاز المالى الذى كانت تمارسه، كان الشريف غالب يحترم كبرياء المكيين، ولم يحاول الاعتداء مطلقا على سلامة الناس أو ثرواتهم، على الرغم من ترعرع هؤلاء الأفراد فى ظل تلك القواعد التى كان لها تأثير جماعى على الناس كلهم. سمح الشريف غالب لأعدائه اللدودين بالعيش بين أهليهم وعائلاتهم، كما سمح للناس أيضا بالدخول فى معارك دموية فيما بينهم، الأمر الذى كان يفضى إلى الثأر، أو إثارة الأحقاد التى ملأت صدور الناس فى مختلف المناطق، ضد بعضهم البعض، وقد وصل الأمر إلى حد اقتتال هؤلاء الناس طوال أسابيع عدة، مع بعضهم البعض، مستخدمين فى ذلك، العصى، والحراب، والخناجر، دون اللجوء إلى الأسلحة النارية.

هؤلاء الأشراف، أحفاد محمد ﷺ، المقيمون فى مكة وفى المنطقة المجاورة لها، والمولعون بالسلاح، ويدخلون فى صراعات مدنية فى معظم الأحوال، درجوا على إرسال الطفل الذكر، بعد ثمانية أيام من مولده، إلى خيمة من خيام البدو المجاورين، لينشأ مع أطفال الخيمة، ويتعلم أن يكون بدويا بحق وحقيقة لمدة ثمانى سنوات أو عشر، أو إلى أن يصبح الطفل قادرا على ركوب الفرس، وهنا يأخذه والده مرة ثانية، ولا يسمح للطفل طوال هذه الفترة بزيارة والديه، أو الدخول إلى البلدة اللهم باستثناء الشهر السادس، عندما تأخذه الأم البديلة فى زيارة قصيرة إلى أسرته، لتعود به بعد ذلك مباشرة إلى قبيلتها. هذا يعنى أن الطفل لا يبقى بين يدى أمه، تحت أى ظرف أكثر من ثلاثين يوما، يتعين بعدها أخذه إلى القبيلة، وقد يطول مقام هذا الطفل بين البدو إلى أن يبلغ الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره؛ بذلك يتآلف الطفل مع كل أخطار الحياة البدوية وتقلباتها، وهنا يعتاد جسد مثل هذا الطفل على التعب والحرمان، ويكتسب لغة البدو النقية السليمة، كما يكتسب أيضا منهم تأثيرا تكون له أهمية كبيرة

فى حياته فيما بعد. هؤلاء البدو لا يوجد بينهم شريف، بدءا من الشيخ وانتهاء بأفقر فقرائهم، لأنهم جميعهم تربوا ونشأوا بين البدو، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين يتزوجون من فتيان بدويات. أبناء الشريف الموجود حاليا فى الحكم نشأوا وتعلموا فى قبيلة عدوان ، هؤلاء العدوان شهيرون بالشجاعة والكرم، لكن هؤلاء العدوان جرى تقليم أظافرهم من ناحية بفعل الحروب الطاحنة التى خاضوها إلى جانب الأشراف ، ومن الناحية الأخرى بفعل الغزو الذى قام به محمد على باشا مؤخراً، الأمر الذى اضطر هؤلاء العدوان إلى التعجيل بالتخلى عن أراضى الحجاز، والبحث عن ملجأ وملاذ لهم فى مخيمات قبائل السهل الشرقى. عثمان المضايفة نفسه، ذلك الشيخ الوهابى الشهير، والأداة الرئيسية التى يستخدمها سعود فى إخضاع الحجاز، هو نفسه شيخ من شيوخ العدوان، والشريف غالب تزوج شقيقة عثمان المضايفة. كان الأشراف الآخرين يرسلون أطفالهم إلى مخيمات قبائل هذيل، وثقيف، وبنى سعد ، وقبائل أخرى، بعض آخر من هؤلاء الأشراف كانوا يرسلون أطفالهم إلى قريش أو حرب.

الخيمة التى يتربى فيها شريف من الأشراف تحظى منه بمعاملة تقوم على احترام أهلها كما لو كانوا والديه وإخوانه، مثل هذا الشريف ينادى ربها على أنه والده، وربتها على أنها أمه وأبناؤها على أنهم إخوته، وهو نفسه يحظى منهم بتسميات مماثلة. وهم عندما يجيئون إلى مكة يقيمون فى منزل تلميذهم، ولا يغادرون هذا المنزل إلا وهم محمَّلين بالهدايا. طوال فترة تلمذة هذا الشريف، تراه يطلق الاسم إرهام على أقاربه البعيدين من الأسرة البدوية، وبخاصة أولئك الذين من حقهم مصادقته واهتمامه بهم، يضاف إلى ذلك أن هذا الشريف، يعد نفسه طوال حياته، منتميا إلى ذلك المخيم الذى أمضى فيه السنوات الأولى من حياته ؛ تراه يصف سكان هذا المخيم بقوله : "ناسنا"، أو "عائلتنا" ويهتم اهتماما كبيرا بكل ما يحدث لهم، ويزورهم كلما سمح وقته بذلك وبخاصة فى شهور الربيع وفى بعض الأحيان قد يرافقهم فى ترحالهم وتجوالهم وأيضا فى حروبهم.

كـان الشـريف غـالب يحـافظ بصـورة دائمـة على أن يكون مـقـبـولا عند والديه البدويين، وعندمـا كان والداه البديـلان يزورانه كان يـقف من مقعـده ويحتضـنهما، على الرغم من عدم اختلاف ملبسهما عن ملبس بقية سكان الصحراء. حدث فى كثير من الأحيـان أن رفض أبناء الشريف غـالب ، الاعتـراف بأبويهـمـا الفـعليين وكـانوا يهربون، في بعض الأحيـان، وينضمـون أو يلحـقـون أصـدقـاء الطفـولة، البـدو الذين يعيشون فى الصحراء.

هذه العادة التى أتيـت على وصفها هى واحدة من العـادات القـديمة فى الجزيرة العربيـة لقد تربى محمد ﷺ بين الأجانب والأغراب، فى قبيلة بنى سـعد ، والمكيون يضـربون به ﷺ المثل إذا مـا تكلمـوا فى مـثل هذا الأمـر، الذى لا يزال سـاريا بين الأشـــراف، لكن الأشراف هم الوحـيدون من بين سكان الجزيرة العـربية كلهـا، الذين ينهجـون هذا النهج، البـدو الذين يطلق عليـهم اسـم الموالى(*)، والذين كـانوا يشكـلون قـبيلة قـوية فى يوم من الأيام، والذيـن يرعـون قطعـانهم فى المنطـقـة المجـاورة لحلب، هم الوحـيـدون الذين عثـرت بيـنهم على شىء من هذا القـبـيل. عند الموالى نجد أن ولد شيخ القبـيلة يجب أن يتربى وينـشأ عند فرد آخر من أفراد القبيلة نفسها، وغالبا ما يـكون ذلك فى مخـيم مـختلف، إلى أن يكـبـر ويصـبـح قـادرا على العنايـة بنفسه، بقية حياته.

يستـقى الأشراف مـزايا عديدة من تربيتهم البـدوية، وهم لا يكتسبـون مـجـرد القـوة والبنـيـة القـوية، وإنما يكـتـسـبـون أيضـا بعـضــا من تلك الطــاقـة، وحـرية التصرف والجـرأة التى يتميز بها سكان الصحراء، إضافة إلى تقديرهم الكامل لحسن النية، وقـوة الإيمان، والـكرم على نحو يختـلف تماما عمـا لو كانوا قد تربوا ونشئوا فى مكة.

(*) هذه القبـيلة هى أصـلا من الحجـاز : كانت تلك القبيلة تقيم فى منطقة قريبة من المدينة المنورة، ويأتى كـثـيـر مــن مـورخـى المديـنة المـنورة علـى ذكـر هـذه القـبـيلـة، خـلال القـرن الأول الـذى تلا وفـاة محمد ﷺ .

أنا لم ألتقِ كثيرا من الأشراف. ومن بين الأشراف الموجودين حاليًا في مكة يجري استخدام البعض منهم – وذلك أثناء مقامي في مكة – في العمل مرشدين وأدلاء مع جيش محمد علي باشا، أو بدمجهم، بواسطة محمد علي ، مع بعض البدو ليشكل منهم فيلقا صغيرا، يقوده الشريف راجح، الذي هو واحد من أبرز رجال الأشراف، أو قد يجري توظيفهم لخدمة الشريف يحيى، الذي أوفدهم في مهمة إلى المواقع المتقدمة في اتجاه اليمن. تقاعد البعض من هؤلاء الأشراف بعد أسر الشريف غالب، وعادوا إلى الوهابيين أو إلى اليمن، في حين لم يتبق منهم في مكة سوى قلة قليلة. هؤلاء الذين سنحت لي الفرصة بمقابلتهم، كانوا يتميزون بكثير من السمات التي توحي وتعبر عن أصلهم النبيل، إضافة إلى أن ظاهرهم جميعا يوحي ويدل على أنهم من البدو. هؤلاء الأشراف أحرار، جسورين، صرحاء، أصدقاء حميمون، أعداء ألداء، ينشدون الشهرة، وفي داخلهم فضيلة الفخر والكبرياء، التي تضعهم على حد زعمهم فوق مستوى أعلى من مستوى سلطان اسطنبول. وأنا لم أر رجلا في مستوى أناقة الشريف راجح، الذي أتيت على ذكره عندما كنت أتحدث عن حملة محمد علي باشا، وكيف أن وقفاته ومواقفه المحترمة ستذيع شهرته بين الآلاف، ولا يمكن لامرئ أن يتخيل وجها صبوحا يفيض حيوية وذكاء مثل وجه الشريف غالب. الشريف يحيى، الحاكم الحالي، صاحب بشرة شديدة السواد مثل والده تماما؛ كانت أمه أمة حبشية تميل بشرتها إلى اللون البني الغامق.

المكيون لا يثنون كثيرا على أمانة الأشراف، وأنهم غالبا ما كانوا يكشفون عن تقلب كبير في الشخصية والسلوك، لكن الأمر يختلف عن ذلك تماما إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا المكان والزمان اللذين عاش فيهما هؤلاء الأشراف : تعليم هؤلاء الأشراف البدوي هو الذي جعلهم متميزين ومفضلين، من نواحٍ كثيرة على عامة المكيين.

هناك قاعدة بين الأشراف مفادها أن بنات الشريف الحاكم لا يمكن أن يتزوجن، بينما يقوم أشقاؤهن باللعب في الشارع مع أندادهم الذين لا يتميزون عنهم من حيث

الملبس، أو وقار المظهر، نجد أن البنات التعيسات يبقين محبوسات فى منزل والدهن. لقد رأيت ولدا من أبناء الشريف غالب، وكان والده من بين الأسرى المحتجزين فى سالونيكا، رأيته وهو يلعب أمام باب المنزل. لكنى عرفت وسمعت أنه عندما يعود أبناء الشريف الحاكم من الصحراء، ويكونون لم يبلغوا بعد الحد الذى يظهرون معه على الملأ وقد تحلوا بمظهر الرجولة، فإنهم يجرى الاحتفاظ بهم فى منزل والدهم أو فى فنائه، ولا يراهم أو يتصل بهم إلا أهل البيت من أفراد العائلة، ولا يظهرون على الملأ للمرة الأولى إلا وهم ركوب على ظهور الخيل، ويسيرون إلى جانب والدهم، واعتبارا من تلك اللحظة يصبحون فى سن تؤهلهم للزواج على الفور، ويبدأون المشاركة فى الشئون العامة.

القسم الأكبر من أشراف مكة، وبخاصة هؤلاء الذين فى سدة الحكم فى الوقت الراهن أو بالتحديد ذوى زيد ، تدور من حولهم الشكوك، بأنهم مسلمون مليون ينتمون إلى الزيود ، وبخاصة الجبال المحيطة بمدينة صعداء . على كل حال، الأشراف لا يقرون هذا المذهب أو يتبعونه، وإنما هم يلتزمون بالمذهب الشافعى، الذى ينتمى إليه السواد الأعظم من المكيين، لكن الأشراف الذين يعيشون خارج البلاد لا ينكرون هذا المذهب، وعند مناقشة النقاط التى فيها اختلاف شرعى وتحمل على ما يعتقده الزيود، ويختلفون فيه عن أهل السنة، ترى الأشراف دوما لا يتخذون موقفا إيجابيا فى النقاش الذى يكون من هذا القبيل.

مبلغ علمى أن الزيود ينقسمون إلى مذاهب عدة. زيود اليمن ومكة الذين يعترفون بالإمام الهادى للحق يحيى بن الحسين مؤسسا لهذا المذهب، الذى يرجع نسبه إلى الحسن بن على ﷺ. وقد ولد الإمام يحيى فى مدينة الرس ، فى منطقة القصيم، فى العام ٢٤٥ الهجرى وظهر أول مرة داعيا للدين فى بلدة صعداء ، فى اليمن فى العام ٢٨٠ الهجرى، حارب الإمام يحيى مع العباسيين، واستولى على صنعاء، التى طرد منها، ثم هاجم القرامطة بعد ذلك، وتوفى مسموما فى صعداء فى العام ٢٩٨ الهجرى. بعض آخر يردون أصل هذا المذهب إلى ما هو أعلى من ذلك، أى

إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، الذى قتل فى الكوفة فى العام ١٢١ الهجرى بأيدى جماعة الخليفة هشام. يبدو أن الزيود يوقرون عليا - رضى الله عنه - توقيرا كبيرا، لكنهم فى الوقت ذاته لا يسبون أو يلعنون أبا بكر أو عمر - رضى الله عنهما - . هؤلاء الزيود لديهم أفكار غير التى لدى السنة فيما يتعلق بولاية الأئمة الاثنى عشر، لكنهم يتفقون مع السنة فى الأمور الأخرى، هذا يعنى أن نقاط الائتلاف بين الزيود والسنة أكثر من نقاط الاختلاف مع الفرس. زيود اليمن الذين ينتمى إليهم إمام صنعاء، يعدون أنفسهم أصحاب المذهب الخامس من المذاهب الإسلامية، وأن هذا المذهب الزيدى يجىء بعد المذاهب الأربعة : الأحناف، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، ولهذا السبب فهم يطلقون على أنفسهم أهل المذاهب الخمس ، هؤلاء الزيود يذيعون معتقداتهم على الملأ، وفى مكة يخفون هذه المعتقدات. بلغنى أن من بين معتقداتهم الرئيسية، ذلك المعتقد الذى مفاده أن الصلاة إذا ما كانت فى المسجد أو المنزل، يجب ألا تحتوى على أية تعبيرات أخرى غير تلك التعبيرات الواردة فى القرآن، أو التعبيرات التى يجرى تشكيلها من مقتطفات من ذلك الكتاب.

المكيون ينظرون إلى الزيود باعتبارهم مهرطقين، ويؤكدون أن الزيود، شأنهم شأن الفارسيين، لا يحترمون الخلفاء الذين خلفوا محمدا ﷺ مباشرة. تتردد بعض القصص التى مفادها أن زيود اليمن يكتبون اسم معاوية على أقذر الأماكن فى منازلهم، وذلك من باب الاحتقار لذلك الرجل، لكن هذه المفاهيم لا يجاهر بها هؤلاء الزيود، وأن الأشراف يتفقون ظاهريا مع كل ما يقول به أهل السنة، وذلك بغض النظر عن آرائهم الخاصة.

سبق أن قلت إن قاضى مكة يوفد سنويا من إسطنبول، طبقًا أو تمشيا مع الإجراءات الحكومية التركية المعتادة فيما يتصل بالمدن الكبرى فى الإمبراطورية التركية. وقد بدأ ذلك النظام بالأباطرة الأوائل، الذين ظنوا أنهم إذا ما حرموا الحكام المحليين من إقامة العدل، ووضعوا إقامة العدل هذه بين أيدى عالم يوفد من إسطنبول

بين الحين والآخر، ويكون مستقلا تماما عن الحكام، يمكن أن يمنعوا الحكام من ممارسة أى نفوذ لا لزوم له على المحاكم، ويصبح بوسعهم أيضا تحاشى الأحكام التى يمكن أن تترتب على بقاء قاض فى منصبه فترة من الزمن. لكن السلوكيات فى الإمبراطورية تغيرت وتباينت عما كانت عليه قبل ثلاثة قرون من الزمن. القاضى حاليا، فى أية مدينة من المدن يكون تحت نفوذ الحاكم مباشرة وسيطرته، هذا الحاكم يستبد كما يشاء، شريطة أن يرسل الإعانات التى يتحتم إرسالها إلى الباب العالى، أو يدفع رشوة للقاضى، الذى يتقاسمها مع الحاكم، أو قد يتغاضى عنها الحاكم مقابل أن يراعى القاضى مصالح الحاكم فى بعض القضايا الأخرى. وقد ارتفعت أيضا رسوم التقاضى ارتفاعا كبيرا، ووصلت إلى حد الربع من المبلغ محل التقاضى، هذا فى الوقت الذى تتغاضى فيه المحكمة عن أوضح الحقوق وأجلاها، إن لم يكن ذلك مدعوما بهبات كثيرة وكبيرة للقاضى من ناحية، ولمجموعة الموظفين والخدم المحيطين به من الناحية الأخرى. هذه الاضطرابات على مرأى ومسمع من الباب العالى ، هذا يعنى أن منصب القاضى كان يباع لأعلى سعر، من باب أن القاضى يعرف أنه سيعوض ما دفعه من خلال الأجور الإضافية التى ستحصل عليها إدارته.

فى تلك البلدان التى يتدافع العرب فيها على المحكمة، نجد أن القاضى، الذى جرت العادة ألا يعرف سوى القليل جدا من اللغة العربية، يكون بين يدى مترجمه، والمترجم هذا وظيفته دائمة، وهو الذى يُعرف كل قاض من القضاة الجدد بأساليب الرشوة السائدة فى المكان، ويحصل لنفسه على نصيب وافر من حصاد هذه العملية. هذه المظالم السافرة والرشوة المخزية، التى تحدث فى المحاكم وقاعات العدل كل يوم قد تبدو للأوروبى بصفة عامة والإنجليزى بصفة خاصة أمورا لايصدقها العقل.

بذلك يكون قاضى مكة قد لقى مصير إخوانه القضاة فى سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، عندما أصبح خاضعا لنفوذ الشريف، الذى أصبحت القضايا كلها تقدم إلى محكمته، مما أدى إلى تزجية وقته فى أشياء وأمور لا نفع منها. لقد

أبلغنى القاضى نفسه، أن الباب العالى، وهو يقدر الموقف منذ سنوات مضت، رأى أن يدفع كل عام لقاضى مكة، من خزانته ما قيمته مائة كيس (صرة). بعد الغزو الذى قام به محمد على باشا بدأ القاضى يستعيد أهميته، مواكبا بذلك انحسار نفوذ الشريف. عندما كنت فى مكة، كانت القضايا كلها يجرى البت فيها فى المحاكم. لم يحدث أن تدخل محمد على فى عمل المحاكم، مستهدفا بذلك اكتساب رضا العرب، ويبدو أن القاضى نفسه تلقى من محمد على باشا أوامر تقضى بتوخى الحذر فى العمل، الأمر الذى أدى إلى إقامة العدل فى ذلك الوقت، قياسا على المحاكم الأخرى فى أضعف الأحوال، يزاد على ذلك أن السكان لم يكونوا معارضين للنظام الجديد. قاضى مكة هو الذى يعين شاغلى المناصب القضائية فى كل من جدة والطائف، وهؤلاء المعينين يكونون من العرب وليسوا من الأتراك. يضاف إلى ذلك أن أئمه المذاهب الأربعة لهم رأيهم أيضا فى القضايا الشرعية المهمة.

يأتى دخل الشريف بصفة خاصة من الرسوم الجمركية التى يجرى تحصيلها فى جدة، هذه الرسوم، كما سبق أن أوضحت لا يجرى اقتسامها، بناء على أوامر الحكومة، بين الشريف وباشا جدة. زد على ذلك أن جمارك جدة التى تتساوى وتتفق مع الجمارك فى سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، قام الشريف غالب بزيادتها زيادة كبيرة، لتصبح بذلك السبب الرئيسى وراء معارضة التجار لذلك الرجل. استأثر محمد على باشا لنفسه بجزء كبير من التجارة. كانت هناك ثمانى سفن من طراز الدهو، تابعة لمحمد على باشا وتعمل فى تجارة البن بصورة مستمرة بين اليمن، وجدة، ومصر، وعندما كان سوق البن يصاب بالكساد كان محمد على يجبر التجار على شراء شحناته نقدا بسعر السوق، لكى يسارع بإرسال دولاراته إلى اليمن. قامت سفينتان من كبريات سفنه (إحداهما إنجليزية الصنع جرى شراؤها من بومباى، وحمولتها أربعمائة طن) برحلة إلى جزر الهند الشرقية وكانت هذه الرحلة تتكرر كل عام، وكان يجرى بيع حمولات هاتين السفينتين إما للحجاج فى مكة، أو تقسيم تلك الحمولات بين تجار جدة الذين كانوا يجبرون على شراء هذه البضائع.

أخضع محمد على باشا ميناء ينبع - شأنه شأن ميناء جدة - للظروف نفسها على الرغم من أن الشريف كان قد عين حاكما (محافظا) لذلك الميناء. كما فرض محمد على ضريبة أيضا على الماشية والمؤن والتموينات التى كانت تنقل من داخل البلاد إلى جدة، كما فرض ضرائب أيضا على الماشية والمؤن والتموينات التى تنقل إلى كل من مكة، والطائف - واستثنى من ذلك البضائع والماشية والمؤن والتموينات التى تأتى بصحبة قافلتى الحج الكبيرتين اللتان تأتيان من الشمال، وذلك فى جميع الأماكن والمحطات التى تمر عليها هاتان القافلتان. لم يكن سكان مكة أو جدة يدفعون أية ضرائب أخرى غير تلك التى سبق الإشارة إليها، فقد كانت بيوتهم، وأشخاصهم وممتلكاتهم معفاة من الضرائب بكل أشكالها، سكان مكة وجدة لم يعترفوا أو يقروا بهذه الميزة، لأنهم لم يقارنوا أنفسهم بالمحيطين بهم فى كل من سوريا ومصر. كانت أفرع مداخيل الشريف الأخرى تتمثل فى الأرباح التى كان يجنيها من وراء بيع المؤن والتموينات فى مكة، والتى لم يكن يحتكرها لنفسه مثل محمد على باشا، وإنما كان لديه رصيد حاضر كبير من هذه المؤن والتموينات، الأمر الذى كان يمكنه من التأثير على الأسعار اليومية لهذه الأشياء. مصدر آخر من مصادر مداخيل الشريف، كان يتمثل أيضا فى ضريبة الرءوس التى كانت تفرض على الفرس الذين يصلون عن طريق البر قادمين من بغداد، وعن طريق البحر الأحمر واليمن، وهناك مصدر آخر كان يتمثل فى الهدايا الكبيرة التى كانت تأتيه عن طيب خاطر أو بالغصب من أثرياء الحجاج الذين يفدون من مختلف البلاد(*).

كان الشريف يقتطع لنفسه مبلغا كبيرا من النقود التى كانت ترسل من إسطنبول إلى المدينة المقدسة، ويقال إن الشريف كان يحصل لنفسه على نصيب من الهدايا التى

(*) فى الماضى، وعندما كان الأشراف أقوى مما هم عليه حاليا، كانوا يفرضون إتاوة على قافلتى الحج الكبيرتين، وكانت تلك الإتاوة مساوية لتلك التى كان البدو يجبونها على الطريق. كان أبو نيمه ، فى العام ٦٥٤ الهجرى يجبى ثلاثين درهما على كل حمل من أحمال القافلة اليمنية، وخمسين درهما على كل حمل من أحمال القافلة المصرية.

كانت ترسل للمسجد الحرام. كانت لدى الشريف أملاك عقارية كبيرة. هذا يعنى أن كثيرا من البساتين المحيطة بالطائف، وكثير من المزارع التى كانت فى وادى الحسينية، ووادى فاطمة، ووادى اليمون، ووادى مضيف، كانت من ممتلكات ذلك الرجل. كان له فى جدة أيضا من المساكن التى كان يجرى تأجيرها للأجانب، وبذلك كان شبيها إلى حد كبير بمحمد على الذى جاء بعده، أى أنه كان يعول على الربح والأرباح مهما كانت تافهة، كان انتباه الشريف غالب منصبا على جمع الثروة. كان دخل الشريف السنوى، يوم أن كان فى أوج قوته، يصل إلى حوالى ثلاثمائة وخمسين ألف جنيه إنجليزى، لكن بعد غزو الوهابيين الحجاز لم يكن دخل الرجل يتجاوز نصف هذا المبلغ.

لما كان الشريف غالب تاجرا ومالكا للأرض، ولما كان أيضا يجلب السلع الاستهلاكية بسعر المصنع، فإن إعاشته وأهل بيته وحاشيته، ونسائه وعبيده، لا تحتاج – على حد تخيلى – إلى أكثر من عشرين ألف جنيه إنجليزى كل عام. فى زمن السلم، يحتفظ الشريف بقوة عاملة، لا يزيد قوامها على خمسمائة رجل، منها حوالى مائة فرد فى حامية جدة، وخمسين فردا فى الطائف، وخمسين فردا فى ينبع، والباقى فى مكة ، كانت هذه القوة تضم أيضا ثمانمائة خيَّال، إضافة أيضا إلى أفراد أسرته وأهل بيته. يزاد على ذلك أن عددا كبيرا من الجنود كانوا عبيدا للشريف غالب، لكن القسم الأكبر من هذه القوة كانوا من البدو من أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، وكان العدد الأكبر من هؤلاء البدو، يجيئون من اليمن، ومن جبال عسير، ومن نجد. كان الواحد منهم يتقاضى أجرا شهريا يتردد بين ثمانية دولارات واثنى عشر دولارا، وكانوا يعملون تحت قيادة الأشراف، الذين كانوا يطيعونهم مثلما يطيع البدو قائدهم أثناء الحرب، هذا يعنى أن هؤلاء الجنود، بحكم عدم تدريبهم تدريبا نظاميا، كانوا يرافقون الشريف كلما كان يقوم بجولة خارج المدينة، وأنهم كانوا يفتحون نيران بنادقهم عند العودة، طبقا لأعراف الجزيرة العربية وتقاليدها، التى تخول لهم القفز والجرى هنا وهناك. كان جنود المشاة مسلحين ببنادق فتيلية، وخنجر معقوف، أما

الخيالة فكانوا مسلحين بالحراب والرماح. عندما كان الشريف غالب يدخل حربا من الحروب، كانت تلك القوة تتزايد عن طريق دخول أشراف كثيرين آخرين فى الحرب ومعهم أتباعهم، هؤلاء الأشراف لا يحصلون على أجر اللهم إلا باستثناء الهدايا التى كانت تقدم لهم بين الحين والآخر، فضلا عن أنصبتهم من الغنائم، كانت هذه الحروب موجهة ضد القبائل البدوية، التى كانت ماشيتها هى بيت القصيد من الغزو. فى المناسبات التى من هذا القبيل، كان بدو آخرون ينضمون إلى الشريف غالب ثم يعودون إلى منازلهم مع شيوخهم فور انتهاء الحملة أو الغزو. مع بداية الحرب الوهابية، وعندما بدأ الوهابيون القيام بهجمات ناجحة على الحجاز، وجد الشريف غالب أن من الضرورى زيادة عدد جيشه النظامى ولذلك أضاف إلى هذا الجيش بعضا من العبيد السود، ليصل عدد الجيش إلى ثمانمائة رجل، مهتديا فى ذلك بمن سبقوه، الذين كانوا ينظرون إلى عبيدهم بمنظار أنهم أخلص الناس لهم(*)، كما أضاف الشريف غالب مزيدا من البدو إلى جيشه، الأمر الذى أوصل عدد جيشه خلال ذلك الصراع إلى ما يتردد بين ألفين وثلاثة آلاف رجل، وظن الرجل أن هذا العدد كان لحماية مدنه. كان الرجل كلما خطط لهجوم على الوهابيين، يجمع حلفاءه من بين البدو، ويتقدم مرات عدة صوب نجد ومعه قوة متحدة (موحدة) قوامها عشرة آلاف رجل. وعندما اضطر هؤلاء الحلفاء مرارا، إلى الاستسلام للغزاة، وعندما انكسر بدو الجنوب الذين كان غالب يعتمد عليهم بصورة أساسية أمام الجهود الكبيرة والقتال والنشاط الكبير من جانب عثمان المضايفة، وجد الشريف غالب نفسه وحيدا، بصحبة قواته القليلة جدا وعاجزا عن مواصلة القتال، وسرعان ما جرى طرده بعد ذلك إلى أصقاع بعيدة، واضطر إلى الاستسلام على الرغم من احتفاظه بمجموعة من القوات كان يتكفل بدفع أجورها، بعد أن أحكم سعود قبضته على الحجاز، وأدار شئونه على نحو يضمن استمرار سلطته، واحترام الوهابيين.

(*) ظل أشراف مكة طوال القرن الماضى يحتفظون بجماعات صغيرة من المماليك الجورجيين باعتبارهم حرسا خاصا لهم.

كانت تكاليف زيادة قوات الشريف غالب أثناء الحرب الوهابية كبيرة تماما، وكان من الضرورى تقديم الهبات والعطايا لكل من الشريف والبدو حتى يمكن جعل البدو يراعون مصالح الشريف غالب، لكن تصادف أن كانت مصالح الشريف هى مصالح البدو أيضا، وعلى الرغم من أن البدو لا يكلون أو يملون السؤال وطلب الهدايا، فإنهم يرضون بالقليل. وهنا يمكن لنا القول: إن الشريف غالب لم يحدث طوال سنى حكمه أن عاش فى حدود مداخيله وموارده، ومع ذلك كان أهل الحجاز يعرفون جيدا أن الشريف غالب طوال سنى حكمه السبعة والعشرين، قد كدس كنزا هائلا من الأموال. بعد أن ألقى محمد على باشا القبض على الشريف غالب، كان إجمالى ثروة الشريف غالب فى كل من مكة وجدة يقدر بحوالى مائتى ألف جنيه إنجليزى أو مائتين وخمسين ألف جنيه ، وقيل إن الشريف غالب إما أن يكون قد أخفاها فى قلعته، أو أنه سلمها إلى أصدقائه فى الهند فى الوقت الذى كان محمد على باشا يستعد للهجوم عليه، والمرجح أن الشريف غالب لجأ إلى الطريقتين ؛ أى إخفاء الثروة المالية، وبذلك يكون هو الآخر قد زاد المبالغ الكبيرة التى يجرى تخبئتها كل يوم فى بلاد الشرق، بواسطة أولئك الذين يتولون الحكم فى بلاد الشرق، أو عن طريق أشخاص معينين. هذه هى واحدة من الطرق السنية التى يلجأ إليها حكام الشريف عندما يخفون ثرواتهم، الأمر الذى لا يجعل أكثر الناس ثراءً يعانى كثيرا جراء هذه الخسارة.(*)

(*) شيوع مسألة إخفاء الثروات فى تركيا وأسباب هذه المسألة يمكن الوقوف عليها من الحادث التالى الذى وقع فى العام ٨١٣ الميلادى فى القاهرة. بعد أن طلب محمد على باشا مبلغا يقدر بحوالى ١٥٠٠٠ كيس (صرة) من الأقباط المستخدَمين فى المالية المصرية، قسموا هذا المبلغ فيما بينهم، ورفض المعلم فلتؤس ، ذلك الرجل العجوز، الذى كان كبيرا للممولين دفع مبلغ يساوى ألف صرة ومائتى صرة، أى ما يقرب من ١٨٠٠٠ جنيه إنجليزى ، رفض المعلم فلتؤس دفع هذا المبلغ مدعيا الفقر، وأرسل الباشا فى طلبه، وهدده وعندما وقف على عناده، أمر بضربه ، وبعد أن تلقى المعلم فلتؤس خمسمائة ضربة بالعصا وبعد أن أشرف على الوفاة، أقسم بأنه لا يستطيع دفع سوى مائتى كيس. ظن محمد على أن الرجل كان يقول الحق، ولكن إبراهيم باشا، ولد محمد على، الذى تصادف وجوده فى ذلك الوقت، قال إنه على يقين من أن المعلم فلتؤس لديه مال أكثر من ذلك. وتلقى فلتؤس ثلاثمائة ضربة إضافية، اعترف بعدها أن لديه المبلغ المطلوب ووعد بدفع المبلغ المطلوب، وسمح له بالعودة إلى منزله بعد ذلك، وبعد مضى أسبوعين، وبعد أن تعافى من آثار الضرب وأصبح يقوى على المشى ، جرى إرسال المبعوثين إليه من قبل الباشا=

مناخ كل من مكة وجدة وأمراضهما

مناخ مكة شديد الحرارة والرطوبة وغير صحى؛ الصخور التى تطوق وديان مكة تحجب عنها الريح وتعترض مرورها، وبخاصة الرياح التى تهب من الشمال، كما تعكس هذه الصخور أشعة الشمس الأمر الذى يضاعف من درجة الحرارة. تصل الحرارة إلى أقصى مدى لها فى أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر. أثناء مقامى فى مكة سادت الجو ريح خانقة استمرت خمسة أيام من شهر سبتمبر والأمطار فى مكة متقطعة، كما هو الحال فى البلدان الاستوائية الأخرى، إذ لا تسقط الأمطار هنا إلا على فترات تتراوح بين خمسة أيام وستة أيام، لكنها تسقط بعد ذلك بشكل غزير وعنيف، وزخات المطر تسقط بين الحين والآخر، حتى فى فصل الصيف ، والمكى يقول : إن السحب التى تأتى من على ساحل البحر هى التى تغمر الأرض بمائها، أما السحب التى تأتى من الشرق، أو من الجبال العالية، فهى التى تنتج عنها زخات المطر الخفيفة، أو إن شئت فقل : الوابل الخفيف. لقد بلغنى أن المطر الغزير قد يستمر طوال أربع سنوات متتالية وهذا أمر جد نادر، ولربما كان ذلك هو السبب الرئيسى وراء فقر البدو الذين يعيشون فى المناطق المجاورة لمكة، إذ غالبا ما يسفر الجفاف الشديد عن نفوق القسم الأكبر من ماشيتهم بسبب نقص المرعى.

هواء مكة جاف جدا بشكل عام. ويبدأ الندى فى التساقط اعتبارا من شهر فبراير، بعد سقوط نوبات غزيرة من المطر . جدة على العكس من هذا تماما، حيث

= وجرى استدعاء بعض العمال، ونزل فلتؤس مع الجميع إلى مرحاض منزله، ورفع العمال عند أسفل المرحاض، حجرا كان يغطى ممرا طويلا فى قبو على شكل قبة، فيه صندوقين من الحديد، عند فتح الصندوقين، جرى العثور على ألف كيس من السكوينات، أخذ الباشا منها ألفا ومائتى كيس، وترك الباقى لفلتؤس الذى توفى بعد ذلك بثلاثة أشهر، لا بسبب الضربات التى تلقاها وإنما بسبب حزنه على النقود. لو تمكن ذلك الفلتؤس من نقل الكنز سرا، لفعل ذلك، وياليتهم لم يعينوا عليه حارسا عقب الوعد الذى قطعه على نفسه بدفع المبلغ، كان الباشا على يقين من أن المبلغ مخبأ فى مكان ما طبقا للعرف الذى كان ساريا فى الشرق فى ذلك الوقت.

يكون الجو شديد الرطوبة فيها، حتى مع ارتفاع درجة الحرارة، وهذا ناتج عن بخار ماء البحر والمستنقعات المتعددة الموجودة على ذلك الشاطئ المنخفض. تصل رطوبة الجو فى جدة حدا، جعلنى أحس، ونحن فى شهر سبتمبر، والجو حار والسماء صافية، أن ردائى الخارجى قد ابتل تماما، نظرا لوقوفى مدة ساعتين فى الهواء الطلق. الندى يكون غزيرا جدا أيضا أثناء الليل، فى شهرى سبتمبر وأكتوبر، كان الضباب الكثيف يظهر على الشاطئ وساحل البحر، فى المساء والصباح. أثناء شهور الصيف تهب الريح عادة فيما بين الشرق والجنوب، ونادرا ما تنحرف غربا، لكنها قد تنحرف شمالا فى بعض الأحيان. فى شهر سبتمبر، تهب الرياح الشمالية وتستمر طوال فصل الشتاء، وفى الحجاز كما هو الحال على ساحل البحر فى مصر تهب الرياح الشمالية الشرقية الأكثر رطوبة عن سائر الرياح الأخرى، أثناء هبوب الرياح الشمالية الشرقية، تبدو الأرصفة الداخلية فى المنازل وكأنها مغطاة بالندى.

الأمراض المنتشرة فى المدينتين تكاد تكون واحدة ، ويدخل ساحل الحجاز ضمن بلدان الشرق غير الصحية. تشيع فى المدينتين الحمى المتقطعة بكل أشكالها، كما تنتشر فيها أيضا الدوسنتاريا، التى غالبا ما تنتهى بتورمات فى البطن، وغالبا ما تفضى إلى الموت. قلة قليلة من البشر هم الذين يمضى عليهم عام دون الإصابة بهذه الأمراض، ولا يستوطن أجنبى كلا من مكة أو جدة، دون أن يصاب فى بداية إقامته بواحد من هذه الأمراض، وهذه الحقيقة جرى التأكد منها، فى الجيش التركى بقيادة محمد على باشا. حمى الالتهابات بكل أنواعها تعد أشياء نادرة الحدوث فى جدة عنها فى مكة، لكن جدة يشيع فيها نوع من حمى العفن التى قد تبدو معدية، على حد قول السكان، وقيل إن خمسين شخصا ماتوا متأثرين بهذه الحمى فى يوم واحد، وفى الأعوام ٧٤٩، ٧٩٣، ٨٢٩، نقل أشخاص آخرون العدوى إلى المدينة ، وفى العام التالى لهذه العدوى توفى ألف شخص بفعل هذه الحمى. ومع ذلك، لا تجد هؤلاء المؤلفين يأتون على ذكر الطاعون، ولا يذكر الطاعنون فى السن أن الطاعون ظهر ذات مرة فى الحجاز، ومن هنا سرى اعتقاد بين الناس مفاده، أن المولى سبحانه وتعالى يحمى هذه

المنطقة من غضبه، لكن فى ربيع العام ١٨١٥ الميلادى، انتشر الطاعون انتشارا واسعا وعنيفا على النحو الذى سوف أتناوله فى موضع آخر، الأمر الذى جعل مكة وجدة تخسران سدس سكانهما.

الرمد شىء نادر الحدوث فى الحجاز. وأنا لم أر سوى حالة واحدة لشخص أبرص بين البدو، فى بلدة الطائف. مرض الفيل والدودة الغينية أمور شائعة هنا، وبخاصة مرض الفيل الذى شاهدت حالات كثيرة منه هنا فى جدة ومكة. يقال أيضا إن حصوة المثانة من الأمور الشائعة فى مكة، وربما كان ذلك ناتجا عن نوعية المياه، التى يعزو الكثيرون أمراضا كثيرة إلى رداءتها. بلغنى أن الجراحين الوحيدين الذين يعرفون كيف يجرون عملية استخراج الحصوة من المثانة هم بدو قبيلة بنى سعد، الذين يعيشون على بعد ثلاثين ميلا من بلدة الطائف. فى زمن السلم يأتى بعض جراحى بنى سعد إلى مكة لإجراء هذه العملية التى يقولون إن أسرار عملها مقصورة على بعض عائلات قبيلة بنى سعد، ويقال إنهم يستعملون موسى عادية وتنجح العملية بشكل عام.

تقرحات القدمين، مرض شائع تماما فى كل من مكة وجدة، وبخاصة تورمات عظمة الساق الأكبر، ولكن هذا المرض يزيد بشكل أكبر فى جدة نظرا لأن رطوبة الجو تجعل علاج هذا المرض أمرا صعبا، واقع الأمر أن أصغر خدش فى هذا المناخ الرطب، أو أية لسعة من لسعات الحشرات يمكن إذا ما أهملت أن تتحول إلى قرحة، وسرعان ما تتحول بعد ذلك إلى جرح مفتوح ، ومن الشائع جدا هنا أن نرى تقرحات على أرجل الناس وهم سائرين فى الشوارع، هذه التقرحات إذا ما أهملت قد تؤدى إلى انكشاف عظمة الساق. ولما كان علاج هذه التقرحات يحتاج إلى شىء من الصبر، والراحة قبل كل شىء فإن الطبقات الدنيا يندر أن تتنبه إلى ذلك منذ البداية، وعندما يصبح علاج هذه التقرحات أمرا لا مفر منه، يعجز الناس عن العثور على الجراح الجيد، ويعقب ذلك إصابة المريض بالحمى ويموت كثير من المرضى بسبب هذا الإهمال. مبلغ علمى أن ربع سكان جدة يعانون من قرح فى أرجلهم، ويتزايد خطر هذا المرض مع استعمال الماء المالح فى الوضوء.

أثناء مقامي في مكة لم أنعم أبدا بالصحة الجيدة، فقد داهمتني الحمى مرتين، وبعد رحيل قافلة الحج السورية أصابتني نوبة إسهال حاد، نجوت منها عندما شرعت في السفر إلى المدينة المنورة. في تلك الأيام وعندما كنت خاليا من المرض، كنت أستشعر الكسل والتراخي، والاكتئاب، وفقدان الشهية. طوال أيام الحج الخمسة، كنت بصحة جيدة، على الرغم من تخوفي من النتائج المترتبة على خلع ملابس الإحرام. تضاءلت قوتي، وتطلبت مني جهداً كبيراً، كلما كنت أود الخروج من غرفتي.

عزوت مرضي إلى عدم صلاحية المياه، وقد تعلمت من تجاربي السابقة أن جسمي شديد الحساسية لنقص الماء الخفيف أو غيابه، مادة الحياة الأولى في بلدان الشرق. الماء المالح في الصحراء قد يحظى برضا وتحية الرجّالة. وعلى الرغم من ارتفاع درجة حرارتهم بسبب الرحلة، وعلى الرغم من عملهم تحت ضغوط العمل ومعوقاته الناجمة عن نوعية الطعام الذي يتناولونه على الطريق، فإن الماء المالح يعد مليناً لطيفا، وبالتالي فهو يعمل عمل الجرعات الطبية، لكن الوضع على العكس من ذلك إذا ما استعمل هذا الماء المالح أثناء الإقامة المستقرة لفترة طويلة، مما يجعل المعدة تتعود على هذا النوع من الماء. لو كنت في صحة أفضل، وروح معنوية أفضل، فلربما قمت بزيارة بعض الوديان القريبة من الجنوب، أو أمضيت أشهراً معدودة بين البدو الحجازيين، لكن النتائج التي تترتب على اعتلال الصحة، تشكل نوعا من القلق والإزعاج للرحال ويروح يرافقه، هو والمخاوف التي تستحوذ على ذهنه، والأخطار التي قد لا يدركها الرحال في ظل مثل هذه الظروف.

أسعار المؤن والتموينات في مكة كانت على النحو التالي في شهر ديسمبر

من العام ١٨١٤ :	قرش	بارة
رطل لحم بقري	٢	١٠
رطل لحم الضأن	٢	٠
رطل لحم جملي	١	٠

رطل من الزبد	٥	٠
رطل من الجبن الطازج غير المملح	٣	٠
دجاجة	٦	٠
بيضة واحدة	٠	٨
رطل من الحليب	٢	٠
رطل من الخضراوات : الكراث، السبانخ، اللفت الفجل ، الكوسة، الباذنجان، البصل الأخضر ... إلخ	٠	٣٠
رغيف صغير مستدير من الخبز	٠	٢٠
رطل من البسكويت الجاف	٠	٣٢
رطل من زبيب الطائف	٠	٢٠
رطل من التمر	١	٢٥
رطل من السكر (هندى)	٠	١٠
رمانة	٢	١٥
برتقالة	٠	١٥
ليمونة فى حجم اللوزة (من نوعية الليمون المصرى)		١٠
رطل من التبغ السورى الجيد		
رطل من التبغ العادى	٦	٠٠
رطل من التمباك ، أو تبغ للشيشة الفارسية	١	٣٠
كيلة قمح	٣	٠
١ دو من الدقيق		
١ دو من الأرز الهندى	٣	٠
١ دو من العدس المصرى	٣	٢٠
١ دو من الجراد المجفف	٣	٠
قربة ماء	٣	٣٠
حطب لطبخ طبقين	٢	٠٠

عامل لمدة يوم	٣	٠
عامل للذهاب إلى وسط البلد مسافة نصف ميل	١	٠
أجور عامة الخدم(*) ، إضافة إلى الملبس والطعام لمدة شهر	٣٠	٠
أجور الحرفيين ، مثل الحدادين ، والنجارين ، باليوم ، إضافة إلى الطعام	٥	٠

ملاحظة مهمة : كان الدولار الإسبانى يساوى فى ذلك الوقت ما يتردد بين ثمانية قروش واثنى عشر قرشا، طوال إقامتى فى مكة، كما كان صرف الدولار يتغير من يوم لآخر. كان سعر صرف القرش يساوى أربعين بارة أو ديوانى حسبما يسمى أهل الحجاز البارة. الرطل المكى فيه مائة وأربعة وأربعون درهما. والإردب المصرى يساوى حوالى خمسة عشر بوشل إنجليزى وهو يقسم إلى خمسين كيلة، والكيلة هنا مكيال من المكاييل. فى المدينة المنورة يقسم الإردب المصرى إلى ست وتسعين كيلة. ورطل جدة يساوى ضعف رطل مكة.

(*) المكيون ليس لديهم سوى عبيد، لكن كثيرًا من المصريين على استعداد للعمل فى خدمة الحجاج. أشهر الخدم من الأسر المكية هم الأبناء صغار السن أو بعض الأقارب.

المؤلف فى سطور :

جوهان لورفنج بوركهارت Johann Burckhardt

هو سويسرى من مدينة بازل توفى ودفن فى القاهرة فى أواخر العام ١٨١٥ الميلادى .

- تلقى الرجل تعليمه فى لندن وأوفدته الرابطة البريطانية إلى الشرق ، ومن خلال إقامته مدة تزيد على عامين فى حلب ، ومن خلال التجوال فى كل من سورية والنوبة ، أمكن لذلك الرجل أن ينتحل بصورة متدرجة شخصية الرجل الشرقى وطابعه، واشتهر باكتشاف بيترا الى كانت عاصمة للأقباط ومركزاً من مراكز تجارة القوافل .
- كان بوركهارت يتكلم العربية بطلاقة وكانت لغته سليمة، وكان ضليعًا فى الأعراف الإسلامية .
- لم ينكر إنه أوروبى ولكنه كان يدعى ادعاءاً منطقياً بأنه مرتد عن دينه ودخل فى الإسلام منذ بضع سنين .
- انتقل بوركهارت تحت اسم إبراهيم بن عبد الله من جدة إلى الطائف ماراً بذلك على ركن من أركان مكة المكرمة كما مر أيضًا فوق جبل قدره .
- تحسنت علاقته بمحمد على باشا وعاد فى ثوب التقوى والدين إلى مكة ليكون فى انتظار مجئ قوافل الحج .
- أدى فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر وضاعت منه فرصة العودة ، وغادر مكة مع بعثة الحج السورية نظراً لهروب الجمَّالة الذين كانوا يرافقونه .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب وروايات نشرتها دور نشر عربية .

١- التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣- الإستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، دار المريخ.

٤ - الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١- الموظف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال . القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- هارون الرشيد ، تأليف : فيلبى .

٢- الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١- حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣ - حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - سيرتى الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- سكين واحد لكل رجل .

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

المراجع فى سطور :

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ تاريخ العرب الحديث بقسم التاريخ والحضارة – جامعة الأزهر ١٩٩٤ – حتى الآن .

أستاذ بمعهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٤ – ٢٠٠٥

رئيس دار الوثائق القومية ١٩٩٩ حتى نهاية ٢٠٠٤

رئيس مكتب النادى العربى للمعلومات – مكتب القاهرة .

عضو مجلس أكاديمية الفنون .

رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية يناير ٢٠٠٥

من أهم مؤلفاته :

١ – "المتغيرات الاجتماعية فى المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية" .

٢ – «نهاية مملكة هرمز ١٦٢٢" .

٣ – "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى سالم بن حمود السيابى" .

٤ – "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى حميد بن رزيق" .

٥ – "تجارة الخليج العربى فى ظل السطرة البرتغالية" .

٦ – "رؤية نقدية فى مصادر التاريخ العمانى" .

٧ – "دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية" .

٨ – "الدكتور محمد حسين هيكل بين الاعتدال والتطرف" .

٩ - "العرب فى الحرب العالمية الأولى" .

١٠ - "العلاقات المصرية العمانية فى عهد السيد سعيد بن سلطان" .

١١ - "العمد والمشايخ فى الريف المصرى خلال ثورة ١٩١٩" .

١٢ - "الحقوق التاريخية لدولة الإمارات فى الجزر الثلاث (طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى)" .

١٣ - "العلاقات العربية العربية فى ظل الحرب الباردة" .

١٤ - "دور الثقافة العربية فى دعم العلاقات العربية العربية" .

١٥ - "رواق المغاربة فى الجامع الأزهر خلال القرن التاسع عشر".

١٦ - "قراءة فى أوراق الشيخ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر)" .

١٧ - "برامج الأحزاب المصرية ١٩٢٢/١٩٥٣" (رؤية ومقارنة) .

١٨ - "التواطؤ الثلاثى فى حرب السويس ١٩٥٦" .

١٩ - "الحركة الوطنية فى مصر ١٩٠٤-١٩١٤" ، القاهرة . ١٩٨٤ .

٢٠ - حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ العلاقات المصرية البريطانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ١٩٨٥ .

٢١ - "المدخل إلى تاريخ أوروبا الحديث" .

٢٢ - "تاريخ العرب الحديث" ، ١٩٨٩ .

٢٣ - "موجز تاريخ عمان" .

٢٤ - "الفكر السياسى عند عباس العقاد" .

التصحيـح اللغوى : أحـمـد نـزيه

الإشـراف الفــنى: حسـن كامل

أحد الكتب القيمة التى ألفها واحد من أدق الرحالة، وأكثرهم علماً، فضلاً عن أنه أيضاً من الرحالة المحدثين الذين يشيعون الأنس والود فيما يكتبون.

الكتاب عبارة عن تاريخ للحجاز فى العام 1810 الميلادى، أو إن شئت فقل: إنه تاريخ للأرض المقدسة والمسلمين، وهذه المنطقة لم تكن معروفة فى أوروبا فى زمن بوركهارت، كما يشمل الكتاب أيضاً وصفاً لمدينة مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

والكتاب يثير فضول قارئه إلى أبعد حد ممكن وبخاصة إذا ما عرفنا أن المؤلف أقام فى تلك المدن مدعياً أنه مسلم، بين أناس كان يعلم عنهم عدم وجود أحد من الرحالة يستطيع أن يكتب أى شىء عنهم.

وصف بوركهارت لكل من جدة ومكة إنما هو وصف موسوعى، وهو الثمرة الطيبة لعين متأنية وفاحصة لم تغمض مطلقاً عن الاهتمام بكل ما لا يتعلق بالبشر.

